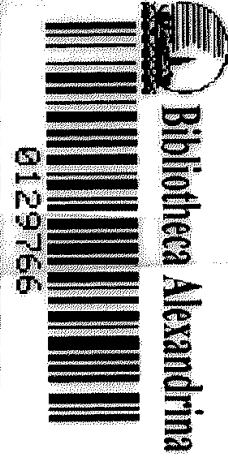
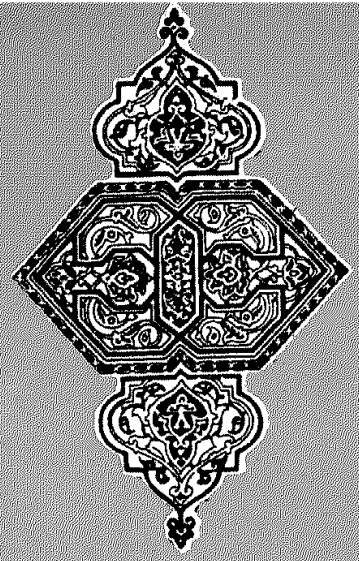


محمد رسول الله
سِيرتهُ وَأَنْشُرُهُ فِي الْحَضَارَةِ



جدلاً لقطر

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
سِيرَتُهُ وَأَثَرُهُ فِي الْحَضَارَةِ

رقم الإيداع بدار الكتب
٣٥٧٣ لسنة ١٩٧١

مَحَلُّ سِرِّ النَّبِيِّ
سِيَرَتُهُ وَأَثَرُهُ فِي الْحَضَارَةِ

تأليف
جمال نظير
General

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

مقدمة

عكفت على دراسة حضارة العرب والإسلام أكثر من عشر سنين ، كتبت في خلالها ثلاثة كتب في أثر الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الأوروبية . والحق أنى كلما ازددت معرفة بتاريخ حضارة العرب والإسلام وبتاريخ العلم ، ازداد يقيني بالأثر الجوهري الذى أحدثته هذه الحضارة في إبان ازدهارها في القرون الوسطى في حضارة أوروبا ، ومن ثمة في الحضارة الحديثة .

ولما كان محمد عليه الصلاة والسلام هو مؤسس هذه الحضارة ، أصبح لزاماً علىّ أن أربط سيرته بها ، وأصبح ضرورياً ، بل لقد أصبح من واجبي ، أن أعود إلى النبع الذى انبثقت منه هذه الحضارة .

ثم إننا لا نستطيع في واقع الأمر أن نعى حقيقة الدور الذى أدته حضارة الإسلام للتقدم الإنسانى عامة من غير أن نبحث في أحوال العالم الذى ورث الحضارة القديمة ، والذى استولى عليه المسلمون في ذلك الوقت وأثروا فيه ، وهو عالم الرومان والمسيحية في المقام الأول . يستتبع ذلك أن نعقد مقارنة بين المفاهيم التى أرستها المسيحية في هذا العالم – والتي دعت إلى ترك الدنيا وانتظار ملكوت السماء ، أو إلى احتقار العلم والعلماء ، أو إلى غير ذلك من المفاهيم التى أدت في نهاية الأمر إلى انهيار الحضارة القديمة والقضاء على كل مظاهر العلم – وبين المفاهيم التى أرستها حضارة الإسلام في هذا العالم ذاته بعد أن استولى عليه المسلمون ، وكيف قلبته رأساً على عقب ، وكيف نتج عن المفاهيم التى شاعت في دولة الإسلام ، مثل القول بأن الكتابة أشرف المهن بعد الخلافة ، والتي تبناها خلفاء الإسلام وحكامه وأمرأؤه ، نهضة حضارية علمية عظيمة الشأن ، كانت سبباً مباشراً في إنقاذ العلوم القديمة من الضياع ،

فضلا عن ابتكار علماء المسلمين لعلوم جديدة تكمن في أساس الحضارة الحديثة بشهادة جيلته من العلماء الأوربيين المحدثين أنفسهم ،

هذه النهضة الكبيرة التي أحدثتها دولة الإسلام في التاريخ الديني ، والاجتماعي ، والعلمي ، والحضاري عموماً في القرون الوسطى ، إنما يرجع الفضل فيها إلى رجل عربي أمي كانت أمه تأكل القديد ، عاش في صحراء العرب ، وخرج يوماً ما من مسقط رأسه طريداً يقاتله قومه أشد القتال ، فكافح كفاحاً بطولياً ، ثم انتصر عليهم ، وأسس في النهاية ديناً يدين به الآن مئات الملايين من البشر في جميع أنحاء العالم ، ودولة انبثقت عنها أكبر إمبراطورية عرفتها القرون الوسطى ، بل ربما لا نكون مغالين إذا قلنا إنها كانت أهم إمبراطورية في تاريخ الحضارة الإنسانية العلمية على الأخص .

من هنا بدأت أكتب سيرة هذا النبي الأمي ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، وانحصرت الخطة التي انتهجتا في كتابة هذا التاريخ فيما يلي :

سحافظت بقدر الإمكان على سياق النصوص القديمة التي وصلتنا عن أئمة كتاب السيرة ورواة الأحاديث . ذلك أن هذه النصوص لا تزال في الحقيقة من حيث سلاستها وسهولتها وكأنها بنت اليوم ، فضلاً عن جمالها اللغوي وبيانها . ولم أدخل عليها إلا بعض تعديلات قليلة إذا اقتضى الأمر تغيير كلمة مهجورة بكلمة حديثة . ولم أحاول أن أدخل على السيرة من الخطايات والحماسيات والنظريات التي تحتل القيل والقال شيئاً ، بل إنني تعمدت أن أترك السيرة كما وصلتنا عن القدماء بكل جلالها وروعها تعبّر تعبيراً صادقاً عن مختلف الأحوال والملابس والعقائد والأفكار التي كانت سائدة في ذلك العصر ، وبما تنطوي عليه من عبقرية الشعب وعبقرية القائد في إطارها البدوي الساذج . ثم وضعت هذا كله في إطار من أفكارى وتعليقاتي . ولم آخذ عن أحد من المحدثين شيئاً يستوجب الإشارة إليه ،

وإن كنت قد استنرت بكتبهم ولا شك . ولذلك لم أشر في هوامش الصفحات إلى المراجع ، وإنما أشرت إليها بجملة في نهاية الكتاب .

ثم إنى مررتُ مع ميزان الفكر الحديث ، وبيئت بجلاء كيف أن الشعب الذى ظهر فيه محمد عليه السلام كان شعباً يتمتع بكثير من المقومات الأخلاقية الدافعة نحو حضارة عظمى ، وإن عابته بعض المثالب التى نهاه عنها الإسلام ، فأصبح به خير أمة أخرجت للناس . ولا غرو فإن محمداً ذاته كان دائم الفخر بعروبته وبيئته الهاشمى .

ولم أحفل بالرد على مهاترات أعداء الإسلام الذين أرادوا الانتقاص من النبى بالشرشرة الفارغة حول بعض تصرفاته ، أو بالطعن فى بعض مفاهيم الإسلام ، واكتفيت بإظهار فكرة كبرى ، هى أن الإسلام ونبى الإسلام قد أحدثا ثورة هائلة فى القرون الوسطى فى تاريخ الفكر الإنسانى عموماً ، والفكر العلمى بخاصة ، وأنقذا العالم من عصور الظلام ، ووضعاه على عتبة العصر الحديث بكل ما تحمل هذه العبارة من معان . ماذا جنت البشرية من ظهور محمد والإسلام ؟ هل تقدم العالم تحت نظام الإسلام أم تأخر ؟ هل كان الإسلام نظاماً تقدماً بالنسبة للأنظمة الموجودة فى عصره أم لا ؟

وهنا أعتقد أنه ينبغى للكثيرين من الذين يجنحون فى مناقشتهم إلى استعمال بعض العبارات الحديثة مثل « الدين أفيون الشعوب » أن يدركوا تمام الإدراك أن الدين الإسلامى لحسن الحظ لم يكن ولا ينبغى أن يكون فى أى وقت من الأوقات ، ولا تحت أى ظرف من الظروف أفيوناً للشعوب . لأن الدين الذى يحض على الاستعلاء فى هذه الدنيا ، ويمجد الحرية ، ويشيد بالعلم والعلماء - الدين الذى تأمر روحه العام خليفة المسلمين بأن يقف فى الناس فيقول لهم كما قال أبو بكر : « إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى . . . إن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » أو كما قال عمر : « من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه » وهذه هى روح الإسلام الحقيقية ، لا يمكن أن يكون أفيوناً

للشعوب . وتاريخ الإسلام في عصر ازدهاره وقوته ، أى في عصر الرجولة الإسلامية ، مليء بمواقف لعدد كبير من الخلفاء ، والحكام ، والقضاة ، تعبر أحسن تعبير عن هذا المتجه ، وعن هذه الروح . ويكفى الإسلام أو أى نظام اجتماعى آخر فخراً أن يكون في عصره نظاماً تقديمياً لا انتكاسياً . ومن هنا ينبغى لكل المفكرين وللتقدميين على الأخص أن ينظروا للإسلام باعتباره نظاماً تقديمياً من النظم التقدمية التى أحدثت فعلاً وحقيقة تقدماً رائعاً في تاريخ الإنسان الحضارى ، في عصر كانت فيه الحضارة في أمس الحاجة إلى دفعة نورانية تزيح عنها الظلمات التى خيمت عليها .

ثم إنى شرحت في الفصل الأخير جميع هذه الأفكار ، وتعرضت للحقائق التاريخية التى حكمت عالم الحضارة في القرون الوسطى ، وبينت كيف أن حضارة الإسلام كانت في حقيقة الأمر ، وبما ليس فيه مجال للقبيل والقال ، واعتماداً على أوثق المصادر العلمية والتاريخية الحديثة ، الأساس الجوهري الذى تركز عليه الحضارة الحديثة . ونحن إذ نقرر هذا التقرير لا نلقى القول على عواهنه ، وإنما يكفى أن نذكر هنا الآن أقوال عدد من كبار علماء الغرب ، تفصح أيما إفصاح عن هذه الحقيقة التى شغلتنى أكثر من عشر سنين ، حاولت فيها بكل طاقى وبما وصل إليه علمى أن أثبت ، وأثبتها ، وأعممها في أفكار بنى جلدتى ، وأهدى بها الجليل البلعيد من أبناء العرب الكرام إلى حقيقة تاريخية هامة جداً ينبغى لهم أن يعوها تماماً ، وأن يعملوا على نشرها .

يقول الأستاذ همبولد : ينبغى لنا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية في عصرنا هذا .

ويقول الأستاذ ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الأدبية عدة قرون .

ويقول الأستاذ كارا دى فو : إن مكتشفات العرب فى الرياضيات تكمن فى أساس الحضارة الحديثة .

ويقول الأستاذ نيكلسون : إن مؤلفات العرب التى اتصفت بالدقة وسعة الأفق قد استمد منها العلم الحديث . - بكل ما تحمل هذه العبارة من معان - مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض .

أبادر بالاستشهاد بهؤلاء الأساتذة ، وهم من كبار الباحثين الأوربيين ، حتى أكون أقرب إلى عقول أبناء وطنى العربى الذين بلبت أفكارهم دعايات المستعمرين والمبشرين والشعوبيين ، وحتى لا يظن البعض أنى أبجرى وراء أوهام ، أو أنى أنساق فى دوامة من العاطفة الوطنية المتأججة . كلا ثم كلا ! فهذه حقيقة تاريخية كبرى ، إن لم يقتنع بها اليوم إلا فئة ممتازة من المثقفين الذين ألموا بتفاصيل هذا التاريخ ، واستطاعوا أن يخرجوا من الكماشة التى ضربتها الدعاية الغربية ضد العرب والإسلام ، فلانى على يقين من أن الأيام كفيلة بتحقيق ما أرمى إليه .

جهول مظهر

القاهرة فى ٢ من أغسطس سنة ١٩٧٠

الفصل الأول

الجاهلية

أو

فترة ما قبل الإسلام

يراد بالجاهلية زمن الفترة التي مرت قبل الإسلام وانتبشير به . وفي الحديث : إنك امرؤ فيك جاهلية ، أى أنك لا زلت متأثراً بالحالة التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع دينه ، فضلاً عن تمسكك ببقايا بعض العادات التي كانت متفشية بين العرب في الجاهلية ، والتي نقضها الإسلام . ولقد ورد ذكر الجاهلية في القرآن أربع مرات في الآيات : « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية^(١) » و « أفحسكم الجاهلية يبيغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون^(٢) » و « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية^(٣) » و « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى^(٤) » . وأما المقصود بالجاهلية الأولى فأمر اختلف فيه المفسرون كثيراً ، وأعتد أن المقصود بالجاهلية الأولى إنما هو الزمن الموعول في الجهل بالأنبياء والرسل ، أى الزمن السابق على الأنبياء والرسل المعروفين . ونحن على أية حال لا نستطيع تحديد فترة الجاهلية على وجه الدقة ، إلا بالقول بأنها الفترة التي مرت على العرب وهم يجهلون الإسلام ، أى ما قبل الإسلام على إطلاق القول .

يعبر لفظ الجاهلية في عقول الناس عن حالة من الفوضى والاضطراب

(١) آل عمران ١٥٤ . (٢) المائدة ٥٠ .

(٣) الفتح ٢٦ . (٤) الأحزاب ٣٣

والهمجية والانحطاط عاشتها بلاد العرب قبل الإسلام . ولقد درج المؤرخون المسلمون الورعون الأتقياء ، الذين يريدون إظهار الإسلام في ثوب من الإعجاز ، أو الشعوبيون الدين رموا إلى الانتقاص من شأن العرب ، أو المستعمرون المحدثون ، على تثبيت هذا المفهوم وترسيخه ، كل فئة تخدم أغراضها . ولكن الحقيقة التاريخية تدلنا قطعاً على غير ذلك ، مما يجعلنا نقرر مع عدد من الباحثين أن الجاهلية تعنى أول ما تعنى الجهل بالدين الإسلامى وشرائعه ، فضلاً عن بعض العادات السيئة التى نقضها الإسلام لا غير . ذلك أننا لا نستطيع أن ندعى أن الإسلام هدم المجتمع العربى الجاهلى هدماً تاماً وكاملاً وشاملاً من أساسه ، وأقام بين ليلة وضحاها مجتمعاً آخر ليكون « خير أمة أخرجت للناس » . هذا لا يمكن أن يحدث فى عالم الاجتماع . فلإن حضارة الأمم لا تولد فجأة وبلا مقدمات ، وإنما هى فى واقع الأمر نتيجة لتطور طويل جداً ، ولمفاهيم أخلاقية ترسب فى نفسية الجماعة جيلاً من بعد جيل ، وتوهمها للقيام بدور حضارى معين .

والحق أننا لا نقع فى واقع الأمر لا فى القرآن ولا فى الحديث على شيء نستشم منه عيباً فى شأن العرب باعتبارهم أمة ، بل على الضد نقع فى أحاديث كثيرة على ما يفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفخر دائماً بالعرب جملة وبالبيت العربى الذى ولد فيه بخاصة . فقد جاء فى صحيح مسلم أنه قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وجاء فى البخارى أنه قال : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً ، حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه » . وقال الإمام أحمد إن النبى صعد المنبر فقال : « إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلنى فى خير أمة ، وخلق القبائل فجعلنى فى

خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً .

غير أنه من أعجب الأشياء حقاً أن الكتاب المسلمين القدماء ، وكثيراً جلدوا من المحدثين تناولوا بعض العادات السيئة التى كان يمارسها عرب الجاهلية ، وأخلدوا ينسجون من حولها هيكلًا ضخمًا من السباب والشتائم فى هؤلاء العرب ، ظناً منهم أنه طالما حرّم دينهم مثل هذه العادات ، فإن الهجوم عليها وعلى الشعب الذى مارسها ضرورة يحتمها الورع الدينى . ولكن ما شأن الصفات الحميدة ؟

لقد تغاضى هؤلاء الكتاب تماماً عن الصفات الحميدة والحلقيات العليا التى اتصف بها الشعب الذى ظهر فيه محمد فكان بالإسلام « خير أمة أخرجت للناس » ، وتمسكوا بالقشور دون اللب والجوهر مستخدمين بعض المفاهيم الدينية التى أساءوا فهمها . لقد نسى أمثال هؤلاء الكتاب أو تناسوا ما اتصف به العرب الذين ظهر فيهم محمد من صلابة أخلاقية ومن مكارم نفسية هى فى واقع الأمر الأساس الذى يقوم عليه تقدم الشعوب ، وتأسس به الإمبراطوريات والدول القوية والمجتمعات الناهضة الفتية .

ومن هنا أتت تلك البلبلة العجيبة التى أحدثها هؤلاء الكتاب فى مفهوم الناس عبر القرون لحلقيات الشعب العربى قبل الإسلام وإبان ظهور الإسلام . ولقد امتنعت هذه المفاهيم الخاطئة بصورة أو بأخرى حتى أيامنا هذه . ولكنى أعتقد أن ميزان الفكر قد تحول فى السنين الأخيرة تحولا واضحا نحو رفض الأقوال القديمة والنظريات الشعبوية والاستعمارية التى تسيء إلى عرب الجاهلية ، وبدأت الصورة الحقيقية لهؤلاء العرب الكرام الذين كان محمد من خير بيوتهم ، تتحيز بشكل واضح فى كتابات كثير من الكتاب المحدثين . أريد أن أقول بمنتهى الوضوح إن هؤلاء العرب الذين ظهر فيهم الرسول

إنما كانوا يملكون كل الأسس الأخلاقية الجوهرية اللازمة لبناء دولة قوية ،
ولتأسيس مجتمع يستطيع أن يحافظ على سلامة هذه الدولة . ولا مِرية أن
كل من ينظر نظرة ثاقبة في أحوال هؤلاء العرب ، لا يسعه إلا التسليم بهذا
القول : فإن الدولة القويمة ، كدواة الإسلام ، لا تقوم إلا على أكتاف أفراد
أقوياء أخلاقياً وروحياً ، على أكتاف أفراد منتصرين بداءة . لا على
أكتاف أفراد منحلين متخاذلين منهزمين نفسياً . ولقد انتصرت الدولة التي
أسسها محمد بهمة رجالات مثل أبي بكر ، وعمر ، وعلي بن أبي طالب ، وسعد بن
أبي وقاص ، وخالد بن الوليد ، وغيرهم من أبناء الجاهلية أتراب محمد وأصحابه .
لقد كانت القيم الأخلاقية التي اتصف بها هذا الشعب الأساس الأول
الذي بُنيت عليه دولة الإسلام القوية . أما القيم الأخلاقية والنفسية التي
اتصف بها هذا الشعب وهيأته للقيام بالدور الذي قام به في التاريخ فكثيرة
جداً ، نذكر منها شيئاً على سبيل المثال لا على سبيل الحصر : قيمة العزة
وشرف النفس ، قيمة الصدق ، قيمة الشجاعة ، قيمة الكرم ، قيمة الدفاع
عن الحق ، قيمة التفاخر بصالح الأعمال ، قيمة التضحية في سبيل الأهل
والوطن والشرف ، قيمة حب الدين ، قيمة نصره المظلومين ، قيمة حب
البطولة ، قيمة حب العدل ، إلى آخر ما اتصف به هذا الشعب من قيم
أخلاقية يفيض بها الشعر الجاهلي ويعبر عنها أحسن تعبير .

لما لا مِرية فيه أن العصر الجاهلي عصر من عصور القوة الأخلاقية ،
ومصدق كلامنا هذا الانتصارات التي حقها هذا الشعب في مختلف مجالات
النشاط الإنساني عندما أتاحت له الفرصة الكاملة للعمل الحضاري البناء بعد
أن تناوله الإسلام بالتهذيب والصقل . والحق أن هؤلاء العرب بعد أن خلصهم
الإسلام من الصفات السيئة التي كانت تقف عقبة في سبيلهم ، قد حققوا مجداً
لم يطاولهم فيه أحد في القرون الوسطى . ولقد يخيل إلينا أنهم كانوا يطيرون
على أجنحة من الريح ، خفافاً لا يصدمهم صداد ولا يعوقهم عائق عن بناء

دولة قوية صامدة ، تستطيع بصلابة أخلاق أفرادها أن تواجه التحديات التي تقابلها .

لقد كان العرب الذين هياهم محمد عليه السلام للدور الذي قاموا به أعزة كراماً مقدامين لا يقبلون الضيم مهما كلفهم ذلك حتى ولو كلفهم حياتهم ؛ لم يكونوا أمة جريحة . ذلك أن الأمة الجريحة في كرامتها ، المغلوبة على أمرها ، لا تستطيع أن تنتصر ولا يمكنها بحال من الأحوال أن تكون دولة كالدولة الإسلامية في القرون الوسطى . إن الأمة الجريحة في كرامتها تكون دائماً وفي جميع الأحوال والملايسات أكثر استسلاماً ، وألن جانباً ، وأميل إلى الخضوع ، وأرضى بالذل ، يسوقها إلى ذلك انحلال أفرادها ورضاهم بهذا الذل واستكانتهم حفاظاً على حياتهم وأموالهم وما في أيديهم مهما صغر ومهما قلت قيمته . فهل تغير الإسلام أو تبدل ؟ كلا ثم كلا ! وإنما تغير الرجال الذين يقيمون في دولة الإسلام .

لقد ظلت الدولة الإسلامية قوية صامدة طالما كان رجالها قادرين على المضي قدماً في العمل بالأخلاق العربية التي باركها الإسلام وقواتها ، وطالما استمسكوا بها مهما كلفهم ذلك من تضحيات قد تصل بعض الأحيان إلى الموت . ثم انحدر المسلمون وضعف الإسلام عندما بدأت تراجع مثل هذه الخلقيات ، وعندما بدأ الناس يتخاذلون ويستكينون ويستسلمون للعدوان عليهم وعلى كرامتهم وعلى رجولتهم ، وعلى كل القيم التي اتصف بها آباؤهم ، ونسواهم ، والتي من شأنها أن تجعل منهم أناساً لهم قيمة في الحياة . انحل المسلمون وانحلت الدولة الإسلامية ، وأصبح المسلمون في الحضيض عندما تخلفت هذه المقومات ، ولم تعد جزءاً من مكنونات النفوس ، وعلى الأنحص مقوم العزة وشرف النفس ؛ فحرص الناس على ما في أيديهم وما ياتيه إليهم الطغاة مهما قلت قيمته ، وتكالبوا على الدنيا بغض النظر عما يستباح من حرمتهم وما يُخذش من كرامتهم .

عندئذ انحل المجتمع الإسلامي وخرق في هوة من الذل والاستخذاء والاستكانة من شأنها أن تكبت فيه كل معاني الخير والحرية والجمال . أما عرب الجاهلية الذين نعرف ، والذين أسسوا المجتمع الذي ظهر فيه محمد وأصحابه ، فقد اتصفوا بكل الصفات وملكوا كل المقومات الأخلاقية الدافعة نحو حضارة عظمى ، وإن انحصرت حياتهم في الحقيقة في إطار البادية وما توحى به البادية من مفاهيم تناقض مفاهيم الحضارة الثابتة الراسخة . وتدلنا الحقيقة التي يشير إليها تاريخ العرب الاجتماعي والسياسي والتجاري والثقافي دلالة واضحة على أن هؤلاء العرب كانوا منظمين تنظيمياً اجتماعياً عظيماً منذ أبعد الأزمان ، وإن تأثر هذا التنظيم في واقع الأمر بضرورات الحياة في بادية شاسعة مترامية الأطراف ، بمختلفة المناخ ، متباينة الأوضاع .

نرفض إذن القول بأن العرب الذين ظهر فيهم الإسلام كانوا قوماً من الهمج رفضاً باتاً ، ذلك أن القول بأن الشعب الذي ظهر فيه الإسلام والذي حمل رسالته التمدينية إلى العالم بكل أمانة وحكمة ، كان قبل ذلك شعباً همجياً ، وأنه ترقى في عشرين سنة ، وأخذ على عاتقه ترقية شعوب أكثر منه حضارة ، أمر ضد الطبع وضد المنطق وضد سياق التاريخ . وأما الحقيقة التي يحدثنا عنها التاريخ فتشير بكل وضوح إلى أن العرب الذين خرجوا من جزيرتهم واستولوا على العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس ، قد نهضوا فعلاً بهذه البلاد ، فازدهرت شعوبها ونشطت فيها ضروب من الفكر والفلسفة والأعمال العامة لم تعهد لها من قبل ، أو قل إنها كانت قد تسيّبت مثيلاتها منذ قرون وقرون .

إذن أريد أن أقول بمنتهى الوضوح أن العرب الذين ظهر فيهم محمد كانوا فعلاً قد ربّهوا قيماً أخلاقية واجتماعية أهلهم لأن يقودوا العالم في العصور الوسطى في مختلف فروع النشاط الإنساني ، وأن يصبحوا رعاة الأدب والعلم والفن : والحق إن الحضارة لا تزدهر إلا في جو من الرقي

الاجتماعى والأخلاقى . ومما لاشك فيه أن هؤلاء العرب كانوا أرقى أخلاقياً من جميع الشعوب التى فتحوا بلادها واحتكوا بها فى القرون الوسطى . لذلك أصبح ممكناً أن تنهض هذه الشعوب من جديد وأن تزدهر فيها ضروب الحياة الحضارية التى كانت قد انحسرت تحت وطأة العسف الرومانى والأفكار المسيحية التى سادت فى إبان عصور المسيحية الأولى ، مما سيأتى بيانه فيما بعد ، لقد ينخيل إلى البعض أن الإسلام هدم المجتمع الجاهلى هدماً تاماً . كلا ثم كلا ! الدين الإسلامى دين ودولة . أمّا من حيث هو دين فإن الدعوة الإسلامية قائمة فى جوهرها على أساس أن الدين الإسلامى ليس ديناً جديداً ، وإنما هو دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق وموسى وعيسى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (١) » . هو دين الحق الذى أفسده أهله وأدخلوا عليه من الضلالات والبدع ما ليس منه ، فأرسل الله رسوله ليبلغ الناس كافة دينه الحق ويعيد الدين الصحيح إلى صفائه الأول . ولقد ذكر القرآن الكريم العرب مراراً وتكراراً فى آيات كثيرة بأنهم إنما يؤمنون فى قرارة نفوسهم بكل الجوهريات الإلهية التى يحدثهم عنها .

أمّا من حيث هو دولة لها شرائع وأحكام فإنه كان فى واقع الأمر بمثابة تقنين . لقد أقر الإسلام كثيراً جداً من العادات والتقاليد والأحكام التى كان معمولاً بها فى الجاهلية وأيدها ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من شريعته ، ورفض عادات وتقاليد أخرى وأنكرها فنسبت وبادت .

مثال ذلك أن كثيرين من مفكرى المجتمع الجاهلى وقواده كانوا قد بدأوا فعلاً يرفضون كثيراً من العادات القبيحة ، ويؤيدون عادات أخرى ،

(١) البقرة ١٣٦ .

أو يضعون أحكاماً جاء الإسلام فأقرها . فأول من حرّم الخمر في الجاهلية الوليد بن المغيرة ، وقيل قيس بن عاصم ، وحرّمها أيضاً عبد المطلب جد محمد ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من قسم للذكر مثل حظ الأنثيين عامر ابن جشم الجهمي ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من حرم القمار في الجاهلية الأقرع بن جابس ، وقرر ذلك الإسلام . وكانوا يربحون في الزنا في الجاهلية وقرر الإسلام ذلك في المحصن . وأول من حكم أن الولد للفراش في الجاهلية أكم بن صيفي حكيم العرب ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من قطع يد السارق المغيرة ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من سنن الدية مائة من الإبل عبد المطلب جد محمد ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من أظهر التوحيد بمكة قبل محمد قُيس بن ساعدة . ثم إنهم حرّموا الجمع بين الأختين ، وكانوا يخرجون البيت الحرام بمكة ويعتصرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويرمون الجمار ويقفون مواقف الحج كلها . وكانوا يغسلون موتاهم ، ويغتسلون من الجنابة ، ويداومون على المضمضة والاستنشاق ، وفرق الرأس والسواك ، والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان . وكانت قريش تصوم يوم عاشوراء . وكانوا في الجاهلية أيضاً يعتقدون في الله وفي أنه سميع مجيب ، وأنه يحيي ويميت ، وأنه ينزل الغيث ، وأنه خالق السماوات والأرض ، وإن أشركوا به . أي أنهم كانوا موحدين ، ولكن كان توحيدهم مشوباً بالشرك :

· وعندما استطاع محمد أن يوجه العرب نحو هدف واحد ، وأن يفرض قانوناً موحداً وعادات وتقاليد ومبادئ يؤمن بها جميع العرب ، ويعملون بمقتضاها ، وهي في واقع الأمر لم تكن بعيدة عن مفاهيمهم ونفسياتهم وخلقياتهم وما جبلوا عليه ، تهباً العرب عندئذ وصلحوا لأن يقرؤوا العالم في ذلك العصر . والحقيقة أنهم كانوا - مهما قلبت أوجه الرأي والنظر - أرقى كثيراً جداً من جميع الشعوب التي فتحوا بلادها . بما في ذلك الفرس

والرومان والمصريون وغيرهم . لا أقول أرقى منهم من ناحية المظهر والملبس والمعاش ، وإنما أقول بكل تأكيد إنهم كانوا أرقى من جميع هذه الشعوب أخلاقياً . وهنا يكمن سر انتصاراتهم في القرون الوسطى ، وسر حضارتهم التي أنقذت العالم من عصور الظلام ، ووضعت الإنسان على عتبة العصر الحديث بكل ما تحمل هذه العبارة من معان . وسوف يستبين القارئ الفاضل كل ما أرمى إليه من سطور هذا الكتاب .

والحق أن الترقى في جزيرة العرب كان قديماً جداً . فإن نظمهم الاجتماعية في الزواج والطلاق وفي مختلف المعاملات كانت نظماً راقية لا تقل عن نظم الأمم المتحضرة المجاورة لهم ، إن لم تفقها في بعض الأحيان . ومما لامرأ فيه أنهم عرفوا قوانين وعادات وشرائع وعقائد وتنظيمات حضارية هامة جداً ، سواء الحضر منهم أو سكان الخيام . وتدلتنا الحقائق التي نستطيع استجماعها من مختلف أحوالهم قبل الإسلام وفي صدر الإسلام ، دلالة أكيدة على درجة كبيرة جداً من الرقى الأخلاقي ، والتنظيم الاجتماعي المتقن .

لا شك في أن وضع المرأة في أي مجتمع وحالتها العامة فيه في أي عصر من العصور ، معيار هام جداً نستطيع به أن نصدر حكماً صحيحاً على قوة هذا المجتمع الأخلاقية ، وعلى مقدار تماسكه وتوازنه واستعداده بكل طاقته للعمل المثمر المفيد ، ذلك أن المرأة عماد المجتمع ومربيته وهاديته ، وهي عموماً مفتاحه ، إن صلحت صلح بصلاحها ، وإن فسدت فسدت أيما فساد بفسادها ، كيف كانت إذن حال المرأة في هذا المجتمع ؟ هل كانت حقيقة تلك السلعة الرخيصة التي يلهو بها الرجال ؟ هل كانت هذا المخارق الكريه الممقوت الذي يثده الرجال تخلصاً من عاره ؟

كلا ثم كلا ! ذلك أن وأد البنات لم يكن شائعاً بين كل العرب ، وإنما كانت قلة منهم هي التي ترتكب هذه المادة الشنيعة ، سواء من عابدى الأوثان أو المنتصرين على السواء . ثم إن الوأد لم يكن مقصوداً على الفقراء ، بل إن بعض أثريائهم وسادتهم وأدوا بناتهم . والحقيقة أن العرب الذين وأدوا

بناتهم لم يكونوا بدعة في الدنيا القديمة . فإن كان بعض العرب قد وأدوا بناتهم ، فإن اليونان كانوا يقتاون الضعاف من الذكور والإناث على السواء . وإن كان بعض العرب قد أباحوا لنسأهم الاستبضاع فقد أباحه اليونان والرومان . وإن كان العرب قد عددوا الزوجات فقد فعل ذلك اليونان أيضاً .

غير أن المرأة العربية الجاهلية كانت على العموم أرقى منزلة وأرفع مكاناً في مجتمعا من المرأة اليونانية أو الرومانية مثلاً . لم يعتبر العرب المرأة وهاء للنسل فحسب كما فعل اليونان . ولم يعتبروها مخلوقاً أخط من الرجل ، أو أنها باب للجحيم ، أو أنها خطر ونحس ، أو أنها المضلل الأول والعائق الأساسي في طريق الخلاص ، أو أنها أداة للشيطان ، أو أنها مخلوق شرير دئى يباح ضربها والاعتداء عليها كما اعتبرتها المسيحية . بل إنها كانت نداً للرجل ، وأكبر دليل على ذلك ما جاء في أمثال العرب قولهم : إن النساء شقائق الأرقام ، والشقائق جمع شقيقة ، وهى كل ما يشق نصفين ، أى أن النساء كن مثل الرجال . وفضلاً عن ذلك امتازت المرأة العربية الجاهلية عن نساء العالم القديم بأنها كانت ترث نصيباً مما يترك والداها ، في حين أن المرأة اليهودية أو البابلية أو الآشورية أو اليونانية لم يكن لها حق في الميراث . ومما لا شك فيه أن المرأة العربية قد تبوأ مكاناً رفيعاً جداً في المجتمع العربي الجاهلى لم تبلغ مثله النساء المعاصرات لها أو غيرهن من نساء الأمم القديمة ، فيما عدا النساء المصريات فقط في مصر القديمة .

إذن فليس صحيحاً أن المرأة العربية كانت في حضيض الذل تعامل معاملة الإماء والعبيد وتسام الحسف . بل إنها شاركت الرجل مشاركة فعالة في جميع شئون الحياة ، واشتركت معه اشتراكاً بين القسمات في جميع صفاته الخلقية الممتازة وفروسيته . فكانت نداً للفارس العربي في المروءة والشجاعة والشهامة والعزة والنجدة ، وفي جميع القوى النفسية بأجلى معانيها .

فهى تموت ولا تذلل ، شجاعة لا تراجع ، تقول رأيها صراحة ولا تخشى

من شيء ، مستمسكة بعقيدتها ، صابرة على الأذى ، عزيزة النفس لا تخضع ولا تستخذي ؛ شماء أبية ؛ معتدة بنفسها ، حافظة لكرامتها ، حريصة كل الحرص على حسن الأحدوثة ، وعلى صيانة الأسرة وسمعتها وسمعة قبيلتها ، كريمة ، سمحة ، مضيافة .

لقد عاشت المرأة العربية الجاهلية عنواناً ساطعاً على صفات أخلاقية عظيمة . فقد كانت حرة مريدة صاحبة شخصية قوية استطاعت بها أن تفرض إرادتها في كثير من الأحيان ، فقد كان لها مثلاً حق ثابت لا ينازعها فيه منازع في الموافقة على الزوج المتقدم لها . كما كان لها أيضاً الحق في تطليقه إذا عاملها معاملة سوء ، أو أتكرت عليه فعلاً لا يتفق والمثاليات التي تتطلع إليها . وهي كثيراً ما اتخذت موقفاً صارماً يخالف مواقف الرجال . فكم من روايات عن هذه أو تلك تجابه أباهاً أو زوجها أو أخاها بما يكره ، ولكن بما تعتقد هي أنه الحق والصواب . وإن في قصة فاطمة بنت الخطاب مع أخيها عمر ، أحد صنديد العرب المهاجرين البطاشين لأكبر دليل على ذلك .

وكانت المرأة تستقبل الضيوف وتضيفهم وإن لم يكن زوجها حاضراً . وكانت حرة في أن تظهر سافرة متى شامت ، ذلك أن الأصل في التنقب لإرادة المرأة ذاتها في أن تخفي محاسنها وراء الثياب خشية أن يبتذلها الوصف ، وكانت تجير من يستنجد بها كالرجال تماماً ، وقبيل جوارها واحترام .

أجارت ربيعة بنت جندل الطعان دُرَيْد بن الصَّمَّة عندما أسره بنو فِرَاس ؛ وأجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين ممن أهدر النبي دماءهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة . فقد أراد على أن يقتلها يوم الفتح ؛ فما ملك محمد إلا أن قال لها : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ . وأمّا أشهر قصة لعربية أجارت فارساً من كبار فرسان الجاهلية بمجد السيف ، فقصة فُكَيْهَةَ بنت قَتَادَةَ خالة طَرْفَةَ بن العَبِيد . ويروى أنه عندما أسر جماعة من بني مالك ، السُّلَيْمِ بن السُّلَيْمِة ؛ جاملهم وقصد إلى بيت من بيوتهم

وولج على فُكَيْهَةٍ واستجار بها ، فننعته من أسريه وجعلته تحت درعها
واستلت السيف تحميه ، فلما تكاثروا عليها ، كشفت غطاء وجهها وصاحت
بإخوتها فجاءوها ودافعوا عنها حتى نجى السُّلَيْك من القتل . فقال فيها بعد
ذلك أياتاً جميلة منها :

من الخطرات لم تفضح أباهي ولم ترفع لإخوتها ستارا
يعاف وصال ذات البذل قلبي ويتبع المُسِنَّة النَّسَوارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

ثم إن المرأة كانت تتعاقد مع الرجال على ما يتعاقدون عليه . اشتركت
عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف في حلف الأحابيش ، واشتركت
أم حكيم أو أختها عاتكة بنت عبد المطلب في حلف المُسَطَّيْبِين .

وكان للمرأة حق التملك وحق التصرف بكامل حريتها فيما تملك ، وحق
إدارة أموالها بطبيعة الحال . ثم إن أوضح مثال هو مثال السيدة خديجة أولى
زوجات محمد . فإنها لم تعهد لمحمد بإدارة شئون تجارتها فحسب وإنما أعطته
من مالها . ويروى أن عائشة غارت من خديجة إذ كان الرسول بكثراً من
ذكرها وإطرائها ، فقالت : هل كانت إلاّ عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً
منها . فغضب وقال : والله ما أبدلني خيراً منها ، آمنت إذ كفر الناس ،
وصدقتني وكذبني الناس ، وواستني في مالها (أى أعطتني من مالها) إذ
حرمني الناس .

أمّا حياة المرأة وسيرتها في الأدب العربي الجاهلي فكانت الشغل الشاغل
للرجل . وإن شغرتهم لأكبر دليل على ذلك . فإن الرجل لم ينظم شعراً
إلاّ وكانت المرأة أول ما يجول بخاطره ، يحببها ويخشع لها ويناجيها ، ويذكرها
ويذكر ديارها ويناديها ، وكأنها كانت مفتاح نفسه . فقد كان دائم الشوق
إليها والفتنة بمحاسنها ، حتى لقد أصبح ذكر المرأة في مسهل القصائد
كأمر الواجب المحتوم . على أنها نبغت هي أيضاً في قول الشعر ونى نقده .
ولا يخفى علينا بطبيعة الحال كثير من أخبارها في هذا الميدان الثقافي الهام .

وإننا لنعلم أن امرأ القيس وهو من فحول الشعراء قد غضب من زوجته أم جُنُود عند ما حكّمها بينه وبين عاتقمة الفَحْلُ أيهما أشعر فحكمت لعلقمة فطلقها . ويروى أن النابغة وكان حكم العرب فيما يقولون من شعر في عكاظ ، قد أعجب بشعر النساء ، وقال لها لولا أن هذا الأعمى - يقصد الأعمى - أنشدني قبلك ، لفضلتك على شعراء هذا الموسم . وكان الأعمى يعرض قصائده على ابنته لتنقدها . ونعلم أن أبا تمام ضمن ديوانه الشهير « الحماصة » شعر كثيرات من النساء . ولقد نبغت المرأة في شعر الرثاء ، وفي ديوان رياض الأدب شعر نحو إحدى وستين شاعرة في الرثاء فقط . وكانت عمرة الجسمانية امرأة جميلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار . وكان أبو دهب لا يفارق مجلسها ، وكان يحبها وتحبه .

وكانت المرأة حريصة كل الحرص على الاقتران بالرجل الكفء لها . وكان الرجل يطلب في زوجته أن تكون ذات مجد وحسب وحسن أحوال ، وأن تكون متصفة بمكارم الأخلاق . أوصى حكيم العرب في الجاهلية أكرم ابن صيفي بنيه بقوله : لا يكفيكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن النساء الكريمة مدرجة للشرف . وكان الرجال يمتدحون في المرأة لين العريكة ودمائة الخلق وعدم الثرثرة والكياسة وعدم التكلم في التافه الذي لا يجدي ولا ينفع . وكان الرجل يفخر بحسن عشرته لزوجته وبدمائه خلقه . وكانت المرأة تشترط في الرجل حسن الأحوال ؛ وحسن العشرة ؛ وأن يكون رفيقاً بها كريماً وفيماً رضيعاً قنوعاً ، متحلياً بفضائل العرب المعروفة من شجاعة وعزة وقدرة وغلبة .

ولقد حظيت المرأة عند زوجها وأولادها بمكانة عظيمة جداً . فقد ناداها الرجل بالقباب التكريم ؛ وحرص على أن يفخر أمامها بحسن فعاله ويشهدها على مفاخره . واعتذر لها أشد اعتذار إذا ما فر مضطراً في الحرب . وحماها وأضرم الحروب الضروس إذا أهانها أحد أو استذلها .

وكان الأب يعتد برأى ابنته ويستشيرها في زواجها وفي أموره الخاصة .
ونعلم أن بعض فتيات العرب المحيدات قد اشتهرن بحسن الرأي ، حتى لقد
كان لقيط بن زُرارة يرجع إلى رأى ابنته دخشنوس ويصحبها معه في
غزواته ، وكان عامر بن الظرب يرجع إلى رأى ابنته عُمرة إذ تفرع له
العصا إذا سها في الحكم ، حتى لقد قال فيه المثل :
عصا إذا سها في الحكم ، حتى لقد قال فيه المثل :

لدى الحاتم قبل اليوم ما تُفرع العصا وما علّم الإنسان إلا ليعلما
ولقد عبر كثير من العرب عن جهم لبناتهم ، فكانوا يستشيرونهن
وينزلونهن من قلوبهم مكاناً رفيعاً ، ويتكنون بأسمائهن .

يقول الشاعر :

فردّ أبو ليلى طُفَيْل بن مالك بمنعرج السُّوبان لا يتقصّع

ويقول آخر :

فهلاً أبا الخنساء لا تشتمني فتفرع بعد اليوم سنك بالندم
ولا غرو أن عُرِفَت المرأة في الجاهلية حكماً ووسيطاً للصالح وقاضية
وقائدة جيش وملكة وشاعرة وحكيمة وناقدة أدبية يشار إليها بالبنان .
واشتهر العربي بشجاعته وعزته وأنته ووفائه لعهوده وكرمه . وصف
ابن المقفع العرب أحسن وصف فقال : « إن العرب حكمت على غير مثال مثل
لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يهود
أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف
الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ،
ويقبح ما شاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتم همهم ، وأعلتهم قلوبهم
والسنتهم ، فلم يزل حياء الله فيهم وحبائهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر
وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر . »

ومع أن العرب لم يكن عندهم علوم كالرياضيات أو الفلسفة أو ما شاكل
ذلك من علوم الأقدمين ، إلا أنهم برعوا من ناحية أخرى في علوم كان

لما أكبر الأثر في تهذيب نفوسهم وإعلاء همهم وإعدادها للدور الذي قدر لهم أن يقوموا به في التاريخ . فقد برعوا أيما براعة في علوم الأدب من نثر وشعر ولغة عبرت عن مكنونات نفوسهم أجمل تعبير . ثم لأنهم وضعوا لغة من أعرق لغات البشر ، يكفيها فخراً أنها لغة القرآن وأنها لغة أحسن بيان . وهي اللغة التي قال فيها جورج سارتون أكبر مؤرخ لتاريخ العلم في عصرنا هذا : « إن اللغة العربية كانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى كله ، حتى لقد كان ينبغي لكل من أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها ، أن يتعلم العربية » . وهذه اللغة التي أدت دورها كاملاً في التعبير عن مختلف الفنون والآداب والعلوم في العصر الذي وضعت فيه أسس الحضارة الحديثة ، وكانت اللغة الارتقائية للجنس البشرى كله ، إنما هي اللغة التي وضعها هؤلاء العرب الجاهليون في صحرائهم لتظل حتى يومنا هذا من أكمل اللغات وأكثرها استجابة لمطلوبات الشعوب ، لم تتغير ولم تتبدل . فيا له من شعب عظيم ذلك الشعب الذي درس على الطبيعة بقوة ذاكرته من غير قلم وقرطاس ، ووضع لغة كاملة كهذه اللغة ، كان لها شأنها العظيم في تاريخ الحضارة الإنسانية ، وقال شعراً يكفي أن نقول فيه إنه لا يزال درة في جبين الأدب العربي كله ، مع ما نعلم من شأن الأدب العربي بين آداب الأمم ، وبخاصة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية .

وكان العرب يستلزمون أن يباشر حكمهم النبغاء والحكماء من أبناء الأمة لاسفهاؤها وجهالها . وفي هذا معنى سياسى عميق يدل على أنهم كانوا منظمين تنظيماً اجتماعياً حسناً ، ولم تكن أمورهم فوضى كما يتخيل البعض . وفي هذا المعنى يقول الأفتوه الأودى أبياتاً بليغة معبرة :

والبيت لا يبستقى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذى كادوا

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم : ولا سراة إذا جهلهم سيادوا
وإذا تولى سراة الناس أمرهم نماعلى ذاك أمر القوم فازدادوا
كيف الرشاد إذا ما كنت في نفر لهم عن الرشد أغلال وأقياد
أعطوا غرارهمو جهلا مقادتهم فكلهم في حبال الغنى منقاد
كان إذن للعرب حكام كلامهم مسموع فيهم ، وأحكامهم مطاعة . على
أن مفاهيم الديمقراطية في هذا المجتمع كانت عند حدودها القصوى . فالمساواة
بين الأفراد كانت تامة ، ومفهوم الملك والرياسة لم يتحقق في نفوسهم
إلا بالعدل وحسن السيرة والتقوى ، فكانوا يشترطون فيمن يرأسهم ست
خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان . والحق أنه لم
يحدث في تاريخ العرب أن اتخذ ملوكهم أوروؤساؤهم في أى وقت من الأوقات
صفة الألوهية التي اتخذها ملوك وأباطرة بلاد غربية مثل الرومان .

لقد كان الرؤساء يعرفون عن يقين أنهم مساوون للباقيين ، وأن الناس
لم تسودهم إلا لعدهم ومكارمهم . لذلك أوتى عامة الناس من فهم وحب
للمتقراطية الحقيقية ما جعلهم يدافعون عنها بدمائهم وأموالهم . ملأت
الأدلة على ذلك صفحات تاريخهم ، وقد لا تخلو صفحة واحدة فيه من
التعبير عن حرية هذا الشعب وديمقراطيته الحقيقية . ولنسمع كلام أكرم
ابن صيفي أحد حكام العرب يخاطب الناس : لا خير فيمن لا عقل له ،
كبرت سنى ودخلتني زلة ، فإذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم غير
ذلك قوموني أستقم . أى شيء أجمل وأى شيء أسعى لاستقامة الحياة في
مجتمع أن يدعو الحاكم محكوميه إلى تقويمه إن أخطأ . لا غرو فإن ذلك
نابع من المجتمع ذاته ومن أهدافه ونفسيته وخلقياته .

أما تجاربهم ، فأى من الشعوب القديمة في عصوره الأولى لم يكن
شيعاً وأحزاباً ، ولم يكن تاريخه سلسلة من الحروب . ويكفى أن نذكر هنا
مدن اليونان القديمة وعداواتها وخزوبها الشهيرة . على أن بلاد العرب بلاد

شاسعة مترامية الأطراف ، ترتادها قبيلة هنا وقبيلة هناك . ولا تساعها تباعدت القبائل وأصبح النسب عندهم بمثابة القومية والوطنية ، يتمسكون بمعرفته وحفظه حفظاً لكيانهم ، بل قل تمسكاً باستقلالهم السياسي والسلالي . فالنسب عند العربي مرماه وغايته ، فهو يحدد إقامته وعمله وأخلاقياته واتجاهاته ، وبالجملة هو المسيطر الأول على حياته . ولذلك ينبغي لنا عند النظر في أمور هؤلاء العرب في صحرائهم المترامية ، أن نضع في الاعتبار هذه الحقائق البالغة الأهمية . فهم وإن كانوا في الحقيقة شعباً واحداً ، إلا أن اتساع البلاد واختلاف بيئاتها قد فرقهم وجعلهم وكأنهم شعوب مختلفة . وإذن فسألة تحاربهم وقتلهم بعضهم بعضاً ، لا ينبغي أن تقوم في الأذهان باعتبار أنهم جمعية واحدة تتشاحن وتتحارب وتتقاتل تقاتل اللصوص والأفاقيين والقرصان لمجرد القتال والتشاحن ، ولكن الحقيقة أن معظم حروب القبائل لم تكن لشيء غير دفاع عن شرف أو مجد أن يذله أحد . وهذا مقوم نفسي من أعظم المقومات الدافعة نحو حضارة عليا . ثم إننا نراهم على أية حال في أواخر العصر الجاهلي ، قد تقاربوا واستعدوا لإقامة حياة سياسية متحدة واتجهوا اتجاهاً واقعياً نحو الوحدة .

كانت سوق عكاظ من أهم العوامل التي مهدت لوحدة العرب ، فقد كانت المفرخ الذي تفرخ فيه أفكارهم وآمالهم وأمانهم ، ثم تنتشر كالنار في الهشيم من أقصى الجزيرة العربية إلى أقصاها عند انفضاض السوق ، وتصبح تلك الأفكار والمثل والمعنويات جزءاً من نفسية العرب هنا وهناك . وأكبر شاهد على ذلك شعرهم الذي أصبح يُؤتلف على نسق واحد في جميع أنحاء الجزيرة العربية فوحد اللغة .

أمّا أن سوق عكاظ كانت سوقاً نافقة للأدب فأمر من أخص خصائصها ، ومن أهم الأمور التي أدت إلى خلودها . كان بلغاء العرب من مختلف القبائل يجتمعون فيها فينشد الشعراء ويخطب الخطباء في المفاخرة وفي غير المفاخرة .

وكانت هذه الأشعار والخطب والحكم التي ينطق بها أدباء العرب وبلغاؤهم تعرض على النقد والتقييم وتحفظ عن ظهر قلب ، وتتناقلها الألسن في مختلف أنحاء الجزيرة العربية إذا ما انفض السوق وعادت القبائل إلى أماكنها .

وكان العرب يستخدمون هذه السوق أيضاً ميداناً سياسياً يناقشون فيه شئونهم وخلافاتهم . فيدعون إلى الصلح حيناً ، والتعاون حيناً ، والنظر في أمر اللديات حيناً آخر ، حسماً للنزاع ومجلبة للخير ، وفيها أيضاً سمعنا أن أحدهم وهو قيس بن ساعدة الإيادي كان يخطب في الناس داعياً إلى إله واحد وإلى الدين الحق مبشراً بالحنيفية . وكان محمد يقصدها ليبشر بدعوته ويكلم القبائل المختلفة في شأن الدين الجديد الذي يدعو إليه ، ويطلب منهم الدخول فيه من غير أنه يتعرض لأذى أو امتهان . وهذا يشهدنا على ما كان لعكاظ من أهمية عند العرب ومن مكانة قدسية في نفوسهم ، جعلت منه برلماناً للرأى والفكر والأدب والسياسة والفخر والصلح والمعروف ، وميداناً للهو واللعب وسوقاً للتجارة .

أما مكة فكانت قبلة يتجه إليها العرب في كل عام لزيارة البيت العتيق وإقامة مناسك الحج . وكانوا يعتقدون أن أباهم إبراهيم بنى البيت الحرام في مكة امتثالاً لأمر ربه ليعبده الناس فيه ، وأن الله أمره أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال إبراهيم : ألا إن ربكم قد اتخذ بيتاً وأمركم أن تحجوه ، فاستجاب الناس من كل فج عميق قائلين : لبيك اللهم لبيك . أى أنهم كانوا يدينون بدين إبراهيم وابنه إسماعيل ، غير أنهم لتباعد الزمن ولكثرة تفرقهم وترحالهم هنا وهناك ، قلت معرفتهم بأصل ديانتهم ، ودخل عليها كثير من الزيف والبطلان . فاتخذوا آلهة ثانوية كاللات والعزى ومناة ، إضافة إلى كثير من الأنصاب والأوثان . غير أن الكعبة بيت أبيهم إبراهيم ظلت دائماً بيتهم الحرام يحجون إليه في كل عام .

والحق أن العرب ، وبخاصة أهل مكة ، لم يكونوا بأية حال مجرد وثنيين كما يفهم من الوثنية . فإنهم لم يعبدوا الأصنام على أنها خالقة العالم ، وإنما عبدوها واتخذوها شفعاء لتقربهم إلى الله الذي كانوا يعرفونه تمام المعرفة . ويقول القرآن في ذلك على لسانهم : « ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زُلْفَى » (١) . والحق أنهم آمنوا بإله واحد خالق الكون ، وأقسموا به ، وقصروا علم الغيب عليه وحده ، واعترفوا بأنهم لا يستطيعون معرفة ما وراء المحسوس من تصارييف القضاء . وكان بعضهم يؤمن بيوم البعث . وكانوا يؤمنون بأن الله لا شريك له ولا معين ، موصوف بصفات الكمال ، قادر على كل شيء ، سميع بحبيب بصير ، عارف بالخفايا والأسرار ، وبما نخفى وبما بطن ، يقول زهير :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكنم الله يعلم
وكانوا يؤمنون فوق ذلك أن الرزق بيد الله وحده ، وأن البلاد بلاد الله ، يقول عروة بن الورد :

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعلموا

وقد ذكرهم القرآن بإيمانهم هذا فقال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » (٢) .

ثم إنهم ظلوا متمسكين ببعض مناسك الدين الحنيف ، فكانوا يعظمون البيت الحرام ويطوفون به ، ويقفون على عرفة والمزدلفة ويحجون ويعتمرون ، إلاّ أنهم أدخلوا على هذه المناسك ما ليس منها : وكان الناس من قبيلتي كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك . وفي هذا القول توحيد لله في التلبية ، غير أنهم يشركون معه أصنامهم ويجعلون ملكها وما تملك بيده .

ولقد ذكروهم القرآن باعترافهم وبإيمانهم بأن الله خالق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » (١) . كذلك ذكروهم القرآن بأنهم يؤمنون بأن الله هو الذى ينزل من السماء ماء : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » (٢) وذكرهم بأنهم يترفون بأن الله هو الذى خلقهم : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » (٣) .

والحق أنهم آمنوا إيماناً عميقاً بقدرة الله عليهم وبتصرفه لشئونهم وبتدخله في أحوالهم ، حتى لقد نسبوا شركهم أيضاً لإرادة الله ، فقالوا إنهم أصبحوا مشركين بأمر الله ومشيتته ، وأنه لو لم يشأ لهم أن يصبحوا مشركين لما أشركوا به شيئاً .

أما الأصنام فكانت عندهم بمثابة القديسين في النصرانية ، وهم الشفعاء بين الله وعباده . وهذا ما رفضه محمد رفضاً باتاً . فهو لم يؤمن بنظام الرهبنة ، ولا بالقديسين ولا بالشفاعات ولا بأى أحد بين الله وعباده حتى هو ذاته . ولذلك حارب حرباً مريرة في سبيل هذه المبادئ .

ويقال إن سبب اتخاذهم هذه الأصنام إنما يرجع إلى زعيم من زعماء خزاعة هو عمرو بن لُحَيٍّ ، وكان يتولى حجابة البيت (أى تولى مفاتيحه) . فلما مرض عمرو بن لُحَيٍّ مرضاً شديداً قبل له إن بالبلقيعاء من أرض الشام حمّة (أى عين ماء حار يستشفى به المرضى) إن أتيتها برأت . فأتاها واستحم فيها فبرئ من علته ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فسألهم : ما هذه ؟ فقالوا : نستقي بها المطر ونستنصر بها على العدو . فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها إلى مكة ونصبها حول الكعبة . وتبعته خزاعة لمكانته فيها ، وتبعتهم العرب بعد ذلك ، فاتخذت كل قبيلة لها صنماً

ظنا منها أنه شفيحها الذي تطلب منه نزول المطر أو مساعدتها في أمر من الأمور . وكثرت الأصنام حول الكعبة حتى لقد قيل إنها بلغت ثلثمائة وستين صنما أو يزيد . وكانوا يقولون إنهم إنما يعبدون الأصنام لأنه لا أهلية لهم لعبادة الله بلا واسطة لعظمته فعبدوا الأصنام لتقربهم إليه . وقال بعضهم إن الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناماً على هيئة ملائكة ليقرّبونا إلى الله . وقال بعضهم إنا جعلنا الأصنام قبلة لنا في عبادة الله كما أن الكعبة قبلة في عبادته . واعتقد قوم آخرون أن على كل صنم شيطاناً موكلًا بأمر الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله ، وإلاّ أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله .

وعرف العرب صوراً لعبادة أخرى . فقد كان للصائين عبدة النجوم شأن كبير في جزيرة العرب . غير أنهم لم يعبدوا النجوم في بادئ الأمر ، وإنما كانوا يعبدون الله ويعظمون النجوم فقط على أنها مظهر من مظاهر عظمة الخلق . ثم انحدرت العقيدة مع الزمن إلى الإيمان بالنجوم ذاتها على أنها آلهة . ثم اعتقد الناس أن الحجارة البركانية هي حجارة سقطت من السماء على الأرض من بعض النجوم ، ومن ثمّ قدسوها لهذه الصلة الإلهية ثم قدسوها لذاتها . ولا غرابة في ذلك فقد عثر الإنسان في باطن الأرض منذ أزمان موعلة في القدم ، وفي أجزاء مختلفة من العالم على أعداد كبيرة من الحجارة غريبة الشكل ، بعضها خشن وبعضها مصقول . وقد اعتقد الناس في بقاع مختلفة أن الحجارة الأكبر منها حجارة نيزكية ، والأصغر سهام حربية ، وكلها عبارة عن أسلحة قذفتها على الأرض الآلهة والكائنات السماوية الأخرى . ومن ثمّ أضفى عاينها ضرب من القداسة ، فوضعت في حوائط المعابد في بلاد الكلدان ، واتخذت عقوداً حول أعناق الموتى في مصر ، ولا تزال نماذج منها ترى حتى يومنا هذا على مذابح المعابد في الهند يقدم لها المؤمنون الصلوات والقرابين .

ولقد نظر الناس في أوروبا خلال القرون الوسطى إلى هذه الحجارة المصقولة نظرة تبجيل وتوقير باعتبارها أسلحة استعملت في أثناء الحروب السماوية لطرد إبليس وأعدائه من الشياطين . وظلت مثل هذه المعتقدات تتجاوب أصداؤها في عالم الفكر الأوربي حتى القرن التاسع عشر ، عندما أكدت بحوث علم الآثار قبل التاريخية أن هذه الحجارة المصقولة وغير المصقولة عبارة عن أدوات صنعها الإنسان واستعملها في عصره الحجري . فاعتقاد العرب إذن أن بعض الحجارة الغريبة الشكل قد أتت من السماء له ما يبرره إبان غرارة العقل الإنساني .

كذلك عرف عرب الجاهلية الكثير عن الديانتين اليهودية والنصرانية ، اللتين انتشرتتا بين كثير من قبائل العرب في الجنوب وفي الشمال على الأخص . تعرض اليهود في فلسطين ابتداء من القرن التاسع قبل الميلاد لعدة اضطهادات كبيرة ، نزع كثير منهم على أثرها إلى البلاد المجاورة . ولقد رحلت جماعات منهم بطبيعة الحال إلى بلاد العرب ، وعلى الأخص بغداد هدم بُخْتَنْصَر في القرن السادس قبل الميلاد لبيت المقدس ، وسببه لأعداد كبيرة من اليهود ، واستوطنوا وادي القرى ويثرب وتيما ، ولحق بهم يهود آخرون بعد اضطهادات أخرى ، وشيدوا في هذه البقاع الحصون ، واستغلوا الأموال ، وزرعوا الأرض ، وأصبحت لهم مستعمرات كبيرة وعلى الأخص في شمال يثرب .

وعاش اليهود جنباً إلى جنب مع العرب ، واختلطوا بهم اختلاطاً وثيقاً . فكان اليهود يعرضون بضاعتهم في أسواق العرب ، وكان العرب يهرون بالمدن والقرى اليهودية وهم في طريق تجارتهم إلى الشام وعودتهم منها . وفضلاً عن هذا الاختلاط النجاري ، كانت قبائل من اليهود تحالف قبائل من العرب في كثير من الأحيان . ومما لا شك فيه أن هذا الاختلاط لم يقتصر

على مجرد البيع والشراء ، وإنما تخطاه إلى تبادل الأفكار والآراء وعلى الأخص في مسائل الدين .

وجاء في التوراة في مواضع متفرقة وبمناسبات مختلفة ذكر لبلاد العرب منذ أقدم الأزمان . ثم إن اليهودية انتشرت في قبائل العرب في اليمن بعد غزو الأحباش في سنة ٣٤٠ م ، بعد أن فر ملوك حمير إلى الحجاز ، وأصبحت بعد ذلك ديناً رسمياً لحمير . ونعلم فضلاً عن ذلك أن اليهودية كانت قد انتشرت بين قبائل نجران والبحرين . وانتشرت من ثمة بين العرب بعض تعاليم التوراة ، وبعض التفاسير والشروح والقصص والأساطير القديمة التي كان يتناقلها اليهود .

أمّا النصرانية فقد انتشرت في شمالي بلاد العرب وعلى الأخص بين الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة ، فضلاً عن بعض قبائل البدو . ولقد دانت قبيلة تغلب بالنصرانية بعد انتصارها على اليمن ، إذ اعتنقها زعيمها كلثيب وبعض حلفائه من ربيعة ومضر وإياد وطى وقضاعة وقيس ابن ثعلبة . وبني كلثيب كنيسة ينافس بها الكعبة . وانتشرت النصرانية في بعض بطون تميم وغيرها . وكانت أيسلة (العقبة) نصرانية أيضاً . كذلك عرفت النصرانية في مدن الحجاز التجارية ، إذ كان سكان هذه المدن على اتصال وثيق بالشام . ونعلم أن بعض القرشيين قد تنصر مثل عثمان ابن الحوثيرث ، وورقة بن نوفل . وكان بيثرب وبالبحرين نصارى أيضاً ، كما كانوا في كثير من الأماكن الأخرى من جزيرة العرب .

وبدأت النصرانية تعرف في اليمن ابتداء من أواسط القرن الرابع الميلادي ، وانتشرت على الأخص بعد غزو الأحباش لها في سنة ٥٢٣ م . وتنصر باليمن قبائل طيء ومذحيج وبهراء وسليم . وكان القسس والرهبان يعظون الناس في المساجد والأسواق ، ويذكرونهم بالبعث

والحساب والجنة والنار ، ومنهم قُس بن ساعدة الذى سمع محمد إحدى خطبه ورواها .

هذه صورة عامة للأفكار والمعتقدات الدينية التى شاعت فى بلاد العرب قبل الإسلام .

ثم إن هولاء العرب لم يكونوا معزولين عن عالم الحضارة المحيط بهم . فقد اتصلوا بالآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين واليونان والفرس والرومان والهنود ، سواء فى غزوات أو حروب استعمارية ، ولكن على الأخص عن طريق التجارة . فقد حمل العرب منذ أقدم أزمان التاريخ تجارة العالم القديم الهامة . حملوا من الهند الذهب والفضة والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل بأنواعها . وحملوا من أفريقيا العطور وخشب الأبنوس وريش النعام والذهب والعاج . وحملوا من سومطرة العود والند ، ومن البحرين اللؤلؤ . هذا فضلاً عن غلات اليمن وحضرموت وأهمها البخور واللبان والمر والطيوب وبعض أنواع الحجارة الكريمة . وكانوا يحملون هذه البضائع الهامة إلى دنيا الحضارة القديمة فى حوض البحر المتوسط ، ويعودون من الشام بالحنطة والزيت والحمور ومختلف مصنوعات فينيقيا ، وما يستورد من آسيا كالمنسوجات الكتانية والقطنية والحريز والآية الحديدية وسبائك الفضة وغير ذلك .

ظلت هذه التجارة قروناً طويلة بين أيدي اليمنيين إبان ازدهار ممالكهم القديمة ، ثم انتقلت إلى النبطيين فى البتراء فى الشمال . ولما ضعف هؤلاء وأولئك انتقلت إلى المكيين ، الذين أصبحوا عشية ظهور الإسلام سادة العرب ، وأكبر تجارهم وأعزهم جانباً وأكثرهم أموالاً .

أقيمت مكة فى وادٍ قاحلٍ ما حل غير ذى زرع ، ينحصر بين سلسلة من الجبال الصُّم الجرداء ، التى تبعد عن ساحل البحر الأحمر بحوالى ثمانين كيلومتراً . وتقع فى ملتقى طريق القوافل بين اليمن وشمال جزيرة العرب .

غير أن شيئاً على وجه التحديد لا يعرف عن الزمن الذي تأسست فيه هذه المدينة ، ذلك أن المؤرخين يختلفون كثيراً في تحديد هذا الزمن . فمنهم من قال بأنها قديمة يرجع تاريخها إلى زمن سابق على زمن إبراهيم وإسماعيل ، ومنهم من قال بأنها لا يرجع بها العهد لأبعد من زمن قُصَى بن كلاب في أوائل القرن الخامس الميلادي . هذا مع وجود البيت الحرام الذي بناه إبراهيم وإسماعيل قبل القرن الخامس الميلادي بألف من السنين على الأقل . ولكن أصحاب الرأي الأخير يقولون بأن القبيلتين اللتين كانتا بجوار مكة وهما جُرهمٌ وخزاعةٌ أبيتا أن يكون إلى جوار البيت الحرام بيوت للسكن ، فكانوا يتعبدون في الكعبة نهاراً ولا ينامون إلى جوارها ليلاً .

كان بناء الكعبة واعتقاد العرب في إله إبراهيم وإسماعيل السبب الأول ولا شك الذي أدى إلى ازدهار مكة وإلى التفاف بقية قبائل العرب حولها وتقديسهم لها ، فضلاً عن احترامهم لأهلها خدام البيت الحرام ، مما أدى في النهاية إلى منزلة سامية لقريش بين العرب أجمعين . ثم إن احتكار القرشيين للتجارة بين الشمال والجنوب بعد انحلال النبطيين في الشمال والحميريين في الجنوب ، جعلهم في واقع الأمر في وضع يؤهلهم لزعامة العرب . فلأنهم عند ذلك لم يكونوا سدنة البيت الحرام الذي يهجم إليه العرب في كل عام فحسب ، وإنما أصبحوا فضلاً عن ذلك أثرياء لهم كلمة مسموعة واحترام ديني ودنيوي في قلوب العرب .

أمّا أشهر المكين جميعاً فقُصَى بن كِلاب بن مُرّة ، واسمه زيد ه أما سبب تسميته قُصياً ، فذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه كلاب من ربيعة ابن حرام من عُدرة ، فخرج بها إلى بلاده ومعها زيد صغير فسمى قُصياً ، ثم علم قُصَى في حدائنه بنسبه ، فعاد إلى مكة ، وتزوج فيها من حُبَيّ ابنة رئيس خزاعة حُلَيْب بن حُبَيْشية ، فولدت له حُبَيّ أبناءه عبد مناف (١) ، وعبد العُزَيّ ، وعبد الدار ، وعبد ، وبرة ، وتخنمُر .

(١) مناف اسم صنم وأصل اسم عبد مناف المنيرة .

وكان أمر الكعبة مع حميه حُلَيْبٍ ، فلما مات حُلَيْبٌ ، وكان قد أوصى بولاية البيت لابنته حُبَيْبَى ، تنازلت عن ذلك إلى سُلَيْمِ بْنِ عمرو لعدم مقدرتها على فتح الباب وإغلاقه ، وكان سُلَيْمِمْ سَكِيْرًا حَرِيْبِيْدًا فاشترى منه قُصَيٌّ ولاية البيت بزُق من خمر وقَعُوْد ، فضربت به العرب المثل فقالوا : « أخسر من صفقة أبي غُبُشَان » .

غير أن خُزَاعَةَ نازعت عندئذ قُصَيًّا ولاية البيت . وكان قُصَيٌّ في قومه سيِّدًا رئيسًا مُطَاعًا معظماً ، ذلك أنه استطاع أن يجمع قُرَيْشًا من متفرقات مواضعهم في جزيرة العرب . فلما نازعته خُزَاعَةُ قاموا معه واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب ، وجاءه إخوته لأمه رِزَاحُ بْنُ رَبِيْعَةَ وإخوته ، وقام الجميع معه على خُزَاعَةَ واقتتلوا قتالاً شديداً ، وكثر فيهم القتل ، فارتضوا التحكيم ، فتحاكوا إلى يَتَعَمُرُ بْنُ عَوْفِ بْنِ كَعْبٍ ، فحكم بأن قُصَيًّا أولى بالبيت من خُزَاعَةَ ، فأجلاهم قُصَيٌّ عن البيت . ومن ثمة تولى أمر مكة كله وجمع مناصب الكعبة ، وهي الحجابة أو سدانة البيت ، أى تولى مفاتيحه ، والسقاية وهى تقديم الماء العذب للحجا ، وكذلك نبيذ التمر ، والرَّفَادَةَ وهى تقديم الطعام للحجاج ، يجمعه أهل مكة ويقدمه صاحب الرَّفَادَةَ ، والنَّدْوَةَ وهى رئاسة الاجتماعات التى تعقد للمشورة والرأى ، واللواء وهى راية الحرب ، والقيادة وهى إمارة الجيش إذا خرجوا للقتال . وفيه يقول الشاعر :

قُصَيٌّ لِعَمْرِي كَانَ يُدْعَى مُجْتَمِعًا بِهِ جَمَعَ اللهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فَيْهَرِ

فكان قُصَيٌّ أَوْلَ بْنِي كَعْبِ بْنِ لَوْيِ أَصَابَ مُسْكَأَ أَطَاعَ لَهُ بِهِ قَوْمَهُ . أعاد تنظيم مكة فمقطعتها رباعاً بين قومه ، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة ، فأنزل بعض قبائلها أباطح مكة ، وأنزل البعض الآخر ظواهرها ، ومن ثمة كان يقال قُرَيْشُ الْبِيْطَاحِ ، وقريش الظواهر . وعاد البيت العتيق إلى قُرَيْشٍ ، ولكن بما كانت قد أحدثت خُزَاعَةَ من عبادة

الأوثان ونصبها حول الكعبة ، ونحرم لها ، وتضرعهم عندها ، واستنصارهم بها ، وطلبهم الرزق منها ، فاستمرت قريش على ذلك .

ولما أصبحت جميع الرئاسة في مكة لقصي ، بنى داراً لرفع المظالم والفصل . الحصومات سماها دار الندوة ، بابها إلى المسجد الحرام ، كانت ملتقى قريش لا يقر أمر من أمورهم إلا فيها ، فكانوا إذا أعضلت قضية اجتمع رؤساء القبائل فيها فتشاوروا فيها وفصلوها . وفيها كانوا يتخذون القرارات الهامة ، ولا يعقد لواء ولا عقد زواج إلا بها ، ولا تبلغ فتاة أن تدري ع فتدري ع إلا بها .

وكان قصي أول من فرض الرقادة على قريش ، وهي أموال تجمعها في كل موسم وتعطيها إلى قصي ليصنع بها طعاماً للحجاج فيأكله من لم تكن له سعة ولا زاد . قال لهم : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يرجعوا عنكم ، ففعلوا . وكانوا يخرجون في كل عام من أموالهم خبزاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الإسلام ، فجرى في الإسلام فكان طعام يصنعه السلطان كل عام بمنى حتى ينقضى الحج .

فلما كبر قصي فوَّض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه إلى ابنه عبد الدار ، وكان أكبر ولده . ثم تولى مناصب الكعبة بعد عبد الدار ابن قصي أبناؤه . غير أن أبناء عبد مناف بن قصي وهم هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ، وكان أبوهم قد شرف في قومه فوق شرف أخيه عبد الدار ، لم يرضهم هذا الوضع ، ونازعوا أبناء عمهم في هذه الوظائف . واختلفوا اختلافاً كبيراً ، وانقسمت بطون قريش ، فرقة بايعت أبناء عبد الدار وحالفهم . وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفهم ، ثم وضعوا أيديهم عند الحلف في جفنة فيها طيب ، وقاموا فمسحوا أيديهم بأركان

الكعبة فسُمُّوا لذلك حِلْفَ الْمُطَيِّبِينَ . وبعد صراع لم يطل ، خشيه وقوع الحرب بين أبناء العمومة ، تصالح الطرفان وأعطيت السقاية والرَّفادة لبني عبد مناف ، وبقيت الحجابة واللواء والتَّدْوَة في بني عبد الدَّار .

تولى هاشم بن عبد مناف بن قُصَيِّ السَّقَايَة والرَّفَاة . وهاشم لقب له واسمه عمرو بن عبد مناف . ويقال بأنه عندما أصابت قريشا سنوات عجاف ذهبت بأموالها ، خرج عمرو إلى الشام وصنع هناك خبزاً كثيراً وحمله في الغرائر إلى مكة . فهشم ذلك الخبز ، أى كسره وثرده ، ونحر الإبل التي حملته فأشبع أهل مكة فسُمِّيَ لذلك هاشماً . ويقال بأن أمية ابن أخيه عبد شمس حسده لهذا الصنيع ، وأراد أن يصنع صنيعاً كصنيع هاشم فعجز ، فشمت به ناس من قريش ، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة . فكره هاشم ذلك لسنه ولعلو منزلته في أهله وبين قومه ، فلم تدعه قريش . فقال : إني أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها بيطن مكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضيَ أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخنزاعي حكماً ، ففضى هاشم على أمية ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها للناس ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين . فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .

ثم إن تجارة مكة ازدهرت ، وأصبح من الضروري تأمين هذه التجارة . وكان بنو عبد مناف قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة ، وكان يقال لهم المحيرون . وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش أماناً من ملوك الأقاليم ليدخلوا في تجارتهم إلى بلادهم آمينين . فأخذ هاشم أماناً من ملوك الشام والروم وغستان ، وأخذ عبد شمس أماناً من النجاشي الأكبر ملك الحبشة ، وأخذ نوفل أماناً من الأكاسرة ، وأخذ المطلب أماناً من ملوك حَمِير . ويقول الشاعر في هؤلاء الإخوة المشاهير :

يا أيها الرجلُ المَحْوَلُ رَحْلَهُ إلا نزلت بِآلِ عبدِ منافِ

وكان هاشم أول من سن رحلتي الشتاء والصيف التجاريتين لمكة ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو العلي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسنِتُون عجاف
سُنَّت إليه الرحلتان كلاهما سَفَرُ الشتاء ورحلة الأضياف

أما أبناء هاشم بن عبد مناف فأربعة رجال وخمس نسوة ، هم عبد المطلب ، وأسد ، وأبو صيبي ، ونَضْلَة ، والشَّفَاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقبيّة ، وحيّة ؛ وكان عبد المطلب أشهرهم وأبعدهم صيتاً ، واسمه شيبة لشيبة كانت في رأسه ، ويقال شَيْبَة الحمد لجوده . وأما سبب تسميته عبد المطلب فله قصة . ذلك أن هاشماً خرج يوماً في تجارة إلى الشام ونزل بيثرب على عمرو بن زيد من بني عبدِى بن النجار الخزرجي ، وكان سيد قومه ، فرأى ابنته سلمى فأعجبته فخطبها من أبيها ، فزوجها منه واشترط عليه مقامها عنده في رواية ، أو ألا تلد إلاّ عنده بيثرب في رواية . فلما رجع من الشام دخل بها وأخذها معه إلى مكة . ثم إنه خرج بعد ذلك في تجارة ، وكانت حُبلى فأخذها معه وتركها عند أبيها في يثرب ، وذهب إلى الشام فمات بغزوة . ووضعت سلمى ولداً وسمته شَيْبَة . ويقال إن الغلام ظل مع أمه بالمدينة حتى بلغ سبع سنين . وعند ذلك مرّ رجل من بني عبد مناف بالمدينة ، فإذا غلمان يتسابقون في رمي السهام ، وكان شيبة بارعاً ، إذا أصاب سهمه قال : أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء ، فقال له الرجل : من أنت ؟ قال : أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف . فلما رجع الرجل إلى مكة أخبر المطلب بالخبر . فذهب المطلب إلى المدينة وأخذ الغلام خُفِيّة ورجع به إلى مكّة . ويقال إنه لما دخل المطلب مكة كان شيبة معه على عجز ناقته ، والناس في أسواقهم ومجالسهم ، فقاموا يرحبون بقدم المطلب ، وتصوروا أن الصبي عبد للمطلب ، وربما مازحهم وقال لهم عند ما سألوه عنه : هذا عبدى . فكان شَيْبَة إذا مرّ بقوم قالوا هنا عبد المطلب ، فغلب ذلك عليه .

ولقد ساد عبد المطلب في قريش سيادة عظيمة وشرفاً كبيراً . كانت له سيادتهم ، وكان جماع أمرهم إليه ، وآلت إليه السقاية والرفادة بعد عمه المطلب . وهو الذي جدد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم . وهو أول من طلى الكعبة بالذهب في أبوابها من الغزالتين الذهبيتين اللتين وجدتهما في زمزم مع الأسياف القلعية عندما حفرهما .

وكان عبد المطلب جسيماً أبيض طويلاً فصيحاً ، ما رآه أحد قط إلا أحبه . وكان تقياً ورعاً كريماً . وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيايات الأمور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظالمون حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلم من أهل الشام لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب في ذلك : ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار داراً يُجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته . ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام . ويؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها ، منها الوفاء بالنذر ، والمنع من زواج المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهي عن قتل الموءودة ، وتحريم الخمر والزنا .

أما أولاده فعشرة رجال وست نسوة هم : الحارث ، والزبير ، وضيّرار ، وأبو طالب واسمه عبد مناف ، وأبو لهب واسمه عبد العزى ، والمقوم واسمه عبد الكعبة ، وجحبل واسمه المغيرة ، والغيثداق وهو كثير الجود واسمه نوفل ، وحمة ، وعبد الله ، وأميمة ، وأروى ، وبرة ، وصفيّة ، وعاتكة ، وأم حكيم .

وكان عبد الله وهو أصغر ولد أبيه ، ويسمى الذبيح الثاني المفسدّى بمائة من الإبل ، أجمل رجال قريش ، وأحب أبناء أبيه إلى نفسه . فلما بلغ عبد الله الخامسة والعشرين زوجه أبوه من آمنة بنت وهب . وأقام معها عبد الله في بيت أهلها ثلاثة أيام كعادة العرب ، ثم انتقل إلى بيت عبد المطلب .

ولم يدم بقاءه معها طويلاً ، ذلك أنه خرج في تجارة إلى الشام وتركها حاملاً . فلما فرغ القوم من تجارتهم انصرفوا عائدين إلى مكة ، ففرض عبد الله في الطريق ، فتخلف عند أخواله بنى عدي بن النجار بالمدينة . فأقام عندهم مريضاً . ولما علم عبد المطلب بذلك أرسل له أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ، فرجع إلى أبيه فأخبره ، فحزن عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته حزناً شديداً .

ثم وُلِدَ محمد عليه الصلاة والسلام بعد موت أبيه في دار جدّه عبد المطلب ، الذي كفله ورعاه وعطف عليه وأحبه أشد الحب . ولقد سماه جده محمداً ، فلما سُئِلَ في ذلك ، ولماذا رغب عن أسماء آبائه ، قال : أردت أن يكون محموداً في السماء لله وفي الأرض لخالقه . ولقد اختلف المؤرخون في الساعة واليوم والشهر والسنة التي ولد فيها . والمشهور أنه ولد في عام الفيل ، أي في حوالى سنة ٥٧١ ميلادية .

أرضعته ثويبة جارية عمه أبي لهب ، وكانت قد أرضعت عمه حمزة من قبل ، فأصبح أخاه من الرضاعة . وبالرغم من أن ثويبة لم ترضعه إلاّ أياماً ، فقد وصلها طوال حياته وحمل لها في نفسه الكبيرة أعظم آيات الود . ثم أرضعته حليلة بنت ذؤيب السعدية ، وأقام عندها وبين قومه في الصحراء ، وكانت عادة أشراف مكة أن يدفعوا بأبنائهم إلى الممرضعات يُربين أولادهم في الصحراء حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ، ابتغاء لإجادة العربية والتفصح فيها ، والتعود على شظف العيش وخشونته . وكان بنو سعد شهيرين بفصاحتهم ، حتى لقد كان النبي يقول لأصحابه : « أنا أعربكم ، فأنا قرشي واسترضعتُ في بني سعد بن بكر » . ثم إنه ظل في حجر حليلة قرابة خمس سنين عاد بعدها إلى أمه ترعاه وإلى جده يكفله .

وبعد عام ، أي عندما بلغ حوالى السادسة استأذنت آمنة من جده عبد المطلب أن تصحبه معها إلى يثرب لزيارة قبر أبيه عبد الله . فأذن لها فسافرا ومعهما

أم أيمن جارية أبيه تحضنه . وفي يثرب أطلعت آمنة ابنا الصغير على البيت الذي مات فيه أبوه وعلى المكان الذي دُفِنَ فيه . وبعد أن أقاموا جميعاً شهراً في يثرب قفلوا واجمعين إلى مكة . غير أن آمنة مرضت في الطريق ، واشتد عليها المرض فاستودعت ولدها أم أيمن ، وتوفيت بقرية الأبواء ، إلى الجنوب من يثرب بحوالى خمسة وثلاثين كيلو متراً ، وعاد محمد يتيم الأبوين في صحبة أم أيمن إلى مكة .

عندئذ ضممه عبد المطلب إليه ورقّ عليه رقّة لم يرقها على ولده . وكان يقربه منه . ويدنيه ويدخل عليه في أى وقت إذا دخلاً أو إذا نام لا يصده ولا يمنعه أحد . وكان يجلسه على فراشه ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من بنيه لإجلاله له ، بل كانوا يجلسون حوله . وكان محمد الصغير إذا أتى الكعبة يجلس على هذا الفراش ، فينحيه أعمامه عنه ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوا ابني ، ويجلسه إلى جانبه ويمسح ظهره بيده وكان يسره ما يراه يصنع . غير أن حياته مع جده الحبيب هذا لم تدم غير سنتين ، فمات عبد المطلب ، ومحمد لا يزال في الثامنة هـ فحزن على جده حزناً عميقاً ، قالت أم أيمن : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب .

عهد عبد المطلب إلى ولده أبي طالب بكفالة محمد من بعده ، فكان في الحقيقة خير كفيل له وخير أب ، فقد أحبه حباً جماً ، حتى لقد كان يفضلها على بنيه . وترعرع محمد الصغير في كنف هذا العم الفاضل الذي رعاه وحماه طوال حياته ، لم يخذله في أشد محنة ضراوة عندما تألبت عليه قريش ، ولم يتخل عنه حتى عندما كادت تنشب حرب بين بيت عبد المطلب وبيت قريش ، لما أصر محمد رسول الله على دعوته ومنعه منهم أبو طالب وحماه . خرج أبو طالب في تجارة إلى الشام ، وكان محمد في ذلك الوقت في الثانية عشرة من عمره ، فتعلق بعمه ولم يشأ أن يفارقه ، فقال أبو طالب : والله

لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً . فخرج به معه ، وكانت هذه أول رحلة يقوم بها محمد إلى الشام . وفي أثناءها بلغت مسامع الصبي أخبار الرهبان والأخبار ، واستمع إلى أحاديثهم وما يروون عن أنبيائهم . ولم يخرج أبو طالب بعد ذلك إلى الشام ، وعاد محمد الصغير إلى رعى الغنم لأهل مكة ، إذ كان يرعاها لهم بالقراريط .

ثم إن محمداً كان يشارك أعمامه في الحياة العامة منذ صباه ، فاشترك في حرب الفِجَار الرابعة ، وسميت بالفجار لأنها كانت تنشب في الأشهر الحرام . وللعرب فجارات أربعة ، ويخبرنا بعض أهل السيرة أن محمداً كان يجمع السهام لأعمامه وهم يرمون أعداءهم ، ويخبرنا بعض آخر أنه اشترك فيها فعلاً ورمى السهام . أما أن هذه الحرب دامت أربع سنين ، فلا يُستبعد إذن أنه جمع السهام لأعمامه في أولها وهو في الخامسة عشرة أو نحو ذلك ، وربما في آخرها وهو قرب العشرين . ويروى عنه أنه قال : « وقد حضرته (أى حرب الفجار) مع عمومتى ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » وقال أيضاً : « كنت أنبل على أعمامى ، أى كنت أرد عليهم نبل علوهم إذا رموهم به .

استمرت حرب الفجار هذه بين قريش وهوازن أربع سنين ، ذلك أنها كانت تتجدد كلما اجتمع العرب في عكاظ . وانتهت بصلح دفعت فيه قريش دية عشرين رجلاً ، وهو عدد القتلى الزائد في جانب هوازن .

بعد هذه الحرب ، شعرت قريش - وكانت هوازن قد ساقتها في أول سنة منها إلى أن لاذت بالحرم منهم في الأشهر الحرام - ، بأن العرب قد طمعت فيهم ، وشعرت بما كان من خلافاتهم الداخلية ومنافساتهم من أر على موقفهم العام بين العرب . عندئذ دعى الزُبَيْر بن عبد المطلب إلى عقد حلف ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهْرَة ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وبنو تميم في دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتعاقدوا

وتعاهدوا على ألا يجحدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا جميعاً على من ظلمه حتى تُرد عليه مظلّمته . وسمى هذا الحلف بحلف الفضول ، وقد حضره محمد وهو ابن عشرين سنة .

ولقد اشتهر محمد منذ صباه بالصدق والأمانة ، فسمى الصادق الأمين . وكان شغوفاً بالتأمل رافضاً منذ بداية تأملاته وتفكيره لعبادة الأصنام . ثم إنه كان عزوفاً عن اللهو واللعب وأسباب المجون ، بعيداً عن الصغائر والتفاهات ، نقي القلب ، طاهر الروح ، عفيف اللسان ، كريم النفس .

يروى أن جماعة من أتريابه صغار الرعيان أغروه مرة بالذهاب معهم إلى مكة يلهون فيها مع السُّمَّار واللاهين . فعهد محمد بغنمه إلى أحد رفاقه الغلمان وتوجه إلى مكة مع أصحابه . غير أنه ما أن بلغ أول دار بمكة إذ سمع عزفاً بالدفوف والمزامير ، فوقف يستمع ويشاهد هذا العرس . وما لبث أن غلبه النعاس فنام ولم يستيقظ إلا على حرارة الشمس . كذلك ترك أغنامه مرة أخرى ، وأتى مكة لمثل هذا الأمر ، غير أنه سمع عزفاً وهو في بعض الطريق ، فجلس يستمع ، وإذا بالنعاس يغلبه هذه المرة أيضاً فينام حتى الصباح . ثم إنه لم يعد قط بعد هذا إلى التفكير في مثل هذا العمل .

ولما بلغ خمسا وعشرين سنة نصحه عمه أبو طالب ، وكان لا مال له يكفيه ويكفي عياله ، وقد اشتد عليهم الزمان ، بأن يعرض نفسه على خديجة ، وكانت قريش في ذلك الوقت تعد قافلتها لرحلة الصيف إلى الشام ، مطمئناً نفسه إلى أنها سوف تسرع إليه وتفضله على غيره . فما أن سمعت خديجة هذا الحديث حتى أسرعت فعلا وأرسلت إليه ، وعرضت عليه أن تعطيه ضعف ما تعطى أى رجل آخر من قومه إذا قبل وقام بشئون تجارتها . فقبل وباركه عمّه ، وخرج إلى الشام ومعه ميسرة غلام خديجة . ولقد أتاحت له هذه الرحلة التعرف برهبان الشام وأخبارها والحديث إليهم والاستماع عنهم

والتعرف على أحاديثهم ، أكثر مما أتاحت له رحلته الأولى بطبيعة الحال .
نجح محمد أيما نجاح في تصريف شئون تجارة خديجة وربح لها ربحاً
وفيراً ، ورجع مع القافلة رابحاً غانماً سعيداً . فلما بلغوا مكة في ساعة
الظهيرة ، كانت خديجة تنتظره في عليقة لها ، فلما رآته نزلت إلى فناء
دارها واستقبلته . ولقد ربحت تجارتها هذه ضعف ما كانت تربح مثيلاتها ،
فأضعفت له ما سميت له .

وكانت خديجة امرأة حازمة جليدة شريفة لبيبة . وهي فوق ذلك
أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا . ولقد عرض كثيرون
من سادة قريش وأشرفها الزواج منها وطلبوها فرفضتهم وفضلت عليهم
جميعاً الصادق الأمين . قالت نفيسة بنت منية إن خديجة أرسلتها تستطلع
رأيه في الزواج منها ، فأتته وقالت : ما يمنعك أن تزوج ؟ فقال : ما بيدي
ما أتزوج به . قالت : فإن كنتك ذلك ، ودعيت إلى الجبال والمال
والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فن هي ؟ قالت : خديجة . قال :
وكيف لي بذلك ؟ قالت : على ذلك ، فأنا أفعل . ثم لأنها أخبرت خديجة بهذا
الحديث ، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا ، وأرسلت إلى عمها عمرو بن
أسد ليزوجها . وحضر أبو طالب وأعمام محمد وعقد زواجه على خديجة .

كانت هي في ذلك الوقت في الخامسة والعشرين في رواية ، أوفى الخامسة
والثلاثين في أخرى ، أوفى الأربعين على قول ثالث . وأغلب الظن أنها
كانت في الخامسة والعشرين في مثل سنه . انتقل محمد إلى بيتها ، وبدأت
مرحلة جديدة تماماً في حياته . فها هو يتعرف على المرأة ودفتها وحنانها
لأول مرة في حياته . وها هو ينتقل من حياة الفقر إلى حياة النعيم والثراء .
ثم إن خديجة كانت بليساً شافياً لكل جراحه ، ودواء لكل كروبته وآلامه .
كفته كل شيء : حب المرأة وحنانها ، عطفها وبرها ، إيمانها به وتفانيها
في خدمته ، وحرصها على راحته ، وبذلها مالها في سبيل رضائه وسعادته .

وما أروعه عندما قال لعائشة يوماً عندما غارت من كثرة ذكره خديجة :
« لقد واستنى في مالها (أى أعطتني منه) ، إذ حرمني الناس ، وصدقتنى إذ
كذبنى الناس » .

وكان محمد منذ صباه نزاعاً إلى التفكير والتأمل ميالاً إلى الوحدة
ولا عجب أن يحدث في مجتمع نالت فيه المرأة كل هذه المنزلة العظيمة ،
واستقلت فيه بشؤونها وكانت نداءً للرجل في كثير من الأحيان ؛ مثلما فعلت
خديجة ، إذ كفت حبيبها محمداً مؤونة العمل وإرهاقه ومشاغله ، فقامت هي
بشئون البيت وشئون تجارتها ، وتركت هذا التأمل حراً كامل الحرى
لا يحمل من هموم الدنيا شيئاً ، لينصرف إلى أفكاره وتأملاته التي كانت
تشغل الجزء الأكبر من وقته

غير أن محمداً لم يصرف كل وقته في هذه الأفكار والتأملات ، وإنما
كان يشارك أهل مكة في الأمور العامة أيضاً . فكان يحارب في صفوفهم
كما رأينا في حرب الفجار ، ويحضر أحلافهم كما حضر حلف الفضول ، ويحكم
بينهم كما حدث عند هدم الكعبة وبنائها . وكان أهل مكة قد أجمعوا على
ضرورة هدم الكعبة وبنائها بعد أن انصدعت من السيول . ولما بلغ البنيان
الجديد موضع الحجر الأسود اختصمت القبائل ، تريد كل قبيلة أن ترفعه إلى
موضعه دون الأخرى ، وكاد القتال أن ينشب بينهم . فغمس بنو عبد الدار
وبنو عدى بن كعب بن لؤى أيديهم في جفنة مملوءة دماً وتعاهدوا على
الموت ألا يفعل ذلك أحد غيرهم ، فسموا لذلك لعقة الدم . وعندما تأزمت
الأمور إلى هذا الحد ، مكثت قريش أربع يال أو خمساً لا تتوصل إلى
حل . وأخيراً اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فقال أبو أمية
ابن المغيرة ، وكان إذ ذاك أسن قريش كلها : يا معشر قريش ! اجعلوا
بينكم فيما تختلفون فيه أول داخل يدخل من باب هذا المسجد . فدخل
عندئذ محمد ، فلما رأوه أجمعوا على الرضا بحكمه . فلما أخبروه بسط رداءه

على الأرض وأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال : ليأت من كل قبيلة من قبائل قريش الأربع رجل ، فجاءه أربعة رجال ، فطلب منهم أن يأخذ كل واحد منهم بزواوية من زوايا الرداء ، ثم يرفعه جميعاً ، ففعلوا ، وتناول هو الحجر ووضعه في موضعه . وفي هذه القصة دليل وأى دليل على المكانة التي بلغها محمد في الحياة العامة في قريش ، فهاهو ذا أصغرهم سناً ، ولم يكن في رواية قد تجاوز الخامسة والعشرين ، وفي أخرى الخامسة والثلاثين ، فضلاً عن أنه كان أقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم لعدله ورجاحة عقله في أعز ما يقصدون ، وكانوا بالأمس على شفا الحرب يكاد يقتل بعضهم بعضاً .

وواقع الأمر أن شيئاً كثيراً لا يعرف عن محمد في هذه الفترة التي مرت بين زواجه وهو في الخامسة والعشرين إلى أن نادى برسالته وهو في الأربعين . نعرف فقط أنه أنجب من خديجة في هذه الفترة ابنه القاسم ، وعبد الله ، وبناته زيلب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . وأن القاسم وعبد الله توفيا وهما لا يزالان في سن الطفولة . وأما زينب كبرى بناته فزوجها من أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس وهو ابن خالتها . وزوج رقية وأم كلثوم إلى عتبة وعُتَيْبَةَ ابني عمه أبي لُب اللذين سرحاهما بأمر أبيهما بعد الإسلام . وأما فاطمة فكانت لا تزال طفلة ، وهي التي تزوجها علي بعد الإسلام .

ثم إن محمداً كان في هذه الفترة يختلف إلى الأسواق والمنتديات يستمع إلى أحبار اليهود وكهنة النصارى ما يبشر به كل منهم في أمر دينه ، وما يعارضون به العرب في شأن الأصنام . وكان من عادة مفكرى العرب أن ينقطعوا إلى مكان بعيد منعزل يتعبدون فيه ويتأملون . وكانت العرب تطلق على هذا الانقطاع التَّحَنُّفُ أو التَّحَنُّتُ . وكان محمد يتحنف في غار حيراء على شرع إبراهيم . ويقع هذا الغار في أعلى جبل حيراء على فرسخين من شمال مكة . وبينما محمد نائم في الغار ذات يوم وكان قد بلغ

الأربعين من عمره في ذلك الوقت إذ به يسمع صوتاً يقول : اقرأ ، فقال محمد : ما أنا بقارئ ، فقال : اقرأ ، فقال : ماذا أقرأ ، قال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم»^(١) فقرأها محمد ، ثم هب من نومه فزعا . وعاد إلى منزله مضطرباً وجلاً يرتعد كأنما أصابته حمى شديدة ، ودخل على خديجة ، وهو يقول زملونى ، فزملته . وبعد أن هدأت نفسه بعض الشيء نظر إلى خديجة وهو يرتعد . وأفضى إليها بمخاوفه أن يكون كاهنا وقال : يا خديجة ! مالى ؟ غير أنها لم تبد له خوفاً عليه ولا وجلاً مما حدث وطمأنته وقالت : « أبشر يا بن عم واثبت . فوالذى نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . ووالله لا يحزنك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكتل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

عندئذ هدأت نفسه واطمأن باله واستسلم إلى النوم . واستيقظ ليبدأ كفاحاً نسيج وحده ، وليبشر برسالته ، وليضع أساس مجتمع غير تاريخ العرب ، بل تاريخ البشرية .

الفصل الثاني

التبشير بالرسالة في مكة

كانت خديجة إذن أول من صدقه وأول من أسلم وعلم بأن ملاكاً اسمه جبريل يأتيه ويوحى إليه بالقرآن . وما أن هدأت حال محمد بعد عودته من غار حراء ، وإخباره إياها بقصة هذا الملاك ، حتى جمعت عليها ثيابها ، وأسرعت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، الشيخ الأعمى الحكيم . وكان ورقة قد تنصر في أيام الجاهلية ، وقرأ الكتب الدينية النصرانية ، وسمع حكايات أهل التوراة والإنجيل ، وما فيها من تنبؤات بظهور نبي جديد . أخبرته بما قصه عليها محمد فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليشبهت .

رجعت خديجة إلى محمد وأخبرته بما بشرها به هذا الحكيم المطلع على كتب الأقدمين . ثم إن ورقة لقي محمداً بعد ذلك وهو يطوف بالكعبة ، فقال : أخبرني يا بن أخي بما رأيت وسمعت ، فأخبره محمد ، فقال له ورقة : والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولسوف يكذبك الناس ويؤذونك ويخرجونك من ديارك ويقاثلونك ، ولئن أدركت ذلك اليوم ، لأنصرن الله نصراً يعلمه ، وأدنى رأسه منه فقبل يافوخه . ثم انصرف محمد إلى بيته ، لا يشك في أنه رسول حبه السماء بعطفها وخصته برسالة يوحى إليه بها ملك من عند الله ، يأتيه في نومه وفي يقظته .

ولكن هل ستضطهده قريش وتخرجه من مكة وتؤذيه ؟ أى نعم ،

وأين الرجل الذى خالف قومه فى أعز مقدساتهم وسفه أحلامهم واعتدى على دينهم ولم يضطهدوه ولم يؤذوه ؟ هذه طبيعة الأشياء لا عجب فى ذلك . ولا شك فى أن محمداً فكر فى هذا كله ، وأصر على أن يجابه وحده هذا كله . يجابه أهله وعشيرته والعرب الأقربين والأبعدين ، والناس كلهم ، بما يعتقد هو أنه الحق ، لا تلين قناته ، ولا يضعف إيمانه ، ولا تخور نفسه ، ولا تهن قواه . أصر وانتصر . وعاشت أفكاره من بعده حتى الآن أربعة عشر قرناً من الزمان . يالها من قصة ، ويا له من كفاح ، ويا له من بطل !

سبق أن قلنا إن أهل مكة كانوا يعتقدون فى الله ، و أنه سميع مجيب ، وأنه خالق السماوات والأرض ، وأنه حكيم عليم بصير ، ولكنهم أشركوا به فجعلوا الأصنام بمثابة شفعاء بينهم وبين الله . غير أن محمداً رفض هذه الشفاعة ورفض أن يكون بين الإنسان وربه أى شفيع فى هذه الدنيا ، ولا هو ذاته ، وفى ذلك يقول القرآن : « قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً »^(١) وقوله : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً »^(٢) . فالإنسان فى الإسلام تحت سماع الله وبصره وحده ، وهو العالم فقط بما يخفى وما يبطن . ولذلك رفض محمد رفضاً باتاً نظام الرهبنة ونظام القديسين ، فكان الإسلام من هنا نقيض المسيحية . وما الأصنام فى عبادة العرب الذين كانوا يؤمنون بالله إلا بمثابة القديسين فى المسيحية .

هذا إذن محمد يقول للعرب إنه يؤمن بالله الذى يؤمنون به ، ولكن الله هذا فريد بذاته : « هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »^(٣) . وأن الله لا شريك له ، وأنه لا يقبل شفاعة ، وأن هذه الأحجار

(٣) لؤى - ص .

(٢) الفج ١١ .

(١) الجن ٢١ .

لا تضر ولا تنفع . وإنما ينفع الإنسان ما قدم في دنياه هذه من خير أو شر ، وأن العمل الصالح هو وحده شفيعه عند الله . وهكذا واجه مجتمعه أول ما واجه بهذه الأفكار .

كان علي بن أبي طالب أول من آمن بالإسلام بعد خديجة ، وكان في ذلك الوقت صبياً في كفالة محمد يعيش في بيته وتحت رعايته لم يجاوز العاشرة من عمره ، وقصة ذلك أن أزمة شديدة كانت قد أصابت قريشاً ، وكان أبو طالب كثير العيال . فاقترح محمد على عمه العباس ، وكان من أيسر بني هاشم ، أن ينطلقا إلى أبي طالب ليخففا عنه من عياله ، يأخذ العباس رجلاً ويأخذ محمد رجلاً يكفله عنه . فانطلق العباس ومحمد حتى لقيا أبا طالب ، فأخبراه بما يريدان من التخفيف عنه حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه . فوافق أبو طالب على أن يتركاه له عقيلاً . فأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه ، وأخذ محمد علياً فضمه إليه .

وفي هذا الوقت المبكر من دعوة محمد لأهل مكة بدينه الجديد ، حصل على أول انتصار كبير ، إذ وعد عمه أبو طالب بحمايته إذا تعرض للاضطهاد وإن لم يشأ أن يتبع الدين الجديد . وكان معنى هذا بطبيعة الحال حماية بنى هاشم لمحمد ؟

وكان محمد إذا حضرت مواعيد الصلاة يخرج إلى شعاب مكة مستخفياً من عمه ومن الناس ، ومعه علي الصغير . وذات يوم عثر عليهما أبو طالب وهما يصليان ، فقال لمحمد : يا بن أخي ، ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثني الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أي عم أحق من بدلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجباني إليه ، وأعانتني عليه . فقال أبو طالب : أي ابن أخي ، إني والله لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت .

أمّا ثالث المسلمين فزيد بن حارثة ، وكان هو الآخر يعيش في كنف

محمد في ذلك الوقت . وإن في قصة زيد مع محمد لأبلغ دلالة على ما عرف
عن محمد من حسن عشرته وجم أدبه وحلمه وعفوه وجوده وكرمه
وسماحته وشفقته ورأفته وتواضعه وعدالته وطفانيان النزعة الإنسانية فيه .
فهذا زيد في مجتمع لا يقدر شيئاً كتقديسه للحرية ، يؤثر العبودية مع محمد
على الحرية مع أبيه وأعمامه وبين قومه . يا للعجب ! وكيف كان ذلك ؟

يروى أن حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق منه زيد
ابن حارثة : فلما دخلت عليه عمته خديجة ، أهدى لها أي غلام اختارت ،
فأخذت زيداً ، فلما رآه محمد استوهبه منها ، فوهبته له . وكان أبو زيد
قد جزع على ولده جزعاً شديداً ، وأخذ يتقصى أخباره ، فلما علم أنه عند
محمد قدم ومعه شقيقه كعب حتى بلغا محمداً ، وأخبراه أنهما إنما جاءا في
ابن لهما عنده ، وطلبا منه أن يمن عليهما في فدائه ، قال : ومن هو ؟
قالا : زيد بن حارثة ، فقال محمد : فهلاً غير ذلك ؟ قالوا : وما هو ؟
قال : ادعوه فأخبره ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارني فهو لي ،
فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً . قالوا : قد زدتنا على
النصف وأحسننا إلينا . فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم .
قال : من هذا ؟ قال : أبي ، وهذا عمي . قال : فأنا من قد علمت ،
وقد رأيت صحبتي لك ، فاخترني أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالذي
أختار عليك أحداً ، أنت مني مكان الأب والعم ، فقالوا : ويحك يا زيد !
أختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ،
قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . فلما
رأى محمد ذلك خرج به إلى الناس فقال : يا معشر من حضر ، اشهدوا أن
زيداً ابني يرثني وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفساهما وانصرفا .
ودُعي زيد بن محمد زمناً ، حتى أبطل الإسلام نظام التبني فدعى زيد
ابن حارثة .

انحصر الإسلام الآن إذن في هؤلاء الأربعة ، محمد والذين آمنوا به من أهل بيته ، خديجة وعلى وزيد . ولم يكن أحد من قريش يعلم بهذا الأمر غير ورقة بن نوفل وأبي طالب . غير أنه كان لزاماً على محمد بطبيعة الحال أن يدعو الناس لدينه ، ولكن كان الجهر بالدعوة وهو لا يزال ضعيفاً وحيداً أمراً مخفوفاً بأشد المخاطر . لذلك عمد إلى أن يسر بما في نفسه إلى من يثق فيهم من أهل قريش . ومن أكثر من أبي بكر حليماً ودعة وقوة خلق في قريش ؟ والحق أن أبا بكر لم يخلد محمداً ، فما أن أسر له بما في نفسه حتى أسرع إلى تصديقه والإيمان به . ولقد أُرعن محمد أنه قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ، ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما تأخر عنه حين ذكرت له وما تردد فيه » .

وظل محمد وأبو بكر يدعوان الإسلام سرّاً خشية إثارة قريش . ولقد استطاع أبو بكر في هذه الفترة الأولى أن يقنع عدداً من رجالات قريش بالإسلام ، هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله . وكلهم كان له شأن كبير في تدعيم الإسلام أولاً وأخيراً . والحق أن في أمثال هؤلاء إلى جانب محمد والإسلام ، قوة كبيرة ولا شك لا يستهان بها ، وعزة لها قيمتها . وانقضت ثلاث سنين ، ظل فيها أمر الدعوة سرّاً ، إلى أن بلغ المسلمون أربعين أو خمسين رجلاً وامرأة . وكان المسلمون في تلك الفترة يقيمون الصلاة سرّاً في الشعاب بعيداً عن أعين المترصدين لهم من أهل مكة .

أمّا أن أتباع محمد قد بلغوا أربعين أو خمسين ، فأمر كان لا يمكن أن يخفى على أهل مكة . عندئذ بدأت أولى محاولات التصدي لمحمد وأصحابه . إذ تبع جماعة من المشركين سعد بن أبي وقاص وفاجأوه وهو يصلي مع نفر من المسلمين في أحد شعاب مكة (الشعْبُ ما انفرج بين الجبلين) .

وعابوا عليهم ، ما يفعلون وأهانوهم وقاتلوهم ، ولم يكن سعد قد بلغ العشرين من عمره وقتذاك ، ولكن ما كان هذا الفتى الصنديد ، الذى وصفه عبد الرحمن بن عوف فيما بعد بالأسد فى برائه ، والذى كان أول من ضرب بسهم فى الإسلام ، والذى فاخر به محمد وفداه بأبيه وأمه ، والذى هزم لإمبراطورية الفرس ، ليرضى بهذا الضيم ، فتناول فى ثورته عظمة بعير من الأرض وضرب بها رجلا من المشركين فسال دمه اىكون أول دم أريق فى سبيل الإسلام . بعد ذلك جهر محمد بدعوته وتحدى العالم أجمع بهذه القلة المؤمنة ،

لما جهر محمد بدعوته بدأ أولا بأقرب أهله . فدعاهم إلى طعام فى بيته ، وكلمهم فى أمر الوحي وأمر الدين الجديد ، غير أن عمه أبا لُب غضب وقطع حديثه وقام من مجلسه وحرّض الباقيين على مقاطعته . ثم إنه دعاهم فى اليوم التالى وأطعمهم ، ثم حدثهم مرة ثانية فى أنه قد جاءهم بخير الدنيا والآخرة ، وطلب منهم أن يؤازروه فى الدعوة للدين الجديد ، غير أنهم أعرضوا عنه جميعاً . عندئذ أخذت على بن أبى طالب الحمية وبلغ الحماس من نفسه مبلغاً كبيراً ، وتأججت فى روحه مروءة البطل الصغير ، وكان لا يزال دون الحلم ، فنهض واقفاً متحدياً وقال : « أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على من حاربت » . كان أبو طالب حاضراً هذا الجمع ، ولسنا ندرى ماذا حدثته نفسه فى أمر هذا البطل الصغير .

لم تستمع له عشيرته الأقربون ، وظلوا على غيهم وعنادهم بقيادة عمه أبى لُب . غير أنه لم يهن ولم يضعف ولم ييأس . وذات يوم قرر مواجهة قريش دفعة واحدة ، فصعد على الصفا ونادى : « يا معشر قريش ! » فقال الناس إن محمداً على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه ، وقالوا : مالك يا محمد ؟ فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟ ، قالوا : نعم ، أنت صادق ، وما عهدناك تكذب قط . قال : فلأنى

نذير لكم بين يدي عذاب شديد ! يا بنى طالب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ، يا بنى تيم ، يا بنى مخروم ، يا بنى أسد ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله » فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ، لهذا جمعنا ؟ وانفض القوم .

تابع محمد دعوته هو وأصحابه ، بعضهم يجهر بها وبعضهم يسرها لمن يثق فيه من أهل مكة . غير أن قريشاً لم تتعرض لمحمد ولا لأحد من المسلمين بأذى ولم يرد عليه أحد من قومه ، إلى أن تعرض لآهنتهم فسبها وعابها . وهنا أخذت قريش حمى شديدة قلبتها رأساً على عقب ، وتبدل الهدوء السابق بحركة تزعمها كبار رجال قريش دفاعاً عن آهنتهم ، وما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم ، ثم دفاعاً عن منزلتهم بين العرب أجمعين ، وحفاظاً على تجارتهم . غير أن الأمر لم يكن سهلاً هيناً ، فكيف بهم يُسْكِتُونَ لسان محمد ويكفونه عنهم . لم يكن استخدام القوة مما ورد بخاطرهم ، ذلك أن القوة سوف لا تثمر إلاّ أمر الثمرات لقريش كلها . فهذا أبو طالب يحمي ابن أخيه بالمال وبالدم وبالولد ، وقس على ذلك كل رجل آخر من المسلمين ما كان أهله ليسلموه ، وما كانوا ليتفاضوا عن دمه إن قتل . وتلك كانت عوائل العرب وسنتها .

موقف عصيب وأزمة تكاد تلتق بقريش كلها في برائن فتنة لا يعلم أحد مداها . غير أن زعماء الفئة المناهضة لمحمد فكروا في اللجوء إلى عم أبي طالب ، فمشوا إليه وفيهم من أشرف مكة عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل ، والعاص بن وائل وغيرهم ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آهنتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا ، فلما أن تكفه عنا ، وإمّا أن تحمل بيننا وبينه ، فإنك لست على دينه مثلنا فنخلصك منه ، فترفق معهم أبو طالب وردم رداً جليلاً فانصرفوا عنه .

لم يهدأ محمد ولم يكف عن دعوته ، بل إنه اشتد فيها وتكاثر أعدائه شيئاً بعد شيء ، وإن كان تكاثرهم بطيئاً ، وإنما كان أكيداً . أسقط في يد أولئك الأشراف الذين يناهضون هذه الدعوة إمّا حرصاً على التجارة ، وإمّا حسداً وضحينة أن يكون نبي من بيت غير بيوتهم ، وإمّا تدينا ، وهذا أضعف الإيمان .

فلما رأت قريش أن أبا طالب لن يسلم إليهم محمداً ولن يكفه ، وإن لم يدن بدينه ، وأن محمداً ماض في نشر دعوته وفي تسفيه أحلامهم وشم آهلتهم ، قرروا أمراً آخر يكون فيه تهديد ووعيد وإظهار للقوة واستعداد لاستخدامها ، فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك عنا فلم تنه ، وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . ثم انصرفوا .

عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ثم إن نفسه لم تطب بتسليم محمد لهم ولا بخذلانه ، فاستدعاه وقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فابق على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فظن محمد أن عمه قد ضعف عن نصرته ، وأنه خاذله ومسلمه لهم ، فقال له : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

قال محمد قولته الخالدة هذه ، ثم خنفته العبرة وتحادرت دمعات على خديه ، وقام . فما كاد يولى ظهره حتى أخذت هذه الإرادة القدسية بمجامع قلب الشيخ الكبير ، فما ملك إلا أن ينادى ابن أخيه أن يقبل عليه ، فلما أقبل قال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

أيقنت قريش أن أبا طالب لم يستجيب للتهديد ولا للوعيد ، وأنه لن يستجيب ، وأنه ماض في عزمه على حماية ابن أخيه ومنعه منهم ، وإن أقتلوا وقامت الحرب بن قبائل قريش ، وأنه ، أهله قد أجمعوا على فراقهم وعداوتهم إن هم تعرضوا لمحمد بالأذى ، وأن الحرب ستكون حرباً عواناً يهلك فيها الكبير والصغير إن هم قتلوه . عندئذ فكر أشراف قريش المناهضين لمحمد ولبنى هاشم في أن يعرضوا أبا طالب عن محمد فتى من أشد فتیان قريش وأكملهم . فمشوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وعرضوا على أبي طالب أن يأخذه ويسلم لهم محمداً ليقتلوه به . غير أن أبا طالب غضب أشد الغضب ، واستنكر هذا المنطق الغريب الذي لا يجوز قبوله من شريف عظيم من أشراف بني هاشم ؛ وقال لهم غاضباً : والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيتكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً . فقال المَطعم بن عدى : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وبدلوا ما بوسعهم لتخليصك من الحرب ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . قال أبو طالب : والله ما أنصفوني ، ولكني أراك قد خذلتني وأعنت القوم علىّ ، فاصنع ما بدا لك .

فلما أيقن القوم أن أبا طالب قد غضب ، وأنه لم يرض بما اعتقلوا أنه إنصاف له ، قالوا : ارسل إليه وآتنا به ونحن نعرض عليه عرضاً منصفاً . فأرسل إليه أبو طالب فجاء فقال له : يا بن أخي ، هؤلاء عمومتك . وأشراف قومك ، وقد أرادوا أن ينصفوك . فقال : قولوا أسمع ، قالوا : تدعنا وآهتنا ، وتدعك وإهلك . قال أبو طالب : قد أنصفك القوم فأقبل منهم . غير أن هذا الذي قال بالأمس « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه » ما كان الآن ليقبل شيئاً آخر ، قال : رأيتم إذا أجبتمكم ، فهل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ، ملكتم بها العرب ، ودانت لكم العجم ؟ فقال أبو جهل : إن هذه

لكلمة مريحة ، نعم وأبيك لنقولها وعشر أمثالها . قال : قولوا لا إله إلا الله .

تحد رهيب ، وإضرار نفس لا تراجع ، وإرادة لا يفلها الحديد ، وعزم تهون أمامه أشد الصعاب ، وجراحة يحسب لها ألف حساب ، وإيمان تتصاغر أمامه هم الصناديد والجبارة ، وإقدام تهزله القلوب . يا محمد !

اشمأز القوم لهذا التحدى وثار ثائرتهم فقاموا والغضب يتطاير من أعينهم ، والحقد يغلي في صدورهم . ثم أجمعوا أمرهم على ألا يعودوا لمصالحته مرة أخرى ، وأنه لا مفر من اغتياله . فلما تراهى إلى سمع أبي طالب هذا الخبر مساء تلك الليلة ، خرج وعدد من عمومة محمد إلى بيته يطلبونه . فلما لم يجدوه في بيته ، أمر أبو طالب فجمع فتيانا من بنى هاشم وبنى المطلب ثم قال : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ، ثم ليتبعنى إذا دخلت المسجد فليجلس كل فتي منكم إلى عظيم من عظمائهم فليقتله إذا ما بلغنا أن محمدا قد قتل . فقال الفتيان : سمعاً وطاعة . وعندئذ دخل عليهم زيد بن حارثة . فبادره أبو طالب قلقاً متلهفاً ملئاً : يا زيد ، هل رأيت ابن أخى ؟ قال : نعم ، كنت معه آنفاً . قال أبو طالب وقد استرد أنفاسه وهدأت مخاوفه : لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه ، فخرج زيد مسرعاً حتى أتاه وهو في بيت عند الصفا ، ومعه أصحاب يتحدثون ، فأخبره الخبر : فتركهم محمد وعاد إلى عمه فبادره أبو طالب قائلاً : يا ابن أخى ، أين كنت ؟ أكنت في خير ؟ قال : نعم ، قال : ادخل بيتك . فامثل محمد للأمر ودخل بيته . لرتاح قلب الشيخ المحب .

وفي صباح اليوم التالى ذهب أبو طالب إلى بيت محمد ، واصطحبه إلى حيث تجتمع قريش وأخذ بيده ومن جوله فتيان بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وقال : يا معشر قريش ، هل تدرؤن ما هممت به ؟ قالوا : لا . فأخبرهم

بما كان قد هم به في مساء الليلة الماضية ، وقال للفتيان : اكشفوا عما في أيديكم ، فكشفوا فإذا كل رجل فيهم معه حديدة صارمة . فقال : والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نفنى نحن أو أنتم .

وتعاهد بنو هاشم وبنو المطلب وعلى رأسهم أبو طالب على أن يمنعوا محمداً من قريش ويحموه ، ولم يخرج عن إجماعهم إلا عمه أبو لهب فقط ، فانحاز إلى صفوف المناوئين لبني هاشم ، وكان أشد عداوة لمحمد من بني أمية .

ماذا إذن ؟ هل ستنشأ الحرب بين الفريقين ؟ هل يقدم هؤلاء على حرب بني هاشم ؟ الحق أنه قامت حروب بين أحياء العرب لأسباب أوهى من ذلك كثيراً ، ولكن يبدو أن بني أمية - وهم كانوا أصحاب المصلحة الكبرى في تجارة مكة في ذلك الوقت - قد فطنوا إلى ما قد تجره حرب كنتك من تخريب لهذه التجارة ، ومن إفقار لكل من في مكة ، ومن إضعاف لنفوذ قريش في جزيرة العرب بعد أن أصبحت تملك منزلة لا يطاولها فيها أى من قبائل العرب الأخرى . فكيف بهم يحطمون كل هذا ، ليبقى من يبقى منهم ودموعه على خديه ، يرثى مجدأ زال ، وعزاً مضى ، وقبلاً فتك أفرادهم بعضهم ببعض .

لا شك في أن المصلحة التجارية هنا كانت نصب أعين الجميع ، ولذلك لم تشهد مكة من أعمال العنف أو أعمال التهور ما اتسم بطابع العنف الشديد أو أخذ صورة تهجم يفوق حد الاحتمال وحد التسامح بين أبناء العمومة وأفراد القبيلة الواحدة . ولا جرم أن كل فريق حرص أشد الحرص على ألا يأتي عملاً يكون من شأنه أن يفجر في نفس الفريق الآخر حُمى النار وغضب الانتقام المر .

ثم إن محمداً لم يهدم دينهم من أساسه ، بل إنه أبقى على جوهر الدين وهو اعترافه بأن الله خالق السماوات والأرض ، وأنه سميع مجيب ، عليم

بصير ، وأنه هو الذى ينزل الغيث ، وأنه هو الذى يحيى ويميت . وكل هذه أمور كانت من معتقدات قريش . ولا أدل على ذلك من مخاطبة القرآن لهم فيها وتذكيره إياهم أنهم يؤمنون بهذا كله . إذن فمحمد لم يمس جوهر الدين ذاته . والحق أن عبادة الأصنام لم تنج من التعرض للنقد ، وللخضوع لأحكام العقل . ولقد أغنانا الشاعر العربى الناقد المفكر الحر رأى الذى قال فى هذه الأصنام إذ رأى ثعلبا يبول برأس صنم منها :
أربُّ يبول الثعلبان برأسه ألا ذلّ من بالت عليه الثعالب

ثم إنه لا ينبغي أن ننسى أن النصرانية واليهودية كانتا قد انتشرت فى بلاد العرب ، وكانت قبائل عربية قد اعتنقتها ، فما حاربها أحد ولا عارضها معارض . فضلا عن أنه كان يوجد بمكة مبشرون بالمسيحية ، بل لقد كان من أهل مكة ومن بين بني عبد مناف ذاتهم رجل حكيم عاقل فاضل تنصر ، وهو ورقة بن نوفل ، فما عارضه أحد ، وما اضطهده أحد ، وما أجبره أحد على الارتداد إلى دين الآباء والأجداد . كذلك يقال بأن قس بن ساعدة كان يخطب فى الأسواق داعيا العرب إلى إله واحد ، فما مسه ولا اضطهده أحد . إذن لم يكن هناك فى واقع الأمر من سبب أصيل فى هذا الجو المثالى من حرية الفكر التى سادت فى بلاد العرب ، يترتب عليه أكثر من اضطهاد لا يبلغ حد القتل والأخذ بالنار وإشعال نار فتنة كبرى لا تبقى ولا تذر .

بدأت قريش عصر اضطهاد لمحمد ولأصحابه من المسلمين ، ولكنه اضطهاد اتصف بكثير من التسامح وروح العطف ، ولم يرتق فى يوم من الأيام ليصبح اضطهاداً دمويّاً بما يفهم من معانى الاضطهادات الكبيرة التى حدثت فى التاريخ ، وراح ضحيتها آلاف وعشرات الآلاف من الأنفس ، وعذب فيها الناس عذاباً الموت أرحم منه : كلا ثم كلا ! فهنا اضطهاد من نوع خاص هو اضطهاد رجال لرجال يحرض كل منهم أشد الحرص

على ألاّ يدفع هذا الاضطهاد إلى درجة إسالة الدم ، أو إهداره . وتدلنا جميع الأحداث على أن كلا الطرفين قد حرص أشد الحرص على تجنب القتال في هذه المرحلة من مراحل الصراع .

أخذت كل قبيلة تؤذى من أسلم منها بلغوا القول وهجر الكلام وفحشه ، وتقتصر على ذلك إن كان من أبنائها. القرشيين الأشراف ، وتمتد اليد والعصا إن كان عبدا رقيقا من المستضعفين . ولم يحدث في ذلك الوقت أن تشابكت الأيدي بين القرشيين إلاّ في أحوال نادرة جداً ، أو رفع أحدهم عصا على آخر ، أو ضربه فأسال دمه ، كما فعل سعد بن أبي وقاص .

عذّب أميّة بن خلف عبده الحبشى بلالاً ليرجع عن الإسلام ، بأن كان يضع حجراً كبيراً على صدره ويتركه في لهيب الشمس المحرقة ، وبلال لا يقول إلا « أحد . أحد . » ولقد احتمل هذا العذاب المصنئ ، حتى رآه أبو بكر يوماً فاشتراه وأعتقه كما اشترى عدداً غيره من العبيد الذين أسلموا وأعتقهم . ولسنا نعلم أن أحداً من الرقيق مات من التعذيب غير امرأة واحدة .

وتطرف أبو جهل مرة وألقى على محمد رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام وهو يصلى في المسجد الحرام ، فاحتمل محمد هذا الأذى ، ولم يفعل أكثر من مغادرة المسجد في هدوء إلى حيث نظفت ابنته فاطمة ثيابه . ونقع على حادثة أخرى تبين لنا أن جماعة من قريش أحاطوا بمحمد ، وأخذ رجل منهم بمجمع رداءه ، فقام لهم أبو بكر وهو يبكي ويقول « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ » وكانت امرأة. أبي لهب تلقى النجس أمام بيته ، فلا يفعل أكثر من إزالته . وفضلاً عن هذا فقد كان محمد إذا مر بقوم منهم سخروا منه وآذوه بفحش القول وهجر الكلام . هذه هي الصورة

العامة لمجمل الاضطهادات التي تقع عليها وعلى قليل مثلها في كتب السيرة .

أصرت قريش على عداؤها لمحمد ودين محمد ، وهو لا يزداد إلا إيماناً بما يعتقد أنه الحق ، ويبالغ في الاستهانة بهم والاستخفاف بأوثانهم ، لا يصدده صاد ولا يمنعه أذى أو اضطهاد .

ولما حضر أول موسم للحج بعد هذه الأحداث ، وكان المسلمون قد جهروا بدعوتهم وسمعت العرب بها ، ونخشيت قريش أن يحدث المسلمون العرب في أمر هذا الدين ويدعونهم إليه ، اجتمع نفر منهم إلى الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم وشرف ، فقال لهم : يا معشر قريش ، لقد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستفد عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأياً نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : لا ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهَّانَ فما هو بزمنة الكاهن ولا سجيته ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقته ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجَّره وهزَّجه وقريضته ومقبوضته ومبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفته ولا عقده ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لتجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر يُفرِّق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

ولما حضر موسم الحج تفرق رجال قريش بين الذين قدموا الموسم يخوفونهم منه ويحذرونهم من أن يستمعوا إليه . غير أنه مهما يكن من أمر فإن وفود للعرب لا بد وعت كثيراً مما كان يقول محمد لقومه ، ووقفت على فحوى دعوته وما يبشر به . ولا مرية في أن خبر الدعوة إلى الإسلام ذاع في طول الجزيرة وعرضها بعد هذا الموسم .

وفي تلك الأثناء أعز الإسلام رجل " اهتزت قريش لإسلامه ، هو حمزة ابن عبد المطلب ، عم محمد وأخوه في الرضاع . وقصة ذلك أن أبا جهل مرّ بمحمد وهو عند الصفا فأذاه وشتمه ، وعاب دينه ، فلم يكلمه محمد ولا رد عليه وتركه وانصرف . وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان بمقربة منهما قد سمعت ما قال أبو جهل . فلما أقبل حمزة بعد قليل وهو عائد من الصيد متوشحاً قوسه ، وكان حمزة من أعز فتيان قريش وأشدّهم شكيمة ، مر بها فقالت : يا أبا عُمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آتفا من أبي جهل بن هشام ، عند ما وجده هنا جالساً فأذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ، فغضب حمزة ، وراح يبحث عن أبي جهل حتى وجده جالساً في قومه في المسجد ، فأقبل نحوه ورفع قوسه إلى رأسه فضربه ضربة شجته . ثم قال في ثورته : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك على إن استطعت . فقامت رجال بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عُمارة ، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحاً . ولم يرجع حمزة عما قال ، وأعلن إسلامه إعلاتاً صريحاً ، فعز به محمد وامتنع .

وبلغت مضايقات المشركين للمسلمين مبلغاً كبيراً ، فلما رأى محمد ما يتعرض له أصحابه من البلاء والاضطهاد قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن فيها ملكاً لا يظلمُ عنده أحد - وهي أرض صدق - حتى يجعل الله لكم فخرًا مما أنتم فيه . وأغلب الظن أن تحريض الرسول أصحابه

على الهجرة إلى أرض بعيدة كالحيثة ، لم يكن لأسباب سياسية كما ظن البعض ، وإنما يلوح جليا بأنه كان حركة بارعة أراد بها استغلال العاطفة العربية الجياشة إزاء الأهل والأقرباء أحسن استغلال ، فتراود قريش نفسها في أمر أهاليهم الذين تركوا ديارهم وهاجروا ، فربما يمتنعون عن إيدائهم . والحق أن هجرة من هاجر كان لها أثر كبير في قلوب القرشيين :

وإن في قصة عامر بن ربيعة وزوجته مع عمر بن الخطاب لأبلغ دليل على الأسف الذي داخل قلوب الكفار من مغادرة أهاليهم الذين هاجروا من ديارهم . مرَّ عمر بن الخطاب بأمر عبد الله بن عامر وهي تستعد للرحيل إلى الحبيشة ، وكان زوجها عامر بن ربيعة قد خرج لقضاء بعض حاجته . فقال لها عمر : إنه للانطلاق يا أم عبد الله ! فردت عليه وذكرته بالأذى والبلاء والإهانات التي يتعرضون لها : نعم والله ، لنخرجن في أرض الله ، آذيتونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا . فلم يزد على أن قال : صيبكم الله . فأجست رِقَّة في نبرات عمر لم تكن تعهدا من قبل ، وقد عُرِف عنه قسوته على المسلمين . فلما عاد زوجها أخبرته بما بدا على عمر وقالت : يا أبا عبد الله ، لو رأيت عمر آنفا ، ورقته وحزنه علينا . قال : أطمعت في إسلامه ؟ قالت : نعم . قال : فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب !

كان أول من خرج من المسلمين من بني أمية بن عبد شمس ، عثمان ابن عفان ومعه امرأته رقية بنت محمد ، ومن بني عبد شمس أبو حذيفة ابن عتبة ومعه امرأته سهلة ابنة سهيل ، ومن بني أسد بن عبد العزى الزبير ابن العوام ، ومن بني عبد الدار منصعب بن عمير بن هاشم ، ومن بني زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف ، ومن بني مخزوم أبو سلمة ابن عبد الأسد ومعه امرأته سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، ومن بني جُحش عثمان بن مظعون ، ومن بني عدي بن كعب عامر بن ربيعة ومعه امرأته

ليلي بنت أبي خثمة ، ومن بنى عامر بن لؤي أبو سبيرة بن أبي رهم ،
ومن بنى الحارث بن فهر سهيل بن وهب بن ربيعة وحاطب بن عمرو بن
عبد شمس . فكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وكانت هجرتهم أول
هجرة في الإسلام . ثم إنهم عاشوا في أرض الحبشة من رجب سنة خمس
من إعلان نزول الوحي ، إلى شوال من نفس السنة ، ثم عادوا .

وأما سبب عودتهم فترجع إلى أنه بلغهم أن الوليد بن المغيرة وأبا
أحيحة سعيد بن العاص ، وهما من سادة قريش قد سجدا خلف محمد
وهو يصلي ، فأيقنوا أن مكة عن بكرة أبيها قد سجدت خلفه بعد هذين ،
وقالوا : عشائرننا أحب إلينا . وخرجوا راجعين إلى مكة ، حتى إذا
كانوا دون مكة بساعة من نهار لقواركبا من كنانة ، فسألوهم عن قريش
وعن حالهم ، فقال الركب : ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه المسأل ،
ثم ارتد عنها فعاد يشتم آلهتهم فعادوا له بالشر .

وأما سبب رواية سجود الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة خلف محمد ،
فما يقال من أنه جلس يوماً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة وقرأ :
« والنجم إذا هوى » حتى بلغ قوله تعالى « أفرايتم اللات والعزى ومناة
الثالثة الأخرى » فأضاف كما يدعون « تلك الغرائيق العُلا ، وإن شفاعتكن
لترجي » ، فسجدوا من خلفه . غير أن هذه الإضافة لم يروها ثقة من ثقة
رواة الأحاديث ، وليس لها سند متصل يُعتمد عليه ، فضلاً عن ضعف
نقلتها واضطراب روايتهم ، مما يؤكد القول بأنها إضافة لا شأن لمحمد بها .

ثم إن هؤلاء العائدين لم يلقوا من قريش غير ما كانوا يلقون من عنت
وتعسف ، فسمح لهم النبي بالخروج ثانية إلى أرض الحبشة . فخرج في هذه
الهجرة الثانية من الرجال ثلاثة وثمانون ومن النساء إحدى عشرة امرأة

قرشية وسبع غرائب . ونزلوا جميعا في جوار النجاشي وأمنوا على دينهم
وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد ولا يسمعون ما يكرهون .

فلما علمت قريش ذلك ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا إلى النجاشي رجلين
من رجالهم الأشداء ذوى الرأى ، وأن يهدوا له هدايا ثمينة مما يُستطرف
من متاع مكة . وكانت الجلود من أحسن بضاعتها ، فجمعوا له مجموعة
من أفخر الجلود ، ولم يتركوا بطريقا من بطارقه إلا أهدوا له هدية .
ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص . وانفقوا على أن يهدى
للسولان البطارقة هداياهم قبل أن يكلم النجاشي ، ثم يقدموا له هداياه ،
ويسألاه أن يسلمهما المهاجرين قبل أن يكلمهم .

فلما بلغا أرض الحبشة أعطيا كل بطريق هديته ، وقال لكل واحد
منهم إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم
يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه لا نحن ولا أنتم ، وقد
بعثنا إلى الملك في أمرهم أشراف قومهم لتردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك
فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم .

ثم إنهما قدما الهدايا إلى النجاشي فقبلها ، ثم كلماه في شأن المسلمين
فقالا : أيها الملك ، إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين
قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، جاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه لا نحن
ولا أنت ، وقد بعثنا إليك في طلبهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم
وعشائهم لتردهم عليهم : فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم
وعاتبوهم فيه .

عندئذ قالت البطارقة : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ،
وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، فأسلمهم لهما فليرداهم إلى
بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي لهذه المقالة وقال : لاها الله ! إذاً لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادى ، واختاروني على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألمهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم ، وأحسننت جوارهم ما جاوروني .

وأرسل النجاشي إلى أصحاب النبي فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا أجبتموه . قالوا : نقول والله ما علمنا وما أمرنا نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن . فلما جاءوا وقد دعى النجاشي أسألفته ، فذشروا مصاحفهم حوله ، سألم فقال : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبى طالب : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به أحدا وأمرنا بالصلاة . وعدد عليه باقى أنور الإسلام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم الله علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأصنام ، وه يقولوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، فخرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورجبنا فى جوارك ورجونا ألا نُنظم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قال جعفر :
نعم . قال : فاقرا علي . فقرأ عليه صدرأ من سورة مريم . فقال
النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .
وأمر رسولى قريش أن ينطلقا فإنه لن يسلم المسلمين لهما ولا يكيد لهم .

فلما خرج عمرو بن العاص وصاحبه مخذولين من عنده ، قال عمرو :
والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم . فقال له عبد الله بن
ربيعة : لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا . قال عمرو :
والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ مثلنا . ثم قدم إلى
النجاشي فى اليوم التالى فقال : يا أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن
مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم عما يقولون فيه ، فأسألم عنه .
فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟
قالوا : نقول والله كما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائنا فى ذلك
ما هو كائن .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال
جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ، نقول هو عبد الله
ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

عندئذ ضرب النجاشي بيده إلى الأرض ، ثم أخذ منها عوداً ثم قال :
ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط . وخرج رسولا مكة من عنده
مغلوبين ، وظل المسلمون فى أرض الحبشة حتى رجعوا إلى المدينة بعد
الهجرة بسنتين .

وفى تلك الأثناء أى فى حوالى السنة السادسة من البعثة عزَّ الإسلام
بإسلام رجل خطير الشأن . كان عمر فى ذلك الوقت رجلاً كامل الرجولة ،
فى أوائل الثلاثينيات من عمره ، صعب المراس ، حاد الطبع ، صارماً

عنيفا ، قوى الشكيمة مفتول العضل ، جريثا مقداما لا يخشى من شيء ، محبا للهو والخمر ، ولكنه كان باراً بأهله ، رقيقا أشد الرقة إذا أصاب أحدهم ضرراً أو ألماً به مكروه .

خرج عمر يوماً متوشحاً بالسيف يقصد محمداً وعدداً من أصحابه علم أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، كانوا حوالي أربعين رجلاً وامرأة ، وفيهم حمزة بن عبد المطلب وغيره من رجالات المسلمين . فلقبه نعيم ابن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابي ، الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ! قال وأى أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد ابن زيد واختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما . فرجع عمر إلى أخته وزوجها ، وكان عندهما خبّاب بن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة طه يُقرئها إياها ، فلما سمعوا صوت عمر اختفى خبّاب في غرفة داخلية بعيدة ، وأخذت فاطمة الصحيفة فوضعتها تحت فخذا خشية أن يراها عمر . وكان عمر حين دنا من البيت قد سمع قراءة خبّاب ، فلما دخل قال : ما هذه الهيسمة (أي ما هذا الصوت الخفيض) . وهذا الكلام الذي لا يفهم الذي سمعت ؟ قالوا : ما سمعت شيئاً ، قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه . ثم هجم على سعيد وأخذه بعنف ، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفّه عن زوجها ، فضربها فسال دمها . فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته : اعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آفنا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . وكان عمر كاتباً . فلما قال ذلك ، قالت له أخته :

إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي ، وحلف لها بألته ليردنها إليها بعد أن يقرأها . فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخى ، إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسه إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة فقرأها ، فلما قرأ منها جزءاً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خيَّاب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبى جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب » فإله الله يا عمر ، فقال له عمر : فدلتنى يا خيَّاب على محمد حتى آتته فأسلم ، فقال له خيَّاب : هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه وذهب إلى حيث يوجد محمد وأصحابه ، وضرب عليهم الباب ، فقام رجل ونظر من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه . فرجع إلى محمد وهو فرح وقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بدلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه . فأذن له محمد بالدخول ، ونهض إليه وأخذ بمجمعه ودائه ثم جذبه جذبة شديدة ، وقال : « ما جاء بك يا بن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة » فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . وعندئذ كبر محمد تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم

هذه رواية تروق على أية حال لأسمى . شاعر الإنسان وأرقى أحاسيسه ، ولما ينطوى عليه وجدانه من عاطفة دينية رقيقة . ولكن هل هى تصدق على واقع الحال ؟ هل يقدم عمر على التفكير فى الذهاب وحده ليقول محمداً وهو يعلم أنه فى جمع من أصحابه منهم حمزة وغيره من صناديد العرب ، وهم يربون على الأرمحين ؟ لا أعتقد ذلك ، وربما أزداد عمر أن يذهب إلى

محمد لأى أمر آخر . على أية حال تقع على رواية أخرى فى إسلام عمر ،
تروى على لسانه ، يقول : كنت للإسلام مباحداً ، وكنت صاحب خمر
فى الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ،
فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجالسهم ذلك ؛ فجثتهم فلم أجد أحداً
منهم ، فقلت : لو أنى جثت فلانا الخمار ، فخرجت فجثته فلم أجده ،
فقلت لو أنى جثت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين ، فجثت المسجد أريد
الطواف بالكعبة فإذا رسول الله قائم يصلى ، فقلت حين رأيته : والله
لو أنى استمعت من محمد الليلة ما يقول لأروعه . فدنوت منه متخفياً فى ثياب
الكعبة ، فلما سمعت القرآن رق له قابى ، فبكيت ودخلنى الإسلام فلم أزل
قائماً مكانى حتى انصرف ، فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس بن
عبد المطلب ودار ابن أزر بن عبد عوف أدركته ، فلما سمع حسى
عرفنى ، فظن أنى إنما اتبعته لأوذيته فزجرنى ، ثم قال : « ما جاء بك
يا ابن الخطاب هذه الساعة » قلت : جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء
من عند الله ، فحمد الله رسول الله ثم قال : « قد هدك الله يا عمر » ثم
مسح صدرى ، ودعا لى بالثبات ، ثم انصرفت ودخل رسول الله بيته .

وأيا ما كان الحق فى جانب أى من هاتين الروايتين فإن عمر قد أسلم ،
واغبط لإسلامه محمد والمسلمون ، ونصر الإسلام نصراً مبيناً . وكان عمر
إذا عزم على شىء لا يثنى عنه ، ولا يؤخر رجلاً ويقدم أخرى ، ولا يتردد
ولا يتراجع . فما أن أسلم حتى أعلن إسلامه متحدياً أهل مكة أجمعين . ذلك
أنه سأل عمن هو أنقل الناس للحديث فى قريش ، فقبل له إنه جميل بن
معمر الجُمَحِيّ ، فغدا عليه وقال له : أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت
ودخلت دين محمد ؟ فقام جميل مهرولاً يجر رداءه وعمر يتبعه ، حتى إذا
بلغ باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، ألا إن عمر بن
الخطاب قد صبأ ، فقال عمر من خلفه : كذبت ، ولكنى قد أسلمت وشهدت

أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فقام القوم إليه يصارعونه ويصارعهم حتى بلغ منه الاعياء مبلغاً كبيراً ، فقعدهم وهم وقوف على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بئدالكم . وبينما هم كذلك إذ دخل العاص بن وائل وهو شيخ من شيوخ قريش له مقام وكلمة ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، فقال : فه ؟ رجل اختار لنفسه أمراً فاذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا ؟ خلوا عن الرجل .

قوى الإسلام بحمزة وعمر وجلس المسلمون لأول مرة حول البيت الحرام وطافوا به ، وصلى عمر بهم فيه ، وبدأت صفحة جديدة في تاريخ هذا الكفاح العجيب ، الذى انطبع حتى الآن بطابع نسيج وحده من بين جميع المنازعات العربية فى الجاهلية .

فى غضون هذه الفترة التى أسلم فى أثناءها حمزة وعمر وازداد فيها المسلمون قوة ، وبدأت الدلائل تشير إلى أن محمداً مع الزمن سوف ينتصر ، وأن أعوانه يزدادون ، فكرت قريش فى طريقة أخرى غير إيذاء المسلمين وسبهم ربما تجدى فى إسكات محمد . وذات يوم ومحمد جالس وحده بالمسجد ، قال عتبة بن ربيعة وهو جالس فى نادى قريش : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبه حتى جلس إليه وسلم فقال : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم وعيبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آباؤهم . فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، ثم قال : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد مما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا

حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك تابعاً من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ عتبة قال له محمد : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاستمع مني ، قال : أفعل ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حَسَمَ . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » ثم مضى محمد يقرأ السورة حتى آخرها ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه . ثم انتهى إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأيت أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعزّلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم ، فإن تقتله العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يغلب العرب فلنكنه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، فقال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

ثم إن الإسلام انتشر في قبائل قريش بين الرجال والنساء ، ولم يستطع سادات مكة المناوئين للإسلام ، لا بالتعذيب ، ولا بالوعد ، ولا بالوعيد ، أن يوقفوا هذا الانتشار . فاجتمع أشرف قريش من كل قبيلة ، وفيهم عتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ابن هشام ، والعاص بن وائل وغيرهم ، بعد غروب الشمس عند ظهر

الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى لا تلاموا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشرف قومه قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم ، فجاءهم سريعاً ، وهويظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان حربصا عليهم يحب رشدهم . فجلس إليهم ، فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لتكلمك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسببت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب ما لا جمعنا لك . وكلموه فيما عدا ذلك كما كلمه عتبه بن ربيعة . فقال لهم : ما بي ما تقولون ، وما جئت بما جثتكم أطلب به أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل على كتاباً ، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً ، فبلغتُ لكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جثتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلداً ، ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك به فليُسِّرْنا هذه الجبال التي ضيقت علينا ، ولييسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يُبعث لنا منهم قُصَيّ بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما نقول : أحق أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألتناك عرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فقال محمد : ما بهذا بُعِثْتُ إليكم ، إنما جثتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم

قالوا له : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سئل ربك يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم ، وتلتمس المعاش كما تلتمس ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعث إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا ، والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ،

قالوا : فأستقيط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإننا لا نؤمن بك إلا أن تفعل . فقال : ذلك إلى الله ، إن شاء يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه وما طلبناه منك ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك بما هو صانع في ذلك بنا ، إذا لم تقبل منك ما جئتنا به ؟ إنه قد بلغنا أنك إنما تعلمك هذا رجل باليامة يقال له الرحمن ، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرتنا إليك يا محمد ، وأنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال أحدهم : نحن نعبد الملائكة ، وهى بنات الله ، وقال آخر : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله ، والملائكة قبلاً .

فلما قالوا ذلك قام محمد عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، وهو ابن عمته ، فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذت إلى السماء سُلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيا ، ثم تأتى معك

بصك* ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك . ثم انصرف عن محمد ، وانصرف محمد إلى أهله حزينا أسفاً لما فاتته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه .

يئس المشركون من مهادنة محمد ، وأيقنوا أنه لن يكف عنهم وعن آلهم ، ولن يتراجع عن الدعوة لدينه ولما يؤمن بأنه الحق من عند ربه ، وزادهم غيظاً أن رأوا أصحابه وقد نزلوا بلاداً آمنوا فيه على أرواحهم ودينهم ، وأن النجاشي قد منعهم ورفض تسليمهم ، وأن الإسلام ازداد منعة بإسلام صنديدين من صناديد قريش هما حمزة وعمر ، فضلاً عن أنه بدأ يفشو في بعض القبائل . عندئذ تراود زعماء قريش واجتمع أمرهم واثمروا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب الذين يمنعون محمداً ، على ألا يتزوجوا منهم وألا يزوجهم . ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . تعاهدوا وتوثقوا على ذلك ، وكتبوه في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً لإصرارهم على هذا حرب اقتصادية ومقاطعة ونبد اجتماعي . . . وما ذا بعد ؟

يلوح بأن بعضاً من غلاة الكارهين لمحمد والإسلام قد راودتهم فكرة مجنونة . . . اغتيال محمد . فلما تراءى إلى سمع أبي طالب ما يفكر فيه هؤلاء ، وكان شديد الحرص على ابن أخيه وعلى سلامته ، أمر بنى هاشم وبنى عبد المطلب أن يتركوا ديارهم في مكة وينحازوا له في شعبه ، وأن يتعاهدوا جميعاً على القيام دونه ومنعه من قريش . أذعن لأبي طالب مسلمهم وكافرهم . المسلم دفاعاً عن دينه ونبيه ، والكافر إيماناً منه بحق محمد في أن ينال حمايته إذعاناً لتقاليد العرب ، وحفاظاً على وحدة الأسرة ، وحفظاً لهيبتها أن تنال . ولم يخرج عن إجماعهم وطاعة رئيسهم غير عمه أبي لخب .

وكان من حرص أبي طالب على ابن أخيه أنه إذا آوى الناس إلى مضاجعهم أمره أن ينام في فراشه . حتى يرى ذلك من أراد به مكراً أو

اغتيالاً ، ثم يأمر أحد بنيه أو بنى عمه أو إخوته إذا ما نام الناس أن ينام في فراش محمد ، وينتقل محمد لينام في فراش واحد منهم .

واستشرت حرب المقاطعة ، واستمرت زمناً طال سنتين أو ثلاثاً ، كانت شديدة الوطأة على المسلمين وعلى غير المسلمين من بنى هاشم ، حتى بلغ منهم الإعياء والضعف كل مبلغ . وكان إذا خرج أحدهم إلى سوق مكة يشتري شيئاً تعرض له أبو لهب وصاح في التجار : « غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً ، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي » . وكان التجار ولا شك ينصاعون لما يريد أبو لهب فيغالون على بنى هاشم ، حتى لقد كان يعود الرجل منهم إلى عياله وليس شيء في يده . غير أن المشركين لم يقسوا جملة على بنى هاشم ، فقد كان منهم من وصل الرحم ولم يشتد اشتداد غيره من السفهاء . فقد كان هشام بن عمرو بن الحارث يحمل البعير حملاً ثقيلاً من الطعام ويسوقه حتى يبلغ به فم الشعب فيخلع خطامه من رأسه ويضربه على جنبه فيدخل الشعب عليهم . أو كان يحمله حملاً ثقيلاً من القمح ويفعل مثل ذلك .

ولقي أبو جهل بن هشام بحكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ومعه غلام يحمل قمحاً يريد لإرساله لعمته خديجة بنت خويلد ، وكانت مع محمد بطبيعة الحال في الشعب ، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

تدخل أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فقال : مالك وله ؟ قال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم . فقال أبو البختري : طعام كان لعمته عنده بعثت به إليه ، أتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل .

فلما أبى أبو جهل أخذ أبو البختري لُحْيَ بغير وضربه به فشجه وتضاربا ، واشتد عليه أبو البختري ووطئه ووطئاً شديداً .

لم تفت هذه المقاطعة وهذا النبذ في عضد محمد ، ولا أتى بالا لما بصييه

وما قد يصيبه من قریش من أذى وإعنات ، وظل صامداً بإيمانه كالطود لا يهتز ولا يرتد ، ولا يتزعزع له إيمان بأنه منتصر لا محالة على حزب البغي والشرك . ظل يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ، ينادى بما يؤمن أنه الحق ، لا يتقى فيه أحداً من الناس . هذا وقریش له بالمرصاد ، ولكن كيف تتقيه وكيف تتقى منطقته وبيانه ، وكيف تحول بين آيات بينات تخشع لها القلوب ، وتهزها الأفتدة ، وبين العرب هنا وهناك ، وهو لا يكف عن الدعوة لدينه ، وانتهاز كل الفرص لعرض دعوته على الناس الذين كانوا يفلدون على مكة من كل فج عميق .

ماذا إذن ؟ أبحاربون محمداً وقوم محمد ومن تبع محمداً ؟ أيقتلون محمداً ؟

كلا ثم كلا ! فإن الإقدام على اغتياله أو حرب بني هاشم وبني عبد المطلب ومن معهم من المسلمين ، أمر من شأنه أن يدمر قریشا عن بكرة أبيها . وأن يدخلهم في حرب يقتل فيها الأب ابنه ، أو الأخ أخاه ، أو ابن عمه ، أو ابن خاله . إذن فماذا ؟ يهزونه ويستهمزئون به ويخاصمونته . لما سمع أبو جهل بشجرة الزقوم قال : أتدرون ما الزقوم ؟ هو تمر يضرب بالزبد ! ثم قال : هام فلتزقّم . فنزلت الآية : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » (١) .

وقال أنى بن خلف لعقبة بن أبي معيط : ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه ؟ وجهى من وجهك حرام إلا أن تنفل في وجهه . فلما فعل هذا الفعل القبيح نزلت الآية : « ويوم يعص الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتنا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » (٢) .

وقدم أنى بن خلف على محمد ومعه عظم بال قد أرم وقال : يا محمد

أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم !؟ ثم فته بيده ، ثم نفخه في الريح نحو محمد . فقال : نعم ، أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك النار . ونزلت الآية : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (١) . إلى آخر السورة .

ثم إنه لم يكن غريباً في هذا المجتمع الذي بلغ فيه التكافل العائلي والاجتماعي أقصى مبالغة أن يجير مشرك مسلماً من المستضعفين وأن يمنعه من أذى قومه المشركين . أجار الوليد بن المغيرة عثمان بن مظعون ، وأجار عبد المطلب أبا سلمة بن عبد الأسد ، وأجار ابن الدغينة أبا بكر .

فلما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب محمد من البلاء وهو يروح ويغدو في أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله إن غُدُوِّي ورواحي في جوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وفئت ذمتك وقد رددت إليك جوارك .

قال : لم يابن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومي ؟

قال : لا ، ولكني أرضى بجوار الله عز وجل ، ولا أريد أن أستجير بغيره .

قال : فانطلق إلى المسجد فاردد عليّ جوارى علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا عثمان قد جاء يرُدُّ عليّ جوارى .

قال عثمان : صدق ، وقد وجدته وفيأ كريم الجوار ، ولكن قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره .

وانصرف عثمان إلى مجلس من مجالس قریش كان لبيد بن ربيعة بن مائل فيه ينشدهم الشعر ، فجلس معهم فقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقاطعه عثمان وقال : صدقت .

فأكمل لبيد البيت : وكل نعيم لا محالة زائل .

فقال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول .

فقال لبيد : يا معشر قریش ، والله ما كان يؤذني جليصكم ، فتي

حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم : إن هذا سفیه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا نجدن في نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان ، فتناول عليه الرجل واطم عينه فخصرها . وكان الوليد بن المغيرة قريباً يرى ما حدث لعثمان ، فقال : أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنيّة ، ولقد كنت في ذمة منيعة .

قال عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب

أختها في الله ! وإني لني جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

فقال الوليد : هلم يا ابن أخي إلى جوارك فعُد .

قال عثمان : لا .

أما أبو سلمة فانه لما استجار بأبي طالب وأجاره ، مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا له : يا أبا طالب ، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً ، فالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال : إنه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي

لم أمنع ابن أختي .

فلما ألح القوم على أبي طالب قام لهم أبو لهب وقد أخذته النخوة الأخرية :
يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواهبون
عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن أو لتقومن معه في كل ما قام
فيه حتى يبلغ ما أراد .

قالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة . وكان لهم ولياً وناصرأ على
محمد وعلى دين محمد فأحبوا أن يبقوه في صفوفهم .

أما أبو بكر فإنه عند ما ضاقت عليه مكة وأصابه فيها من الأذى ما لم
تعد تحتمل نفسه الكبيرة ، ورأى من شدة قريش على محمد وأصحابه ما ينكر ،
استأذن صاحبه في الهجرة فأذن له : وما أن ابتعد عن مكة مسيرة يوم أو
يومين ، حتى لقيه ابن الدغينة فقال له : إلى أين يا أبا بكر ؟

قال : أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليّ .

قال ابن الدغينة : ولم ؟ والله إنك لتزين العشيبة وتعين على النواذب ،
وتفعل المعروف ، وتكسب المعلوم ، ارجع فإنك في جوارى .

فرجع معه ، حتى إذا دخل مكة قام معه ابن الدغينة فقال : يا معشر
قريش ، إني قد أجرت ابن أبي قحافة ، فلا يعرض له أحد إلا بخير .
فكفوا عنه .

فلما أمن أبو بكر بنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ
القرآن علناً . فكان نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه ،
وكان أبو بكر رجلاً بكاء ، لا يملك عينه إذا ما قرأ القرآن . فأفزع ذلك
أشراف قريش من المشركين ، فقالوا لابن الدغينة : إنا أجرنا أبا بكر
بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، ولكنه جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء
داره ، وأعلن الصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناؤنا ونساؤنا ،
فإنه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبي إلا أن

يعلم ذلك فسله أن يرد عليك ذمتك ، فلما قد كرهنا أن نعتدي على جوارك ،
ولنا مقرين لأبي بكر أن يصلي علانية .

عندئذ أتى ابن الدغنة إلى أبي بكر وقال : قد علمت الذي قد عاقدتك
عليه ، فلما أن تقتصر على ذلك ، ولما أن ترد إلى ذمتي ، فإني لأحب أن
تسمع العرب أن رجلا أجزته قد أضير .

فقال أبو بكر : فإني أردُّ عليك جوارك وأرضي بجوار الله عز وجل .
فلما علمت قريش بهذا ، عادت إلى سابق عهدها معه . لقيه سفيه
من سفهاء قريش وهو في طريقه إلى الكعبة ، فصب عليه تراباً ، وكان
الوليد بن المغيرة ، أو العاص بن وائل في رواية ، ماراً فقال له أبو بكر :
ألا ترى ما يصنع هذا السفيه ؟ فقال : أنت فعلت ذلك بنفسك . فشي
أبو بكر وهو يردد قائلاً : أي ربُّ ما أحلمك ، أي ربُّ ما أحلمك ،
أي ربُّ ما أحلمك !

بعد سنتين أو ثلاث من تعاقد قريش على مقاطعة بني هاشم ونبيهم
تحركت بعض القلوب النبيلة ، وتعاهد عدد من سادات قريش على نقض
الصحيفة . منشى هشام بن عمرو بن الحارث إلى زهير بن أبي أمية وقال له :
يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتزوج النساء ،
وأخوالك حيث علمت لا يُباعون ولا يُبْتَاع منهم ، ولا يتزوجون من
قريش ولا تزوج قريش منهم ؟ أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي
الحكم بن هشام ، ثم دعوته إلي مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً .
قال زهير : ويحك يا هشام ! فإذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ،
والله لو كان معي رجل آخر لقمعت في نقضها .

قال هشام : قد وجدت رجلاً . قال زهير : من هو ؟ قال هشام :
أنا . فقال زهير : ابغنا ثالثاً . فذهب إلى المُطعم بن عدي فقال له : يا مطعم ،
أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق .

لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراغاً .
قال : ويحك فاذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد .

قال : وجدت لك ثانياً . قال : من ؟ قال : أنا . قال : أبغنا ثالثاً .
قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية . قال ابغنا
رابعاً . فذهب إلى أبي البسخترى بن هشام فقال نحو ما قال للمطعم بن عدى ،
فقال له : فهل تجد أحداً يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟
قال : زهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك . قال : ابغنا خامساً .
فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب فكلمه وذكر له قرابتهم وحققهم ،
فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم .
ثم سمي القوم :

وتواعد خمستهم وتقابلوا ليلاً ، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على أن ينقضوا
الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبدوكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى مجالس القوم في البيت الحرام ، وطاف زهير
بالبيت سبغاً ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنا كل الطعام ونلبس
الثياب ، وبنو هاشم هلكنى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى
تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل ، وكان في ناحية المسجد : والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حتى

كتبت .

وقال أبو البسخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .

ونهب المطعم بن عدى فقال : صدقنا وكذب من قال غير ذلك ،

نبراً إلى الله منها ومما كتب فيها .

ولم يلبث أن نهض هشام بن عمرو أيضاً وأيد الجميع .

هنا فطن أبو جهل لما دبر القوم ، وقال : هذا أمر قضى فيه بليل
وتشوور فيه بغير هذا المكان .

وقام المطعم إلى الصحيفة فانتزعها من جوف الكعبة لم يعترضه أحد
ولم يقاتله دونها أحد . وإذا بالأرضة قد أكلتها ولم يبق من شيء فيها غير
« باسمك اللهم » . وكان أبو طالب منتحياً ناحية من المسجد وقد شهد
ما حدث فقام يسعى إلى بني هاشم في الشعب يبشرهم بهذا الخبر السعيد .
تمزق الحصار الاقتصادي ، ورُفِضَ التبذُّ الاجتماعي ، وخرج المسلمون
والذين ناصروهم من المشركين من شعب أبي طالب وعادوا إلى ديارهم .
ومهما يكن من أمر هذه البليلة التي حدثت في صفوف المشركين ، وهذا
الضعف المفاجئ ، الذي هز صفوفهم وفرط عقد تجمعهم ، فإن المسلمين
لم يسلموا تماماً من إنداء الكفار . فقد استمروا على غيهم وعلى موقفهم
السابق من أولئك الذين هجروا دين الآباء والأجداد إلى دين محمد ﷺ ،
يحاولون أن يفتنواهم عن دينهم ، ويؤذونهم ويتسافهون عليهم . وظل محمد
صامداً لا تلين قناته ولا يتزعزع إيمانه ، وظل الإسلام يفسو في الناس رويداً
رويداً . غير أنه حدث في تلك الأثناء ، وبعد قليل من خروج المسلمين من
الشعب أن أصابت محمداً فاجعتان أليمتان : لقد مات عمه أبو طالب وكان
له عضداً ومانعاً ونصيراً ، ثم مات من بعده بقليل خديجة ، وكانت له
له وزير صدق يسكن إليها عند البلاء . حدث هذا في السنة العاشرة من
المبعث أي قبل الهجرة بثلاث سنين .

لما ثقلت وطأة المرض والشيخوخة على أبي طالب ، وكان قد نيف على
الثمانين ، واشتكى في مرضه الأخير ، وبلغ قريشاً ثقلاً وأنه נושאك على
الموت ، تشاور أشرافها وأهل الرأي فيها ، وتحوفوا إن مات أبو طالب
أن يحدث ما لا تحمد عقباه بينهم وبين المسلمين ، وعلى الأخص وقد بدأ
الإسلام يفسو في قبائل قريش ، وفي المسلمين صناديدان من أشهر البطاشين

الذين عرفتهم العرب ، حمزة وعمر ، لا يعرف أحد كيف يتصرفان عندما يختنق صهام الأمان ، ذلك الشيخ المهيب . مشى إلى أبي طالب زعماء قريش ، وهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأميمة بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشrafهم ، وقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعُهُ فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ولنكف عنه ، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه .

فبعث أبو طالب إلى محمد فجاءه ، فقال : يا ابن أخى ، هؤلاء أشraf قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك .

فقال محمد : يا عم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم .

فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات .

قال : تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه .

ثارت ثأرتهم وصفقوا بأيديهم ثم قالوا : يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجيب .

وقال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكُم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا . فقال أبو طالب : والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططاً .

فلما سمع محمد هذا من أبي طالب طمع فى إسلامه ، فجعل يقول له : أى عم ! فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة .

فلما رأى أبو طالب حرص ابن أخيه عليه قال : يا ابن أخى والله لولا مخافة السبِّ عليك وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظن قريش أنى إنما قللتها جزعاً من الموت لقلتها . لا أقولها إلا لأسرك بها .

ومات أبو طالب على دين عبد المطلب ، ومن بعده بقليل ألت بمحمد

محنة أخرى . لقد ماتت خديجة فجأة . وفي خلال أيام معدودات فقد محمد للأبد هذا النصير والعضد المتين ، وهذه الزوجة الحبيبة الملائكية التي ملأت عليه حياته بهجة وحباً وحناناً خمسة وعشرين سنة ، لم يعرف خلالها غير أسمی معانی العطف والثقة والبر التي يجيش بها قلبها الكبير ووجدانها الطاهر .

بعد أن هلك أبو طالب اشتد على محمد بعض سفهاء المشركين ، وآذوه إيذاء ما كانوا يطمعون فيه في حياة أبي طالب . اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً . فتحامل على نفسه ومشى إلى بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسله وتبكي ، وهو يقول لها : لا تبكي يا بُنيَّة ، فإن الله مانع أباك . وكان يردد قوله هذا ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب . وبلغت ببعضهم الوقاحة أن كان يرمي في برمه الأذى إذا نصبت له . فكان إذا فعلوا ذلك ، يخرج بذلك الشيء على العود فيقذفه على بابه ثم يقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق . وكان محمد بعد أن اجتمعت عليه هاتان المصيبتان قد لزم بيته وأقل الخروج .

فلما بلغ أبا هب ما تنال قريش من ابن أخيه ، أخذته النخوة وثارَت في نفسه حمية العرب ، وذكرى أخيه الشيخ العظيم أبي طالب وما كان يضي على محمد من عطف وحماية ، فجاء محمداً وقال : يا محمد امض لما أردت ، وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه ، لا واللوات لا يوصل إليك حتى أموت .

ولما سب ابن الغيظة محمداً ، أقبل إليه أبو هب يعنفه وينال منه ، فولى يصيح : يا معشر قريش صبا أبو عتبة . فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي هب فقال : ما فارقت دين عبد المطلب . ولكنني أمتع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد .

عندئذ قالوا : لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم . أي أن أبا هب
أجار محمداً وقبلت قريش هذا الجوار . ومكث محمد بعد ذلك أياماً يأتي
ويذهب لا يعرض له أحد من قريش بأذى ، وهاجوا أبا هب . ولكن هل
تسكت قريش على هذا ؟ ألا تستغل حق أبي هب ؟ أي نعم ، لقد استغلته
أحسن استغلال ، إذ جاء عقبة بن أبي معيط وأبو جهل إلى أبي هب فقالا
له : أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فأتى أبو هب إلى محمد فقال له :
يا محمد أين مدخل عبد المطلب ؟ قال : مع قومه . فخرج إليهما فقال :
قد سألته فقال مع قومه .

فقالا : يزعم أنه في النار !

فعاد إلى محمد فسأله : يا محمد أيدخل عبد المطلب النار ؟

فقال : ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب يدخل النار .

فقال أبو هب : والله لا برحت لك عدواً أبداً وأنت تزعم أن

عبد المطلب في النار .

وعاد أبو هب إلى سيرته الأولى واشتد على محمد عن ذي قبل واشتدت
معه سائر قريش ، وكثرت مساءات سفهاهم . على أنه ينبغي أن نعلم أن
أحداً لم يصب محمداً بأكثر مما سبق مما ذكرنا من مساءات ، في أية حال
وفي أي وقت ، ولا نعلم أن أحداً من قريش أضابه بشيء أشد مما صنعه به
عقبة بن أبي معيط عند ما وضع ثوبه على عنقه وخنقه خنقاً شديداً ذات يوم
في الكعبة ، فقام دونه أبو بكر وهو يصيح « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » .

مرت الآن عشر سنين على تبشير محمد بالإسلام ، وطال الصراع بينه
وبين الوثنيين من قريش ، وهم لا يزدادون له إلا عناداً ومكابرة ، ويرفضون
دعوته . غير نفر قليل ممن استنارت نفوسهم وصفت قلوبهم ، فأمنوا به
وصدقوه . وبنذوا الشرك والأوثان . وبلغت الأحداث في مكة ذروتها
أو كادت تبلغ ذروتها بعد موت أبي طالب . فليخرج إذن محمد إلى ثقيف

يلتمس منها النصرة والمنعة من قومه ، رجاء أن يقبلوا منه وينصروا دينه .
خرج إلى الطائف وحده لا يحرسه ولا يعينه إلا ربه . وعمد إلى نفر
من ثقيف هم ساداتها ، إخوة ثلاث ، عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب
بنو عمرو بن عمير بن عوف ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الإسلام وكلمهم في
شأن ما جاء لهم من نصرته والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال
أحدهم : هو يَمْرُطُ ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر :
أما وجد الله أحداً أرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ،
لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك
كلامك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

ثم إنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فقعده له أهل الطائف صفيين
على طريقه ، يرمون رجله بالحجارة حتى أدموه . فليجأ إلى بستان لعتبة
ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه السفهاء الذين كانوا يتبعونه ، فعمد
إلى كرمة فجلس تحتها ، وابنا ربيعة ينظران إليه .

فلما اطمأن وابتعد عنه السفهاء رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إليك
أشكو ضعف قوتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب
المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلمني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى
عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ، ولكن عافيتك
هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح
عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك . لك
العتي حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك .

فلما رآه عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وشهدا ما لقي تحركت له صلة القرابة
فدعوا غلاماً لهما وأمراه أن يأخذ قطعاً من العنب فيضعه في طبق ، ويذهب
به إليه ، فتناولوه وأكل منه .

عاد محمد من الطائف حزيناً يائساً من خير ثقيف ونصرتها له ، أسفاً

لما فعله ساداتها من إغراء سفهاهم به وخذلانهم ، فضلاً عن بوحهم لأعدائه القرشيين بسر ودناً لو أنهم حفظوه وصانوه . ذلك أنهم عند ما ردوه ردأ غير جميل كما سبق بيانه ، رجاهم ألا يكشفوا عما دار بينه وبينهم ، قال : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموه على . وكان يكره ولا شك أن يبلغ قومه ما أصابه من ثقيف فيجترئوا عليه ويشمتوا فيه .

على أن إيداء مهما بلغت قسوته ، أو رجالاً مهما بلغ سفهم ، ما كان ليثني محمداً عن أداء رسالته . وما كان من شيء يثنيه عن هذا الإيمان الذي سيطر على جميع مناحي تفكيره ، واستقر في أعماق نفسه ، يهديه إلى أن في هذا الكون إلهاً واحداً ، ينبغي أن يخضع لمشيئته مجتمع واحد . واستمر يعرض نفسه في المواسم ، إذا حضرت ، على قبائل العرب يدعوهم إلى ربه عز وجل ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، جاء لهم بالبينات من عند ربه وبالهدى والإيمان ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به . فكان يغلو على القبائل في منازلها ، ويقول : يا بني فلان إني رسول الله إليكم ، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به . « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله فتلحوا » . وكان أبو لهب يتبعه حيث ذهب فيقول : « إنه صابئ كاذب ، فلا يغرنكم عن دينكم ودين آباؤكم » .

وكان يكلم أشراف القبائل ، ولا يسألهم شيئاً أكثر من أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، من رضى منكم بالذي أدعوا إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه . إنما أريد أن تحرزوني فيما يراد لي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي . وحتى يقضى الله لي ولن صحبتي بما شاء .

غير أن أحداً لم يقبل منه شيئاً . وكانوا يقولون : قوم الرجل أعلم به ،
أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظره .

أتى كندة وحدث بني عمرو بن معاوية ، فقال : هل لكم إلى خير ؟
قالوا : وما هو ؟

قال : تشهدون أن لا إله إلا الله وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء
من عند الله .

فقالوا : إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟

قال : إن الملك لله يجعله حيث يشاء .

فقالوا : لا حاجة لنا فيما جئتنا به .

وأتى بكر بن وائل فقال : كيف العدد ؟

قالوا : كثير مثل الثرى .

قال : فكيف المنعة ؟

قالوا : لا منعة ، جاورنا فارس ، فنحن لا نمنع منهم ولا نجير عليهم .

قال : فتجعلون الله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم .

وتستنكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم أن تُسبِّحوا الله .

قالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا رسول الله . ثم انطلق .

فلما ولى عنهم وكان عمه أبو لهب يتبعه ليقول للناس لا تقبلوا قوله ،

قالوا له : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا في الذرورة منا

معن أى شأن تسألون ؟ فقالوا : زعم أنه رسول الله .

قال : ألا لا ترفعوا برأسه قولاً ، فانه مجنون يهذى من أم رأسه .

قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر !

وأتى بني عامر بن صعصعة فقال لهم : إني رسول الله ، آتيتكم

لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ، ولا أكره أحداً منكم على شيء .

قالوا : ومن أى قريش أنت ؟ قال : من بنى عبد المطلب .
قالوا : فأين أنت من عبد مناف ؟ قال : هم أول من كذبني وطردني !
قالوا : ولكننا لا نظردك ولا نؤمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة
ربك . فنزل إليهم والقوم يتسوقون ، فلما رآه بسحره بن فراس قال :
من هذا الرجل الذى أراه عندكم أنكره ؟

قالوا : محمد بن عبد الله القرشى . قال : فما لكم وله ؟ .
قالوا : زعم لنا أنه رسول الله ، وطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ
رسالة ربه . قال : وماذا رددتم عليه ؟
قالوا : بالترحيب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ، ونمنعك ما نمنع
به أنفسنا .

قال بيحرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشد من
شيء ترجعون به . بدأت لتنابلوا الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة ،
قومه أعلم به ، لو أنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به ، أتعملون إلى
زهيق قد طرده قومه وكذبوه فتوؤونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأى رأيتم .
ثم أقبل على محمد فقال : قم فالحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند
قوى لضربت عنقك .

فقام محمد إلى ناقته فركبها ، فغمر الخبيث بسحره شاكلتها فقمصت
به فألقته على الأرض .

وأتى ومعه أبو بكر وعلى بن أبى طالب ، بنى شيان بن ثعلبة ، فكلم
أبوبكر مفروق بن عمرو ، وكان أقربهم مجلساً إليه ، وكان مفروق قد غلب
عليهم بياناً ولساناً ، وكانت له غدیرتان تسقطان على صدره . قال له
أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال له : إنا لنزيد على ألف ، ولن تغلب
ألف من قلة ،

فقال له : فكيف المنعة فيكم ؟ فقال : علينا الجهد ولكل قوم جد .
فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

فقال مفروق : إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله ، يُبدلنا مرةً ويبدل علينا مرة ، لعلك أخو قريش ؟

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله فهاهو هذا .
فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك . ثم التفت إلى محمد فقال :
إلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتقدم محمد فجلس وأظله أبو بكر بثوبه وقال : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدئى عن الله الذى أمرنى به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد » .

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟
فتلا محمد : « قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » إلى قوله « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١) .
فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه .

فتلا قوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (٢) .

فقال له مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . ولقد أفك قومٌ كذَّبوك وظاهروا عليك .

وكان هانىء بن قبيصة حاضراً . فأراد مفروق أن يشركه فى الكلام

فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا :

(١) الأنعام ١٥١ - ١٥٢

(٢) النحل ٩٠

فقال هاني : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدقت قولك ، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، لم نتفكر في أمرك وننظر في عاقبة ما تدعو إليه ، زلّة في الرأي ، وطيشة في العقل ، وقلة نظر في العاقبة ، وإنما تكون الزلّة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً . ولكن ترجع وارجع وتنظر وتنظر .

وكان المثني بن حارثة حاضراً ، فأراد أن يشركه في الكلام أيضاً ، فقال : وهذا المثني شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثني : قد سمعت مقالتك واستجسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبنى ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هاني بن قبيصة ، وتركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ، وإنما نزلنا بين صريين (تشية صرى وهو كل ماء مجتمع) أحدهما الإمامة والآخر السجاة .

فقال محمد : وما هذان الصريان ؟

قال المثني : أما أحدهما فطوف البرّ وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ، ولا نوؤى أحداً . ولعل الأمر الذي تدعوننا إليه مما تكره الملوك . فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعنره مقبول . وأما ما كان مما يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور ، وعنره غير مقبول . فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا .

فقال محمد : « ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاظه من جميع جوانبه » . ثم قال : « رأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشكم بناتهم ، أتسبحون الله وتقدسونه ؟ »

فقال له النعمان بن شريك : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش !

فتلا محمد قوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » (١) ثم نهض ممسكاً بيد أبي بكر . والتفت إلى علي وقال : يا علي أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية ، ما أشرفها ! بها يتحاجزون في الحياة الدنيا ..

كان الزمن في تلك الأثناء قد لعب لعبته الخالدة في لعق جراحنا . فبدأ الجرح الذي خلفته في نفس محمد وفاة خديجة يندمل ، وأخذت ذكرياتها تبتعد شيئاً بعد شيء عن خياله ، وأصبح الزواج بامرأة يأنس إليها ضرورة تحتمها الأعباء التي ينوء بها كاهله . جاءتته خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون وقالت له : ألا تزوج ؟ قال : من ؟ قالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً . قال : فن البكر ؟ قالت : أحب خلق الله إليك . . . عائشة بنت أبي بكر . قال : ومن الثيب ؟ قالت : سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك . قال : فاذهبي فاذكريهما علي .

أنت خولة أم رومان امرأة أبي بكر وقالت لها : أرسلني رسول الله أنخطب عليه عائشة . قالت : انظري أبا بكر حتى يأتي .

فلما جاء أبو بكر قالت : يا أبا بكر ، أرسلني رسول الله أنخطب عليه عائشة . قال : وهل تصلح له ؟ إنما هي ابنة أخيه .

فرجعت خولة إلى محمد فذكرت له مقالة أبي بكر ، فقال : ارجعي إليه فقولي له : أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام وابنتك تصلح لي .

فرجعت فذكرت له ذلك ، فقال : انتظري ، وخرج . فقالت لها أم رومان : إن مطعم بن عدى قد خطب عائشة لابنه ، والله ما وعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه .

فدخل أبو بكر على مطعم بن عدى وعنده زوجته أم الصبي الذي خطب له عائشة . فبادرته المرأة فقالت : يا ابن أبي قحافة ، لعلك تخرج

ولدنا عن دينه وتدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج أبنتك ؟ فقال أبو بكر للمطعم بن عدى : أتقول كما تقول زواجك ؟ قال : إنها تقول ذلك . فخرج أبو بكر من عنده ، وقد تحلل من الوعد الذي وعده .

فرجع إلى خولة فقال : ادعى لي رسول الله . فدعته فزوجها إياه ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين . وإكته لم يدخل بها إلا بعد ذلك بثلاث سنين ، وذلك بعد الهجرة ، وهى فى التاسعة .

ثم إن خولة أتت زمعة أيضاً وكانت أرملة واحد من أوائل المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وقالت : أرسلنى رسول الله أخطبك إليه . قالت : وددت ، ادخلى إلى أبى فاذكرى ذلك له . وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن ، فدخلت عليه فحيته بتحية الجاهلية ، فقال : من هذه ؟ قالت : خولة بنت حكيم . قال : فما شأنك ؟ قالت : أرسلنى محمد بن عبد الله أخطب له سودة . فقال : كفاء كريم ، ما تقول صاحبتك ؟ قالت : تحب ذلك . قال : ادعها إلى . فدعها فقال : أى بُنية ، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله قد أرسل يخطبك ، وهو كفاء كريم ، أتحنن أن أزوجهك به ؟ قالت : نعم . قال : ادعها لى . فجاءه محمد فزوجها إياه ، ودخل بها .

• • •

جلس محمد ذات صباح فى المسجد الحرام واجماً مطرقاً ، كأنه يفكر تفكيراً استغرق كل أحاسيسه وملك عليه كل مشاعره . فلما رآه أبو جهل كذلك قال : هل من خير ؟ فقال : نعم . فقال : وما هو ؟

فقال : إنى أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس .

قال : إلى بيت المقدس ؟ قال : نعم .

قال : وأصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم .

قال : أرايت إن دعوت قومك لك لتخبرهم ، أتخبرهم بما أخبرتنى

به ؟ قال : نعم .

فصاح أبو جهل : هيا معشر قريش ! فاجتمعوا إليه ، ثم قال له :
أخبر قومك بما أخبرتني به .

فقصَّ عليهم محمد خبر ما حدث وما رأى تلك اللبابة ، وكيف أنه أتاه
جبريل وهو نائم فأيقظه ، ثم خرج به إلى باب المسجد الحرام ، فأركبه
البراق ، وهو دابة أبيض ، بين البغل والحمار ، وفي فخذه جناحين يحفز
بهما رجليه ، يضع حافره في منتهى طرفه ، ثم حمله عليه ، ثم خرج معه
لا يفوته . وأخبرهم كيف ذهب به إلى بيت المقدس ، وهناك ربطه في
الحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء ، ثم دخل بيت المقدس فصلى في قبته
تحية المسجد . وكيف نصب له المعراج (وهو السلم) فصعد فيه إلى السماء ،
وكيف صعد من سماء إلى سماء في المعراج ، وكيف تلقاه في كل سماء مُقَرَّبُوهَا
ومن فيها من الملائكة والأنبياء ، وما فعله وما رآه في كل سماء حتى جاوز
السابعة . وذكر لهم أعيان من رآه من المرسلين ، كآدم في سماء الدنيا ، ويحيى
وعيسى في السماء الثانية ، وإدريس في الرابعة ، وموسى في السادسة ،
وإبراهيم في السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وكيف فرضت الصلاة .
وكيف شاهد في جهنم مختلف صور التعذيب والتنكيل بالملئنين الآثمين .
ثم كيف نزل ثانية إلى بيت المقدس ، فركب البراق وعاد إلى مكة في
نفس الليلة .

وما أن انتهى مما قصه عليهم حتى صفق مصفق هنا ، وصرصر مصفر هناك ،
تكذيباً له واستبعاداً لما أخبرهم به . وطار الخبير في مكة ، وأحدث هزة
عنيفة في الرأي العام وكذبه أكثر الناس ، حتى لقد ارتدت إر ذلك
طائفة من المسلمين .

وجاء الناس إلى أبي بكر فأخبروه أن محمداً يقول كذا وكذا .

فقال : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : والله إنه ليقوله .

فقال : إن كان قاله فلقد صدق . ثم إنى لأصدقته في خبر السماء بُكرة

وعشية . أفلا أصدقته في بيت المقدس ! ومن ثمة سمي الصّدِّيق .

لاح في ذلك الوقت أن الإسلام على وشك الضياع ، وأن محمداً انهزم .
فهاهم جماعة من أتباعه يرتدون عنه بعد ما تبعوه وآمنوا به ولاقوا في سبيل
دعوته ما لاقوا من عنت قريش واضطهادها . وهاهي قبائل قريش تزداد
عابه ضغطاً فتكثر من مساءاتها ، ويكثر سفهاؤها من عدوانهم ، وهاهي
قبائل العرب في كل مكان تأتي اتباعه وتنكح دينه وترفض بإصرار رسالته ،
بل إن منهم من أهانه واعتدى عليه وأساء إليه . فهل خارت قواه ؟ هل
تزعزع إيمانه أو وهنت عزيمته ؟ هل تغير شيء من رضا نفسه وطمأنينتها إلى
أن ربه عز وجل لا بد ناصره ؟ هل شك في أن هذا الليل سوف ينبثق عن
صبح مشرق وضاح ؟ كلا ثم كلا . ما تغير قيد أملة ، بل مضى في أحلك
أيام كفاحه ثابت الجنان ، حديدي الإرادة ، مطمئن النفس . إنه منتصر
لا محالة . إن مثله لا ينهزم .

مر الآن أكثر من عشر سنين . . . ليل طويل . . . واكن ها قد أطلت
تباشير صبح وضاء . فهذي خيوط الفجر تنهذى من بعيد لتفسح في أفق
هذا الظلام الدامس مكاناً للنور الأبلج . لقد أسلم الأوس والخزرج .
داوم محمد كما رأينا على الاتصال بالعرب الذين يفدون إلى مكة في
مواسمها وأسواقها ، ولم يكن يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف
إلا تصدى له ودعاه إلى الله تعالى ، وعرض عليه دينه . فلما قدم سُوَيْدُ بن
الصَّامِت إلى مكة حاجباً أو معتمراً ، وهو أحد أشراف يثرب ، وكان يسميه
قومه الكامل لشدة على المكاره وشِعْرِهِ وشرفه ونسبه ، تصدى له محمد
فدعاه إلى الله والإسلام ، فقال له سُوَيْدُ : فلعل الذي معك مثل الذي معي .
فقال له محمد : وما الذي معك ؟ قال : مجاة لقمان ، يعنى حكمة لقمان .
فقال : اعرضها عليّ . فعرضها عليه ، فقال : « إن هذا الكلام حسن ،
والذي معي أفضل من هذا ، قرآن ، أنزله الله عليّ ، هو هدى ونور » .
وتلا عابه محمد شيئاً من القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فأعجبه وقال : إن
هذا القول حسن .

ثم انصرف عنه . ولما عاد إلى المدينة لم يلبث بها غير قليل حتى قتله الخزرج . وربما يكون سُؤيد بن الصامت أول من أسلم من أهل المدينة ، ذلك أنه أثر عن قومه أنهم كانوا يقولون : إنا لنراه قتل وهو مسلم .

وقدم أبو الحيسر أنس بن رافع إلى مكة ، ومعه فتية من بني عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على الخزرج . وكلنا يعلم العداوة التقليدية التي كانت بين الأوس والخزرج ، ويلوح أنه كان لليهود يد في بث هذه العداوة ، عملاً بحكمة فرّق تسد .

وكانت الحرب توشك أن تقع بين الفريقين ، وكان كل منهم يعمل على تعزيز جانبه بمخالفة قبيلة من هنا أو قبيلة من هناك تشد أزره . فلما سمع محمد بمقدمهم أتاهم فجلس إليهم فقال : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ قالوا : وما ذلك ؟

قال : أنا رسول الله إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليّ الكتاب . ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حدثاً : يا قوم هذا والله خير مما جئتم له . عندئذ أخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منك ، فاعمرى لقد جئنا لغير هذا . . . ففتى تفتح قلبه للحق واشترأت روحه لدين قويم . وشيخ صلّبت أحاسيسه ، وقسا قلبه ، وملك الدنيا عقله .

قام محمد عنهم وانصرفوا إلى المدينة ، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، ووقعت وقعة بُعات بين الأوس والخزرج . ويلوح أن هذه الواقعة كانت مقدمة تهيأت بعدها كل من الأوس والخزرج للمصالحة ، وللبحث عن زعيم قوى يستطيع أن يلم الشمل ويكبح جماح الشهوات ، ويجول دون ما في نفوسهم من ثار وعداوة وبغضاء . والحق أن النتيجة التي انتهت إليها هذه الواقعة كانت سيئة جداً على كل من الجانبين . فقد انهزمت الأوس بادئ الأمر ، ثم انهزمت الخزرج بعد ذلك شر هزيمة . حتى لقد أراد

حُضَيْرِ رَئِيسِ الْأَوْسِ أَنْ يَفْضِيَ الْخَزْرَجَ عَنْ بَكْرَةَ أَبِيهَا ، لَوْلَا أَنْ تَدْخُلَ أَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَمِ حِفَاظًا عَلَى قُوَّةِ الْقَبِيلَتَيْنِ فِي مَوَاجِهَةِ الْيَهُودِ جِيرَانِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ فَتَتْ هَذِهِ الْوَقْعَةَ مَلَأَهُمْ وَقُتِلَ فِيهَا سِرَاتِهِمْ . وَلَا عَجَبٌ فَإِنَّهُمْ فَكَّرُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ جَدِيدًا فِي تَنْصِيبِ مَلِكٍ عَلَيْهِمْ ، فَاخْتَارُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بِنِ سُلُولٍ لِمَكَانَتِهِ فِيهِمْ وَحَسَنِ رَأْيِهِ ، وَاسْتَعَدُّوا فِعْلًا لِتَنْصِيبِهِ عَلَيْهِمْ ، لَوْلَا أَنْ وَقَعُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ ، بَلْ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ فِي الْعَرَبِ جَمِيعًا . . . مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

فَبَيْنَمَا مُحَمَّدٌ يَعْضُ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ إِذَا حَضَرُوا فِي الْمَوْسِمِ ، إِذْ لَقِيَ رَهْطًا مِنَ الْخَزْرَجِ فَقَالَ لَهُمْ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ . قَالَ : أَمِنْ جِيرَانِ الْيَهُودِ ؟ قَالُوا نَعَمْ . قَالَ : أَفَتَجْلِسُونَ أَكَلِمَتِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى . فَجَلَسُوا مَعَهُ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ . فَلَمَّا سَمِعُوا مِنْهُ مَا عَرَضَهُ عَلَيْهِمْ ، تَذَكَّرُوا مَا كَانَ الْيَهُودَ يَتَوَعَّدُونَهُمْ بِهِ . فَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ يَفْخَرُونَ عَلَى الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بِذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ إِنَّ فِي كِتَابِهِمْ نَبِيًّا قَدْ آتَى أَوَانَهُ سَوْفَ يَظْهَرُ ، وَسَوْفَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَعِزُّونَ بِهِ فَيَقْتُلُونَ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ قَتْلَ عَادٍ وَإِرمَ . مَاذَا إِذْنٌ ؟ فَهَا هُوَ أَمَامَهُمْ أَشْرَفُ قَوْمِهِ ، وَأَصْدَقُ قَوْمِهِ ، وَأَكْثَرُ الْعَرَبِ بَرًّا وَصَلَاحًا وَتَقْوَى ، يَنَادِي فِي النَّاسِ مِنْذُ عَشْرِ سِنِينَ أَوْ يَدْفَعُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْعِبَادِ ، وَأَنْ كُلَّ الدَّلَائِلِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ النَّبِيُّ الْمَوْعُودُ الَّذِي آتَى أَوَانَهُ وَأَتَى وَقْتَهُ ، فَلَمَّاذَا لَا يَصْدُقُونَهُ وَيَسْبِقُونَ الْيَهُودَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : يَا قَوْمَ تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ إِنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ الْيَهُودُ ، فَلَا يَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ .

صَدَقُوهُ وَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَقَالُوا : إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا وَلَيْسَ قَوْمٌ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مِثْلَ مَا بَيْنَهُمْ ، وَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بِكَ ، فَسَنَقْدِمُ عَلَيْهِمْ فَندَعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجْبَنَّاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ ، فَإِنْ يَجْمَعُهُمُ اللَّهُ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلَ أَعَزَّ

منك . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا به وصدقوا . وكانوا ستة نفر كلهم من الخزرج ، فيهم أسعد بن زُرارة وعُبادَة بن الصَّامت .

فلما عاد هؤلاء إلى المدينة ذكروا لجماعتهم ما كان من أمرهم مع النبي وما سمعوه منه ودعوتهم إلى الإسلام ، ففشا ذكر الإسلام في المدينة حتى إنه لم يبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها ذكر لمحمد وللإسلام . فلما أهل العام المقبل وحضر الموسم ، وفد إلى مكة اثنا عشر رجلا من الأنصار ، منهم عشرة من الخزرج واثان من الأوس ، عازمين على لقاء محمد ، فلقوه في مكان يقال له العقبة ، وبايعوه بيعة العقبة الأولى . قال عبادة ابن الصامت ، وكان فيهم : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلنكن الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفارة له . وإن سئرتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر .

فلما انصرفوا عائدين إلى المدينة أرسل محمد معهم مُصعبَ بن عمير وهو من بني هاشم ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين . فنزل مصعب ضيفاً على أسعد بن زُرارة ، وكان يُسمى بالمدينة المُقرئ . وكان أسعد بن زُرارة يخرج بمُصعب إلى أحياء الأوس والخزرج يدعوهم للإسلام . وذات يوم خرجا فأتيا بستاناً لبني ظفر ، فجالسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلم .

وكان سعد بن مُعاذ وأسيّد بن حُضَيْر يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما لا يزال مشركاً على دين قومه . فلما سمعا بهذا الجمع قال سعد لأسيّد : لا أباك ! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهما أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن

زرارة منى حيث قد علمت كفيتهك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عايه متقدماً .

فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه ، وقد جاءك فاصدق الله فيه . قال مصعب : إن يجلس أكلمه . فلما بلغهما قال غاضباً : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال له مصعب : أوتجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره .

قال : أنصفت . ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب في شأن النبي والإسلام وقرأ عليه القرآن .

فقال أسيد وقد عرف أسعد ومصعب في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين . قالوا له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم تصلى . فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق وركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، هو سعد بن معاذ . ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم مجتمعون ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم . فلما بلغهم قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كالم الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . وقد علمت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك .

فقام سعد بن معاذ مغضباً متخوفاً مما ذكره له أسيد عن بنى حارثة . وأخذ الحربة في يده ، وخرج إلى حيث أسعد ومصعب . فلما رأهما

مطمئنين عرف أن أسيداً وإنما أرادته أن يسمع منهما ، فوقف غاضباً ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة ، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُميتَ هذا منى ، أتغشانا في دارنا بما نكره ؟

فقال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد في قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك من قومه اثنان .

فقال له مصعب : أوتقعد فتسمع ، فإن رضيتُ أمراً رغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن .

فقال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين .
قالا : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين : فقام فاغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين . ثم أخذ حربته ، وأقبل عائداً إلى مجتمع قومه ومعهم أسيد بن حضير . فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما باغهم قال : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟
قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأرجحنا عقلاً .

قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . ولقد صدق أسيد في ظنه أن أحداً سوف لا يتخلف من قومه عن الإسلام إن أسام سعد ، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا ملسماً أو مساماً . وانضم سعد إلى أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير في دعوة الناس إلى الإسلام . حتى لم يبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

كان طبيعياً إذن بعد أن نجح الإسلام هذا النجاح الباهر في صفوف

قبيلتين كبيرتين ، أن يفكر محمد تفكيراً جدياً في الهجرة إلى يثرب حيث هؤلاء الأنصار ، وحيث يستطيع تحت حمايتهم ورعايتهم أن يقيم شعائر الدين بحرية لا يشوبها أذى أو إساءة . ثم إن في الهجرة إلى يثرب ولا شك تقوية للإسلام ، إذ سوف يلتئم شمل المساميين جميعاً ، ويعود الذين هاجروا إلى الحبشة ، وينضم الجميع تحت راية واحدة في منعة وعزة وقدرة لم يعهد لها الإسلام من قبل . وأى شيء أدعى للجبهة من هذه الظروف المواتية ! منعة وعزة ودولة توشك أن تقوم بين ظهرائي قبيلتين شهيرتين وفي مدينة من أشهر مدن العرب . واكن كان لا بد لمحمد ولآل محمد أن يستوثقوا من مدى إيمان الأنصار بالإسلام ومدى حمايتهم لمحمد ، وفضلاً عن ذلك كان محمد يتطلع ولا شك إلى إقامة دولة تستطيع أن تحمي التابعين لها حماية العزيز المنيع المقتدر ، فقد كفى المسلمين أكثر من عشر سنين عاشوها بين الذئاب ، تشردهم وتبعدهم عن ديارهم وتسيء إليهم وتنهشهم نهشاً . لقد آن الأوان لهم أن يعووا قليلاً بين هذه الذئاب الكاسرة . حلف يدفع به المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان .

واعد الأنصار محمداً على اللقاء في الليلة الثانية من أيام التشريق^(١) بعد الحج في شعب العقبة . فلما فرغوا من الحج وكانت الليلة التي واعدوا فيها الرسول ، كره المسلمون من الأنصار ، وكانوا يكتمون أهلهم من المشركين أمرهم ، أن يعقدوا هذه البيعة وليس فيهم عبد الله بن عمرو ، وكان سيداً من ساداتهم وشريفاً من أشرافهم ، فكلموه ودعوه إلى الإسلام فقبل منهم وشهد معهم العقبة وكان نقيباً .

نام المسلمون من الأنصار تلك الليلة مع قومهم حيث يقيمون حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا لميعاد الرسول ، وهم يتسللون تسلل القطا مستخفين ، واجتمعوا في الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان .

(١) ثلاثة أيام بعد العيد .

وجاءهم محمد ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان لا يزال على دين قومه ، ولكنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . أى أنه أراد الأمر أن يكون رسمياً كما تقول الآن ، أى بين بنى هاشم والأوس والخزرج .

وكان العباس بن عبد المطلب أول من تكلم قال : يا معشر الخزرج (١) ، إن محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزّة من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمّلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن ندعوه ، فإيه في عزّة ومنعة من قومه وبلده . فقالوا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتلا محمد القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام وقال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم .

فأخذ البراء بن معرور بيده وقال : نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه نساءنا . فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وورثاها كباراً عن كبار . واعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلاً وإننا قاطعوها (يعنى اليهود) فهل عسيّت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسّم النبي وقال : بل الدّم الدم . والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وهنا قام سعد بن عبادة ، وكأنه يريد أن يشد العتد في أعناقهم وقال : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ! قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون

(١) كانت العرب تسمى ذى الحلى من الأنصار الخزرج . خزرجها وأوسها .

أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟

قال : الجنة .

قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

فقال لهم الرسول : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً^(١) يكونون على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فيهم أسعد بن زُرارة ، وعبد الله بن رواحة ، وعبد الله بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، وأسيّد بن حُضَيْر . فقال لهم محمد : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ، قالوا : نعم .

وما أن انتهوا حتى سمعوا ، جلا يصيح بأعلى صوته نادياً قريش : يا أهل الجباب - والجباب المنازل - هل لكم في مُدَمِّمِ الصُّبَاءِ معه قد اجتمعوا على حربكم ، ويلوح أن محمداً عرف صوته فقال : أتَسَمَّعَ يا عدو الله ، أما والله لا تفرغن لك . فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فنا . فقال محمد : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى مضاجعكم .

فرجعوا إلى مضاجعهم وناموا . فلما أصبحوا غدت عليهم سادات قريش وجاءوهم في منازلهم فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ،

(١) النقيب : كبير القوم .

وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم . فأنك المشركون منهم أنهم يعلمون شيئاً عما يقولون ، والمسلمون سكوت ينظر بعضهم إلى بعض : فصدقهم القوم وعادوا عنهم . وتفرق الناس من منى عائدين إلى ديارهم . غير أن قريشاً لم يهدأ لها بال ، فظلت تنتطس الخبر حتى علمت بصحته ، فخرجوا في طلبهم . فلم يدركوا غير سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً من نقباء المسلمين ، غير أنهم لم يقدوا على المنذر ، وأما سعد فأخذوه وربطوا يديه إلى عنقه ، وعادوا به إلى مكة وهم يضربونه ويجذبونه من شعره وكان طويلاً . ولم ينقذه من أيديهم غير جبشير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية ، إذ كان يجير لها تجارهما من أراد ظلمهم إذا خرجوا إلى بلاده .

لما رجع الأنصار أظهروا الإسلام في المدينة ، ولم يبق من بيت إلا وفيه مسلم أو مسلمة ، ولم يتخلف من ساداتهم غير نفر قليل منهم . ومن أطرف ما يروى عن عمرو بن الجحمر ، وكان من سادة بني سلمة ما فعله فتيان بنى سلمة المسلمون وفيهم ابنه معاذ ، ومعاذ بن جبل ، في صنم من خشب اتخذته في بيته يقال له مناة ، كان يعظمه ويرفع من قدره . كان هؤلاء القتيبة إذا نام عمرو ، خرجوا في آخر الليل ، وأخذوا الصنم وطرحوه في بعض حفر بنى سلمة ، وفيها غائط من غائط الناس ، منكساً على رأسه . فاذا أصبح عمرو قال : ويلكم ! من عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجدته غسله وطيبه وطهره ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزبته . ثم إنهم كرروا فعلتهم هذه عدة ليال ، وكان عمرو يعيد صنمه من حيث ألقوه في الأذى بعد أن يغسله ويطهره ويطيبه . فلما أكثروا عليه ، استخرج الصنم يوماً من حيث ألقوه ، فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى ، فإن كان فيك خير فدافع عن نفسك ، هذا السيف معك . فلما أمسى ونام عمرو

عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بجبل ، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها غائط من غائط الناس . فلما أصبح عمرو لم يجد صنمه حيث تركه ، فخرج يبحث عنه ، فلما وجدته في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت ، أدرك أنه لا يضر ولا ينفع . فلما كلمه من أسلم من قومه أسلم وحسن إسلامه ، وذكر صنمه وما أبصر من أمره ، وشكر الله على إنقاذه مما كان فيه من العمى والضلالة ، قال :

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرآن
أف للملئك إلهاً مُستَدان الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلي ذى المنين الواهب الرزاق ديان الدينين
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون في ظلمة قبرٍ مُرتَهَن

* * *

كانت بيعة العقبة الثانية إيذاناً خطيراً بتحول حاسم في موقف كل من المسلمين والمشركين في مكة . لقد أصبح للمسلمين دار أصابوا فيها منعة ، وحلوا فيها عزازاً كراماً . وأما المشركون فقد أصبحوا ولا شك في موقف لا يحسدون عليه ، وقد قبل سادات يثرب حماية محمد والمسلمين وعاهدوهم وتعاهدوا معهم ، واستقدموهم إلى ديارهم واستضافوهم . لقد جن جنون قريش عندما هاجر منذ بضع سنين نفر من المسلمين إلى الحبشة ، فكيف بهم وجميع المسلمين الآن وعلى رأسهم محمد ، قد عقدوا حلفاً مع قبيلتين من أقوى وأعز قبائل العرب ، على نصرتهم وحمايتهم ، والذود عنهم وحرب الأحر والأسود من الناس معهم . أتصبح المدينة منافساً يهدد مكة ؟ أيؤسس محمد ملكاً في المدينة ينازع به قريشاً ؟ أيعود محمد في يوم ما على رأس هؤلاء الأتباع غازياً لقريش ، محطماً لأصنامها . هادماً لعبادتها ؟ يحاول محمد أن يعامل قريشاً معاملة العين بالعين والسن بالسن ، فينتقم لنفسه ولأتباعه مما لاقوا من عنت قريش وحصارها ، ويبندها لهم ومقاطعتها إياهم سنين طوالاً ؟

أيمنع تجارة قريش إلى الشام ، ويسد عليهم الطريق ، ويحاصرهم حصاراً اقتصادياً؟ أيجيعهم محمد أو يحاول ذلك؟ أيهدم محمد هذا المجد العريض الذي يرفل فيه سادة قريش؟

الحق أنهم أوجسوا خيفة من هذا كله ، ذلك أن تجاربهم مع محمد قد بينت لهم أنه ليس بالرجل الذي يستهان به . فإنه سيرد الصاع صاعين لا شك في ذلك إن استطاع . ولقد بدأت الدلائل تشير إلى أنه سيستطيع . فإذا يفعلون إذن وهام المسلمون قد بدأوا يهاجرون إلى يثرب جماعات وأفراداً ، وقد ترك الأب ابنه ، والأخ أخاه ، والابن أباه ، والرجل ابن عمه وصديقه؟ ثم إن المشركين أيقنوا ولا شك أن أحداثاً لا بد ستحدث بينهم وبين محمد وأصحابه من الأنصار الذين عاهدوه على حرب الأحمر والأسود من الناس .

أيقن المشركون في قريش أن محمداً قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة ، وهي دار قُصَي بن كلاب جدهم ، وهي الدار التي لا تقضى قريش أمراً إلا فيها ، وراحوا يتشاورون في أمر محمد بن عبد الله حين خافوه هذا الخوف .

اجتمع حشد غفير من قريش في اليوم الذي اتعدوا له ، وسمى ذلك اليوم بيوم الزحمة . وأخذ القوم يتفاوضون ويتشاورون فيما بينهم . فقال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . غير أنهم خشوا إن فعلوا ذلك أن يعلم به أصحاب محمد وقد أصبح لهم شأن يذكر ، فتثور الحرب بينهم ، فرفضوا هذا الرأي . ثم تشاوروا وقال قائل منهم : نخرجه من بلدنا فننفيه في البلاد ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا والفتنا كما كانت . غير أن هذا الرأي أيضاً لم يرضهم ، ذلك أنهم خشوا من حسن حديثه وطلاوة منطقه وغلبته على قلوب

الرجال ، فربما يحل على حى من العرب فيتبعوه فيسير إليهم بهم . وأخيراً قال أبو جهل رأياً استحسنوه ، قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتي منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالدية وهم مجتمعون له . واطمأن المجتمعون إلى هذا الرأي واستصوبوه وأجمعوا عليه .

الفصل الثالث

الهجرة

إذا كان في تاريخ البشرية أحداث غيرت مجرى التاريخ ، فلسنا نعرف على التأكيد حدثاً بعينه غير مجرى تاريخ البشرية ، له من الأهمية والروعة والجلال ما لهذه الهجرة النبوية . خرج محمد من مكة ضعيفاً خائفاً متوجساً ليس معه غير رجل واحد ، ومن حوله مئات بل آلاف من الأعداء ، قد أجمعوا على قتله والتخلص منه ، فينجو من براثنهم بأعجوبة ، وفي أقل من ربع قرن يكون هذا الطريد المستضعف قد أسس أعظم دولة في العالم في القرون الوسطى ، وأقام أساس حضارة أنقذت الإنسان مما عُرف في تاريخه بالقرون السود — حضارة قوامها العلم والعدل ومكارم الأخلاق ، لتكون في واقع الأمر حجر الأساس في الحضارة الحديثة برمتها (١) .

عندما نعى إلى علم محمد ما تأمرت به قريش ، وأمره ربه بالهجرة ، وعقد العزم على مغادرة مكة ، أمر عليّ بن أبي طالب أن ينام في فراشه تلك الليلة ، ويتغطى ببرده الحضرمي الأخضر ، حتى إذا ما رآه المتآمرون خيل إليهم أن محمداً نائم فيطمثنون إلى أنه لم يقات منهم . ثم إنه أمر علياً أيضاً أن يتخلف في مكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس ، ذلك أنه لم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته .

وأتى محمد دار أبي بكر فاستأذن فدخل وجلس ، ولم يكن أحد حاضراً سواهما غير أسماء وعائشة ، فقال محمد : أخرج عنى من عندك . فقال

(١) انظر كتابنا « أثر العرب في الحضارة الأوربية — نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة » و « الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمى الحديث » .

أبو بكر مستغرباً : يا رسول الله إنما هما ابنتاي ، وما ذاك فذاك أبي وأمي ؟
حرص شديد من محمد ، فربما يكون مصير الدعوة كلها معلقاً في هذه
الساعات ، ثم ثقة ما بعدها ثقة من أبي بكر في ابنتيه . والحق أنه كان
مصيباً ، فعائشة الطفلة التي لم تتجاوز الثامنة في ذلك الوقت قد قامت بدورها
فيما بعد على خير ما يرام ، فعرف العرب أجمعون والمسلمون والتاريخ عفتها ،
ورجاحة عقلها ، وبلاغتها محدثة وراوية عن محمد ، ومعامة لأجيال من
المسلمين . وأما أسماء وكانت في حوالى العشرين ، والتي عهدا إليها بسر من
أكبر وأخطر أسرار الحركة الإسلامية ، واستودعاه صدر هذه القديسة ،
فما ناء عن حملة ، وما وجلت منه نفسها ولا خارت ولا وهنت ، فقد أثبتت
للذنيا جميعاً أنها أهل لهذه الثقة ، وأنها جديرة بهذا التقدير .

التفت محمد إلى أبي بكر وقال : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة .
قال أبو بكر : الصُّحْبَةُ يا رسول الله ! قال : الصُّحْبَةُ . فبكى أبو بكر .
وفي ذلك قالت عائشة : والله ما شعرت قط قبل ذلك أن أحداً يبكي من
الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي .

وكان أبو بكر عند ما نوى الهجرة إلى المدينة قبل ذلك واستبقاه محمد
لعل الله أن يجعل له صاحباً ، طمع أن يكون هذا الصاحب رسول الله ،
فابتاع ناقتين وحبسهما في داره يعلفهما إعداداً لهذا اليوم ، اشتراهما
بثمانمائة درهم . ثم إنهما استأجرا عبد الله بن أرقط أو أرقيط ، وكان
مشاركاً ، ليدلها على الطريق ، ودفعاً إليه راحلتهما برعاهما لميعاد الخروج .
وجهزت أسماء وعائشة لهما زاداً صنعتهما على عجل ووضعتهما في جراب ،
ونزعت أسماء نطاقها فشقتة شطرين ، جعلت واحداً ربطت به على فم
الجراب ، والآخر عصاماً لقربة الرسول . فلذلك سميت بذات النطاقين .
ثم خرجا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر ، وكان خروجهما ليلاً في شهر
ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من المبعث .

فلما استقبل محمد الطريق ، اتجه بقلبه إلى خالق السماوات والأرض ،
إلى ربه ورب العالمين ، وقال :

« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً ، اللهم أعنى على هول الدنيا ،
وبوائق الدهر ، ومضائب الليالى والأيام .

اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك فيما رزقتنى ،
ولك فدللتنى ، وعلى صالح خلقتى فقوّمنى ، وإليك رب فحبنى ، وإلى الناس
فلا تكلىنى .

ربّ المستضعفين وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له
السماوات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين
والآخرين ، أن تُحيل على غضبك أو تُنزل بي سخطك ، أعوذ بك من زوال
نعمتك ، وفجأة نقمتك ، وتحوّل عافيتك وجميع سخطك . لك العتبى عندى
خير ما استطعت ، لا حول ولا قوة إلا بك . »

ثم إنهما عمدا إلى غار بجبل ثور جنوب مكة ودخلاه واستخفيا فيه ثلاثة
أيام حتى هدأت قريش عنهما . ذلك أن قريشاً عندما أصبحت وتبينت أن
عائياً هو الذى كان فى الفراش ، أخذتها حمى الغضب ، وهاجت وماجت يمخاً عن
محمد ، لعلها تمنعه من الهجرة أو تقتله . وتفرقت قريش تبحث عنه فى كل
مكان ، فأتى نفر منهم بيت أبى بكر وفيهم أبو جهل ، فوقفوا على الباب
فخرجت إليهم أسماء فقالوا : أين أبوك يا ابنة أبى بكر ؟ قالت : لا أدرى
والله أين أبى (وكانت صادقة ، فإذ كانت تدرى أين هو فى تلك اللحظة) ،
فرفع أبو جهل يده ولطم خدها لطمة شديدة طرحت قرطها . ثم انصرفوا .

كانت أسماء عظيمة بكل معانى العظمة ، ومما يدل على عظمة نفسها
ورجاحة عقلها أنه لما جاءها جدها أبو قحافة يقول لها : والله إنى لأراه قد
فجعكم بماله فى نفسه (وكان أبو بكر قد احتمل معه ماله كله ، خمسة آلاف
أو ستة آلاف درهم) . قالت : كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً .

وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبوها يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، وكان كفيفاً ، فقالت : يا أبت ضع يدك على هذا المال . فوضع يده عليه فقال : لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . والحق أنه ما ترك شيئاً ، ولكن ترى هنا أسماء وقد عبرت عن مكنون عواطفها وعن إيمانها بأبيها وبالرسالة التي يؤديها ، كما عبرت عن منتهى رقة إحساساتها ، إذ لم تشأ أن تؤلم هذا الشيخ الضرير ، فسكنت روعه وأرضت نزعاته بهذه الحيلة .

لم يعلم أحد بمخبئتهما في الغار غير آل أبي بكر ، ابنه عبد الله ، وابنتاه أسماء وعائشة ، ومولاه عامر بن فهيرة . فكانت أسماء تأتيهما من الطعام ما يكفيهما إذا أظلم الليل . وكان عبد الله يتسمع لهما ما يقوله الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما سمع في ذلك اليوم من الخبر . وكان عامر بن فهيرة يرعى غنم أبي بكر في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى عمد إليهما بها فاحتلبا وذبحا ، فإذا انصرف عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يُعفى عايه .

جدت قريش في طلب المهاجرين ، وتفرقت جماعات من سائر الجهات تبحث في كل مكان ، وجعواوا لمن يردهما أو أحدهما مائة من الإبل . وأقبلت فتيان قريش من كل بطن منهم رجل ، معهم عصيهم وقسيهم وهرأوتهم ، وإذا بدلياهم سرّاقة بن مالك يفقد الأثر وهم قاب قوسين أو أدنى من الغار لصلاية الأرض . وليس بغريب أنهم مروا على باب الغار مرّة ومرتين أو أكثر ، فما فكر أحد منهم في دخول الغار ، ذلك أن عنكبوتاً كان قد نسج نسيجه على باب الغار ، وفي رواية أخرى أن حمامتين وحشيتين عششتا على فم الغار .

فهذا قائل يقول : رأيت حمامتين وحشيتين بضم الغار ، فعرفت أن

ليس فيه أحد . وآخر يهتف بهم : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد .
وأبو بكر يقول لصاحبه : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت
قدميه .

فيقول له محمد : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما !
وكان أبو بكر كلما سمع أصوات المتأمرين المتلهفين على محمد خارج
الغار ، وهم على قيد خطوات منهما ، يجزع وترتعد فرائصه وجلا وإشفاقاً ،
ويقول لمحمد : هؤلاء قومك يطلبونك !

فيطمئنه محمد ويقول : يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا .
فيقول أبو بكر : أما والله ما على نفسي أحزن ، ولكن مخافة أن أرى
فيك مكروها .

مضت ثلاث ليال وهما في الغار ، وسكن عنهما الطلب ، فأتاهما
عبد الله بن أريقط الدليل الذي استأجراه ومعه بعيراهما وبعير له ، وأتتهما
أسماء بنت أبي بكر بطعامهما وشرابهما للطريق . فلما قدم أبو بكر الراحلتين
إلى محمد قدم له أفضلهما ثم قال : اركب فذاك أبي وأمي .

فقال محمد : إني لا أركب بعيراً ليس لي .

قال : فهى لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي .

قال : لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتهما به . قال : كذا وكذا .

قال : أخذتها بذلك . قال : هي لك يا رسول الله .

وفي قصة أن تلك الناقة كانت القصواء ، وفي قصة الجذعاء .

ركبوا وانطلقوا على بركة الله ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه
خلفه ليخدمهما في الطريق . وعمد بهما دليلهما ، وكان فارهاً يعرف
جميع المسالك والدروب ، إلى اتباع طرق متعرجة ، تارة نحو الشرق ، وتارة
نحو الغرب ، وتارة نحو الشمال ، حتى يضلل من قد يقتنى أثرهم من المشركين
الذين يجردون في طلبهم . وبعد أن حثوا السير يوماً وليلة ، وأشرقت عليهم

شمس اليوم الثاني وهم يجدون في السير ليبتعدها عن خطر الباحثين قدر
الإمكان ، لم يذوقوا نوماً ولا راحة ، وقد علت الشمس كبد السماء ،
وأرسلت عليهم شعاعات من لهب ، وتوهجت الصحراء من حولهم في
حر الظهيرة ، عندئذ أحسوا بأن لأبدانهم عليهم حقاً ، وأنه ينبغي لهم أن
يطلبوا قسطاً من الراحة ، وإلا سقطوا إعياء منهوكين .

ضرب أبو بكر نظره ليرى ظلاً يهتمون فيه ويأوون إليه ، فإذا بصخرة
إلى جانبها بقية من ظل ، فسوى مكاناً لصاحبه وفرش له فروة ، فالبث
أن أخذته النعاس من شدة التعب والإرهاق فنام .

ونقل أبو بكر بصره هنا وهناك ، فإذا براعي غنم فأتاه فقال : لمن أنت
يا غلام ؟ فقال : لرجل من قريش . فقال أبو بكر : هل في غنمك من
لبن ؟ قال : نعم . قال هل أنت حالب لي ؟ قال : نعم . فحلب قليلاً من
اللبن ، فقدم به أبو بكر لصاحبه فرواه ، ثم هرعوا بعد راحة لا تغني إلا
قليلاً ، ميممين شطر الشمال مسرعين .

وما أن ساروا بعض الطريق حتى أدركهم سرّاقة بن مالك على فرس
له . فنظر أبو بكر خلفه وليس بينهم وبينه غير قليل وهو يجد في طلبهما ،
وقال : يا رسول الله قد لحقنا . قال : لا تحزن إن الله معنا .

وكان سرّاقة كلما اقترب منهما جزع أبو بكر وأكثر الالتفات ،
ومحمد ثابت كالطود ، ما اهتز وما تززع لا يلتفت وراءه . وتشاء الأقدار
في تلك اللحظة الحاسمة وسرّاقة ليس بينه وبينهم غير رمية رمح أو سهم ،
أن تعثر به فرسه فيخر عنها . فاستخرج من كنانته الأزام واستقسم بها
أيضهم أم لا ، فخرج السهم الذي يكره . فركب فرسه وتبعهما ، وإذا
بفرسه تعثر به مرة أخرى . عندئذ تطير سرّاقة كعادة العرب ، ودخل في
روعه أن الآلهة لا ترضى عما يفعل . فناداهم بالأمان وأخبرهم بما تريد قريش
بهم ، وبما جعلوا في محمد من الدية ، وعرض عليهم الزاد والمتاع . فلم يطلب

محمد منه شيئاً إلا أن قال : أخف عنا . فطلب منه كتاب أمن ، فكتبه أبو بكر . ولما رجع سراقة عنهما ، أخذ يضلل الذين يجدون في طلبهما ، ويقول : كُفيتم هذا الطريق ، ليس فيه أحد . وخلا الطريق إلى المدينة وتابع النبي سيره إليها في أمان واطمئنان لا يصدده صناد ولا يعكر صفو رحلته مطارداً أو معتداً أثم .

وصل المهاجر البطل إلى المدينة بعد خمسة عشر يوماً ، وهي فترة أطول مما تستغرق الطريق عادة ، ذلك أنه قضى ثلاثة أيام بالغار ، وسلك طريق الساحل ، وهي أبعد من الطريق المألوفة ، وتخلف بقضاء أربعة أيام .

لما علم أهل المدينة بمغادرة محمد مكة ، وتوقعوا مقدمه بين يوم وآخر ، كانوا يغدون أول النهار إلى الحرّة بأطراف المدينة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة . وذات يوم من أيام الاثنين في أواخر شهر ربيع الأول ، وبعد أن طال انتظار المسلمين وعودوا إلى بيوتهم ، هتف بهم يهودى كان ينظر شيئاً من أعلى حصن من حصونهم فرأى القادمين عليهما ثياب بيض قال : يا معشر العرب هذا صاحبكم الذى تنتظرون .

هرع المسلمون إلى السلاح وخرجوا زرافات ووحدانا ليستقبلوا الرجل البطل النبي ، الذى دعوه إلى بلدهم الأمين ، وليلووا عيونهم من محيا ذلك الذى تكلمه السماء ، وليثبتوا له وهم شاهرين السلاح أنهم رجال صدق فى وعدهم ، وأنهم فى مدينتهم عزاز كرام أقوياء ، وأنه أصبح بين ظهرانيهم منيعاً آمناً على نفسه وعلى دينه . تدفق نحوه مئات من الرجال والنساء والفتيات والصبيان ، يتدافعون فى غمرة حماسهم ولطفهم متسائلين : أيهم هو ؟ أيهم هو ؟ وكانت الشمس فى تلك الساعة التى وصل فيها الركب المبارك قد علت كبد السماء ، والوقت عند الظهيرة ، وحرارة يوليو تلهب الدنيا بلظاها ، فنزل محمد عن راحته وجلس فى ظل نخلة يستريح . فلما تحولت الشمس وانكشف الظل عن محمداً نهض أبو بكر يُظلمه ، فلما رأى الناس ذلك عرفوه ، فتعالت

الصيحات والتهافتات من هنا وهناك : الله أكبر ! جاء رسول الله .
الله أكبر ! جاء محمد . الله أكبر ! جاء رسول الله . الله أكبر ! جاء محمد .
وبعد أن استراح فترة العصر ، وخف الهرج والمرج ، وسكنت أنفاس
الناس ، واطمأن المسلمون على نبيهم ، وهدأت مخاوفهم عاياه ، قام وعطف
بهم ذات اليمين حتى نزل في بني عمرو بن عوف بقُباء بعد المغرب بقليل .
ويمكث عندهم من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة . وفي تلك الأثناء وصل على
ابن أبي طالب من مكة بعد أن سلم الودائع التي كانت عند محمد لأصحابها ،
وانضم لصاحبه .

أسس محمد مسجده بقُباء ، فكان أول مسجد بني في الإسلام ، بل أول
مسجد جعل لعموم الناس . ونهض يوم الجمعة ومن ورائه جموع المسلمين
ميمماً شطر المدينة ، التي استقبلته استقبالا لم تشهد مثله من قبل ، الرجال
بسيوفهم يسرون من حوله ومن ورائه ، تملأ نفوسهم حمية العرب ، ويملأ
قلوبهم إيمان برسول الله لا يثنهم عنه إلا الموت . والنساء والفتيات والصبيان
من فوق البيوت وعلى جانبي الطريق يهللون وينشدون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فلما أدركته صلاة الجمعة في حى بنى سالم بن عوف بطن الوادى
المسمى بوادى رانواء ، صلى بالمسلمين هناك ، فكانت أول جمعة صلاها
بالمدينة ، بل أول جمعة صلاها بالمسلمين إطلاقاً ، ذلك أنه لم يكن يقدر
على ذلك في مكة . وخطب فيهم أول خطبة جمعة ، قال :

« الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به
ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة
على فترة من الرسل ، وقلّة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من
الزمان ، وذنو من الساعة ، وقرب من الأجل .

من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط
وضلَّ ضللاً بعيداً .

أوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على
الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروه ما حذركم الله من نفسه ،
ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكركم ، وإنه تقوى إن
عمل به على وجلٍ ومحافة ، وعونٌ صدقٍ على ما تبتغون من أمر الآخرة .
ومن يُصاح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ، لا ينوي بذلك
إلا وجهه الله ، يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت ، حتى يفتقر
المرء إلى ما قدّم ، وما كان سوى ذلك يودُّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ،
ويحذركم الله نفسه والله راعوف بالعباد .

والذي صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خُلِّفَ لذلك فإنه يقول تعالى :
« ما يُبدّل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » .

واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية ، فإنه « من يتق الله
يُكفّر عنه سيئاته ويُعظم له أجراً » . « ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً » .
وإن تقوى الله توفى مقسطه وتوفى عقوبته ، وتوفى سنطيه ، وإن تقوى الله
تبيّض الوجه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة .

خذوا بحظكم ولا تُفرطوا في جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج
لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله
إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم
المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، ولا قوة إلا بالله ،
فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت ، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله
يَكفّه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يتقنضون عليه ،
ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .
أما اليهود ، وأما المشركون ، فإنهم ولا شك خرجوا أيضاً من ديارهم ،

وتجمعوا هنا وهناك ، ينظرون ويتأملون ويتفكرون ، وكان ثواها أخذ بعقولهم ، اليهود تأكل الغيرة صدورهم ولا شك ، أن يكون نبي ليس منهم ، وإن كانوا آمنين على أرواحهم وأموالهم وأبنائهم ودينهم . أما المشركون ، فإنهم توجسوا خيفة ، ذلك أن محمداً لم يقبل من أهل مكة ، وهو بعد لا يملك من القوة غير إيمانه بالله ، ونفراً قليلاً عزلاً من السلاح ، إلا أن يقولوا لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . فأى أمل لهم الآن في التمسك بعقيدتهم للقديمة ، ودين آبائهم وأجدادهم ، وهذى هي المدينة وقد خرجت جوعها ومقاتلها يهللون ويهتفون للقادم الجديد ، ويلوح صناديدها بسيوفهم وحرابهم لأول مرة في تاريخ الإسلام ؟ ماذا بعد أن أصبح سيد الخزرج عبد الله بن أبي بن سائل — وكانوا بالأمس يرشحوه ليصبح ملكاً عليهم — لا حول له ولا قوة ولا كلمة ولا طاعة ؟ ماذا إذن ؟ لقد انتصر الإسلام ، لقد ملك محمد المدينة وما فيها ، ولم يبق من أمل لهؤلاء المشركين إلا أن يشهدوا شهادة الحق . هذا منطق الأحداث . لقد بدأ التاريخ يتغير ، لا ، بل تغير .

امتطى محمد ناقته وأطلق زمامها تسير في طرقات المدينة . وكان كلما مر بدار سيد من ساداتها رجاءه أن ينزل عنده في العمد والعمدة والمنعة فيقول : خذوا سبيلها (أى الناقة) إنها مأمورة . حتى إذا مر في طريقه بعد الله ابن أبي بن سائل ، وقف ينتظر أن يدعوه ، فما كان منه إلا أن عبس في وجهه وقال : انظر الذين دعوك فانزل عليهم . فلما ذكر النبي ذلك لنفر من الأنصار ، قال سعد بن عبادة يعتذر عنه : لقد من الله علينا بك يا رسول الله ، وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملكه علينا .

وأخيراً انتهت الناقة إلى دار أبي أيوب خالد بن زيد ، فبركت أمامها في مربد (جرن تمر) للغلامين يتييمين من بني مالك بن النجار ، هما سهل وسهيل ابنا عمرو . فنزل محمد عن ناقته ودخل بيت أبي أيوب . واشترى المربد من الغلامين وبني فيه مسجده ومساكنه .

كانت دار أبي أيوب طابقيين ، فنزل محمد في الطابق السفلي ، فقال أبو أيوب له : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إني أكره وأبعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فإظهر أنت فكُن في العلو ونزل نحن فنكون في السفلى .

فقال : يا أبا أيوب ! إنه لأرفق بنا وبمن يزورنا أن أكون في سفلى البيت . ثم إنه أقام على الرحب والسعة ، ولم تكن تمضي ليلة إلا ويقدم ثلاثة أو أربعة يحملون الطعام ، يتناوبون على ذلك . وقد نزل على أبي أيوب حتى نبى مساكنه .

وبعد أن استقر به المقام ، أرسل وهو نازل في دار أبي أيوب مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ، ومعهما بعيران وخمسمائة درهم ، ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجته . وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان ، وزينب عند زوجها بمكة أبي العاص بن الربيع ، وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة ، وخرج معهم عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر وفيهم عائشة ، ولم يكن محمد قد دخل بها بعد .

تمت الهجرة في شهر ربيع الأول (يوليو سنة ٦٢٢ م) ، وانفق الصحابة في سنة ست عشرة أو سبع عشرة أو ثمانى عشرة على جعل ابتداء التاريخ الإسلامى من سنة الهجرة . واتفقوا على أن يكون شهر المحرم هو أول شهور السنة الهجرية ، لأنه الشهر الذى ينصرف فيه الناس من الحج ، وهو شهر حرام ، أى أن سنة الهجرة استهلّت ومحمد لا يزال بمكة .

الفصل الرابع

بداية الدولة الإسلامية

أصبح محمد سيداً على قوم أشداء ، يطيعونه إن أمر ، ويتبعونه حيث
وغب ، ويقومون دونه بأرواحهم وأبنائهم وأموالهم . والحق أنه بهرهم
بصفات نسيج وحدها ، فاستطاع أن يكبحهم ويحكمهم ، ويخضعهم لإرادته ،
ويؤلف بين قلوبهم ، وينسيهم حزازاتهم ، بل إنه كان أول عربي في تاريخ
هؤلاء العرب الشداد ، استطاع أن يجمعهم من أقصى جزيرتهم إلى أديانها
تحت راية واحدة ، ويدفعهم نحو غرض واحد ، ويلقي بهم إلى رحاب العالم
القيسي فيغيرون وجهه .

أى رجل . . . أى بطل . . . أى نبي . . . !

كان معتدل الطول ، بعيد ما بين المنكبين ، خمري اللون ، شعره
لا جعد ولا ناعم ، يتدلى على كتفيه ، طويل العنق ، حسن الوجه ، مشرق
المحيا ، معتدل الخلق ، حسن التقاسيم ، سواد عينيه شديد ، وبياضهما
تشوبه عروق حمز رقاق ، طويل الأجفان ، في صوته حدة وصلابه ،
كث اللحية ، واسع الجبين ، مقوس الحاجبين طويلهما ، أفتى الأنف ،
سائل الخدين ، غير مرتفع الوجنتين ، كبير الفم واسعه ، مفلج الأسنان ،
شعر صدره دقيق سائل إلى بطنه ، ليس في صدره أو بطنه شعر غيره ،
عاري الثديين ، أشعر الذراعين والمنكبين ، طويل الزندين ، زحج
الراحة ، غليظ الكعبين والقدمين صغيرهما ، إذا مشى كان في مشيته قوة
واقترار ، يمشى هوناً ويتأبل إلى الأمام ، واسع الخطو سريعه ، ينحيل إليك
أنه إنما ينحط من موضع منحدر .

كان قليل الأكل لا يملأ بطنه قط ، أحب الطعام إليه ما أكله مع

الناس . لم يكن يسأل أهله طعاماً ولا يتشهاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب . لا يأكل على مائدة ، يعجبه ذراع الشاة ، ويجب القرع والحلواء والعسل ، نخزه من الشعير ، لا يشرب إلا الماء واللبن .

أما نومه فقليل ، ينام على جنبه الأيمن ، ولا يغط في نومه ، ويؤثر عنه أنه قال : « إن عيني تنامان ، ولا ينام قلبي » . ينام في أول الليل ، ويستيقظ عند السحر .

إذا ضحك فأغلب ضحكك تبسم ، وربما ضحكك بعض الأحيان حتى تبدو نواجذه ، ولكن من غير قهقهة ولا إسراف . كان حليماً شهيراً ، فهو مع قدرته صبر كثيراً على ما تكره نفسه . وصل من قطعه ، وأعطى من حرمة ، وعنى عن ظلمه . أبى أن يلعن أحداً مهما أصابه منه من سوء . كان سمحاً جواداً كريماً ، لا يحتفظ بمال إلا لقوت عام واحد ، من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ولا يبيت في بيته دينار ولا درهم بعد ذلك إلا أعطاه لمن يحتاج إليه .

كان شجاعاً مقداماً ، شهد أصعب المواقف ، وخبر الكماة والأبطال يفرون ، وهو ثابت لا يبرح ، مقبل لا يدبر . صاحب صولة ونجده ، أول من يقتحم الصفوف ، وآخر من يرتد عن ميدان القتال .

كان كريم العشرة ، جم الأدب ، بسيط الخلق مع الناس أجمعين ، شديد الحياء ، إذا تحدث إليه أحد التفت إليه بكامل جسمه ، قليل الكلام ، كثير الإنصات ، وقور رزين في صمته ، بهي في كلامه ، متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة . ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صياح ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداح . يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤنس منه . يجيب من دعاه ، ويقبل أى هدية ويكافئ عليها . يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ،

ويجلسهم في حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى القريين والبعيدين ، ويقبل عذر المعتذرين . يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ويدعوهم بأحب أسمائهم إليهم لإكراماً لهم . لم يُر قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد . يكرم من دخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التي تحته . لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته . كان يقول لأصحابه « إن دخلت عليكم وأنتم جلوس فلا يقوم أحد منكم في وجهي ، وإن قمت فكما أنتم ، وإن جلست فكما أنتم ، فإن ذلك خلق من أخلاق المشركين » .

سأله عليّ عن سنته فقال : « المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسي ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة كنزي ، والحزن رفيقي ، والعلم سلاحي ، والصبر ردائي ، والرضا غنيمي ، والفقر فخري ، والزهد حرفتي ، واليقين قوتي ، والصدق شفيبي ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلتي ، وقرّة عيني في الصلاة » .

تخطت رحمته عالم الإنسان إلى عالم الحيوان . كان يُمرّض بنفسه ديكاً مريضاً ، ويمسح لجواده بكم رذائه ، ويقوم ليفتح لهرة تموء على بابه . أحب الطيب ، وكان يتطيب بالغالية وبالمسك حتى يرى بريقه في مفرق رأسه ، ويتبخر بالعود ، ويطرح معه الكافور . وكان يُعرّف في الليلة المظلمة بطيب ريحه .

كان أنيقاً في ملبسه ، يتجمل لأصحابه ولأهله . لبس من الثياب الصوف والحَبْرَة (١) والقطن ، ولبس السندس والحريير ثم تركه . أحب من الألوان البياض ، والحمرة ، والخضرة ، والصفرة ، والسواد .

فراشه عباءة مثنية أو حصيرة ، ووسادة من أدم محشوة ليفاً . لا يرقد ليلاً أو نهاراً إلا غسل أسنانه بالسواك بعد أن يستيقظ ، وقبل أن يتوضأ .

(١) نوع من الثياب القطنية أو الكتانية المخططة اشتهرت اليمن بصنعها .

مشطه من عاج ، وكان إذا سافر حمل معه المشط والمرآة والدهن والمكحل
والمسواك والمقراض في حقيبة من جلد . يكتحل ثلاثاً في كل عين قبل
النوم ، ويحتفظ بمنديل يمسح به وجهه من الوضوء .
هو ذا محمد بطل العرب ونور الدنيا .

لم يكن كل هذا التقشف وهذا الزهد الذي أحاط بهما محمد حياته من
متطلبات الدين في شيء ، بل على الضد فإن الدين الإسلامي يدعو الإنسان
إلى أن يتمتع نفسه في هذه الدنيا ، ويبتغى له أن يحصل منها على طيبات
ما فيها ، ويحثه على إرضاء كل من شهوات الجسد والروح إرضاء تاماً .

ولكن محمداً ضرب أحسن المثل للناس ، فأصبحت سيرته وتصرفاته
اليومية في حياته ومعاشه ضابطاً ورابطاً أخلاقياً قوياً ينههم عن ذنوب الأمور ،
وعن التكالب الرخيص على هذه الدنيا ، ذلك التكالب الذي من شأنه أن
يفسد العلاقات الاجتماعية ، ويحيل المجتمع إلى عصابات من الجشعين المفسدين
من ناحية ، وإلى جماعات غفيرة من المحرومين الحاقدين من ناحية أخرى .

• • •

استقر محمد وأصحابه من المهاجرين في المدينة بين ظهري الأنصار ،
وأصبح الدين الإسلامي حقيقة واقعة يشعر بها العرب . وبدأ المسلمون
يحبسون بقتلهم ، وأخذوا يقيمون شعائر الدين لأول مرة علناً وبلا خوف
وبلا تصد من أحد أياً كان . واستسلمت المدينة عن بكرة أبيها بما فيها من
مشركين ويهود إلى هذا الوضع الجديد . وبدأت عندئذ حالة استقرار نسبي
تقتضى تنظيماً لشئون المسلمين ، وتتطلب النظر في مختلف الأحوال
والملاسات التي تكتنف هذه الدولة الناشئة ، حتى تستقر فيها الأوضاع على
أساس ثابت متين . وكان ضرورياً وطبيعياً إذ التأم شمل هذه الدولة الناشئة
حول فكرة دينية ، أن يفكر قائد الدولة ومؤسسها أول ما يفكر ، في بناء
دار للعبادة يجتمع فيها أنصاره للصلاة ، وهي أكبر أركان الإسلام العميمة .

ومن ثمّة كان أول عمل قام به في المدينة هو بناء المسجد ، فبناه في مكان جرن التمر الذي اشتراه لهذا الغرض كما نوهنا من قبل .

عمل محمد بيديه في بناء المسجد ، ليضرب للمسلمين مثلاً ، وليرغبهم في العمل فيه ، فهاقت المهاجرون والأنصار على العمل ، وكان محمد يحمل الطوب على صدره حتى يغبر من التراب . وقد ارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لاهمّ إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
فيقول محمد : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين
والأنصار .

وكان المسجد عبارة عن فناء فسيح ، جدراناه من اللبن ، سقف جزء منه على عمد من جذوع النخيل ؛ وجعل سقفه من الجريد . وقد خصص هذا الجزء منه لإيواء الفقراء الذين لا سكن لهم ، وسموا أهل الصفة . ولم يكن المسجد يضاء ليلاً إلا عند فترة صلاة العشاء فقط ، فكان يوقد فيه القش . غير أنهم استبدلوا شعل القش هذه - بعد تسع سنوات - بمصابيح علقوها في جذوع النخل التي أقيم سقف المسجد من فوقها . ولم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، ولكن زاد فيه عمر . غير أنه بناه بنفس الطريقة التي بناه بها محمد . ثم زاد فيه عثمان زيادة كبيرة ، فبنى جدراناه بالحجارة المنقوشة والحص ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه من خشب الساج . أما مساكن محمد ، وهي عدة حجرات ، فكانت حول المسجد ، وكانت بسيطة قصيرة البناء قريبة الفناء ، على غرار المسجد ، ولم يكن لأبوابها حلق ، بل كان يقرعها الطارق بالأظافر . وقد أضيفت الحجر كلها بعد موت أزواج النبي إلى المسجد .

لم تكن هجرة محمد من مكة إلى يثرب نهاية الصراع بينه وبين قريش ، كلا ، فإنها وإن كانت في الحقيقة نهاية للصراع السلبي ، فقد آذنت ولا شك

ببداية صراع ساخن تبدى في الأفق واضحاً جلياً . فمحمد يدعو الناس كافة للعودة إلى دين أبيهم إبراهيم ، وهو دين العرب ، والدين القويم ، وإن كانت العرب لبعده عهدهم به قد أدخلوا عليه من البسوع والضلالات ما ليس منه ، فجاء محمد ليصححها وليطهره وليعيده إلى صفائه الأول . أما مكة ففيها مقام إبراهيم ، البيت العتيق بيتهم المخجوج ، الذى لا بد للمسلمين أن يهرعوا إليه كل عام ليقيموا شعائر الحج الذى نادى به إبراهيم . إذن فقد أدرك محمد منذ البداية أن صراعاً عنيفاً سيحدث بين المسلمين وقريش ، لأن قریشاً على التأكيد سوف تمنعهم من إقامة شعائر دينهم فى الكعبة كما منعهم قبل ذلك ثلاثة عشر عاماً .

من هنا كان لزاماً على مؤسس الدولة الجديدة وقائدها ، أن يعمد أول شيء إلى تثبيت دعائم المجتمع الذى هو قوام الدولة ، وإعطائه قوة روحية واجتماعية ، يكون من شأنها أن تحول دون تفكك عقدة التكافل فى المجتمع . وبذلك يستطيع أن يحمى الجبهة الداخلية ويصونها من عوامل التفتت ، إذا ما هبت عليها الأعاصير التى توقعها . ألقى محمد نظرة ثابتة على هذا المجتمع الجديد ، وأيقن ببصيرته أن حياة المسلمين فى يثرب سوف لا تمر هنيئة مريئة لا يعكر صفوها معكر إذا ما تركت بغير رادع أخلاقى متين ، وتنظيم اجتماعى روحى قوى . فقد كان بين الأوس والخزرج خلافات وحزازات فرقتهم فى الماضى ومزقتهم شرمزق ، وأقربها إلى الأذهان وقعة بُعات التى قتل فيها كثير من أشرف الجانبين وسادتهم قبل ذلك بعدة سنين . هذا من ناحية ، ثم إنه كان يشوب العلاقات الاجتماعية فى صفوف المسلمين ذلك الفقر الشديد والعوز المضحى الذى أصاب معظم المهاجرين . فقد هاجر كثيرون منهم وتركوا ما يملكون أو أكثر ما يملكون فى مكة ، ذلك أن كفار قریش كانوا يضمنون على المهاجرين أن يهاجروا بما يملكون أو حتى ببعض ما يملكون . فكانوا يحاولون دون من يقدرون عليه أن يحمل شيئاً من ماله . كما فعلوا مع صُهَيْب إذ جردوه من كل ما يملك . ويروى أن

المهاجرين قاسوا في أول عهدهم بالمدينة مقاساة شديدة ، حتى لقد ذهب حمزة بن عبد المطالب يوماً لابن أخيه وطلب إليه أن يجد له ما يقتات به . عندئذ اقتضت الظروف السياسية والاقتصادية ، وقبل ذلك كله روح الإسلام ، أن يتآخى المسلمون وأن يشعر كل فرد منهم أنه مكفول في مجتمع المسلمين كفالة تامة ، وأنه لا ضياع له فيه ، وأن المسلمين جميعاً إخوة إخوة تامة يعطى غنيهم فقيرهم بالمعروف ، ويعين المقتدر منهم المعوز على الحياة . فأمر محمد المسلمين بأن يتآخوا في الله أخوين أخوين ، وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال هذا أخي ، فكان وعلي أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطالب^(١) أسد الله وأسد رسول الله ، وزيد بن حارثة مولى النبي أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زيد الخزرجي أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين ، وهكذا تآخى كل مهاجرى مع رجل من الأنصار .

على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذه المؤاخاة أن يستكين المهاجرون ويكفوا عن السعى وراء الرزق . كلا ، فإنها كانت من هذه الناحية الاقتصادية درساً أخلاقياً واجتماعياً من أعظم الدروس في التنظيم الاجتماعى ، مقتضاه أن يعين المسلم أخاه المسلم في وقت الحاجة الملحة ، وليس معناه التواكل على الغير بلا سبب ولا ضرورة . ثم إن كثيرين من المهاجرين عملوا وأجهدوا أنفسهم في طلب الرزق . يقال بأن سعد بن الربيع الذى آخى عبد الرحمن بن عوف ، قد عرض على عبد الرحمن أن يشاطره ماله ، فرفض عبد الرحمن وطلب منه أن يدلّه على السوق ، وفيها تاجر وبيع ما يغنيه . كذلك فعل كثير من المكين وكانوا أهل تجارة ماهرة . أما الذين لم يعملوا في التجارة فقد اشتغلوا بالزراعة في حقول الأنصار مزارعة .

(١) ينكر بعض العلماء صحة مؤاخاة النبي وعلي ، وحمزة وزيد قائلين بأن المؤاخاة قد شرعت لأجل أن يستفيد بعضهم من بعض ولتتلف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النسي لأحد منهم ، ولا مهاجرى لمهاجرى آخر ، إلا أن يكون للمؤاخاة غرض آخر .

ثم إن هذه المشكلة لم تكن كل ما واجه محمد في أعقاب استقراره الأول
بيثرب ، ذلك أنه كان بها قبائل يهودية قوية ، كان ينبغي تنظيم علاقة
المسلمين بها . فهل كان محمد ليأمن جانب اليهود بغير معاهدات ومواثيق ؟
وهل كان اليهود اعتباراً للناحية السياسية ، يشجعون حلفاً بين الأوس
والخزرج أم يحاولون نقضه ؟ وهل يؤيد اليهود من الناحية الدينية قيام دين
ينسخ دينهم وإن اعترف بأنبيائهم ؟ والحق أن اليهود مروا قبل ذلك عند
ظهور النصرانية وانتشارها بتجربة قاسية لاقوا منها الأمرين . فهل يقفون
الآن مكتوفي الأيدي إزاء دين يتعصب له الأوس والخزرج هذا التعصب ،
ويتعاملون مع نبيه على حرب الأحر والأوسد من الناس دفاعاً عنه ؟ أيأمن
اليهود على أنفسهم مثل هذا الدين ؟ ربما جالت مثل هذه الخواطر في أذهانهم .
ولكن الحقيقة التي بينها التاريخ تثبت أن محمداً لم يكن يفكر في شيء من
هذا ، بل إنه عاهدهم منذ أول مقامه بالمدينة وكتب معهم صحيفة ، هي
ميثاق ما كان ليحل عقده من شيء إلا أن ينقضه اليهود أنفسهم . وقد
فعاوا .

عمد محمد إلى عقد محالفة بين المهاجرين والأنصار واليهود تحقق الأمان
والحرية والحماية للجميع ، وكتب بذلك صحيفة . والحق أنها حققت تكافلاً
اجتماعياً رائعاً بين جميع سكان المدينة ، وجعلت منهم وحدة تتكافل في
سبيل حياة أفضل . جعلت من المسلمين أمة واحدة ، وحشتم على أن يتعاونوا
في الحياة تعاوناً تكافلياً ، وطالبت المؤمنين بالألا يتركوا مؤمناً من بينهم مثقلاً
بالدين أو كثير العيال إلا أعطوه بالمعروف ، وعانوه على المضى في الحياة
ونخففوا عنه أعباءه في فداء أو دية . وجعلت المؤمنين يداً واحدة في رفع
الظلم ورد العدوان وإقامة العدل . وأعطت لأضعف المسلمين الحق في أن
يجير عليهم وفي أن يقبل جواره ، وفي ذلك عزة وقوة للمسلمين صغيرهم
وضعيفهم قبل كبيرهم وقويهم .

ثم إن هذه الصحيفة قد قررت لليهود الذين يسالمون المسلمين كامل الحرية في العبادة والمعاملات ، طالما حافظوا على البنود الواردة فيها . وهي أيضاً معاهدة بين المسلمين واليهود في الحرب ، فقد شرطت على المسلمين واليهود أن يجاربوا من ينقض هذه الصحيفة . وأعطت الحق للجميع ، مؤمنين ويهوداً ، أن يعيشوا جنباً إلى جنب في إخاء وحرية تامة ، يحكم علاقاتهم النصيح والنصيحة دون الإثم والعدوان . وأخيراً قررت الصحيفة أن من برّ واتقى فإنه جوار الله لا يُظلم ولا يُعتدى عليه . وهذا الجوار الأخير أقصى ما يمكن من ضمانات لمن يريد البر والتقوى .

وهذا نص الصحيفة : بسم الله الرحمن الرحيم « هذا كتاب من محمد النبي الأُمي ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ريبعتهم (الحالة التي أتى الإسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم (يدفعون الدية شركة فيما بينهم) وهم يفتدون عانيتهم (دمهم) بالمعروف والقسط ، وبنو عوف على ريبعتهم يتعاقلون معاقلمهم (دياتهم) الأولى ، وكل طائفة نفدى هانيتها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (١) .

وإن المؤمنين لا يتركون مثقلاً بالدين أو كثير العيال بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (قوة) ظالم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعهم ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافرأ على مؤمن ، وإن ذمّة الله واحدة يجير عليهم أدانهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى (حلفاء) بعض دون الناس .

(١) ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار ، وأهل كل دار : بنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وبنى النبيت .

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنین واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم . وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

وإن المؤمنین يمنع بعضهم بعضاً بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنین المتقين على أحسن هدي وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من قتل مؤمناً ظلماً ، قتلًا عن بينة فإنه قودٌ (قتل القاتل بالقتل) به إلى أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنین عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

وإنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف (نقود) أو عدل (جزاء) وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنین ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنین ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته .

وإن ليهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، ولا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وبأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الحار كالفنس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حُرمة إلا بإذن أهلها .

ولأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدّث أو اشتجار فيخافُ فساده ، فإن مَرَدَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه ، وإنه لا تُجارُ قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلتهم .

ولأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو آثم ، وإن الله جار لمن برّ واتقى .

نتبين من هذه الوثيقة أن اليهود الذين وقعوا عليها هم فقط الذين كانوا يعيشون في أحياء العرب وكانوا حلفاء لهم ، وأما بنو النضير ، وبنو قيسنق ، وبنو قريظة فلم يوقعوها ، بل وقعوا صحائف شبيهة بها فيما بعد .

وعندما استتب الأمن للمسلمين بيثرب ، واستقرت الأوضاع ، فمكر محمد في الدخول بعائشة ، وكان قد عقد عليها قبل الهجرة في مكة كما سبق بيانه .

قال البخاري عن عائشة : « أتتني أمي أم رومان وإني لني أرجوحة ومعى صواحب لي ، فصرخت بي فأتيتها ما أدري ما تريد مني ، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار ، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء فسوّت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن : على الخير والبركة وعلى خير طائر . فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأنني ، فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين . »

وسارت حياة المسلمين آمنة مستقرة ، واستحكم أمر الإسلام ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود شيئاً بعد شيء ، وفرض الحلال والحرام ، وأذنت الأحداث بأن الإسلام يتحول ليصبح ديناً ودولة لها شرائعها

وقوانينها ، وأخذ المسلمون يقيمون شعائر الدين علناً وبانتظام وعلى الأخص الصلاة ، وهي ركن الإسلام الركين ، وأهم مظاهره الخارجية . وكان الناس يجتمعون للصلاة عند مواقيتها بغير دعوة . وعندئذ دعت الضرورة إلى إيجاد طريقة لدعوة الناس إلى الصلاة دفعة واحدة . فاستشار النبي الناس فيما يتخذون ، فذكر بعضهم البوق كما يفعل اليهود ولكنه كرهه ، وذكر آخرون الناقوس كما يفعل النصارى فكره ذلك أيضاً بعد أن كان قد أمر يناقوس أن ينحت . وأخيراً استقر الرأي على الأذان ، وفي ذلك رواية تقول بأن عبد الله بن زيد بن ثعلبة قال للنبي : يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف ، مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده ، فقلت : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال : ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حتى على الصلاة حتى على الفلاح حتى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

فلما سمع النبي هذا النداء أعجبه ، وقال : « إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك » . ويروى أيضاً أن بلالاً أضاف في نداء صلاة الفجر « الصلاة خير من النوم » مرتين ، فأقرها محمد . وكان بلال إذا وجبت مواعيد الصلاة يرتقى منزل امرأة من بنى النجار بجوار المسجد ويؤذن .

علت صيحة الإسلام وتجاوبت بها أصداء الدنيا ، وطارت الريح بشهادة الحق تلقها في آذان الثريبين جميعاً ، مسلمهم وكافرهم ، خمس مرات كل يوم ، فيهرع المؤمنون زرافات ووحدانا نحو المسجد لإقامة الصلاة ، يؤمهم محمد . وكأنما كان بلال كلما نادى بهذا النداء ، يُسمع الدنيا جميعاً أن في

الأرض نبياً اسمه محمد ، وأن في السماء إلهاً اسمه الله ، وأن هؤلاء المسلمين أمة واحدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، هي خير أمة أخرجت للناس .

انتصرت المبادئ التي نادى بها محمد ، وأخذت جحافل البغي والظلام تتراجع رويداً رويداً أمام هذا النور الباهر الذي أشرق في صحراء العرب . فسلام عليك أيتها الصحراء . سلام عليك أيتها البيد المترامية . سلام على رسول الحق والهدى . سلام على الأرض التي غذته وعلى السماء التي أظلمته .

ولكن هل تمضي حياة هؤلاء الثقات الورعين هائلة وادعة لا يعكر صفوها معكر ؟ كلا ثم كلا ! وكيف يتأتى ذلك وبين ظهرانهم وإلى جوارهم جماعات من اليهود العتاة المتعصبين ، الذين أنكروا بداهة صحة نبوة محمد ، لا لشيء إلا لأنهم يؤمنون بأن الله لم يرسل نبياً غير موسى ، وأنه ليس من نبي بعده . ومما لا شك فيه أنهم اعتبروا دين محمد بدعة وهرطقة لا تقبلها اليهودية . وماذا فعلوا مع عيسى بن مريم ؟ ألم يكذبوه ويضطهدوه ويعذبوه ؟ ولكن ما بالهم يعاهدون محمداً والمسلمين ؟ أما إذا كانوا قد وادعوا محمداً وعاهدوه وعاهدوا المسلمين ، فإن ذلك لم يكن مرده لشيء على أية حال ، إلا لغرض في أنفسهم - مهلة يتدبرون فيها أمرهم ويعدون فيها كيدهم . فما هم أشراف المدينة وسادتها يبايعونه ويمشون في ركابه ، ويعاهدونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فكيف بهم وقد فجأتهم الأحداث أن ينقلبوا بين ليلة وضحاها على الأوس والخزرج وكانوا حلفاءهم ؟ وهل من مصلحة اليهود أن يشهروا السلاح منذ اللحظة الأولى في وجه الأوس والخزرج مع ما يعلمون من شدتهم وبأسهم ؟ إذن فليهادنوا المسلمين وليظهروا لمحمد صداقتهم ، وليدخل بعضهم الإسلام نفاقاً وليكونوا جواسيس وخونة ، ولينتظروا الفرصة السانحة للانقضاض على المسلمين بأسياقهم . ولكن حتى تأتي هذه الفرصة ، فحرب الفتنة والجدل والتشكيك يشنونها حامية الوطيس على الإسلام وعلى نبي الإسلام .

مر شاس بن قيس ، وهو شيخ يهودى عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم ، على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملائ بنى قَيْسَةَ بهذه البلاد ، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار ! ثم إنه أمر قى من شباب اليهود كان معهم أن يعمد إليهم فيجلس معهم ، ويلدكرهم بيوم بُعث وما كان قبله من حروب بينهم ، ففعل وأنشدهم بعد الأشعار التى قالوها . عندئذ تنازع القوم وتفاخروا حتى تواب رجلا من الأوس والخزرج ، وقال أحدهما لصاحبه : إن شئتم عدنا إلى ما كنا عليه . وعلت صيحة الحرب بينهم ، وهموا بالقتال لولا أن بلغت مسامع محمد هذه الفتنة ، فأسرع إليهم ، فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ؛ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ . وأطفا صوت محمد تلك الفتنة ، وبكى الرجال وعانق بعضهم بعضاً . وهو يتلو من آيات الله سورة « آل عمران » :

« قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » إلى آخر الآيات .

ودخل أبو بكر يوماً المدراس ، وهو بيت تُدرس فيه التوراة ، وتجادل مع حبر من أحبار اليهود اسمه فينحاص ، فأشار هذا إلى ما جاء القرآن : « وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم » قال : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ! ولو كان غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ويعطيناه . ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا !

لم يمالك أبو بكر على وداعته ولين عريكته . فقام إلى فنحاص وضرب وجهه صرباً شديداً وصاح به : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لصربت رأسك يا عدو الله . ولم يابث فنحاص أن أدرك أنه تهجم على القرآن هذا التهجم القبيح ، فأسرع إلى محمد ينكر وينفى أنه قال شيئاً مما يقول أبو بكر . فنزل قوله تعالى : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق » (١) .

ولم يقتصر اليهود على إثارة الفتن بين المسلمين كما رأينا ، ولا على التهجم على القرآن ومجادلة كبار المسلمين هذا الجدال القبيح . وإنما عمدوا إلى محمد ذاته يحاولون إحراجته . ويأجرون عليه بالأسئلة .

فهذا يسأله : أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبياً كما تقول ؟ فيجيب محمد من كلمات الوحي : « يسألونك عن الساعة أيا نمرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حقيق عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢) .

وذاك يقول : يا محمد ، أما تعلمك هذا إنس ولا جن ؟ فيرد عليه : أما والله إنكم لتعرفون أنه الحق من عند الله ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به .

ويسأله سائل منهم : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فيتلو عليهم : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » (٣) .

(١) آل عمران ١٨١

(٢) الأعراف ١٨٧

(٣) الإخلاص ١ - ٤

وَيَمْضَى آخِرَ فِي إِحْلَاحِهِ : صَفِّ لَنَا يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ خَلَقَهُ ؟ كَيْفَ ذَرَأَهُ
وَكَيْفَ عَضَدَهُ ؟

ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ لَمْ يَكْتَفُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاجِهُةِ الصَّرِيحَةِ ، وَإِنَّمَا عَمِدَ جَمَاعَةٌ
مِنْهُمْ إِلَى إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ ، وَانْدَسَوْا فِي صَفُوفِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ جَمَاعَةِ الْمُنَافِقِينَ
يُشِيعُونَ جَمِيعَهُمْ فِيهَا قَالَةَ السُّوءَ وَيَشْكِكُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ وَفِي نَبِيِّهِمْ .
فَهَذَا زَيْدُ بْنُ الصَّلْتِ يَقُولُ حِينَ ضَلَّتْ نَاقَةُ مُحَمَّدٍ : يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَأْتِيهِ
خَبْرُ السَّمَاءِ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ ! وَكَثُرَ الْمُنَافِقُونَ فِي صَفُوفِ الْمُسْلِمِينَ
حَتَّى لَقَدْ بَلَغَتْ بِهِمُ الْجُرْأَةُ أَنَّ كَانُوا يَحْضُرُونَ الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ وَيَسْمَعُونَ
أَحَادِيثَ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْخَرُونَ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ وَبِدِينِهِمْ . وَذَاتَ يَوْمٍ اجْتَمَعَ
أَنَاسٌ مِنْهُمْ بِالْمَسْجِدِ فَرَأَاهُمْ مُحَمَّدٌ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْهَمْسِ ،
وَقَدْ لَصِقَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَأَمَرَ بِهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَقَامَ
الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِمْ وَأَخْرَجُوهُمْ إِخْرَاجًا عَنِيفًا . فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى عَمْرُو بْنِ قَيْسٍ
وَكَانَ صَاحِبَ آلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَسَجَّهَ مِنْ رَجُلِهِ حَتَّى أَخْرَجَهُ وَهُوَ
يَقُولُ : أَخْرِجْنِي يَا أَبَا أَيُّوبَ مِنْ مِرْبَدٍ (جَرْنِ تَمْرٍ) بَنِي ثَعْلَبَةَ . وَاسْتَدَارَ
بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى رَافِعِ بْنِ وَدِيعَةَ وَأَمْسَكَ بِتَلَابِيهِ وَهَزَّهُ هَزًّا عَنِيفًا ، وَلَطَمَ وَجْهَهُ
وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ : أَفْ لَكَ مُنَافِقًا خَيْثًا !

وَقَامَ عِمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ عَمْرُو ، وَكَانَ طَوِيلَ اللَّحْيَةِ ، فَأَخَذَ
بِلَحْيَتِهِ وَجَذَبَهُ مِنْهَا جَذْبًا عَنِيفًا حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ ضَرَبَهُ بِبَطْنِ
كَفِّهِ ضَرْبَةً شَدِيدَةً عَلَى صَدْرِهِ فَخَرَّ مِنْهَا وَهُوَ يَقُولُ : خَدَشْتَنِي يَا عِمَارَةُ .
وَعِمَارَةُ يَقُولُ : أَبْعِدْكَ اللَّهُ يَا مُنَافِقُ ، فَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ أَشَدَّ مِنْ
مِنْ ذَلِكَ ، فَلَا تَقْرُبَنَّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ .

وَقَامَ أَبُو مُحَمَّدٍ مَسْعُودُ بْنُ أَوْسٍ إِلَى قَيْسِ بْنِ عَمْرُو ، وَكَانَ شَابًا وَوَلِيْسَ
فِي الْمُنَافِقِينَ شَابًا غَيْرَهُ ، وَأَخَذَ يَدْفَعُ فِي قَفَاهُ حَتَّى أَخْرَجَهُ .

وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي خُدْرَةَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرِ ، وَكَانَ

ذا شعر طويل متدل فأخذ به وسحبه سحباً عنيفاً على الأرض حتى أخرجه
والمنافق يقول : قد أغلظت يا أبا الحارث ، فيقول له : إنك أهل لذلك ،
أى عدو الله لما أنزل فيك فلا تقربن مسجد رسول الله .

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَى بن الحارث فأخرجه
خراجاً عنيفاً وقال : غلب عليك الشيطان وأمره .

وقد نزلت في هؤلاء آيات من سورة البقرة ومن سورة التوبة .

الفصل الخامس

القتال ومشروعيته

لم تمضِ عدة أشهر على استقرار المسلمين في يثرب حتى بدأ محمد في توجيه سرايا متتالية للاستطلاع والإغارة على قريش . فلماذا تبدلت عندئذ المفاهيم التي نادى بها الإسلام في مكة من مفاهيم سلام تام إلى مفاهيم تدعو إلى القتال ؟ ثم ما هي مشروعية هذه الحروب التي شنها الإسلام ؟

رأينا فيما سبق كيف أن العرب في ذلك الوقت كانوا يتمتعون بقسط كبير من حرية الفكر ، الأمر الذي هب لأذيان كثيرة ولعبادات مختلفة أن تعيش في جزيرة العرب جنبا إلى جنب من غير أن يحدث صدام مسلح بين تابعيها . فقد عرفت جزيرة العرب إبان ظهور الإسلام الموحدين ، واليهود ، والنصارى ، وعبدة الأصنام ، وعبدة الشمس ، وعبدة القمر ، وعبدة الجن ، وعبدة النار ، وعبدة الكواكب ، والدهرين ، والصابئة ، والزنادقة ، والثنويين ، وكانت كل طائفة من هذه الطوائف حرة في الدعوة لما تؤمن بأنه الحق . فكان رهبان النصارى أو أحبار اليهود أو الموحدون من العرب مثل قُتُس بن ساعدة أو غيره يغشون منتديات العرب ويطوفون بالأسواق ، كل منهم يدعو إلى ما يؤمن به من غير أن يتعرض من خصومه في الدين إلا للمجادلة بالتي هي أحسن .

وهنا في هذا الجلو المثالي من حرية الفكر ظهر الإسلام . وبدأ محمد يدعو لدينه ويبشر برسالته .

دعاهم محمد إلى الخنيفية . دين أبيهم إبراهيم الذي تلقوه عن ولده إسماعيل أبي العرب ، وهو الدين الحق الذي كان يؤمن به آباؤهم وأجدادهم

في سالف الزمن ، والذي دخلت عليه البدع والضلالات ، تلك البدع والضلالات التي أرسل الله رسوله محمداً ليظهره منها ، وليعيد الدين الحق إلى صفائه الأول . وقد رأينا فيما سبق عند الحديث عن أديان العرب في الجاهلية ، كيف ذكروهم الإسلام مراراً وتكراراً بأنهم إنما يؤمنون بالله ، وأنهم يعرفون أنه يحيي ويميت ، وأن بيده الأمر ، وأنه سميع بصير مجيب ، إلى آخر ما يتصف به جل شأنه . ولم يكن شيء من هذا غريباً على أسماعهم ولا مستهجناً ولا مستنكراً .

ثم إن الإسلام لم يشذ عن القواعد العامة التي كانت تحكم حرية الفكر في بلاد العرب . فقد جاءت كل تصرفات محمد وكل أوامر الله في آيات القرآن طوال العهد المكي تدعيماً لهذه الحرية الفكرية وإطلاقاً لها ، وانحصرت الدعوة في هذا الإطار السلمي التام الذي بشرت به آيات القرآن الكريم كقوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » (١) ، وقوله : « لكم دينكم ولي دين » (٢) . وقوله : « فن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٣) . وقوله : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ » (٤) . وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٥) .

ولكن مهما يكن من أمر الدعوة السلمية في ذلك الوقت في مكة وما انطوت عليه من أوامر ربانية ، دليلها ما جاء في القرآن كما رأينا ، فإن روح الإسلام ذاته كانت واضحة جداً في الإفصاح عن المتجه الذي لا بد أن يتجه إليه المسلمون إذا ما تمكن لهم الأمر . وهو هدم أصنام الكعبة لا وراء في ذلك ، الأمر الذي لا بد أن تعارضه قريش بطبيعة الحال معارضة صارمة .

(١) الفاشية ٢١ - ٢٢ .

(٢) الكافرون ٦ .

(٣) الكهف ٢٩ .

(٤) الشورى ٤٨ .

(٥) يونس ٩٥ .

ثم إن الحقيقة الماثلة التي نستطيع استجماعها من الأوضاع التي سادت في مكة قبل ظهور الدعوة إلى الإسلام وفي إبانها ، تشير إلى أن موقف سادات قريش من دعوة محمد كان ذا شقين . الشق الأول دافعه الحسد والتنافس بين بني هاشم وبني أمية ، والشق الثاني وهو دعوى الدفاع عن دين الآباء والأجداد الذي هاجمه محمد . والحق أنه مهما يكن من أمر سُخِّفَ فكرة دينية كسُخْفِ عبادة الأوثان ، فإنه ليس من السهل قطعاً على الإنسان أن ينسى التقاليد التي نشأ عليها ونشأ فيها أبواه وأرضعوه إياها منذ طفولته وصباه ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من نفسيته وقطعة من وجدانه لا يسهل نزعها عنه . وقد يكون في قوله تعالى : «ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل» (١) تبياناً لحقيقة المتجهات النفسية للإنسان إذا ما سيطرت عليها أفكار معينة ، يكون من شأنها أن تنأى به عن سواء السبيل .

ونحن إذا قلنا أوجه النظر في فكرة الإسلام الأساسية وهي أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الدين الإسلامي لا يكمل ولا يستقر له حال إلا إذا أقيمت شعائره في البيت العتيق ، أول بيت أقيم لعبادة الله في الأرض وأظهر بيت وأقدس بيت عند المسلمين ، إذن لاستطعنا أن نفهم تماماً كيف كان محمد والمسلمون ينظرون عندئذ إلى حقائق الأوضاع في جزيرة العرب ، وكيف أنهم آمنوا إيماناً لا يتطرق إليه الشك بأنه من واجبه المقدس أن يبدلوا المال والدم والعرق في سبيل نصرته هذا الحق ، وفي سبيل إنقاذ بيت الله الحرام من أيدي المشركين إن استطاعوا ، أولئك الذين أدخلوا عليه هذه البدع وهذه الضلالات التي ينهام عنها ربهم ، وارتدوا من عبدة الله الموحدين إلى هذا الشرك القبيح .

ونشأ النزاع كما رأينا فيما سبق واتسعت دائرته ، وتمسك محمد برسالته دائماً وفي كل الظروف ، وعند ما كان رجلاً فرداً ليس من حوله غير عدد قليل من الذين آمنوا به وبرسالته لا يغنون عنه شيئاً ، وأصر إصراراً على أنه لن يكف عن قريش حتى تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإن في قوله : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه ما تركته » لأبلغ بيان عن إيمانه وعن إرادته وعن نورانيته . ثم إنه كان في هذا كله إنما يصدع بأمر ربه ، وبالفكرة التي سيطرت على جميع مناحي تفكيره . ومما لا شك فيه أنها كانت فكرة أرقى كثيراً من جميع الأفكار الشائعة في عصره .

عارضته قريش أشد معارضة ٥ ولقد رأينا فيما سبق مراحل الصراع للذي نشأ بينه وبينهم في مكة ، وكيف انتهى هذا الصراع باضطراب المسلمين إلى الهجرة من مكة ، وتآمر سادة قريش على قتله . فلما تطور النزاع إلى هذا الحد ، وأصرت قريش على مقاتلة المسلمين دون الكعبة ، وأجلتهم أخيراً عن ديارهم نزلت الآيات الكريمة :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (١) .
ثم نزل قوله تعالى في قتال قريش في سورة البقرة :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين (٢) . »

(١) الحج ٣٩ - ٤٠ .

(٢) البقرة ١٩٠ - ١٩٣ .

فلما تمألاً على المسلمين بعض قبائل العرب من غير قريش ، واتحدوا مع قريش في القتال ضد المسلمين ، أصبح قتال المشركين كافة أمراً لا مئاص منه ، فنزلت الآية من سورة التوبة .

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (١) .

وحتى ذلك الوقت لم يكن قتال بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولكن أثبتت الأحداث أيضاً أن اليهود قوم لا يحافظون على عهودهم ، إذ أنهم نقضوا العهود التي عاهدوا عليها المسلمين ، وانحازوا إلى المشركين في الكيد للإسلام ، فنزل الأمر بقتالهم في الآية الكريمة من سورة الأنفال :

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » (٢) .

ولما تمألاً النصارى أيضاً على المسلمين نزلت الآية الكريمة من سورة التوبة :
« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٣) .

ونزلت آيات كثيرة في حض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله وعلى القتال لجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الكفار هي السفلى :
« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » (٤) .

« تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله » (٥) .

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم » (٦) .

« انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » (٧) .

(١) التوبة ٣٦ .

(٢) الأنفال ٥٨ .

(٣) التوبة ٢٩ .

(٤) الحجرات ١٥ .

(٥) الصف ١١ .

(٦) التوبة ٤١ .

(٧) التوبة ٧٣ .

« وجاهدوا في الله حق جهاده » (١) .

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلاً وَعَدَّ اللهُ الحسنی وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً » (٢) .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن » (٣) .
« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (٤) .

« يأياها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (٥) .

يبين جلياً مما سبق أن القتال لم يشرع في الإسلام للعدوان على أحد ، فليس في الإسلام حرب عدوانية بأية صورة من الصور ، فإن الله ينهى عن العدوان : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٦) . ولم يحدث أن قاتل محمد أحداً على الدخول في الدين غير مشركي جزيرة العرب بعد أن تأزمت الأمور ، وتألبوا على الإسلام ، وأصبح تجمعهم خطراً يهدد بقاء الدين ذاته . عندئذ أصبح الجهاد ضدهم عاماً « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٧) . واتخذ منهم الرسول موقفاً صارماً يعبر عنه ما أثر عنه : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

(١) الحج ٧٨ . (٢) النساء ٩٥ . (٣) التوبة ١١١ .
(٤) النساء ٧٤ . (٥) الأنفال ١٥ - ١٦ .
(٦) البقرة ١٩٠ . (٧) التوبة ٣٦ .

أما اليهود والنصارى فإنهم أيضاً قلبوا ظهر المحن للمسلمين ، فأمر الله بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، مع تأمينهم على دينهم . وإذن تدرجت مشروعية القتال في الإسلام حسب الظروف الخاصة التي واجهها الإسلام ، من حرب قريش ، إلى حرب المشركين كافة ، إلى حرب أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولم يشذ الإسلام عن الخطة التي انتهجها ثلاثة عشر عاماً طوالاً في مكة ، من الدعوة إلى الدين بالتي هي أحسن ، والإيمان بجزية الفكر للجميع إلا لضرورات حتمتها ظروف أحاطت به كان من شأنها لو تهاون المسلمون أن تقتاع جذور الإسلام اقتلاعاً . ثم إن الإسلام ظل بعد أن انقضى هذا الظرف الطارئ وظلت روحه دائماً تتنادى بأن من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وعاش الإسلام بعد أن خرج من هذه المحن التي تهددته في أوائل عهده ، دين الفطرة ودين الحرية لا مبرية في ذلك . فليس في الإسلام كنيسة ولا رهبنة ولا قديسون ولا رجال دين ، وليس فيه تدخل من أى كان ولا من محمد ذاته بين الإنسان وربه . فالإنسان في الإسلام حر كامل الحرية ، وهو تحت بصر الله وسمعه وحده منذ مولده حتى وفاته . والله وحده هو القادر على الحكم عليه وعلى أعماله ، وهو الذى يجزى الذين أساءوا بما عملوا ، والذين أحسنوا بالحسنى .

الفصل السادس

بدء القتال

بعد أن استقر المهاجرون في المدينة وبعد أن توطدت أوضاع المسلمين عامة واستتب لهم الأمر وأمنوا على أنفسهم ونزلت الآية الكريمة : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (١) ، عندئذ بدأ محمد في توجيه السرايا وفي الخروج بنفسه على رأس المقاتلين ، وقد سميت الفرق المقاتلة التي خرجت بدون محمد سرايا ، وسميت تلك التي خرج بنفسه على رأسها غزوات . ولقد بدأت هذه السرايا والغزوات التصدى للمشركين بعد ستة أشهر فقط من مقام المهاجرين بالمدينة . ثم توالى ضد العرب كافة ، ثم ضد اليهود والنصارى حسب المبادئ التي بينها في الفصل السابق .

غير أن كتاب السيرة لا يتفقون في واقع الأمر على عدد هذه السرايا والغزوات . فيقال إن عدد الغزوات ست عشرة أو سبع عشرة أو ثمان عشرة أو تسع عشرة . ويقال إن الرسول حارب في ثمان أو تسع منهن هي بدر الكبرى ، وأحد ، والأحزاب ، وقدرية ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين . والطائف . وقيل أيضاً إنه قاتل في غزوة بني النضير وفي الغابة . أما السرايا فقد قيل إنها كانت أربعاً وعشرين أو ستين أو نيفا وسبعين .

بدأت الحرب بإرسال سرايا للاستطلاع وجس النبض ، أو الإغارة إن أمكن ، أو لاعتراض قوافل قريش في ذهابها للشام وفي إيابها منه . ولا يهم أن عدد الذين كانوا يخرجون في هذه السرايا الأولى كان قليلاً ، ذلك أن العرب كانوا يغيرون بأعداد قليلة في بعض الأحيان ، بل إن منهم

(١) الحج ٢٩ - ٤٠ .

من كان يغير فرداً واحداً . ثم إن هذه السرايا الأولى التي لم يخرج فيها أحد من الأنصار ولم يستكره فيها أحد على الخروج ، ربما تحمل معنى هاماً هو ترويض الأنصار على فكرة الحرب ، وعلى أن بيعة العقبة الثانية التي عاهدوا محمداً بمقتضاها على حرب الأحمر والأسود من الناس دفاعاً عنه ، قد تنقلب الآن هجوماً على أهل مكة لانتزاع الكعبة بيدهم المحجوج منهم ، وهي موضع ركن من أركان الدين لا ينبغي أن يظل في أيدي المشركين يدانسونه بأصنامهم ، وإن كان الحج لم يفرض بعد .

أرسل محمد في شهر رمضان من السنة الأولى للجبهة عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد الغنوي ، ليعترض قافلة من قوافل قريش التجارية وهي راجعة من الشام ، كان فيها أبر جهل وثلاثمائة من المشركين . فلقبه حمزة عند ساحل البحر ، غير أن مجدي بن عمرو الجهني حجز بين الفريقين فأطاعوه وانصرفوا بغير قتال .

وفي شوال من نفس السنة عقد النبي لعبيدة بن الحارث لواء أبيض حمله مسطح بن أثانة ، على رأس ستين أو ثمانين من المهاجرين أيضاً ليس فيهم أنصاري واحد ، وأمره بالمسير ليعترض قافلة لقريش . فالتقى الجمعان عند بطن رابغ وهو واد بين مكة والمدينة قرب البحر . وكان في قافلة قريش مائتا رجل على رأسهم أبو سفيان صخر بن حرب ، أو عكرمة بن أبي جهل ، أو مكرز بن حفص ، غير أنه لم يقع بينهم غير الرمي بالنبل دون المسايقة . رمى سعد بن أبي وقاص سهماً ، فكان أول سهم رمى به في سبيل الله في الإسلام . وارتد المشركون فارين بتجارهم خشية أن تكون هذه السرية طليعة لعدد أكبر من المسلمين ، ولم يتبعهم المسلمون بطبيعة الحال لقاة عددهم . وفر من صفوف المشركين إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعُتْبة بن غزوان وكانا قد أسلما من قبل وخرجا في القافلة ليصلا إلى المسلمين .

وفي نفس هذه السنة أيضاً عقد محمد لسعد بن أبي وقاص لواء أبيض حمله المقداد بن الأسود ، على رأس عشرين رجلاً أو أحد وعشرين رجلاً من المهاجرين للتصدى لقافلة أخرى من قوافل قريش ، وأمره ألا يجاوز الحرار ، فلما بلغ ذلك الموضع كانت القافلة قد سبقته بيوم فلم يتبعها .

وفي أوائل السنة الثانية في شهر صفر خرج محمد ليعترض قافلة لقريش واستعمل على المدينة سعد بن عبادة . وكان لواءه في هذه الغزوة مع عمه حمزة وكان أبيض . سار حتى بلغ ودّان ، وهي غزوة الأبواء ، وتسمى غزوة ودّان أيضاً . وهذه أول غزوة غزاها ، خير أنه لم يلق حرباً لأن القافلة كانت قد سبقته . وفي هذه الغزوة صالح بن ضَمْرَةَ على أنهم آمنون على أنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم ، وأن عابهم نصرة المسلمين إذا دعوا إلى ذلك . وكان الذي وادعه منهم مخشي بن عمرو الضمري ، وكان سيدهم آنذاك . ورجع المسلمون إلى المدينة بعد خمس عشرة ليلة .

وبعد عودته إلى المدينة بقليل بلغه أن قافلة فيها أمية بن خلف ومعه مائة رجل وألفان وخمسمائة بعير آتية من الشام ، فخرج إليها في شهر ربيع الأول من السنة الثانية في مائتي راكب من المهاجرين يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص ، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون أو سعد ابن معاذ . وسار حتى بلغ بواط وهي جبال جهينة من ناحية رضوى ، غير أن القافلة كانت قد سبقته ، فرجع إلى المدينة بعد أن لبثت ببواط بقية شهر ربيع الأول وبعض جمادى الأولى .

ولم يمض غير قليل حتى بلغه أن قريشاً قد أخرجت أعظم قوافلها ، وهي قافلة جمعت قريش فيها كل أموالها ، وكان يرأسها أبو سفيان صخر بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلاً . فخرج لها محمد في جمادى الأولى في مائة وخمسين من المهاجرين يحمل لواءه عمه حمزة ، واستخلف على المدينة باسامة بن عبد الأسد . فلما بلغ موضعاً يقال له العُشَيْرَة من بطن ينبع

كانت القافلة قد سبقته ومرت قبل ذلك بأيام ، وفي هذه الغزوة حالف
بنى مُدَلِّجٍ وحلفاءهم . ثم رجع انتظاراً لعودة هذه القافلة من الشام ، وهي
القافلة التي نخرج للقائها فكانت غزوة بدر العظمى .

وبعد رجوعه إلى المدينة بعدة أيام لم تبلغ العشر أغار كُرُزُ بن جابر
الفهري على أنعام المدينة وهي ترعى في مراعيها وهرب . فخرج إليه محمد
وحمل لواءه على بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة .
وسار يحد في أثره حتى بلغ سَفَوَانَ وهو واد من ناحية بدر ، ولكن فاته
كُرُزُ فلم يلق حرباً . وتسمى هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى .

وفي رجب من هذه السنة أيضاً أرسل عليه السلام سرية من ثمانية من
المهاجرين رأسها عبد الله بن جَعْحَشِ بن رِيثَابِ الأَسَدِيِّ . وكتب له كتاباً
وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ويمضي لما أمره به
ولا يستكره من أصحابه أحداً .

فلما سار بهم يومين فتح كتاب محمد فإذا فيه « إذا نظرت في
كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم
لنا من أخبارهم » . فلما نظر في الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه
بما جاء فيه وقال : قد نهاني رسول الله أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان
منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما
أنا فامض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم يتخلف من أصحابه أحد
ومضوا جميعاً إلى وجهتهم . غير أن سعد بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غزوان
أضلا في بعض الطريق بعيراً لهما كانا يتناوبان ركوبه فتخلفا في طلبه ،
ومضى عبد الله بن جَعْحَشِ وبقية أصحابه حتى نزلوا نخلة .

وفي تلك الأثناء مرت بهم قافلة لقريش فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان
ابن عبد الله بن المغيرة المخزومي ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان مولى
هشام بن المغيرة . فتشاور عبد الله بن جَعْحَشِ وأصحابه في أمرهم ، وكان
ذلك في آخر يوم من رجب فقالوا : والله لئن تركناهم هذه الليلة لتمكنوا من

دخول الحرم وامتنعوا به منكم ، ولئن قتلناهم كان قتلنا لهم في الشهر الحرام . ثم إن القوم هابوا الإقدام على هذا العمل ، غير أنهم تشجعوا أخيراً وأجمعوا على قتل من يقدر على قتله منهم ، وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبد الله التيمي . عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستسلم عثمان بن عبد الله والحكم ابن كيسان للأسر ، وأفلت نوفل بن عبد الله فلم يدركوه ، فكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين . وكانت الغنيمة التي غنموها أول غنيمة غنمها المسلمون ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسره المسلمون . وكانت الغنيمة في ذلك الوقت كلها لمن غنمها ، غير أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه : إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما غنمنا الخمس ، وعزله وقسم الباقي بين أصحابه ، وذلك قبل أن ينزل الخمس ، فنزل كما قسمه عبد الله بن جحش .

فلما قدم عبد الله وأصحابه على محمد قال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » . وأوقف الغنيمة والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . فلما قال ذلك محمد أسقط في يد القوم ، وظنوا أنهم هلكوا وعنفتهم لإخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وعابتهم قريش وقالت إن محمداً وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال . وانتهز اليهود هذه الفرصة لبث فتنهم وأخذوا يفائلون بذلك على الرسول ويقولون : عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله . عمرو : عمرت الحرب . والحضرمي : حضرت الحرب . وواقد : وقدت الحرب . وأكثر الناس في ذلك فأنزل الله تعالى قوله ليقطع به السنة السوء وليهدى به نبيه والمسلمين ، قال : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » (١) .

فلما نزل القرآن بهذا التصريح وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف ، قبض محمد الغنيمه والأسيرين . ولما بعثت قريش في فداؤها رفض محمد أن يقبل الفداء حتى يقدم سعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان وقال : « إنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحببيكم » . فلما قدم سعد وعتبة أفدهما محمد . وأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند محمد حتى قتل يوم بدر معونة شهيداً ، وأما عثمان بن عبد الله فلاحق بمكة ومات بها كافراً .

ولما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزاة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله فيهم : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » (١) .

وبعد غزوة عبد الله بن جحش هذه ، أى بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً مضت على المسلمين في المدينة ، وكان محمد يستقبل حتى ذلك الحين بيت المقدس في صلاته ، وكان يجب أن تكون قبلته الكعبة ويقاب وجهه في السماء داعياً ربه أن يحميه إلى رغبته نزل قوله تعالى : « قد ترى قلبك وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولتوا وجوهكم شطره » (٢) .

فلما نزل تحويل القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في ذلك وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأجابهم الله على تساؤلهم بقوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (٣) .

وفي هذه السنة أيضاً ، أى في أواخر السنة الثانية فرض الصيام بنزول قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ

(٣) البقرة ١٨٢

(٢) البقرة ١٤٤

(١) البقرة ٢١٨

من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر
فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع
خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . شهر رمضان
الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد
منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر^(١) .

وفي تلك الأثناء أيضاً أمر محمد الناس بزكاة الفطر ، وقد قيل إنه
صلى بالناس قبل عيد الفطر بيوم أو يومين وخطب فيهم وأمرهم بهذه الزكاة .
كذلك فرضت زكاة المال ، وهي التي تفرض للفقراء والمساكين على الأغنياء .
فاذا بلغت الدنانير عند المسلم عشرين أو الدراهم مائتين ، ومضى عليها عام
كامل ، وجب عليه أن يؤدي عنها ربع عشرها أى اثنين ونصفاً في المئة ،
وإذا بلغت الأغنام أربعين والبقر ثلاثين والإبل خمساً ، ومضى عليها العام
وجب عليه كذلك أن يؤدي منها جزءاً معلوماً . ومثل ذلك مواد التجارة
والمحاصيل الزراعية . ويقبض الإمام هذه المبالغ ويوزعها على مستحقيها
من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين في آية الصدقة : « إنما الصدقات
للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين
وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »^(٢) .

الفصل السابع

غزوة بدر العظمى

يوم الفرقان يوم التقي الجمعان

كانت قافلة قريش التي عمده محمد إلى اعتراضها في غزوة العُشَيْرَة وهي ذاهبة إلى الشام من أعظم القوافل التي كانت تبعث بها قريش في تجارتها ، ولقد كان فيها ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها ، ذلك أنهم جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق منهم رجل أو امرأة يملك شيئاً إلا استغله فيها غير حُوَيْطَب بن عبد العُزَيّ فقط ، ولهذا تخلف عن بدر . ولقد قدرت الأموال التي استغلتها قريش في هذه القافلة بحوالي خمسين ألفاً من الدنانير . أفلتت هذه القافلة من المسلمين في رحلة الذهاب ، فظل محمد يتسقط أخبارها في العودة حتى علم برجوعها وعلى رأسها أبو سفيان صخر بن حرب ، ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً منهم عمرو بن العاص ، ومخرمة بن نوفل . وعندئذ جمع المسلمين وأنخبرهم بعودة القافلة وفيها أموال قريش وطلب منهم الخروج إليها لعل الله يغنمهم إياها . ولما كان يتمهل الخروج إليها خشية أن تغت منه كما فلتت في ذهابها ، طلب من المسلمين أن يركب معه من كانت دابته حاضرة . ولذلك تخلف عن الخروج معه قوم من المسلمين ظناً منهم أنه لم يرد حرباً ، ولم يتوقعوا معركة كمعركة بدر .

خرج محمد على رأس حوالي ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، منهم مثنان ونيف وأربعون من الأنصار والباقون من المهاجرين ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم للصلاة بالناس .

أما أبو سفيان فإنه حين دنا من الحجاز ، وكان يتوقع اعتراض محمد وأصحابه لقافلته ، أخذ يتحسس الأخبار ممن كان يلقي من المسافرين تخوفاً على

أموال الناس ، حتى علم من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لملاقاته . وعند ذلك استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ، وبعثه إلى مكة على عجل ليخبر قريشاً الخبر ويستنفر أهلها إلى أموالهم ، فأسرع ضمضم إلى مكة حتى إذا ما بلغها أخذ يصرخ وهو واقف على بعيره ويقول : يا معشر قريش التجارة التجارة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث !

أسرع الناس وتجهزوا للخروج وهم يقولون : أياظن محمد وأصحابه أن تكون كقافلة ابن الحضرمي ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك . ولم يتخلف أحد في الخروج ، فلما أن يخرج الرجل بنفسه أو يبعث مكانه رجلاً ، ولم يتخلف من أشرف قريش أحد إلا أبو لهب بن عبد المطاب إذ بعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة ، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه قد أفلسر بها . وأراد أمية بن خلف أن يتخلف وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً فأتاه عقبة بن أبي معيط ، وهو جالس في المسجد الحرام بين ظهراني قومه بمجمرة يحماها فيها نار ومجمر ووضعها بين يديه ثم قال : يا أبا صفوان استجمر فلئما أنت من النساء ! فقال له أمية : قبّحك الله وقبّح ما جئت به . ثم قام وتجهز وخرج مع الناس . وروى البخاري قصة أخرى في تقاعس أمية عن الخروج مع القوم ثم خروجه ، قال :

كان سعد بن معاذ الأنصاري صديقاً لأمية بن خلف ، وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد بن معاذ ، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل على أمية . ثم إنه حدث أن سعداً انطلق بعد هجرة محمد إلى المدينة قاصداً مكة للعمرة فنزل كعادته على أمية بن خلف ، وقال سعد لأمية : تخين لي ساعة خلوة حتى أطوف بالبيت ، فخرج به في حوالى منتصف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال لأمية : يا أبا صفوان من هذا معك ؟ قال : هذا سعد . قال أبو جهل لسعد : ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصباة وزعمتم

أنكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً .

فقال له سعد ، وقد رفع صوته عليه : أما والله لئن منعتني هذا لأمنعتك ما هو أشد عليك منه : طريقك إلى المدينة .

فقال له أمية : لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم ، فإنه سيد أهل الوادي . فقال سعد : دعنا عنك يا أمية . فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنهم قاتلوك . قال أمية : بمكة ؟ قال سعد : لا أدري . ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً . فلما رجع إلى أهله قال : يا أم صفوان ألم ترى ما قال لي سعد ؟ قالت : وما قال لك ؟ قال : زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي ، فقلت له : بمكة ؟ قال : لا أدري . ثم إن أمية عزم على ألا يخرج من مكة .

فلما كان يوم بدر واستنفر أبو جهل الناس وكره أمية أن يخرج ، أتاه أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، إنك متى يراك الناس قد تخأنت ، وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك . ولم يزل به أبو جهل حتى قال : أما إذا غلبتني فوالله لأشتري أجود بعير بمكة . ثم قال أمية لزوجها : يا أم صفوان جهزيني . فقالت له : يا أبا صفوان ، أقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ والله إن محمداً لا يكذب . قال : لا ، وما أريد أن أسير معهم إلا قريباً . وكان إذا نزل منزلاً يعقل بعيره حتى لا يبتعد عنه ، ولم يزل كذلك حتى قتل يوم بدر .

والحق أن في هذه القصة دليلاً وأى دليل على ما كان لمحمد في نفوس الناس أجمعين ، مسلمين وكفاراً ، من تأثير قوى جداً . ومما لا شك فيه أن كثيراً من انتصارات محمد الرائعة التي حققها كانت راجعة في كثير من الأحيان وبصورة كبيرة إلى أسباب ومؤثرات نفسية . حقاً إن العربي لم يكن يخشى الحرب ولا الموت في ميدان القتال ، ولكن إذا ما سيطرت على

عقله فكرة أنه مقتول لا محالة هاب الموت ولا شك . ولا غرابة في أن يخشى الناس ما ينتبأ به رجل تكلمه السماء ، ما عهدوه يكذب قط ، وإن شكوا في أن السماء تكلمه .

خرجت قريش في تسعمائة وخمسين مقاتلا ومعهم مائتا فرس وسبعائة يعير ، يتبعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين ، وكان أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل ، نحر لهم عشراً ، ثم نحر لهم أمية بن خلف عند ما بلغوا عسفان تسعاً ، ونحر لهم سهيل بن عمرو بتقديده عشراً ، ثم اتجهوا نحو البحر وأقاموا يوماً فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً ، ولما بلغوا الجحفة نحر لهم عتبة بن ربيعة عشراً ، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نبيته ومنسبه ابنا الحجاج عشراً ، ثم نحر لهم العباس بن عبدالمطلب عشراً ، ونحر لهم أبو البختري عشراً ، ثم أكلوا من أزوادهم .

أما محمد فكان خروجه في شهر رمضان ، وكان حامل لوائه مُصعَب ابن عُمر . وكان بين يديه رايتان سوداوان ، إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب ، والأخرى مع رجل من الأنصار هو سعد بن معاذ أو الحُباب بن المنذر . ولم يكن معهم غير فرسين أحدهما مع الزبير بن العوام على اليمين ، والآخر مع المقداد بن الأسود على اليسرة . وكانوا يتناوبون ركوب سبعين يعيراً ليس معهم غيرها ، كل ثلاث على يعير . وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي محمد على يعير . فلما جاء دور محمد في المشي قال له زميله : نحن نمشي عنك . فقال وما أجل ما قال ، وما أروع ما أعطى من مثل أعلى يضرب للناس في كل زمان ومكان : ما أنتما بأقوى مني ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما .

سلك الجيش طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذي الحليفة ، ثم على أولات الجيش ، ثم مر على ثربان ، ثم على مائل ، ثم على غميس الحمام ، ثم على صُخيرات اليمامة ، ثم على

السِّيَالَةَ ، ثم على فجع الروحاء (وهنا رد محمد أبا لبابة إلى المدينة واستخلفه عليها) ثم على شُنُوكَةَ ، وهى الطريق المعتدلة . ولما بلغ عرق الظبية لقي رجلاً من الأعراب ، فسأله عن قريش فأم يجد عنده خبراً . فقال الناس للرجل سالم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أوفىكم رسولُ الله؟ قالوا : نعم . فسلم عليه ثم قال له : لئن كنت رسول الله فأخبرني عما فى بطن ناقى هذه . وعندئذ قال له سلمة بن سلامة بن وقش : لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل علىّ فأنا أخبرك عن ذلك ، فإنك نزوت عليها ففى بطنها منك سلخة - أى وثبت عليها فحملت منك جدياً هو الذى فى بطنها . فقال محمد : مه أفحشت على الرجل ، ثم أعرض عن سلمة .

ثم نزل على تبسج وهى بئر الروحاء ، ثم رحل عنها ، حتى إذا بلغ المنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية يريد بديراً ، حتى إذا ما بلغ وادياً يقال له ذفيران جاءته رسلة بالخبر عن قريش وعن مسيرهم ليمنعوا قافلهم . فاستشار الناس ، فقام أبو بكر الصديق فتحدث وأحسن ، وقام عمر بن الخطاب فتحدث وأحسن .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالله الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مكان بأقصى جتوبى جزيرة العرب) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فأثنى عليه محمد ودعا له .

ثم قال محمد لأصحابه : أشيروا علىّ أيها الناس . وإنما كان يريد بذلك الأنصار ، أولاً لأنهم كانوا معظم جيشه الذى نخرج به من المدينة ، وثانياً لأنهم حين بايعوه بالعقبة انحصرت بيعتهم فى قولهم : يا رسول الله إنا براء

من ذمتك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . لذلك تخوف محمد ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ما دام بين أظهرهم في المدينة ، وأن ليس عليهم أن يقاتلوا معه خارج المدينة .

فلما قال ذلك وفهم الأنصار ما يرمى إليه ، قال رئيسهم سعد بن معاذ : والله إكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال : فقد آمنة بك وصدقتناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله .

سُرَّ محمد بمقالة سعد وانشرح لها صدره وأثني على سعد ونشطه ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

ثم ارتحل من ذفران حتى نزل قريباً من بدر . وهناك انطلق محمد على بعيره ومعه أبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه فعلم منه أن قريشاً بمقربة منه . ثم رجع إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، في نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر . وهناك أصابوا سقاة لقريش فيهم أسلم غلام بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص ابن سعيد ، فأتوا بهما إلى معسكر المسلمين وأخذوا يستجوبونهما ، ومحمد يصلي ، فقالوا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . غير أن القوم رجوا أن يكونا لأبي سفيان وهما يكذبان ، فلما آذوهما قالا : نعم نحن لأبي سفيان ، فتركوهما .

فلما فرغ محمد من صلاته قال : « إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ! صدقا والله لإنهما لقريش . ثم طلب منهما أن يخبراه عن قريش ، فقالا : هم والله وراء هذا الكئيب الذي ترى بالعدوة القصوى . فقال لهما محمد : كم القوم ؟ قالوا : كثير . قال : ما عدتكم ؟ قالوا : لا ندري . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فقال : القوم بين التسعمائة إلى الألف .

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟

قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل ابن عمرو ، وعمرو بن عبد ود .

فلما سمع محمد بهؤلاء أقبل على أصحابه وقال : هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها .

وكان بسبس بن عمرو ، وعدى بن أبي الزغباء قد تقدما حتى نزلا بدرأ فأناخا بعيرهما إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذتا قربة صغيرة لهما بالية ليستقيا فيها ، وكان مجدي بن عمرو الجهني على الماء . فسمع بسبس وعدى جاريتين يتقاضيان بجوار الماء ، فقالت إحداهما لصاحبتها : إنما تأتي القافلة غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك . قال مجدي : صدقت ، ثم خلص بينهما . فلما سمع ذلك بسبس وعدى ركبا بعيرهما وانطلقا حتى أخبرا محمداً الخبر .

وكان أبو سفيان في تلك الأثناء قد تقدم القافلة محاذراً يتحسس الأخبار خشية أن يقع في أيدي المسلمين . فلما رأى مجديا سأله : هل أحسست أحداً ؟ قال : ما رأيت أحداً لا أعرفه ، إلا أني قد رأيت راكبين قد

أناخا إلى هذا التل ثم استقيا في قرية لها ثم انصرفا . فأتى أبو سفيان حيث أناخا بعيرهما وأخذ من أبعاره ففته فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب . وأدرك أن المسلمين قريبون . فرجع إلى أصحابه سريعا ، وغير طريق القافلة واتجه إلى الساحل وسار محاذيا له ، وترك بدرأ ، وأسرع حتى أفلت . فلما رأى أنه نجا من براثن المسلمين وأن القافلة سلمت وأموال الناس في أمان ، أرسل إلى قريش من قال لهم إن الله نجى تجارتكم ورجالكم وأموالكم فأرجعوا .

فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف لنا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً ، فامضوا .

عندئذ انبرى له الأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة وقال : يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل ، وإنما خرجتم لتمنعه وماله ، فاجعلوا بي جنبها وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة ، لا ما يقول هذا . وكان فيهم مطاعاً فأطاعوه فرجعوا ، ولم يشهد زهرى واحداً بدرأ . وكانت بنو عدى قد امتنعت عن الخروج من قبل ، فلم يشهد بدرأ من هاتين القبيلتين القرشيتين أحد .

ثم إنه كان بين طالب بن أبي طالب وبين بعض قريش محاورة ، فقالوا : والله لقد عرفنا يا بني هاشم ، وإن خرجتم معنا ، أن هواكم مع محمد . فعندئذ لم يتوان طالب عن الرجوع مع الراجعين إلى مكة ، وقال في ذلك :
لاهم إماً يتغزون طالب في عصبة تحالف محارب
في مقنّب من هذه المقنّب (١) فليكن المسلوب غير السالب
وليكن المغلوب غير الغالب

(١) المقنّب : الجماعة من الخيل عددها ثلاثمائة أو نحو ذلك .

ومضت قريش إلى غرضها حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى خلف كتيب العتقتنقل . أما المسلمون فلمهم نزلوا بأدنى ماء بيدر حسبها أشار محمد عليهم . وكان فيهم الحباب بن المنذر وكان عليماً بالمكان ، فلما رأى منازل المسلمين قال لمحمد : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال محمد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال الحباب : فإن هذا ليس بمنزل يا رسول الله ، فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فنزله ، ثم نردم ما وراءه من الآبار ، ثم نبى عليه حوضاً فملاؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال محمد : لقد أشرت بالرأى . وانتقل بالناس حتى نزل حيث أشار الحباب وردموا ما وراءهم من الآبار ، وبنوا حوضاً على البئر الذى نزلوا عليه وملاؤه وقذفوا فيه الآنية .

ولما انتهوا من بناء الحوض قال سعد بن معاذ : يا نبي الله ألا نبى لك عريشاً تكون فيه ونعيد عندك ركائبك ، ثم نلتقى عدوتنا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حُباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تأتى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

أثنى محمد على هذه المشورة ودعا لسعد بخير ، وقام المسلمون وبنوا عريشاً .

وفى صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة تقدمت قريش فأقبلت على المشامين ، فلما رآهم محمد قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك

الذى وعدتني ، اللهم أهلكهم هذا الصباح . ونقله نظره فيهم فرأى
عتبة بن ربيعة على جمل له أحمر فقال : « إن يكن في أحد من القوم خير
فعند صاحب الجمل لأحمر ، إن بطيعوه يرشدهُوا » .

بعثت قريش عمير بن وهب الجُمحى ليرى لهم كم عدد المسامين .
فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم وقال : ثلاثمائة رجل يزيدون
قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر اللقوم كمين أو مدد .
فضرب في الوادى حتى أبعده فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما رأيت
شيئاً ، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، جِمالٌ يثرب
تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى
أن يُقتل رجلٌ منهم حتى يُقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم
فما خير العيش بعد ذلك ! ؟ فروا رأيكم ،

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس حتى أتى عتبة بن ربيعة
فقال له : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها ، هل لك إلى
أن لا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟

قال عتبة : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك
عمرو بن الحضرمي . قال عتبة : قد فعلت ، أنت علىّ بذلك ، إنما هو
حليفى فعلى ديتته وما أصيب من ماله . فأت ابن الحنظلية ، يعنى أبا جهل ،
فإنى لا أخشى من أحد أن يفسد أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة خطيباً في الناس ، قال : يا معشر قريش إنكم والله ما
تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل
ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو
وجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن
أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه
ما تريدون .

وانطلق حكيم بن حزام حتى أتى أبا جهل فوجده قد أخرج درعاً وأخذ يصلحها فقال له : يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا . فقال : جبن والله عتبة حين رأى محمداً وأصحابه ، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعثتبه ما قال ، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عايه .

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل هذا وأنه قال إنه جبن قال : سيعلم مصفراً استه (١) من جبن أنا أم هو ! وقام ياتمس خوذة لرأسه ، فما وجد في الجيش خوذة تسعه من عظم رأسه ، فلما رأى ذلك لفّ على رأسه برداً له وتها للقتال .

أما أبو جهل فبعث إلى عامر بن الحضرمي أخى عمرو فقال : هذا حليفك يريد أن يُرجع الناس ، وقد رأيت ثارك بعينك فقم فانشد عهدك ومقتل أخيك . فقام عامر ثم صرخ : واعمره واعمره ! وعندئذ حميت النفوس واستوثق الناس على ما هم عليه من الشر ، وأفسد أبو جهل على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة .

واصطف الجيشان للمعركة وكان محمد يعدل صفوف أصحابه وفي يده سهم يعدلهم به ، فر بسواد بن غزيرة حليف بني عدى بن النجار وهو متقدم عن الصف فضربه على بطنه بالسهم وقال : استو ياسواد . فقال سواد : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني ، أي فاعدل معي . فكشف محمد عن بطنه وقال : استقد . فاعتنقه سواد فقبل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي بجلدك . فدعا له بخير . وبعد أن عدل محمد صفوف المسلمين رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره .

(١) أراد بقوله مصفراً استه أي داهن استه بالطيب . تصد بذلك المبالغة بالذم تذكر استه ليسوه .

ووقف على باب العريش سعد بن معاذ متقلداً بالسيف ومعه جماعة من الأنصار ، يحرسونه خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين ، والجنايب النجائب مهيباً له إن احتاج إليها ركبها ورجع إلى المدينة كما أشار به سعد بن معاذ .
كان محمد يكثر الابتهاج والتضرع والدعاء ، ويقول فيما يدعو به :
« اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعد في الأرض أبداً ، اللهم نصرك » . وكان يرفع يديه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، وأبو بكر من ورائه يسوى عليه رداءه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهاج : يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك . وعند ذلك نزل قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » (١) . أي بعضهم في أثر بعض .

وتقارب الجمعان ولم يعد مفر من القتال . خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما خرج وتقدم إلى الحوض خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره ، غير أنه جبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن تبر يمينه ، فأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض .

وعند ذلك حمى عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، فلما توسطوا بين الصفيين دعوا إلى البراز ، فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار : وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . فقالوا : ما لنا بكم من حاجة ، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا ، ونادى مناديتهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فقال محمد : « قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي » .
فلما دنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ والظاهر أنهم كانوا ملبسين لا يُعرَفون
من السلاح . فقال حمزة : أنا أسد الله وأسد رسول الله ، أنا حمزة بن
عبد المطلب . قالوا : كفاء كريم . وقال علي : أنا عبد الله وأخو رسول
الله . وقال عبيدة : أنا الذي في الخلفاء .

ولم يمهل حمزة شية فقتله ، ولم يمهل عليُّ الوليد فقتله . وضرب عبيدة
وعتبه كل منهما صاحبه ضربة سيف نفذت فيه ، ففكر حمزة وعلى علي عتبه
فأجهزا عليه ، وحملا عبيدة إلى صفوف المسلمين ، وأضجعوه إلى جانب
محمد فأفرشه قدمه فوضع عليها عبيدة خده وقال « يا رسول الله لو رأني
أبو طالب اليوم لعلم أنني أحق بقوله :

ونُسلمه حتى نُصرِّعُ دونه وتذهل عن أبنائنا والحلائل
ثم مات .

وفي تلك الأثناء أغشى محمد إغفاءة فرأى الملائكة التي نزلت من
السماء لنصر المسلمين ، فاستيقظ وبشر أبا بكر ، قال : « أبشر يا أبا بكر
هذا جبريل معتمر (١) بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع
(أي الغبار) أتاك نصر الله ووعده » .

وخرج من العريش عليه درع الحرب وأخذ يحرص الناس على القتال
ويبشرهم بالجنة ويشجعهم بنزول الملائكة لتجارب معهم . وكان
المسلمون لا يزالون في صدوفهم لم يحصلوا على العدو ، فألقت هذه الأخبار
عليهم السكينة والطمأنينة ، وزادتهم شجاعة واستبسالا وإيماناً بالقضية التي
بجاربون من أجلها . بل إنها أكدت لهم النصر الساحق على عدوهم
فاستأنوا به .

وأخذ محمد كفاً من الحصى بيده فاستقبل القوم الكافرين . وقال :

(١) اعتجر بعمامته ، أي انها على رأسه ورد طرفها على وجهه .

« شأهت الوجوه » . وأمر أصحابه بالهجوم . فاندفع المسلمون يضربون ضرباً لا هوادة فيه ويشتون هذا الجمع الكبير بجيله ونخيلاته حتى انفرط عقد المشركين وجندلت سيوف الله طواغيت قريش الواحد إثر الآخر . وأصحابهم في ذهول وكان تواهاً أخذهم ، لا يملكون دفعاً عن سادتهم ولا عن أنفسهم ، وهم الأكثر عدّة وعدداً وسلاحاً .

ألم يقل الله تعالى عندئذ : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ، أنى بمدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » (١) .

« إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سأتقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (٢) .

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » (٣) .

لا عجب إذن أن تفعل هذه الآيات إذ شاعت في ساحة المعركة فعل السحر في صفوف المسلمين والمشركين على السواء . فقد دخل في روع المسلمين أنهم منتصرون لا محالة ، ودخل في روع المشركين أنهم منهزمون لا محالة . فهل لأحد قبيل " بمحاربة الملائكة ؟ ثم كيف بهم يقاومون هذه الحرب المادية والنفسية التي تعرضوا لها فجأة بهذا العنف وهذه الضراوة ، وهم يشاهدون فعلاً منذ اللحظة الأولى للمعركة ثلاثة من صناديدهم وسادتهم يجندلون في لحظات ، ويتهاوى من بعدهم صناديد وسادة آخرون ، الواحد إثر الآخر ، لا يملكون عن أنفسهم شيئاً ، ولا يملك أحد الوقوف دونهم والدفاع عنهم أو حمايتهم من هذا القضاء الباتر .

والحق أن الأقوال التي ترامت هنا وهناك بين الصفوف عن نزول ملائكة من السماء لا قبل لأحد بهم تحارب في صفوف المسلمين ، قد سيطرت

(٣) الأنفال ١٧

(٢) الأنفال ١٢

(١) الأنفال ٩ - ١٠

على عقول وقلوب كل من المسلمين والمشركين ، وتراءت لهم الملائكة فعلا وهم يطفرون في السماء أو وهم يجندلون أعداء الله على الأرض .

جاء عن ابن عباس أنه بينما رجل من المسلمين يشد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد حطيم أنفه وشق وجهه بضربة السوط ، فجاء الأنصاري فحدث بذلك محمداً فقال : « صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة » .

وعن ابن عباس أيضاً أن رجلاً من غفار قال : حضرت وابن عم لي بدرأ ونحن على شركنا ، وإنا لنى جبيل ننتظر الواقعة على من تكون الدائرة ، فأقبلت سحابة ، فلما دنت من الجبل سمعنا منها حممة الخيل ، وسمعنا قائلاً يقول : أقدم حيزوم ! فأما صاحبي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه ، وأما أنا فكادت أن أهلك ثم تماسكت .

وروى البيهقي أن أبا أسيد روى بعدما ذهب بصره : يا ابن أخي ، والله لو كنت أنا وأنت بيدر ، ثم أطلق الله بصرى ، لأريتك الشعب الذى خرجت علينا منه الملائكة من غير شك ولا تمار .

وحدث موسى بن محمد بن إبراهيم أن السائب بن أبي حبيش كان يحدث في زمن عمر يقول : والله ما أسرني أحد من الناس . فيقال له فن ؟ يقول : لما انهزمت قريش انهزمت معها ، فأدركنى رجل أشعر طويل على فرس أبيض فأوثقنى رباطاً ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطاً فنادى فى العسكر : من أسر هذا ؟ حتى انتهى بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أسرك ؟ قلت : لا أعرفه . وكرهت أن أخبره بالذى رأيت . فقال رسول الله : « أسرك ملك من الملائكة ، اذهب يا ابن عوف بأسيرك » .

وقال الواقدي عن حكيم بن حزام : « لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع

يجاد (كساء مخطط) من السماء قد سدّ الأفق ، فاذا الوادى يسيل نهلاً ، فوقع في نفسى أن هذا شيء من السماء أيّد به محمد ، فما كانت إلا الهزيمة ولقاء الملائكة .

وقال بعض المشركين : انهزمتنا يوم بدر ونحن نسمع صوتاً كوقع الحصى في الطاس في أفئدتنا ومن خلفنا ، وكان ذلك من أشد الرعب علينا .

وكان محمد يقاتل بنفسه الكريمة قتلاً شديداً ذلك اليوم ، ويقول للناس وهو يحرضهم على القتال : «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» . وأصبح الاستشهاد في سبيل الله مطلباً يسعى إليه المسلمون ، فاشتدت وطأتهم على المشركين . وبالغوا في ضربهم وقتلهم .

قال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم . قال : أفأبيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ . ثم رمى تمرات كانت في فمه وقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة ! واندفع يقاتل المشركين حتى قتل شهيداً .

وجال المسلمون وصالوا في صفوف المشركين ، يضربون أعناق طائفة منهم ضرباً لا هوادة ولا رحمة فيه ، ويحاولون أسر طائفة أخرى بالمعروف . لقي المجتهد بن زياد البتلوى حليف الأنصار أبا البختري بن هشام فقال له : إن رسول الله صلى عليه وسلم نهانا عن قتلك فاستأسر . وكان محمد قد قال لأصحابه يومئذ : «إني قد عرفت أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكراً» . وإنما نهى محمد عن قتل الذين نصره وقاموا دونه في مكة من أهله

المشركين فحفظ لهم الجميل ، كذلك نهى عن قتل أبي البختري بن هشام لأنه لم يكن يؤذيه وهو بمكة بل كان يكف الناس عنه ، وكان ممن قاموا بنقض صحيفة المقاطعة .

لما قال المُجَنَّدَر لأبي البختري إن الرسول نهى عن قتله ، وكان أبو البختري قد خرج من مكة مع زميل له يلزم كل منهما الآخر قال للمجندَر : وزميلي ؟ قال له المجندَر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك ، قال أبو البختري : لا والله لا أترك زميلي ولأموتن أنا وهو جميعاً ، لا يتحدث عنى نساء قريش بمكة أنى تركت زميلي حرصاً على الحياة !

وقال وهو ينازل المجندَر :

لن يترك ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سيباه
واقنتلا فقتله المجندَر ، ثم أتى إلى محمد وقال : والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فأتيك به فأبى إلا أن يقاتلنى ، فقاتلته فقتلته .

وبينا المعركة على أشدها وقد انهزم المشركون وأخذ بعض من نارت قواهم وأعجزتهم أهوال المعركة عن الفرار يطلبون الأسر ، إذ رأى أمية ابن خاف عبد الرحمن بن عوف وهو يحمل عدة أدرع غنمها ، وكان صديقاً له بمكة فناده وقال : هل لك فى فأنأ خير لك من هذه الأدرع التى معك . فطرح عبد الرحمن الأدرع من يده وأخذ بيده وبيد ابنه على ، وكان يلزمه ، وأمىة يقول : ما رأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجة فى اللبى ؟ أى فى الفداء بالإبل . وكان بين الصفوف رجل من المسلمين علم نفسه بريشة نعامة فى صدره ، فسأل أمىة عبد الرحمن عنه ، قال : هو حمزة بن عبد المطلب . قال أمىة : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل . وبينما عبد الرحمن يقود أسيريه إذ رآهم بلال ، وكان أمىة هو الذى يعذب بلالاً بمكة ، فقال بلال : رأس

الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا . قال عبد الرحمن : أى بلال ، أسيرى ! فصرخ بلال بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية ابن خلف ، لا نجوت إن نجا . فأحاط المسلمون بهم واكتنفوهم من كل جانب وعبد الرحمن يدافع عن أسيريه بلا جدوى ، حتى تكاثر المسلمون عليهما وضرب أحدهم على بن أمية ضربة فوق ، فصاح به أمية صيحة فزع شديد وقال : انج بنفسك ولا نجاء بك ، فوالله ما أغنى عنك شيئاً . ثم هبروهما بأسيا فهم حتى قتلوهما . فكان عبد الرحمن بن عوف يقول : رحم الله بلالا فجعنى بأدرعى وبأسيرى !

والحق أن المسلمين كانوا يتصلون كبراء مكة الذين آذوا المسلمين في أوائل عهد الإسلام وحين كان المسلمون ضعافاً لا حول لهم ولا قوة ولا يستطيعون دفع أذاهم بأسيا فهم . روى عبد الرحمن بن عوف أن غلامين صغيرين حديثي أسنانهما كان أحدهما عن يمينه في الصف والآخر عن يساره ، سألاه : يا عم أتعرف أبا جهل ؟ قال : نعم ، وما حاجتك إليه ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعرجل منا . وقال له الآخر مثل ذلك ، فنظر عبد الرحمن فإذا أبو جهل يجول في الناس لا يخأص أحد إليه فقال لهما : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه . فهجم عليه الفتيان فضرباه حتى خر صريعاً على الأرض .

ولما أمر محمد أن يلتمس أبو جهل في القتلى قال لهم : انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته ، فإني ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جُدعان ونحن غلامان وكنت أكبر منه فدفعته فوق على ركبتيه فخدش في أحدهما خدشاً لم يزل أثره به .

وبينما يبحث عنه جماعة من المسلمين في القتلى مرَّ به عبد الله بن مسعود فوجده صريعاً يلفظ آخر أنفاسه فأخذ منه سيفه فقال أبو جهل : على من

كانت الدائرة لنا أو علينا ؟ فصعد عبد الله بن مسعود على صدره فقال أبو جهل : لقد رقيت مرتقاً صعباً يا رُوَيْعِي الغنم ، ألسنت رُوَيْعِينَا بِمَكَّة ؟ فأخذ ابن مسعود بلحيته وقال : الحمد لله الذي أنزلك يا عدو الله . قال أبو جهل : وهل هو إلا رجل قتله قومه . ثم أجهز ابن مسعود عليه واحتز رأسه وأتى إلى حيث محمد فألقاها بين يديه ، فقال : « الحمد لله الذي قد خزاك يا عدو الله ، هذا كان فرعون هذه الأمة » .

قتل في ذلك اليوم سبعون من المشركين وأسر مثلهم ، وقتل من المسلمين أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار . وغنم المسلمون غنائم كثيرة تركتها قريش المهزومة ، وخلّفها الكماة والأبطال من ورأهم على ساحة المعركة وهم يفرون ضارين في الصحراء نحو مكة ، يلعقون جراحهم ويجرون أذيال الخيبة ، يخشى الرجل منهم أن ينظر في وجه صاحبه ، ويحسب ألف حساب لما سوف يُواجه به في مكة من استخفاف وازدراء .

وعند المساء ، ولما فاء الناس بعضهم إلى بعض ، وأراد محمد أن يقسم الغنائم ، اختلف أصحابه لمن تكون منهم ، وكانوا ثلاث فرق : فرقة انطلقت في آثار المشركين يهزمون ويقتلون ويأسرون ، وفرقة جمعت المغنم من متفرقات الأماكن ، وفرقة أحدقت بمحمد تحرسه خوفاً من أن يصيب العدو منه غيرة . فقال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا منها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا بمحمد : خفنا أن يصيب العدو منه غيرة فشغلنا به . وكانت هذه أول تجربة كبيرة للمسلمين في مثل هذه الشئون ، وكان إرضاء تلك الفرق المتنازعة صعباً . وعندئذ حسم العليّ التقدير الأمر فنزلت الآية : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم

مؤمنين» (١) . انفض الإشكال ورضى الجميع عن طيب خاطر ، وتألفت قلوبهم ، وقسم محمد الغنائم بينهم على السواء ، وأدخل معهم بعض من لم يحضر المعركة ولكن كان يؤدي عملاً في ذلك الوقت أمره به . ثم نزل بيان الخمس بعد ذلك ناسخاً لما تقدم .

أما القتلى فإن محمداً ما كان لير بجيفة مسلم أو كافر إلا وأمر بأن توارى التراب ، فأمر عندئذ بأن تلقى جثث القتلى في قليب بدر (أى بئر بدر) . فلما سئب عتبة بن ربيعة في القليب نظر محمد في وجه أبي حذيفة ابن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال : « يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أهلك شيء ؟ » .

فقال أبو حذيفة : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبي رأياً وحِلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزنتنى ذلك . فدعا له محمد بخير .

ارتحل المسلمون عن بدر في اليوم الثالث ، ذلك أن محمداً كان إذا انتصر على قوم أقام في ساحة المعركة ثلاثة أيام . فأمر براحلته أن يُشدَّ عليها رحلها ، فركبها ومشى وتبعه أصحابه حتى أتى القليب فوقف على حافته وقال : « يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبه بن ربيعة ، ويا أمية ابن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام (وعدد من كان منهم في القليب) هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدنى ربي حقاً » .

فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أتنادى قوماً قد جئفوا ؟

قال : إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم هو الحق .

سار الجيش الظافر وعلى رأسه محمد رسول الله ، ومن خلفه رجال لا يثنيهم عن إيمانهم قوة أو بطش أو ظلم ، ومعهم الأسرى والغنائم الكثيرة ، ميممين شطر المدينة الناصرة المنصورة . لقد حققت هذه الفئة القليلة نصراً اهتزت له جنبات جزيرة العرب ، لا بل اهتزت له جنبات الدنيا . وانقضى عهد حزين كان المسلمون فيه مستضعفين مغلوبين على أمرهم ، لا يمكنهم رد الظلم والعدوان ، صابرين على الأذى ، هائبين القوة الغاشمة العمياء ، إلى عهد تلاً في نور الإسلام ، حينما ضربوا هذه القوة الغشوم ضرب العزيز المقتدر ، وأثبتوا لأنفسهم وللدنيا جميعاً أن الإيمان بالله وبنصره أقوى أسلحة الإنسان ، وأنهم دخلوا تاريخ البشرية الناصع ليظلوا هناك ما شاءت لهم الأقدار أن يظلوا .

حدث هذا في الوقت الذي كان قد انقضى فيه أربع عشرة سنة قمرية .
كاملة على نزول القرآن .

بعث محمد بشيرين إلى المدينة يسبقانه ليبشرا المسلمين بالفتح والنصر والظفر على من أشرك بالله وكذب رسوله ، أحدهما عبد الله بن رواحة إلى أعلى المدينة ، والثاني زيد بن حارثة إلى السافلة . فلما وصل البشيران إلى العقيق اتجه كل منهما إلى الناحية التي أرسل إليها . وأخذ عبد الله بن رواحة ينادى :
يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل المشركين وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج ، وأبو جهل ، وزمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف ، وأسير سهيل بن عمرو .

لم يصدق بعض الناس ، حتى لقد قام عاصم بن عمدي إلى عبد الله ابن رواحة ونحاه عن الناس وقال له : أحقاً يا ابن رواحة ؟ فقال : إى والله ، وغداً يتقدم رسول الله بالأسرى متقربين .

وأخذ زيد بن حارثة وهو على ناقة محمد القاصواء يبشر الناس بالظفر ويعدد أسماء القتلى والأسرى ، فلم يصدقه بعض الناس أيضاً وأخذوا

يقولون : ما جاء زيد إلا منهزماً هارباً . وقال رجل من المنافقين لأسامة ابن زيد : قتل صاحبكم ومن معه . وقال آخر لأبي لبابة : قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون فيه أبداً ، وقد قُتِلَ عليه أصحابه ، قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ماذا يقول من الرعب ، قد جاء منهزماً هارباً ، فقال أبو لبابة : يُكذِّبُ الله قولك . وكذلك قالت اليهود وأشاعت أن محمداً قد قتل وأن المسلمين انهزموا .

فجاء أسامة إلى أبيه واختلى به وقال : أحق ما تقول ؟ قال زيد : إى والله حق ما أقول يا بنى . فقويت نفس زيد ، ورجع إلى المنافق الذى سمع منه ما يكره فقال : أنت المرَّجِفُ برسول الله وبالمسلمين ، لنقدمك إلى رسول الله إذا قدم فليضربنَّ عنقك . فقال : إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه ما اخترعته .

وفى تلك الأثناء أيضاً كانت أخبار الهزيمة قد وصات مكة ، فقام النساء فقطعن شعورهن وعُقِرَت خيول كثيرة ورواحل ، وناحت قريش على قتلاها . غير أنهم سرعان ما أدركوا ما فى نوحهم من معنى الهزيمة وأنهم إذ يفعلون ذلك يشمت فيهم محمد وأصحابه فكفّوا عن النوح ، وعقدوا العزم على ألا يسارعوا فى فداء أسراهم حتى لا يشتد عليهم محمد وأصحابه فى الفداء . وكانت هند بنت عتبة أشدهن حزناً وأكثرهن طلباً للثأر ، فقد قتل أبوها وعمها وأخوها . رفضت البكاء واعتزلت فراش زوجها أبى سفيان وظلت تحرض الناس حتى باغت ثأرها يوم أحد . أما أبو سفيان فنذر ألا يمسه رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً وينال منه ومن أصحابه .

ومما يدل على ما أصاب قريشاً من ألم نفسانى وعذاب شديد ، إذ هى امتنعت عن النوح على قتلاها ، وكفت عن البكاء الذى يبلُّ فؤاد الحزين إذا ما تحادرت دمعاته ، ما روى عن الأسود بن المطلب ، وكان قد أصيب

له ثلاثة من ولده ، زمعة وعقيل والحارث ، وكان يجب أن يبكى على بنيه
ولكن منعه العزة أن يبكى وحده . فبينما هو يقاسى ذلك الشوق إذ سمع
ناطقة تنوح في جوف الليل ، فقال لغلام له ، وكان قد ذهب بصره ،
أنظر هل أحيل النّحب ؟ ! هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على
أبي حكيمة (يعنى ولده زمعة) فإن جوفى قد احترق !

فلما رجع الغلام وأخبره أنها امرأة تبكى على بعير لها ضلّ منها أنشأ
يقول :

أبكي أن يَضَلَّ لها بعير*	ويمنعها من النوم السهود*
فلا تبكى على بكر ^(١) ولكن	على بدْرٍ تقاصرت الجدود ^(٢)
على بدْرٍ سرّاة بني هُصَيْنِص	ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكّي إن بكيت على عقيل	وبكّي حارثاً أسد الأسود
وبكسهم ولا تسمى جميعاً	وما لأبي حكيمة من نديد ^(٣)
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدرٍ لم يسودوا ^(٤)

* * *

لم يكن الإسلام في ذلك الوقت قد قرر نظاماً يعامل به الأسرى .
أيقتلون أم يقتلون أم يُسْتَرْقُونَ ؟ والحق أن النبي حين فرق الأسارى بين
أصحابه أمرهم أن يستوصوا بهم خيراً . روى أبو عزيز أخو مصعب بن
عمير ، وكان أسيراً عند رهط من الأنصار ، أنهم كانوا إذا قدموا غداهم
أو عشاءهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر . كذلك يروى أن النبي حين قلى
إذ سمع عمه العباس يئن ويتأوه من وثاقه ، استأذن أصحابه أن ينفسوا عن جميع
الأسرى ، ففعلوا . ولم يحدث أن قتل النبي بعد هذه الغزوة من الأسارى
إلا النصر بن الحارث وعقبة بن أبي معييط ، قتلها في بعض الطريق
قبل أن يصلا إلى المدينة ، وكانا من أكثر المسيئين الذين اشتدوا عليه

(١) البكر : الفتى من الإبل

(٢) الجدود : الشبه

(٣) النديد : الشبه

(٤) أقوى الشاعر في الأبيات الثالث والرابع والخامس .

وعلى أصحابه في مكة قبل الهجرة ، وأكثرهم عناداً وبغياً وحسداً وهجاء الإسلام وأهله .

عند ما بلغوا الأثيل (موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء) وعرض الأسرى على محمد ، نظر إلى النضر بن الحارث نظرة ارتعدت لها مفاصله ، فقال لرجل إلى جانبه : محمد والله قاتلي ، لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت . قال الرجل : ما هذا والله منك إلا رعب . ونادى النضر مصعب بن عمير ، وكان بينهما عهد قديم ، وقال : كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه ، فهو والله قاتلي إن لم تفعل . قال مصعب : إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه ما تقول ، وكنت تعذب أصحابه . قال النضر : لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حي . قال مصعب : والله إنى لا أراك صادقاً ، ثم إنى لست مثلك ، فقد قطع الإسلام العهود . وكان النضر أسير المقداد ، فلما رأى ذلك وخشى أن يقتل فتفوته فدية كبيرة صاح قائلاً : النضر أسيرى . فقال النبي : اضرب عنقه ، واللهم اغن المقداد من فضلك . فتقدم على بن أبي طالب وضرب عنقه .

ولما كانوا بعرق الظبية ، أمر محمد بقتل عقبة بن أبي معيط ، فقال له عقبة : فمن للصبية يا محمد؟ قال : النار . ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت أو على بن أبي طالب بالسيف صاح : يا معشر قريش ، علام أقتل من بين من ها هنا؟ قال : على عداوتك لله ورسوله . فقال عقبة : أتقتلني يا محمد من بين قريش . قال : نعم ، أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام ، فوضع رجله على عنقي وغمزها فمارفعتها حتى ظننت أن عيني ستخرجان ، وجاء مرة أخرى بسلاة شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي .

ومن أجل ما يروى بهذه المناسبة أن قُتِلَت بنت الحارث لما علمت بمقتل أخيها النضر بن الحارث أنشأت تقول :

يا راكباً إن الأيـل مظنـة
أبلغ بها ميـتاً بأن تحية
منى إليك وعـبرة مسفوحة
هل يسمعـنّ النضرُ إن ناديتـه
أحمد يا خير ضئـن كريمة
ما كان ضرّك لو مندت وربما
لو كنت قابل فدية فلنأتين
والنضر أقرب من أسرت قرابة
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه
صبراً يُقاد إلى المنية متعباً
فاما بلغ محمد هذا الشعر قال : لو باغى هذا قبل قتله لمننت عليه !

ولما قارب المدينة تلقته بجواربها بالدفوف وهن يغنين :
طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أبها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وتلقاه أصحابه الذين تخافوا عن غزوة بدر يهشون بما فتح الله عايه .
قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك ،
والله يا رسول الله ما كان تخشى عن بدر وأنا أظن أنك تلتى حرباً ، ولكن
ظننت أنها قافلة ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفست . فقال : صدقت .

ودخل المسلمون المدينة ظافرين وعلى رأسهم محمد رسول الله ، والحقد
والحسد يغلى فى قلوب المشركين والمنافقين من أهل المدينة أن لم يتحقق
ما كانوا يأملون من نصر قريش ، حتى لقد قال كعب بن الأشرف
اليهودى : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس
وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن .

ثم قدم الأسارى بعد دخول المسلمين المدينة بيوم وعليهم شتران مولى محمد ، وكان قد شهد بدرأ معهم ، وكانت سَوْدَاة بنت زَمْعَةَ زوج النبي عند آل عفرَاء في مناحيهم على عوف ومعوذ ابنا عفرَاء . وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب . فرجعت إلى بيتها ومحمد فيه ، وإذا سهيل بن عمر في ناحية الحجرة مجموعة يده إلى عنقه بجبل ، فلم تملك نفسها أن قالت : أى أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ، ألا تم كراماً ؟ فإذا بصوت محمد يقول : يا سودة أعلى الله وعلى رسول الله تحرضين !! قالت : يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت .

ثم إن محمداً أخذ يقلب أوجه النظر فيما يصنع بهؤلاء الأسرى . فعمد إلى أصحابه يستشيرهم كعادته . فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً .

أما عمر فقال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننى من فلان — قريب له — فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فقال محمد : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : « فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال : « رب لا تدرك على الأرض من الكافرين دياراً » . وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ثم إنه استقر أخيراً على رأى أبى بكر وقبيل فداء الأسرى . وكانت قريش قد عقدت العزم على ألا تسرع فى طلب فداء أسراهم حتى لا يشتد فيه المسلمون . غير أن المطلّب بن أبى وداعة لم يمالك نفسه أن يخرج لفداء أبيه فانسل تحت جناح الليل من مكة وقدم المدينة ، وفدى أباه بأربعة آلاف درهم . وكان هذا أول أسير فدى ، ثم بعثت قريش فى فداء أسراهم ، كل أسير بأربعة آلاف درهم .

قدم مكرز بن حفص بن الأخيف فى فداء سهيل بن عمرو ، وكان سهيل خطيباً يحرص الناس على محمد والإسلام ، فانبرى له عمر بن الخطاب وأقدم على محمد يقول : دعنى أنزع ثنيتى (أى السنين الأماميتين) سهيل ابن عمرو حتى يخرج لسانه إذا تكلم فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً . فقال محمد قولة صدق وحق : « لا أشئل به فيُشئل الله بي وإن كنت نبياً » ، ثم قال لعمر : إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه . ولا عجب فقد قام سهيل هذا المقام فيما بعد ، وصدق محمد فى حدسه . إذ قام سهيل عندما ارتد من العرب بعد وفاة محمد يخطب الناس فى مكة ويثبتهم على الدين الحنيف . فلما اتفق مكرز على فدائه ولم يكن معه مال ، طلب أن يجعلوه مكان سهيل ويحلوا سبيل سهيل حتى يعود بالقدية ، ففعلوا .

وكان فى الأسارى العباس بن عبد المطلّب وأخواه عقيل ونوفل وحليفه عتبة بن عمرو أخذ بنى الحارث بن فهر ، ففادى العباس نفسه وإياهم بمائة أوقية من الذهب وكان موسراً . ثم إنه كان قد ادعى أنه أسلم ؛ فلم يقبل منه محمد وقال : أما ظاهر ك فكان علينا ، والله أعلم بإسلامك وسيجزيك .

أما أبو سفيان فقد رفض أن يفادى ولده عمرو بن أبى سفيان ، فلما قيل له : أفد عمراً ابنك ، قال : أيجتمع علىّ مالى ودى ! قتلوا حنظلة وأفدى عمراً ؟ دعوه فى أيديهم يمسكوه ما بدا لهم . وكان يغيظه أن ينهزم هذه الهزيمة النكراء ، فكل وفداء . غير أنه ظل يتحين فرصة يقتنص فيها

أحدًا من أهل المدينة ، حتى خرج سعد بن النعمان بن أكّال ، أحد بني عمرو بن عوف معتمرًا ، وكان شيخاً مسلماً ، ولم يفكر في أن أحدًا من قريش يعترض له إذ جاءها معتمرًا . وكان عهد قريش أن قريشاً لا يعترضون لأحد جاء حاجاً أو معتمرًا إلا بخير ، فهجم عليه أبو سفيان وحبسه في مكة بابنه عمرو . فأتى بنو عمرو بن عوف إلى محمد وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان ليفكوا به صاحبهم ، فاعطاهم النبي عمراً ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد .

وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ابن أمية ، ختن محمد وزوج ابنته زينب . وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وكانت أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة ، وكانت خديجة هي التي سألت محمداً أن يزوج العاص بزينب ، وكان لا يخالفها . ولقد أثبت العاص أنه رجل كفء كريم لم يخذل خالته ولا زوجته ولا حميه . ذلك أن قريشاً عند ما اضطهدوا محمداً بعد الإسلام وأرادوا من أبي العاص أن يطلق زينب ، وقالوا له فارق صاحبك ونحن نزوجك بأى امرأة من قريش شئت ، قال : لا والله لا أفارق صاحبتي وما أحب أن تكون لى امرأة من قريش سواها . لذلك كان محمد دائم الثناء عليه . وكانت زينب حتى ذلك الوقت تعيش مع أبي العاص في مكة لم تهجر ، هى مسلمة وهو مشرك ، ذلك أن الإسلام لم يكن قد فرّق بعد بين الزوجين إذا أسلم أحدهما . إنما حرّم الله المسلمات على المشركين عام الحديبية سنة ست من الهجرة . فأرسلت زينب إلى أبيها فى فداء زوجها مالا فيه قلادة كانت خديجة قد أهدتها لها يوم عرسها . فلما رأى محمد القلادة وطاف بخياله ذكريات تلك الأيام الحلوة التى غبرت ، وتراءت له صورة زوجه الحبيبة ، رق لها رقة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا » . وأى شيء كان أحب إلى نفوس رجال

يضحون بأرواحهم في سبيله من أن يفعلوا بما أشار . فقاموا وأطلقوا الأسير
وردوا على زينب مالها وقلادتها .

غير أن محمداً أحب أن يُفرَّق بينه وبين زينب ، فطلب منه أن ينحلي
سبيلها ، فأجاب أبو العاص بالسمع والطاعة . فلما عاد إلى مكة جهز زينب
للرحيل على كره منه ومنها لهذا الفراق ، ولكن ما كان بيد أحد منهما
حيلة . فلما تجهزت قدَّم إليها أخوزوجها كِنانة بن الربيع بعيراً فركبته
وأخذ قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهراً يقود بعيرها وهي في الهودج .
غير أن رجال قريش لم يرضهم أن تخرج بهاراً عياناً في وضح النهار من
بين ظهرانيهم ، فخرجوا في طلبها ، فلما أدركوها روَّعها هَبَّار بن الأسود
بالرمح ، وعندئذ نثر حموها كنانة سهامه وقال : والله لا يدنو مني رجل
إلا وضعت فيه سهماً . فرجع الناس عنها ، وكان أبو سفیان قد تبعهم في عدد
من سادة قريش ، فقال : يا أيها الرجل كُفَّ عنا سهامك حتى نكلمك .
فكف ، فأقبل أبو سفیان حتى دنا منه فقال : إنك لم تُصِيبْ ، خرجت
بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل
علينا من محمد ، فيظن الناس إذ خرجت بابتنته إليه علانية على رؤوس الناس
بين أظهرنا ، أن ذلك عن ذلِّ أصابنا ، وأن ذلك ضَعْفٌ منا ووَهْنٌ ،
ولتعمري مالنا بحبسها من أبيها من حاجة وما لنا من طلب الثأر ، ولكن
ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحذت الناس أن قد رددناها فتسال
بها سراً وألحقها بأبيها .

فرجع بها ، ولما أن هدأت الأصوات تلك الليلة ، خرج بها حتى
أسلمها إلى زيد بن حارثة وأحد الأنصار ، وكان محمد قد أرسلهما
ليستقبلاها ويعودا بها إلى المدينة . وكان يقول فيها : هي أفضل بناتي
أصبيت في .

ثم إن زينب لم تنزل تذكر لأبي العاص فضله ومروءته ، ولم يزل أبو العاص يذكر لمحمد إحسانه وعطفه وحده عليه . ولم تستطع السنون التي فرقت بينهما أن تنسى أياً منهما ما في قلبه نحو الآخر ، فظل أبو العاص يذكرها ، وظلت زينب وفية له على عهد الحب . ولما كان قبل الفتح بقليل أى بعد هجرتها بست سنين ، وأبو العاص لا يزال على شركه ، خرج في تجارة لقريش ، فلما قفل عائداً من الشام لقيته سرية من المسلمين فأخذوا ما معه . أما هو فقد هرب منهم وجاء المدينة تحت جناح الليل ، وأخذ يتنطس أخبار زوجه فعلم مكانها فأتاها واستجار بها فأجارته .

فلما خرج محمد لصلاة الصبح وكبّر وكبر الناس من خلفه ، صرخت زينب من صُفّة النساء : أيها الناس أجزت أبا العاص بن الربيع . فلما سلم محمد أقبل على الناس فقال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : نعم . قال : « أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم ، وإنه يجير على المسلمين أدناهم » . ثم انصرف فدخل على بنته زينب فقال : أي بُنيّة أكرمى مشواه ولا يخلصنّ إليك فإنك لا تحلين له . ذلك أن القرآن كان قد فرق عندئذ بين المسلمات والمشركين . ثم بعث محمد إلى المسلمين فحثهم على أن يردوا ما كان معه ، فردوه بأسره لم يُفقد منه شيء .

فأخذه أبو العاص ورجع إلى مكة ، فأعطى كل ذى حق حقه ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيّاً كريماً . قال : فيأني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعتني عن الإسلام عنده (أى عند ما كان بالمدينة) إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت . ثم خرج حتى قدم المدينة ، وأسلم بين يدي محمد فرد عليه زوجه .

وكان في الأسرى شاعر هو أبو عزة عمرو بن عبد الله الجُمَحِيّ ، وكان شديد الإيذاء لمحمد بمكة ، وكان محتاجاً ذا بنات ، فقال لمحمد : يا رسول الله لقد عرفت مالى من مال ، وإنى لئذو حاجة وذو عيال فامنن عليّ . فمنّ عليه وأخذ عليه عهداً ألا يناصر عليه أحداً . فدحه أبو عزة بأبيات منها :
من مُبْنَعٍ عني الرسول محمداً بأنك حقٌّ والمليك حميدٌ
وأنت امرؤٌ تدعو إلى الحق والهدى عليك من الله العظيم شهيدٌ

غير أنه نقض العهد الذي عاهد عليه محمداً ، ولعب المشركون بعقله ، فرجع إلى صفوفهم ، وحارب معهم يوم أحد فأسر مرة ثانية . وعند ذلك طلب من محمد أن يمنّ عليه ، غير أن المن عليه في هذه المرة لم يكن له محل ، فقال محمد : « لا أدعك تمسح عارضيك وتقول : خدعت محمداً مرتين ! » ويقال إنه قال فيه عندئذ قوله : « لا يُلدغ المؤمن من جُحْرِ مرتين » ثم أمر فضربت عنقه .

ومن هؤلاء الأسرى وهب بن عُمَيَّر الجُمَحِيّ . وكان أبوه عمير فرعوناً من فراعين قريش وشيطاناً من شياطينها ، وكان ممن يكثرون أذية محمد وأصحابه ، ومن لقي منهم المسلمون عناء شديداً وهم بمكة . وبيننا عمير جالس مع صفوان بن أمية في أعقاب هذه الغزوة يتذاكران مصاب قريش بها وأصحاب القليب ، قال صفوان بن أمية : والله ما إن في العيش بعدهم خير . فقال عمير : صدقت ، أما والله لولا دين عليّ ليس عندي قضاؤه ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعمدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي في المسلمين عيلة ، ابني أسير في أيديهم . عندئذ اغتم صفوان هذه الفرصة للانتقام فقال : عليّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي ، أواسيهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكنم عليّ شأني وشأنك . قال : سأفعل .
ثم أمر عمير بسيفه فشُحِدَ له وقام فسَمَّ نصله . ثم انطلق حتى قدم

المدينة ، وأناخ بعيره على باب المسجد وهو متوشح السيف . فلما رآه عمر بن الخطاب ، وكان هناك بالسأ في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به من النصر على عدوهم ، قام إليه وهو يقول : هذا الكاب عدو الله عمير بن وهب ، ما جاء إلا لشر . ثم دخل على محمد فقال : يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه . قال : أدخله عليّ . فأقبل عمر عايه فأخذ بحمالة سيفه في عنقه فابيه بها وقال لمن كان معه من الأنصار : قوموا فادخلوا على رسول الله فاجاسوا عنده ، واحذروا عايه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على محمد . فلما رآه وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه قال : « أرسله يا عمر ، ادن يا عمير » فدنا ثم قال : أنعم صباحاً ، وكانت هذه هي تحية أهل الجاهلية ، فقال محمد : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة » فقال : أما والله يا محمد إن كنت بها حديث عهد .

قال : فما جاء بك يا عمير ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه .

قال : فما بال السيف في عنقك ؟

قال : قبّحها الله من سيوف ! وهل أغنت شيئاً ؟ !

قال : اصدقني ما الذي جئت له ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

تفرس منه محمد وأدرك بقوة فراسته ما كان من أمر عمير .

فقال : « بل قعدت أنت و صفوان بن أمية فذكرتما أصحاب القليب من

قريش ، ثم قلت : لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً ،

فتحمل صفوان بن أمية بديناك وعيالك ، علي أن تقتلني له ، والله حائل

بينك وبين ذلك » .

أسقط في يد عمير ولم يملك إلا أن يقول : أشهد أنك رسول الله ،

قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل

عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق . ثم شهد شهادة الحق ، فقال محمد : فقتهوا أنحاكم فى دينه ، وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره . ففعلوا . ثم عاد عمير إلى مكة وأصبح أشد على الكفار مما كان على المساميين فى سابق أيامه ، وحلف صفوان بن أمية ما يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً .

هؤلاء الذين ذكرنا من أسرى بدر جملة من الذين كان لهم روايات تروى . أما الباقيون فتم فداؤهم كل بأربعة آلاف درهم . وأما الذين كانوا لا يملكون مثل هذا القدر من المال وكانوا ممن يقرؤون ويكتبون ، فقد فرض عليهم النبى أن يُعَلِّم كل منهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة فى نظير فداائه . وهذا الاتجاه الثوراني الذى دفع فيه محمد المسلمين وساقهم نحوه منذ أوائل عهدهم ، كان له ولا شك أعظم الآثار فيما بعد فى مستقبل الإسلام ، إذ انطبع تاريخ الإسلام بالدعوة إلى العلم وبكراهية الجهل والنفور منه ، حتى لقد أصبحت حضارة الإسلام فى القرون الوسطى منارة العالم الحقيقية فى الشرق والغرب ، وأصبحت دياره القلعة التى يؤمها العلماء وطالبو العلم من كل حذب وصوب .

وبعد أن تم الفداء وقبض المسلمون الأموال عارض الله اجتهاد أبى بكر الذى أخذ به محمد وأنزل قوله : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُبْخِنَ فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (١) . لقد نهى الله إذن عن أخذ الأسرى قبل أن يعين المسلمون فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله والذين يتعرضون لدين الله أن ينتشر فى الأرض . أما الأموال التى أخذوها من فداء الأسرى ، فأبيحت لهم ، لأن حكم الله السابق إنما يقضى بالألا يعاقب أحد على اجتهاده ما دام المقصود من الاجتهاد خيراً وإلا لمسهم فيما أخذوا من أموال عذاب عظيم .

الفصل الثامن

تجمع العاصفة قبل أحد

كان لغزوة بدر آثار عميقة جداً في تحديد صورة الأحداث التي وقعت بعد ذلك . لم يكن هناك من ثأر حتى حدوث هذه المعركة ، يستحق مثل هذا التحدى السريع الذى انطبعت به أحداث المستقبل . لم يكن بين المسلمين وكفار قريش حتى ذلك الحين غير دم ابن الحضرمي . ولقد رأينا فيما سبق كيف أن عتبة بن ربيعة أحد سادات قريش المعدودين وصاحب الكلمة المسموعة فيها ، قد قبل عن طيب خاطر أن يتحمل دية ابن الحضرمي عند ما عرض عليه حكيم بن حزام ، وهم يستعدون للحرب في ساحة معركة بدر وقبل أن تقع الواقعة ، أن يدفع الدية من ماله ويعوض أهل الحضرمي عن تجارته التي غنمها المسلمون . كل هذا حقناً للدماء التي سفكت ببدر ، غير أن أبا جهل أفسد عليه هذا الرأي ودارت المعركة كما رأينا ، وراح ضحيتها سبعون رجلاً من قريش ، فيهم عدد كبير من ساداتها وذوى الجاه والعزة والمنعة فيها . فإذا يمكن أن يحدث الآن غير مزيد من الحرب ومزيد من التحدى . من يتحمل ديات أولئك القتلى ، وكم تساوى ، ومن يملك ما تساوى ، ومن يقبل أخذ ديات فيهم ؟ لا أحد على التأكيد .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يعد هناك بد لقريش من أن تنازل محمداً وأصحابه في جولة أخرى أو في جولات ، دفاعاً عن هيبته المفقودة وتجارته المهتدة وحفاظاً على سمعتها بين العرب . ثم إن هذا لم يكن كل ما قد يصادف المسلمون من متاعب . فقد كان لا يزال بالمدينة عدد كبير من الكفار والمشركين والمنافقين ، وأهم هؤلاء اليهود . وكانت لاتزال لهذه الفئات كلمة مسموعة في المدينة وفيما حولها ، وكانت لهم قوة

يرهبها عدوهم ، وإن لم يجربوا هذه القوة بعد مع المسلمين . فبعد وقعة بدر اتخذ الدفاع عن الإسلام صورة غير الصورة التي انطبعت بها أحداث الماضي ، وتزايد سلطان المسلمين في المدينة تزايداً كبيراً ، الأمر الذي أصبح يهدد قبائل اليهود التي تعيش فيها وفيما حولها . فقد تخوّفَ اليهود الآن على أنفسهم تزايد هذا السلطان ، ورهبوا انتشار الإسلام هنا وهناك ، وفزعوا لهذه الروح الجبارة التي كان يلقي بها المسلمون عدوهم . أما المسلمون ، فقد تخوفوا هم أيضاً على دولتهم الناشئة مؤامرات اليهود ودسهم ووقيعتهم وعداءهم المقنع . كل هذا جعل الصراع بين المسلمين واليهود أمراً لا مفر منه .

ليست هذه الأخطار الشديدة فحسب هي التي كانت تهدد المسلمين في أعقاب معركة بدر . فقد كان هناك فئة ثالثة تناوئ المساميين أيضاً ، هي تلك القبائل المنتشرة على شاطئ البحر الأحمر بين مكة والمدينة على طريق التجارة إلى الشام . فقد اقتضت مصالح بعض هذه القبائل أن تهادن المساميين وتعاهدهم ، واقتضت مصالح قبائل أخرى أن تهادن قريشاً وتعاهدها . فلتوقع إذن مزيداً من التحرشات ومزيداً من الصراع ومزيداً من الحرب .

لم يعد المسلمون الآن ليسكتوا عن أولئك الذين يسبون الإسلام ويرسلون الأشعار في هجوه وهجو نبيه . فلما أن يكف هؤلاء وأمثالهم بالحسنى وإما أن ينالوا أشد عقاب . فإن التجربة التي خاضها المسلمون على ساحة بدر جعلتهم يدركون أن شيئاً سوف لا يمنهم غير سيوفهم . وأن أحداً من العرب غير المسلمين من المناوئين لهم سوف لا يكف عنهم إلا إذا قطعوا دابره .

كان أبو علفك أحد بني عمرو بن عوف ممن يرسلون الأشعار في هجاء محمد والمسلمين ، وفي تحريض قومه عليهم . عندئذ قرر سالم بن عُمَيْر تخايص الإسلام من شره ، فذهب إليه ذات ليلة وهو نائم بفناء داره ، وانقض عليه بالسيف يمزق كبده . كذلك كانت عصماء بنت مروان

من بنى أمية بن زيد من يعيرون الإسلام ويؤثفون النبي ويحرضون عليه ، فجاءها عُمر بن عوف في هدأة الليل ودخل عليها بيتها وهي نائمة ترضع صغيراً لها ومن حولها بقية أبنائها ، وكاد عمير أن يكون كفيفاً أو أنه كان يعيش فلا يتبين الأشياء جيداً في الليل ، فتحسها بيده وأبعد عنها الصبي ووضع سيفه في صدرها حتى أنقذه من ظهرها . وذهب عُمر فأخبر النبي الخبر ، وبينما هو عائد إذ جماعة فيهم بنوها كانوا عائدتين بعد دفنها ، فأقبلوا عليه فقالوا : يا عمير أنت قتلتها ؟ قال نعم ! فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظروُن ، فوالذي نفسي بيده لو قلمت بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي حتى أموت أو أقتلكم . أما النتيجة التي أدى إليها هذا الموقف فكانت ظهور الإسلام في بنى خَطْمَة ، ذلك أن عصماء كانت زوج رجل منهم ، وكان عدد منهم قد أسلموا ولكن يخشون إظهار إسلامهم ، فأظهروه عندئذ غير وجلين ولا هيابين .

أما كعب بن الأشرف وهو أحد بنى نهبان وأمه من بنى النضير ، فقد وقف موقفاً سيئاً جداً من المسلمين بعد بدر . فهو الذي قال عندما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران بنصر المسلمين : هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . ثم إنه لما تيقن الخبر خرج إلى مكة ، ونزل على المطلب بن أبي وداعة بن صبيرة السهمي ، فأكرمه وأكرمه زوجته عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وجعل يحرض الناس على قتال محمد وينشد الأشعار ويندب من قُتل من المشركين يوم بدر . وله في ذلك قصيدة مطلعها :

طحنت رحى بدر لمتهلك أهليه ولمثل بدر تسهل وتد مع

وهناك قال له أبو سفيان : أناشدك أديننا أحبُّ إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأيننا أهدي في رأيك وأقرب إلى الحق ؟ إنا نطعيم الجزور

الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبت الشمال . فقال له كعب بن الأشرف : أنتم أهدى منهم سبيلا !

وفي هذا أنزل الله قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالحبث والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » (١) .

ثم إن كعباً عاد إلى المدينة بعد أن حرض قريشاً على أخذ ثأرها ومحاربة محمد والمسلمين ، وجعل يشبب بأم الفضل بن الحارث ويغيرها من نساء المسلمين ويهجو النبي . فلما فاض الكيل وبلغ الألم في نفوس المسلمين منه كل مبلغ ، قال محمد لأصحابه : من لابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مسامة أخو بني عبد الأشهل : أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله . قال محمد : « فافعل إن قدرت على ذلك » .

ثم إن محمد بن مسامة مكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسد الرمق ، فلما بلغ ذلك رسول الله قال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ قال : يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدرى هل أفى لك به أم لا . قال : إنما عليك الجهد . قال : يا رسول الله لا يريد لنا أن نقول (أى نخدعه) . قال : فقولوا ما بدأ لكم فأنتم في حل من ذلك . عندئذ اجتمع في قتله محمد بن مسامة ، وسليمان بن سلامة بن وقش ، وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل ، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ، وعباد بن بشر بن وقش أحد بني عبد الأشهل ، والحارث بن أوس بن معاذ أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عيسى ابن جبر أخو بني حارثة .

وقدم هؤلاء حتى أتوا كعب بن الأشرف فحدثه سليمان أخوه من الرضاعة ، وتناشدا الشعر ثم قال سليمان : إني قد جئت لك لحاجة أريد ذكرها لك فآتم عني : قال : فافعل . قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ،

عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

فقال كعب : أنا ابن الأشرف ! أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول .

فقال له سلكان : إني قد أردت أن تبعنا طعاماً ونُرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك .

قال : ترهنوني أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا ، إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونُرهنك من السلاح ما فيه وفاء . فرضى ابن الأشرف بذلك ، ورجع سلكان إلى أصحابه وأخبرهم بذلك ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند محمد فشى معهم إلى ببيع الغرقة ، ثم وجههم وقال : « انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعينهم » ثم رجع وكانت الليلة مقمرة ، وانطلق القوم إلى بغيهم .

فلما جاعوه هتف به سلكان ، وكان ابن الأشرف حديث عهد بعرس ، فوثب في ملحفته ، فأخذت امرأته بناصيتها وقالت : أنت امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة . قال : إنه رضيعى أبو نائلة لو وجدني نائماً ما أيقظني . فقالت : والله إني لأعرف في صوته الشر . قال كعب : لو دُعيت الفتي لطمعة بليل لأجاب !

وسار كعب وسلكان حتى التقيا بأصحاب ساكان . ومشى القوم ساعة يتجاذبون أطراف الحديث . وإذا هم يسرون وكعب مطمئن لهم وضع ساكان يده في رأس كعب وقال : ما رأيت طيباً أعطر قط . ثم مشوا ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشوا ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بشعر كعب وقال لأصحابه : اضربوا عدو الله ، فناشوه بأسياهم حتى مات .

ورجعوا إلى محمد فأخبروه الخبر فأهدر دماء اليهود ، وقال :

« من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » . وعندئذ خافت اليهود ولم يعد يهودى إلا وهو خائف على نفسه . فوثب مُحَيِّصَة بن مسعود الأوسى على ابن سُنَيْمَة وهو تاجر من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله ، وكان أخوه حُوَيْصَة بن مسعود أسن منه ولم يُسَلِّم بعد ، فقال لأخيه وهو يضربه : أى عدو الله أقتلته ؟ أما والله لَتَرَبَّ شَحْمٌ فى بطنِك من ماله !

قال مُحَيِّصَة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك !
قال حُوَيْصَة : والله لو أمرك محمد بقتلى لتقتلنى ؟ قال : نعم والله

لو أمرنى بضرب عنقك لضربت بها !

قال حويصة : فوالله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب ! ثم أسلم .

وفى تلك الأثناء وقعت حادثة استطار لها الشر بين المسلمين واليهود . قدمت امرأة من العرب ببضاعة لها فباعتها فى سوق بنى قَيْسِنُقَاع ، وجلست إلى صائغ منهم ، فألح عليها قوم من اليهود كانوا عنده أن تكشف عن وجهها النقب فأبت ، فعمد الصائغ الماكر عندئذ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها فتضاحك القوم ، فصاحت فهب لنجدتها رجل من المسلمين أثار ما فعل اليهود بها نخوته فهجم على الصائغ اليهودى وقتله . عندئذ تكاثر اليهود على المسلم فقتلوه . واستصرخ أهل المسام المسلمين فوقع الشر بينهم وبين بنى قَيْسِنُقَاع .

فجمعهم محمد فى سوقهم وقال : يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النُّقْمَة وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبي مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

فقالوا : يا محمد إنك ترى أنا قومك ؟ لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا عام لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس .

وفى ذلك أنزل الله فى سورة آل عمران قوله : « قل للذين كفروا (أى

اليهود) ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في
فتنين التفتنا (أى المسلمين وقريش في بدر) فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى
كافرة يرونهم مثلهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك
لعبرة لأولى الأبصار» (١) .

ثم إن محمداً مشى إليهم على رأس أصحابه وحاصرهم حصاراً شديداً
خسة عشر يوماً متتالية ، لا يخرجون من حيث هم ولا يدخل إليهم أحد
لا بطعام ولا بغيره ، حتى جهدهم الحصار فساموا أمرهم لمحمد يحكم فيهم
بما يشاء . عند ذلك استشار أصحابه ، واستقر الرأي على قتلهم وتخليص المدينة
من شرورهم .

غير أن بنى قَيْسِنُقَاع كانوا حلفاء الخزرج ، وكان عبد الله بن أبي بن
سَلُول زعيم الخزرج لا تزال له كلمة مسموعة في قومه . ولم يرض عبد الله
ابن أبي بهذا الحكم فقام إلى محمد وقال : يا محمد أحسن في حلفائي . فأبطأ
عليه محمد ولم يجبه ، فأعاد قوله : يا محمد أحسن في حلفائي . فأعرض
عنه ولم يلتفت إليه . وعندئذ أدخل عبد الله بن أبي يده في جيب درع
محمد وكان يقال لها ذات الفضول ، فقال له محمد : أرسلني (أى اتركني) ،
وغضب غضباً شديداً عندما لم يتركه حتى تغير لون وجهه وقال :
ويحك أرسلني !

قال عبد الله بن أبي : والله لا أرسلك حتى تحسن في حلفائي ، أربعمائة
حاصر وثلثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدتهم في غداة واحدة !
إني والله امرؤ أخشى الدوائر .
فقال له عندئذ : هم لك .

لم يكن بد من هذا الرضوخ حفاظاً على وحدة المسلمين ، لأن إصرار
عبد الله بن أبي كان من شأنه لو أن محمداً رفض ، أن يحدث فتنة في صفوف

المسلمين لا يعلم أحد كيف تنتهى . أما عبادة بن الصامت ، وكان من بنى عوف ، وله من حاقهم مثل الذى لهم فى عبد الله بن أبى ، فإنه مشى إلى محمد وتبرأ إليه وإلى الله من حاقهم وقال : يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .

عندئذ نزلت فيه وفى عبد الله بن أبى الآيات : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » (١) . يعنى عبد الله بن أبى ، إلى قوله : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » (٢) . يعنى عبادة بن الصامت .

وانتهى الاتفاق أخيراً على أن يخرج بنو قيسنقاع من المدينة وإن كان عبد الله بن أبى قد حاول أن يحدث محمداً فى بقائهم ، إلا أن بعض المسلمين حال دون أن يعود فيحدثه فى شأن من شئونهم . ووكل أمر إجلالهم إلى عبادة بن الصامت فأذعنوا وتركوا المدينة جميعاً وخلفوا السلاح وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغون . وساروا صوب الشمال حتى حطوا رحالهم فى وادى القرى ، فأقاموا حيناً ، ثم تركوها إلى أذرعات على حدود الشام . وقسم محمد الغنائم التى غنموها منهم على المسلمين ، وأعطى سهم قوى القرى لبني هاشم وبني المطلب دون أخويهما عبد شمس ونوفل . فلما سئل عن ذلك قال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد فى الجاهلية والإسلام ، هكذا - وشبك بين أصابعه .

خيم الهلوة على المدينة بعد جلاء بنى قيسنقاع قرابة شهر . ثم بلغ مسامع المسلمين أن أبا سفيان أغار فى جمع من قريش عدده فى قول مائتا راكب ، وفى قول أربعون ، على رجل من الأنصار وأجيراً له يعملان فى

حقل لهما على مسافة ثلاثة أميال من المدينة فقتلوهما وحرقوا بيتين من بيوت العريض ونخيلا وتبناً . فخرج إليه محمد في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار ، وكان ذلك في الخامس من ذى الحجة من السنة الثانية للهجرة ، واستعمل على المدينة أبا لُبابة بشير بن عبد المنذر .

غير أنه يلوح أن أبا سفيان لم يكن يقصد حرباً ، وإنما أراد أن تبرأ يمينه عندما عاهد نفسه بعد غزوة بدر ألا يمسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً . ولذلك عاد أدراجه مسرعاً بعد هذه الغارة إذ برت يمينه . وحث محمد وأصحابه السير خلفهم حتى وصاوا قرقرة الكندر ، ثم انصرفوا راجعين وقد فاتهم أبو سفيان وأصحابه ، إذ عمدوا إلى الفرار مسرعين عند ما علموا بمطاردة المسلمين لهم ، وكانوا يلقون أزواداً كثيرة لتخف حملتهم ، وعامتها السويق (الناعم من طحين القمح والشعير) فسميت لذلك غزوة السويق .

وفي شهر ربيع الأول من سنة ثلاث باغ الرسول أن جمعاً من غطفان من بني ثعلبة بن محارب قد تجمعوا بنى أمّ ريدون الغارة على المدينة ، فخرج إليهم في أربعمائة وخمسين رجلاً في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان . فلما وصل المسلمون ذلك الماء المسمى بنى أمر لم يجدوا أحداً إذ كانت الأعراب قد هربت إلى رؤوس الجبال ، فمسيكروا هناك . وفي تلك الأثناء خرج محمد لحاجته فهطل عندئذ مطر شديد فابتلت ثيابه ، فنزل تحت شجرة هناك بعيداً عن أصحابه وخلعها ونشرها لتجف ، وذلك بمراًى من المشركين . وظن المشركون أنهم يستطيعون إصابة محمد إذ ذاك فأرسلوا له رجلاً شجاعاً منهم يقال له غورث ابن الحارث أو دُعُثور بن الحارث ليقته . فأقبل ومعه سيف صقيل حتى باغته ووقف على رأسه شاهراً سيفه ، وقال : من يمنعك منى يا محمد ؟ فقال : الله . وعندئذ سقط السيف من يد الرجل هيبة ورعباً ،

فتناوله محمد وقال له : من يمنعك مني ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً . فأعطاه محمد سيفه ، فتحول قلب الرجل من عداوة الرسول والإسلام إلى محبته والدعوة إلى دينه . ونزل في ذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » (١) .

وبلغه بعد ذلك بقليل أن جمعاً من بنى سليم يريدون الغارة على المدينة فسار إليهم في ثلاثمائة من أصحابه . واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، حتى إذا بلغ بُحْران وهو موضع بناحية الفرع بالحجاز كان الجمع قد تفرق ولم يلق كيداً فرجع .

كانت هذه المناوشات في غالب الظن بإيعاز من قريش تأميناً لطريق تجارتها إلى الشام ، ولكن اتضح لها أن الطريق أصبح غير آمن وأن حلفاءهم من الأعراب غير قادرين على حماية الطريق ، وأن الرسول وأصحابه لهم بالمرصاد . تشاور عندئذ سادة قريش في هذا الأمر فقال صفوان بن أمية : إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسكن . وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رووس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء . فقال له الأسود بن المطالب : تنكب طريق الساحل وخذ طريق العراق . وعندئذ وجدوا ألا مفر من اتخاذ طريق العراق فاتفقوا مع دليل خبير بهذه الطريق من بنى بكر بن وائل ، هو فرات بن حيان يسير بهم فيها . فتجهز صفوان بن أمية وخرج بتجارة قريش وأكثرها من الفضة تبلغ قيمتها مائة ألف درهم . وفي تلك الأثناء عاد إلى المدينة نعيم بن

مسعود الأشجعي قادماً من مكة ومعه خبر هذه القافلة ، فجمعه مجلس شراب بسائيط بن النعمان أحد المسلمين ، وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، فعلم منه خبر القافلة ، فأسرع وأخبر محمداً . فقام من ساعتها وجهاز زيد بن حارثة في مائة راكب ليعترضوا القافلة ، فأسرعوا إليها وبلغوها عند ماء يقال له القرداة ، ففر صفوان ومن معه واستولى المسلمون على القافلة برمتها ، فكانت أول غنائم المسلمين الكبيرة . ولم يأسر المسلمون غير رجل واحد هو فرات بن حيان دليل القافلة ، فأسام وأنقذ رقبته . وخمس محمد الأموال فكان خمسة عشرين ألف درهم ، وقسم الباقي على زيد وأصحابه الذين خرجوا معه .

وفي حوالي ذلك الوقت تزوج محمد من حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكان خنيس زوج حفصة أحد السابقين إلى الإسلام قد مات عنها قبل ذلك بسبعة أشهر . كذلك زوج محمد عثمان بن عفان ابنته أم كاثوم ، وكانت رقية أختها قد توفيت في أعقاب غزوة بدر يوم أن وصل البشيران اللذان أرسلهما للمدينة يبشران بالنصر .

وأما علي بن أبي طالب فتزوج فاطمة بنت محمد في ذلك الوقت أيضاً . ويروى في ذلك أن علياً لم يكن يملك شيئاً يمهرها إياه ، فلما جلس بين يدي ابن عمه يريد أن يكامه أفحم ولم يستطع أن يتكلم بجلالة وهيبته . فقال له محمد : ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فسكت ، فقال : لعلك جئت تخطب فاطمة ؟ قال : نعم . قال : وهل عندك شيء تستحلها به ؟ قال علي : لا والله يا رسول الله . فقال : ما فعلت بدرع كنت قد ساحتك بها . قال : عندي . قال : قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها . وفي ذلك قال علي : إن صدق فاطمة بنت محمد كان درعاً حطمية ما قيمتها أربعة دراهم .

الفصل التاسع

غزوة أحد

أشارت الأحداث السابقة إلى المتجه الذي كان لا بد أن يسير فيه محمد وأصحابه من ناحية ، ومشركو قريش من ناحية أخرى . فمحمد لن يكف عن قريش ولن يترك طريق تجارتها آمناً ، وإن يتنازل قيد أنملة عن تحرير الكعبة من أوثانها . وقريش لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأر أشرافها وساداتها أصحاب القليب الذين جندلتهم سيوف المسلمين في ساحة بدر ، وإن تراجع عن العمل لاستعادة هيبتها ومكانتها المفقودة . ولقد حدثت فعلا عدة مناوشات منذ وقعة بدر حتى الآن - لم تغن قريشاً شيئاً ، وإن أفادت قطعاً الخطة التي انتهجها المسلمون ، وهي تهديد طريق تجارة قريش - كانت إيداناً بتجمع العاصفة التي هبت عند أحد في صبيحة ذلك اليوم من شوال من السنة الثالثة للهجرة .

لما رجعت قريش منهزمة من بدر ، وقد أوجعهم سيوف المسلمين وأذلت رقابهم الهزيمة وحز في نفوسهم ذلك الألم المبرح لفقد الآباء والأبناء والأخوة والصحاب الذين تركوا من خلفهم مجندلين صرعى في ساحة بدر ، وعاد أبوسفيان بتجارتهم سالمة ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ، وكلموا أباسفيان وأهل مكة ممن كان له في القافلة تجارة ، أن يخصصوا ربحها جميعاً لتجهيز جيش يحاربون به محمداً وأصحابه ، لعلهم يدركون منهم ثأراً ، فقبل الجميع . وكانت أرباحها مماثلة لرأس مالها ، أي خمسين ألف دينار ، خصصت جميعاً لتجهيز ذلك الجيش . وفي ذلك نزل قوله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصعدوا عن

سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون» (١).

اجتمعت قريش لحرب محمد وأصحابه ، وأخذت تحرض قبائل كنانة وأهل تهامة على الخروج معهم ، وأرسلت الشاعر أبا عزة إليهم ليحرضهم بعد أن أغرته على نقض عهده مع محمد بعد أن منّ عليه يوم بدر وأطلقه من الأسر على ألا يظهر عليه . فجعل يسير في تهامة ويدعو بني كنانة ويقول :

أيا بني عبد مناة الرّزام (٢) أنتم مُحمّاة وأبوكم حام
لا يَعدُّ وتّى نصركم بعد العام لا تُسلموني لا يحلّ إسلام

وخرج غيره من الشعراء ، واجتمع في النهاية ثلاثة آلاف مقاتل ، معهم مئتا فرس وسبعمائة بعير ، من قريش وقبائل كنانة وأهل تهامة وبني المصطلق المسمون بالأحاييش . وهم حلفاء قريش ، وأبو عامر عبد عمرو بن صيفي ومعه خمسون رجلا من الأوس ، كانوا قد خرجوا من المدينة كراهية لمحمد . وأبو عامر هذا كان يسمى في الجاهلية الرَّاهب لكثرة تعبده . وخرجت معهم جماعة من شريفات نساء قريش التماس الحميّة وتشجيع المقاتلين على الدفاع عن المحارم وألا يفروا . فخرجت هند بنت عتبة بن ربيعة مع زوجها أبي سفيان صخر بن حرب وهو قائد الناس يومئذ ، وخرجت أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة مع زوجها عكرمة بن أبي جهل ، وخرجت فاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحارث بن هشام ، وخرجت غيرهن فبلغن جميعاً حوالي خمس عشرة امرأة . وخرج معهم القيان يحملن الدفوف والمعازف ، والغلمان يحملون الخمر .

خرجت قريش طلباً لنأرها يملأ الحقد قلوب رجالها ونساءها جميعاً .

(١) الأنفال ٣٦

(٢) الرّزام : جمع رازم . أى ثابت لا يبرح في الحرب .

وكان حمزة بن عبد المطلب ممن يحرصون أشد الحرص على قتله ، وهو الذى فعل فيهم الأفاعيل يوم بدر ، دعا جبيرة بن مطعم غلاماً له حبشياً كان ماهراً جداً فى قذف الحربة قذف الحبشة . فلما يخطئ إذا رماها ، فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى فأنت حر . وكانت هند زوج أبى سفيان ممن يحرصون أيضاً على قتل حمزة ، فهو الذى قتل عمها شيبه وأجهز على أبها عتبة ، فكانت إذا مرت بوحيشياً هذا أو مر هو بها تقول : ويا أبادسمة اشف واشتف ، أى اقتل حمزة فاشف غليلي وحرر نفسك .

وفى تلك الأثناء كان رسول من مكة أرسله العباس بن عبد المطلب قد وصل برسالة إلى المدينة ، وكان العباس قد امتنع عن الخروج مع قريش ذلك اليوم محتجاً بما أصابه يوم بدر . ومما لا شك فيه أن العباس ما كان ليقاتل ابن أخيه ، وهو الذى منعه طوال حياته ، وكان ليفديه بدمه وماله ، وهو الذى حضر معه بيعة العقبة الثانية ليستوثق له من الأنصار ، ويتأكد من حمايتهم له . ولقد كفته تجربة بدر إذ خرج مستكراً مع قومه يومئذ ، فلقى فيها ما لقي مما تكبره نفسه . وصل رسول العباس المدينة فعلم أن محمداً يقبأ ، فتوجه إليه فإذا هو أمام باب المسجد يركب حماره ، فدفن إليه الكتاب . فقرأه عليه أبو كعب ، فاستكتمه الخبر . وعاد مسرعاً إلى المدينة فقصده من توه إلى سعد بن أبى فى داره فأطاعه على ما فى كتاب العباس واستكتمه الخبر أيضاً . غير أن امرأة سعد كانت بمقربة منهما فسمعت الخبر فلم يعد سراً .

بعث محمد أنساً ومونساً ابني فضالة ليستطلعا له أخبار قريش ، فوجداهما قد نزلت ببطن الوادى المقابل للمدينة قبلى جبل أحد ، وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع المدينة القريبة منها . ثم إنه بعث الحباب بن المنذر ابن الجموح ليأتيه بمزيد من الأخبار فأكد له ما قال أنس ومونس . وتجمع

الناس ، وبات كبار المسلمين وعليهم السلاح في المسجد خوفاً على النبي أن يدهم الكفار المدينة في أثناء الليل ، وباتت جماعات هنا وهناك تحرس بداخل المدينة .

فلما أصبحوا جمع محمد أهل الرأى من المسلمين للتشاور في كيفية لقاء هذا العدو الذى أقبل عليهم بجمده وحديده ، وجمع لهم جيشاً لم تجمع قريش مثله من قبل .

رأى محمد التحصن في المدينة ، وقال لأصحابه : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها .

وقال عبد الله بن أبيّ بن سلول : لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصّياصي^(١) ونجعل معهم الحجارة ونشيك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية . فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيفنا في السكك . إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فضّت علينا قط وما دخل علينا عدوّ فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يا رسول الله وأطعنى في هذا الأمر ، فلانى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومي وأهل الرأى فيهم .

لم يرض بهذا الرأى الذى أخذ به النبي وكبار الصحابة رجالاً من الذين لم يشهدوا بدرأ ، وقد علموا بما كان لأصحاب بدر من الفضيلة ، فرغبوا في أن يكونوا مثلهم ، ولم يعجب طائفة أخرى من الشبان المتحمسين الذين لم يبالكوا أنفسهم وخيل قريش وإبلها ترعى زروعهم على مرأى منهم .

قال الذين لم يشهدوا بدرأ : كنا نتمنى هذا اليوم ندعو الله ، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير .

(١) الحصون ، ومفردتها الصّيصيّة .

وقال نعيم بن مالك بن ثعلبة ، وهو أحد بني سالم : يا بني الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها .

فقال له محمد : بم ؟ قال : بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال : صدقت .

وقال رجال منهم حمزة : والذي أنزل عليك الكتاب لنجدالهم .

وقال رجل من الأنصار : متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شعبنا ؟

وقال رجال : ماذا نمنع إذا لم نمنع الحرب بيروع ؟

وقال قائل منهم : إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمداً في صياصي يثرب وأطامها فتكون هذه مُجرّفة لقريش ، وما هم قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذبّ عن عرضنا لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجاب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، أفحبسونا في بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرین لم يكلموا ! لئن فعلنا لأزدادوا جرأة ولشئوا الغارات عاينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا .

وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو . فنزل محمد على رأى غالبية الناس ، فقام فصلى الجمعة ووعظ الناس وذكرهم ، وأمرهم بالجد والجهاد ، ثم دخل بيته ليلبس درعه ومعه أبو بكر وعمر .

وفي تلك الأثناء تحاور الناس في أمر الخروج أو البقاء بالمدينة . وقال بعضهم : إن النبي أمرنا أن نمكث بالمدينة وهو أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحي من السماء ، وقال أسيد بن حضير وسعد بن معاذ إن أرادوا الخروج وصمموا عليه . لقد رأيت رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقام . فقم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره ، فردوا الأمر إليه . فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم فيه هوى أو رأياً فأضيعوه .

فأما خرج لهم وعليه درعه وقد تقلد سيفه وأذن للناس بالخروج ،
قالوا : يا رسول الله امكث كما أمرتنا .

فقال : ما ينبغي لنبي إذا لبس درع الحرب وأذن بالخروج إلى العدو
أن يرجع حتى يقاتل . وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج ،
فعلبيكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم
الله به فافعلوا .

ثم عقد ألوية الجيش فأعطى لواء المهاجرين المُصعَّب بن عمير ، ولواء
الخزرج للحُبَّاب بن المُنذِر ، ولواء الأوس لأسيب بن حضير . وخرج
من المدينة على رأس ألف من المهاجرين والأنصار . واستعرض الجيش فرد
جماعة من الغامان ولم يأذن لهم بحضور الحرب لصغر سنهم ، منهم عبد الله بن
عمر ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وأسيب بن ظُهَيْر ،
وعرابة بن أوس بن قيطي . وهؤلاء أجازهم جميعاً يوم الخندق ، وكانوا قد
بلغوا الخامسة عشرة . ثم إنه كان قد رد أيضاً في ذلك اليوم سمرّة بن جندب
ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة ، فأما قيل له إن رافعاً رام أجازته ،
وعندئذ بكى سمرّة وقال : أنا أصرع رافعاً ، فأجازته . كذلك منع جماعة
من الأنصار أرادوا الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة وقال : لا حاجة
لنا فيهم . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وبات خارج المدينة ليلة السبت ، واستعمل على حرس الجيش محمد
ابن مسلمة ، وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس . وفي السحر من يوم
السبت الحادى عشر من شوال سنة ثلاث سار الجيش تجاه أحد حيث نزلت
قريش . وبينما هم في بعض الطريق عند الشوط ، وهو بستان بين أحد والمدينة
انخزل عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس وقال : أطاعهم وعصاني ، ما ندرى
علام تقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟ ورجع ممن اتبعه من قومه ، وكان لا يزال
صاحب كلمة فيهم ، أو قل إن هؤلاء الذين انبعوه كانوا من أهل النفاق

والرَّيب مثله . وعند ذلك اتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام السَّامِي والد جابر بن عبد الله وقال لهم : يا قوم أذكركم الله ألا تخلدوا قومكم ونبئكم عند ما حضر من عدوهم . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أن يكون قتال .

وهؤلاء القوم هم المرادون بقوله تعالى : « وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » (١) .

ثم إن بنى سلمة وبنى حارثة همتا أيضاً لما رجع عبد الله بن أبي وأصحابه أن تفسلا وتوددوا ولكنهم ثبتوا . ولهذا قال في كتابه العزيز « إذ همت طائفتان منكم أن تفسلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٢) .

أراد محمد أن يصل إلى ساحة المعركة من طريق قرية لا تمر بعسكر الأعداء ، فدله أبو خيثمة أخو بنى حارثة بن الحارث على طريق سار فيها في حرة بنى حارثة وبين بساتينهم وزروعهم . فلما مروا في بستان مِرْبَع بن قبيظي ، وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر ، قال إذ سمع صوت محمد ومن معه من المسلمين : إني لا أحل لك أن تدخل في بستانى وإن كنت رسول الله . وأخذ حفنة من التراب في يده وقال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك . وعندئذ ابتدره جماعة من القوم ليقتلوه ، فنهاهم محمد عن ذلك وقال : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر . ولكن كان سعد بن زيد أخو بنى عبد الأشهل قد سبق إليه قبل أن ينههم عنه وضربه ضربة شديدة بقوسه فشج رأسه .

ثم وصل جيش المسلمين ساحة القتال في سبعمائة مقاتل مشاة ليس معهم

(١) آل عمران ١٦٧

(٢) آل عمران ١٢٢

فرس واحد ، وعسكروا في جانب الوادى وجعوا ظهرهم إلى الجبل عند شعبه . وقبالتهم بجيش المشركين في ثلاثة آلاف مقاتل .

بدأ محمد يعد أصحابه للقتال فابتدروهم أول شيء بقوله : لا يقاتلن أحد حتى أمره بالقتال . وكانت قريش قد أطلقت إبلها وخيلها ترعى في بعض زروع المسلمين القريية ، فلم يمالك رجل من الأنصار نفسه أن يقول : أترعى زروع بنى قَيْسَةَ ولما نضارب ؟ !

أى نعم ! فقد كان الموقف دقيقاً جداً ، ولم يكن المسلمون عندئذ لقلة عددهم وعدتهم في موقف يسمح بأية هفوة أو عجلة ، فربما يكون في ذلك القضاء المبرم عليهم . اختار محمد أصلح موضع يمكن أن يقاتل فيه المسلمون . الجبل من ورائهم يحمى ظهورهم ، وليس فيه غير شعب ضيق حصنه بخمسين من الرماة الشداد وأمر عليهم عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف ، وهو معلم يومئذ بثياب بيض ، وأمرهم أن يثبتوا عند هذا الشعب ويرموا خيل المشركين بالسهم حتى لا تأتيهم من خلفهم ، وأكد عليهم أن يثبتوا في مكانهم سواء أكانت نتيجة الواقعة للمسلمين أو عليهم حتى لا يأتي أحد من خلفهم . والحق أن محمداً كان شديد الحرص على الدفاع عن هذا الموضع ، وقد كان مصيباً ولا شك .

استعد الجيشان للقتال ، ووقف كل منهما إزاء الآخر انتظاراً لأول شرارة يحدث بعدها قتال مرير . فهذا جيش المسلمين ، سبعمائة رجل فقط ليس فيهم راكب واحد ، ولكن فيهم محمد رسول الله ، وفي قلوبهم إيمان مطلق بالله وبرسوله ، وعهد قطعوه على أنفسهم ألا يفروا وألا ينهزموا ، فالنصر أو الشهادة وجنة عرضها السماوات والأرض . ومن خلفهم الجبل ، وقد تساق رماتهم جنبات الشعب ونثروا السهام استعداداً للمعركة . وهذا جيش المشركين . ثلاثة آلاف مقاتل . يملأ قلوبهم حقد دفين ورغبة مجنونة في الأخذ بثأر قتلاهم يوم بدر . وعلى ميمنتهم مائة فارس يقودهم فارسهم

خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم مائتا فارس آخرين يقودهم عيكرمة بن أبي جهل ، وفي مقدمتهم سبعمائة بعير عليها رجال شداد ، ومن خلفهم ألفان أو أكثر من المشاة . وقد أخذت النسوة وعلى رأسهن هند بنت عتبة يمشين بين الصفوف ، وفي المقدمة ، وعند اليمين ، وعند اليسرة ، وفي المؤخرة ، وهن يضربن بالدفوف والطبول ويحرضن الرجال تحريضاً شديداً قائلات :

ويها بنى عبد الدار ويها حُمَاة الأديار
ضرباً بكل بتار

ويقلن :

إن تقبلوا نُعَانِقُ ونفـرش النـمَارِقِ
أو تدبروا نفـارق فراق غير وامق

وأخذ محمد يخطب في الناس ويحرضهم على الثبات والقتال ويعددهم بالنصر ، ويثبت قلوبهم ويشجعهم . رفع سيفه ذا الفئار وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه . فقام إليه رجال منهم الزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دُجَانَةَ سِمَاكُ بن خَرِشَةَ أخو بني ساعدة وقال : وما حقه يا رسول الله ؟

قال : أن تضرب به في العدو حتى ينحني .

قال : أنا آخذه يا رسول الله . فأعطاه إياه .

وكان أبو دُجَانَةَ من أشجع الناس وأقواهم ، وكانت له عصا به حراء يعتصب بها فيُعَاتَمُ ، إذا ما اعتصب بها عرف الناس أنه سيقا تل . فلما تناول سيف رسول الله . أخرج عصابته فاعتصب بها : فقالت الأنصار : أخرج أبو دُجَانَةَ عصا به الموت . ثم أخذ يتبختر بين الصننن إعجاباً بنفسه وزهواً بتوته وشجاعته . فلما رآه محمد يفعل ذلك قال : إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن .

حمى الناس والتقى الجمعان ، وكان أبو عامر أول من أقدم على المسلمين

في الأحابيش وعبدان أهل مكة . وكان قد خرج من المدينة مباعداً لمحمد ومعه خمسون من غلمان الأوس . فلما تقدم من المسلمين نادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . ظناً منه أنهم سينصرونه ، فردوا عليه قائلين : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق !

استمات المسلمون في القتال ، وقاتل أبو دُجانة وحمزة قتالا شديداً حتى أمعنا في الناس . وكانت صيحة القتال يومئذ : أميت ، أميت ! لم يلق أبو دجانة أحداً إلا قتله . روى كعب بن مالك أن رجلاً من المشركين عليه درع عظيم ، كان يسير في صفوف المسلمين وهو يقول : اجتمعوا كما تجتمع الغنم الذبيحة . وإذا أبو دجانة ينتظره حتى اقترب منه والتقيا ، فلم يمهل أبو دجانة أن ضربه على حبل عاتقه ضربة بالسيف فبلغت ورکه وتفرق الرجل فرقتين . ثم كشف أبو دجانة عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دُجانة . وروى الزبير بن العوام أنه وجد في نفسه عندما أعطى محمد سيفه إلى أبي دجانة ولم يعطه إياه عند ما طلبه ، وهو ابن صفية عمته ومن قريش ، فعمد إلى أبي دجانة ينظر ماذا يصنع ، قال : جعل أبو دجانة لا يلقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً إلا أجهز عليه ، فجعل كل منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دُجانة فاتقاه بذرقتة فعضت سيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله . ورأى أبو دجانة إنساناً يحمس الناس حمساً شديداً ، فصمد له وحمل عليه بالسيف فإذا به امرأة تولول هي هند بنت عتبة ، فأكرم سيف رسول الله أن يضرب به امرأة .

وبينا المعركة على أشدها في صبيحة هذا اليوم ، تقدم بين الصفوف وحشبي ، ذلك العبد الحبشي ، يرقب حمزة بن عبد المطلب ، قال : « خرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلماً ما أخطئ بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره . حتى رأته في عرض

الناس كأنه الجمل الأورق يهدُّ الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء ، فوالله
لإني لأتهدى له أريده وأستر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني ، إذ تقدمني إليه
سباع بن عبد العززي ، فلما رآه حمزة قال : هلكم إلى يابن مقطعة البُظور
(وكانت ختانة بمكة) فضربه ضربة فكأنما هو أمس الذاهب . ثم هزرت
حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثننته ، حتى خرجت
من بين رجليه ، فاتجه نحوى فغلب ، فتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيت
فأخذت حربتي ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ، ولم يكن لي بغيره
حاجة ، إنما قتاته لأعتق . وكان وحشي غلاماً لجبير بن مطعم ، وكان
جبير قد وعده ، كما سبق ، أن يعتقه إذا هو قتل حمزة بعنه طعيمة بن
عدي الذي قتل يوم بدر .

ومن أبلوا بلاء حسناً ذلك اليوم وأمعنوا في المشركين ، رجل من
المنافقين الذين أظهروا الإسلام عن غير عقيدة خالصة يقال له قزمان . تخلف
عن الخروج مع المسلمين أول الأمر ، فلما أصبح غيره نساء بني ظفر فقلن
له : يا قزمان ألا تستحي لما صنعت ! ما أنت إلا امرأة ! خرج قومك فبقيت
في الدار . عندئذ أخذته العزة فقام من توه فدخل بيته وأخرج قوسه وجعبته
وتقلد سيفه ، وكان شجاعاً مقداماً ، فأقدم يعدو إلى حيث جيش المسلمين ،
فوصل قبل المعركة والنبي يسوى صفوفهم ، فتخطى الصفوف حتى وقف
في أول صف منها . وكان أول من هاجم من المسلمين ، وظل طوال نهاره
يرمي المشركين بسهامه حتى انهزم المسلمون في آخر النهار ، ففضل الموت
على الفرار وصمد حتى أصيب بهد أن قتلت سبعة رجال في ساعة واحدة .
فلما مرَّ به أبو الغيثاق وهو يُسلم الروح وقال له : هنيئاً لك الشهادة
يا قزمان ، قال : إنني والله ما قاتلت يا أبا عمر على دين . ما قاتلت إلا على
الحفاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمنا وتطأ سعفنا . فوالله إن قاتلت
إلا عن أحساب قومي . ولولا ذلك ما قاتلت . ثم قتل نفسه .

أما المسلمون الذين كانوا يقاتلون عن عقيدة فقد قاتلوا والله قتالا أشد من هذا وأمرّ . لقد قاتلوا وهم الأقل عدداً وعدّة وهزموا عدوهم في أول النهار حتى صرعوا من حملة اللواء سبعة أو تسعة . كان طلحة بن أبي طلحة العبدريّ حامل لواء المشركين ، وكان فتاكاً ، قد دعى إلى البراز فأحجم عنه الناس ، غير أن الزبير بن العوام برز له فوثب حتى صار معه على جماله ، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه . فتناول لواء المشركين رجل إثر الآخر منهم فيصرع ، حتى لم يعد أحد منهم يجرؤ على تناوله حتى تناولته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعت له قريش فتجمعوا حوله ، وتناوله صواب وهو غلام حبشي لبني أبي طلحة ، وهو آخر من أخذه منهم . فقاتل به حتى قطعت يده ثم برك عليه وأخذه بصدرة وعنقه حتى ناشته سيوف المسلمين فقتل وهو يقول : اللهم قد أعذرت . عند ذلك لم يستطع أحد من المشركين الإقدام لرفع اللواء ، وانهمزوا أمام هذا الطوفان الإسلامي ، وتقهقروا عن المعسكر ، وكادت نساؤهم أن يؤسرن .

غير أن المسلمين تصرفوا عندئذ تصرفات خرقاء ، فلمهم بدل أن يشخروا في عدوهم الفار المهزم ويمعنوا فيه قبل أن يفيتق إلى نفسه ، انقضوا على المعسكر ينهبونه ، وظنوا أنهم ظفروا بعدوهم وأنه سوف لا يعود إليهم : فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير وهم الرماة الذين عهد إليهم محمد بحماية ظهر الجيوش عند شعب الجبل قالوا : الغنيمة ، أي قوم الغنيمة ، انتصر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟ فقال لهم عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ وكان عند ما وضعهم موضعهم قال لهم : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا انتصرنا على عدونا وأوطانهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم . غير أن أصحاب عبد الله بن جبير عصوا ذلك الأمر وقالوا : إنا والله لناأتين الناس فلنصيب من الغنيمة . ولم يدعن الأمر غير عشرة أو نحو ذلك ظلوا معه حيث وضعهم محمد لم يبرحوا .

اغتم هذه الفرصة خالد بن الوليد ، فاتجه بفرسانه إلى حيث كان رماة المسلمين فقتل بعضهم وأجلى البقية الباقية منهم ، ودار خلف جيش المسلمين ، وانضم إليه عيكرمة بن أبي جهل بفرسانه ، وهجموا هجمة شديدة على المسلمين فأوقعوا الاضطراب في صفوفهم فانهزموا وتركوا عروض الدنيا التي كانوا يجرون وراءها ، وراحو يبحثون عن سيوفهم ، وأخذ يضرب بعضهم بعضاً لا يدرون ماذا يفعلون من الدهش والرؤع ، وقتل مصعب بن عمير حامل لوأهم ، وقتل منهم ناس كثير ، وانقلب اليوم من يوم من أيام النصر العظيم إلى يوم بلاء كبير ومحنة قاسية .

وأشاع ابن قميصة أنه قتل محمداً ، وتنقل الخبر هنا وهناك تنقل البرق أن محمداً قد قتل . فحدث بهتة عظيمة ، وفت هذا الخبر الرهيب في عضد المسلمين ، فدخل الفشل في صفوفهم ، وتفرقوا فرقاً . فانطلقت جماعة منهم فوق الجبل إلى الصخرة وقعدوا هناك وقد أذهلتهم الهزيمة فقال بعضهم : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي فياخذ لنا أمره من أبي سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم . وقل جماعة هاربين ، منهم الوليد بن عقبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن المَعَلَّى ، وعثمان ابن عفان ، وأرادوا العودة إلى المدينة ، غير أنهم استحيوا أن يدخلوها هاربين فارين من العدو ، فضربوا في الصحراء ولم يرجعوا إلا بعد ثلاثة أيام .

وجلس جماعة من المهاجرين والأنصار منهم عمر بن الخطاب وأبو بكر مدهولين من وقع الخبر الذي سمعوا ، فلقبهم أنس بن النضر فقال لهم : ما يجلسكم ها هنا ؟ فقاوا : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : وما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن كان محمد قد قتل فإن ربَّ محمد لم يُقتل . ثم شد بسيفه واستقبل المشركين وقاتل قتالا عنيفاً حتى قتل . وقد روى أنس بن مالك وهو ابن أخيه أنهم وجدوا به يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته ،

عرفته من بنانه . ثم إن الله أنزل في ذلك قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرُّسُلُ أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

وبينما المسلمون يقاسون تلك البهتة التي أخذتهم ، كان محمد عليه السلام يقاسى شدائد عظيمة ، تحملها بثبات ليس له مثل ، وهو يُجمعُ الناس من حوله ، في محاولة لإعادة تنظيم صفوفهم ، وهو يقول : إلى عباد الله ، إلى عباد الله . كاد في تلك الأثناء يقع بين برائن المشركين ليس من حوله غير حفنة من المسلمين يدافعون عنه دفاع المستميتين . رماه عتبة بن أبي وقاص فكسر رباعيته اليمنى السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وشججه عبد الله بن شهاب الزهري في جبهته ، وجرح عبد الله بن قمئة وجنته ، فلدخات حلقتان من حلق المغفّر في وبتته ، فجاءه أبو عبيدة فانتزع الحلقتين بأسنانه فكسرت ثنيتاه . ووقع في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، فأخذ علي بن أبي طالب بيده ورفع طلحة بن عبيد الله ، ويقال إنه عند ما وقع لشقه أعمى عليه ، فلما أفاق قال : كيف يُفليح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله ؟ فأنزل الله قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » (٢) .

وكانت أم عُمارة نسيبة بنت كعب المازنية ممن ثبت إلى جانبه يذود عنه بالسيف ساعة الهزيمة . وكانت نسيبة ممن خرجن من نساء المسلمين منذ أول النهار تنظر ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء ، فلما انهزم المسلمون ألقت السقاء وانحازت إلى رسول الله وقامت تباشير القتال بحد السيف تذب عنه ، وترمى عن القوس حتى خلاصت الجراح إليها ، إذ ضربها ابن قمئة فجرحها جرحاً كبيراً على عاتقها . وكان قد هجم حيث محمد وهو يقول : دلوني على محمد ، لانبجوت إن نجا . فاعترضت له نسيبة ومُصعب بن عمير وأناس ممن ثبت معه ، فضربها هذه الضربة ،

(١) آل عمران ١٤٤

(٢) آل عمران ١٢٨

فردت ضربته قبل أن تخور قواها ضربات ، ولكن لم تؤثر ضرباتها فيه إذ كان عليه درعان .

أما أبو دُجانة فترس دون محمد بنفسه ، وانحنى عايبه يستقبل سهام المشركين في ظهره حتى كثرت فيه السهام . ورى سعد بن أبي وقاص ، وكان من مشاهير الرماة المعروفين ، رميات صائبات ، ومحمد يقول له مغتبطاً : ارم سعد فذاك أبي وأمي . وأما أبو طلحة الأنصاري فأبلى هو أيضاً بلاء عظيماً في الدفاع عن نبي الإسلام ، إذ حمى محمداً بترس من جاد ، وكان رامياً هو الآخر شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً ، وكان إذا مرَّ رجل معه جعبة من السهام قال له محمد : انثرها لأبي طلحة . وكان إذا رمى أراد محمد أن يرى أين تقع سهامه فيرفع رأسه وينظر ، فيرفع أبو طلحة صدره ويقول : هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا يصيبك سهم ، نحري دون نحرك . وكان أبو طلحة يُسَوِّر نفسه بين يدي محمد ويقول : إني جئتُ يا رسول الله ، فوجهي في حوائجك ومرني بما شئت .

واستطاعت هذه الفئة القليلة المؤمنة أن تصمد وتحبط كيد المشركين وتردهم على أعقابهم خاسرين خائبين دون نبيهم . وكان كعب بن مالك أول من عرف محمداً من جموع المسلمين بعد قول الناس قَتِيلَ رسول الله ، قال : رأيت عينيه تزهران من تحت المغنفر ، فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأشار محمد أن أنصت ، خشية أن يسمعه المشركون فيشدون عليه .

فلما انقشعت هذه الدهشة ، تجمع عدد من المسلمين حوله ، فنهض معهم يسير نحو الشعب ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وطلحة بن عبيدالله ، والزبير ابن العوام ، ورهط من المسلمين . وكان يسير بين سعد بن أبي وقاص ، وسعد بن عباد . فلما استند إلى جانب من الجبل يريد الصعود ، أدركه أبي بن خلف الجُمسحيّ وقد حلف ليقتلنه . فقال محمد : بل أنا أقتله ،

وتناول حربة الحارث بن الصمة وطعنه بها في جيب الدرع فجرح جرحاً خفيفاً ، لكنه وقع وهو ينخور خوار الثور ، فاحتمله زملاؤه وقالوا : ليس بك جراحة فما يجزئك ؟ قال : أليس قال : لأقتلنك ! لو كانت تجتمع ربيعة ومضر لقتلهم . فلم يلبث يوماً أو بعض يوم حتى مات من ذلك الجرح .

وكانت جماعة من قريش منهم خالد بن الوليد قد علت الجبل حيث صعد محمد فقال : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا . وانبرى لهم عمر بن الخطاب في رهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل ، ونهض محمد إلى الصخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد ثقل من السن ، فضلا عن درعين يثقلان كاهله ، فلم يستطع ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وصعد في الجبل ونجا بفضل الله وبفضل رجال ذادوا عنه بأرواحهم . فقد كان الرجل منهم يتلقى السهم دونه ، حتى لقد وجد بطلحة وحده يومئذ نيف وسبعون جراحة وشلت يده .

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت فعمال إن الحرب سجال ، يوم بيوم بلدر ، أعل هُبَل ، أى أظهر ديننا .

فقال محمد لعمر : قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل ، لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار .

فقال له أبو سفيان : هلُمَّ إلى يا عمر . فقال محمد لعمر : ائته فانظر ما شأنه .

فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتانا محمدًا ؟

فقال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن . قال : أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبر .

ثم نادى أبو سفيان : إنه كان في قتلناكم مُثْملة ، والله ما رضيت وما

سخطت ، وما أمرت وما نهيت . ذلك أن هنداً زوجه كانت قد جلدت أنوف وآذان القتلى واتخذت منها خلاخيل وقلائد ، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فانفظتها .

ولما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل .

فقال محمد لرجل من أصحابه : قل نعم ، هو بيننا وبينك موعد .

ولما انصرف القوم بعث محمد في أثرهم علي بن أبي طالب وقال له : اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . ثم قال : والذى نفسى بيده إن أرادوا المدينة لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزئهم .

فخرج علي في أثرهم ينظر ماذا يصنعون ، فإذا هم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة .

فلما تبين محمد أن المشركين رحلوا إلى حيث أتوا قال للمسلمين : استووا حتى أثنى على ربي عز وجل . فصاروا خلفه صفوفاً فقال :

« اللهم لك الحمد كله . اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت . ولا مضيل لمن هدّيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول . اللهم إني أسألك النعيم يوم العَيْلَة والأمن يوم الخوف .

اللهم إني عائذ بك من شرّ ما أعطيتنا وشرّ ما منعتنا .

اللهم حبّيب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين .

اللهم توفّقنا مسلمين وأحيينا مسلمين . وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين .

اللهم قاتل الكفرة الذين يُكذِّبون رُسُلَكَ ويصدُّون عن سبيلِكَ ، واجعل عليهم رِجْزَكَ وعذابَكَ . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق .

ثم فرغ الناس لقتلهم . وخرجوا يلتمسونهم حيث صرعوا . فخرج محمد يلتمس عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسول الله ، فوجده بطن الوادي قد بُقِرَ بطنه عن كبده ، ومثَّل به فجُدع أنفه وأذناه . فلما وقف عليه ورأى به ما رأى قال : « ان أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت قط موقفاً أغيظ إلى من هذا ! » . ثم قال : « ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . » فلما رأى المسلمون حزنه وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثْلَةً لم يُمثلنَّها أسد من العرب . غير أن الله أنزل في ذلك قوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (١) .

وعند ذلك عفا محمد وصبر ونهى عن المُثْلَةِ .

وبينا محمد واقف على عمه لم يدفنه بعد ، أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه نظرة أخيرة ، وكان حمزة شقيقها ، فأمر محمد ابنها الزبير ابن العوام أن يلقاها فيرجعها حتى لا ترى ما بأخيها ، فلقيها وقال لها : يا أمة إن رسول الله يأمرك أن ترجعي . قالت : ولم ، وقد بلغني أنه مُثِّل بأخي وذلك في الله ، فما أرضانا ما كان من ذلك ، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله .

فلما رجع الزبير إلى محمد وأخبره بذلك قال : نحلَّ سبيلها ، فأنته فنظرت إليه وصلت عليه واسترجعت واستغفرت .

ثم أمر به محمد فدفن في برده ودفن معه ابن أخته عبد الله بن جحش ، وكان قد مُثِّل به أيضاً ، غير أنه لم يُثَقَّر عن كبده .

وكان محمد بعد أن صلى على الشهداء قد أمر بأن ينزع عنهم الحديد والجلود وقال : « ادفنوهم بدمائهم وثيابهم » . وكانوا يجعلون الرجائين والثلاثة في القبر الواحد ، ويحفرون لهم حيث صُرِعُوا . وكان بعض أهل القتلى قد حملوهم ليدفنوهم بالمدينة ، فلما علموا بأن محمداً أمر بدفنهم حيث صرِعُوا عادوا بهم ودفنوهم مع رفاقهم في ساحة أحد .

قتل في ذلك اليوم من المسلمين حوالي سبعين رجلاً ، ومن المشركين حوالي عشرين . ولم يؤسر من المسلمين أحد . وأسر من المشركين رجل واحد هو أبو عزة الجُمَحِيُّ الشاعر ، أسيرَ في حمراء الأسد .

الفصل العاشر

غزوة حراء الأسد

عاد المسلمون في مساء ذلك اليوم بعد أن فرغوا من دفن قتلى أحد ، وبياتت المدينة تبكي بكاء مرّاً ، فقد صرع من الأنصار أكثر من ستين رجلاً . ثم إن المدينة فارت بالنفاق فورَ الميرجتل . فقد استغل المنافقون واليهود بكاء المسلمين وحزنهم على قتلاهم استغلالاً ماكرّاً قبيحاً لتفريق كلمتهم وإبعادهم عن نبيهم وتشكيكهم في دينهم .

قالت اليهود : لو كان محمد نبياً ما انتصر عليه المشركون ولا أصيب منه ما أصيب ، ولكنه طالب ملك تكون له الدولة يوماً وعليه آخر .

وقال المنافقون مثل ذلك ، وقالوا للذين قاتلوا : لو كنتم أطعمونا ما أصابكم الذين أصابوا منكم .

وراح هذا أو ذاك من أعداء الإسلام يسأل المسلمين ضاحكاً منهم مستهزئاً شامتاً فيهم : إذا كانت بلس آية من الله برسالة محمد ، فماذا عسى أن تكون آية أحد ؟

وبينا المسلمون في هذا البلاء ، إذ قدم رجل من أهل مكة فسأله محمد عن أبي سفيان وأصحابه فقال : سمعتم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدّهم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم .

ماذا إذن ؟ أي موقف عصيب ! فهذا جيش محمد قد انقسم على نفسه بالأمس وتخلف عنه ثلثه ، وهامم الذين شهدوا موقعة أحد منذ ساعات لم يلحقوا بعد جراحهم ولم تهدأ أنفاسهم . ولكن هيات أن يفت حدث مهما كان أمره ومهما كان خطره في عهد محمد ، وهيات أن يثبط موقف

مهما تأزم من عزيمته ، وهيبات أن تؤثر محنة كذلك التي شهدها منذ ساعات
مهما كانت أهوالها في شجاعته ، وفي إيمانه بالله وبنصره وبالرسالة التي
يؤديها .

أينهم محمد ؟ كلا والله ثم كلا !

قرر الخروج فوراً لملاقاة العدو وبالمسلمين أشد القسرح ، حتى يسمع
أهل مكة بأنه هو الآخر يجد في أثرهم ، وأنه لا يهابهم ، وأنه مقدم على
حربهم ومنازلتهم . وعندئذ أمر أصحابه الذين شهدوا معه قتال أحد أن
ينطلقوا معه ، ولم يسمح لأحد ممن لم يشهد القتال أن يخرج معهم ، حتى لقد
رد عبد الله بن أبي أمامة عن ما أراد الركوب معه . واستخلف على المدينة ابن
أم مكتوم . ولقد قال الله في هؤلاء :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا
منهم واتقوا أجراً عظيماً » (١) .

جد محمد وأصحابه في أثر العدو حتى بلغوا حمراء الأسد ، وهي
تبعد عن المدينة ثمانية أميال . ولم يتخلف أحد ممن شهد موقعة أحد غير
جابر بن عبد الله ، إذ استأذن محمداً لأن أباه أمره بالمقام في المدينة على
أخواته فأذن له . لم يتخلف جريح لا يقوى على المشي . روى رجل من
بنى الأشهل قال : « شهدت أحداً وأنا وأخى ، فرجعنا جريحين ، فلما أذن
مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج في طلب العدو قلت لأخى
وقال لي : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ؟ والله ما كان لنا دابة نركبها ، وكان
كل منا جريحاً ثقيلاً . فخرجنا مع رسول الله ، وكنت أيسر جرحاً من
أخى . فكان إذا أجهد حملته نوبة ومشى نوبة ، حتى انتهينا إلى ما انتهى
ليه المسلمون » .

وبينما هم معسكرون في حمراء الأسد مرت بمعسكر المسلمين متعبد بن معبد
الجزاعي ، وكان مشركاً ، وكانت خزاعة ، مسلمهم وكافرهم ، موضع سر

محمد بن هامة ، وكان حلقهم معه ألا يُخفى أحد منهم عنه شيئاً بها ، تأثر معبد لما أصاب المسلمون فقال : يا محمد ، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم .

ثم إنه خرج من عند محمد قاصداً أبا سفيان بن حرب وقد أضمر خداعه وتضليله حتى لقيه بالروحاء ، وقد أجمع أبو سفيان وأصحابه العودة إلى المسلمين وهم يقولون : أصبنا حدّ أصحابه وقادتهم وأشرفهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ ! لنكبرن على بقيتهم فلنفرغنّ منهم .

أقدم معبد على أبي سفيان ، فلما رآه قال له : ما وراءك يا معبد ؟ . قال : خرج محمد في أصحابه يطالبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً . قد اجتمع معه من كان تحلّف عنه يومكم وتدموا على ما صنعوا ، فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط .

وأخذ معبد ينهيه عن الرجوع إلى لقاء جيش المسلمين ويخوفه منهم ، حتى دخلت هذه الحيلة على أبي سفيان . ومما لا شك فيه أن أبا سفيان وأصحابه لم ينسوا أن الدائرة كانت عليهم صبيحة يوم القتال ، وأن المسلمين لم ينهزموا إلا عندما أتوا فعلة خرقاء ، فاختطف منهم فرسان المشركين النصر ، وهذا أمر قد لا يتكرر اليوم . ثم لأنهم يجدون في أثره ومعهم أصحاب لم يقاتلوا بالأمس كما أخبره معبد ، غير مجهدين ولا وجلين ، يتحرقون شوقاً للقائه ولقاء أصحابه . إذن فليكتف أبو سفيان بما نال من نصر اختطفه اختطافاً من المسلمين بالأمس ، وليحتفظ به . والحق أن أبا سفيان وأصحابه كانوا يدركون جيداً أنهم لم ينتصروا انتصاراً يؤهلهم لاستئصال المسلمين ، فأين الغنائم وأين الأسرى ؟ لا شيء من ذلك ! فأى نصر هذا ؟ ولا غرابة إذن أن يقرر أبو سفيان بعد أن قلب أوجه الرأي أن يعود أدراجه إلى مكة ولا يرجع إلى المسلمين إذ ذلك ، تاركاً أمر القتال إلى وقت آخر . غير أنه فرر أيضاً أن يلجأ إلى حيلة يهدد بها محمداً وأصحابه حتى لا يجدون في أثره ، وفي هذا دليل وأي دليل على ما كان يحول بخاطره من مخاوف .

مرّ في تلك الأثناء ركب من عبد القيس بأبي سفيان ، فلما علم أنهم يريدون المدينة للميرة قال لهم : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمّل لكم إبلكم هذه غداً زبيباً يعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

فلما مرّ الركب بمحمد وأخبروه بالذي قال أبو سفيان ، قال حسبنا الله ونعم الوكيل . وظل معسكراً بجمراء الأسد الاثني والثلاثاء والأربعاء ، وكان يوقد نيرانه طوال الليل ليدل قريشاً على أنه لا يزال هناك ، وأنه في انتظارهم . وأخيراً انصرفت قريش ، وعاد محمد وأصحابه إلى المدينة ، وقد أصلحت هذه الخطوة كثيراً من الجراح التي كادت تزعزع مركز المسلمين في المدينة .

وفي أثناء عودة المسلمين أسروا أبا عزة الشاعر ، واسمه معاوية بن الجيرة ابن أبي العاص . وقد كان في الأسارى يوم بدر ، فنّ عليه محمد بلافدية من أجل بناته ، واشترط عليه ألا يقاتله . فلما جاءوا به لمحمد ذلك اليوم قال : يا محمد امنن على لبناتي وأعاهدك ألا أقاتلك . فقال محمد : لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعتُ محمداً مرتين . لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ! ثم أمر به فضربت عنقه .

الفصل الحادى عشر

من أحد إلى الخندق

لا ميريّة في أن الهزيمة التي منى بها المسلمون في وقعة أحد كانت سبباً في ضعفعة منزلتهم التي اكتسبوها بعد نصرهم المؤزر في بدر . ولا شك في أنهم هم أنفسهم قد شعروا الآن بعد هذه الهزيمة بشيء كثير من الحرج والضيق لزاء ما لاقوا من استهزاء اليهود والمنافقين بهم . ومع أن الكلمة العليا في المدينة كانت لاتزال لهم ، إلا أن أسهمهم كانت قد انخفضت كثيراً ، حتى لقد طمع فيهم الأعراب واستهانوا بهم ، وحاولت بعض قبائلهم الإغارة على المدينة ، وكان ذلك أمراً لا يفكر فيه أحد بعد انتصار المسلمين في بدر تفكيراً جدياً ، إلا بعد أن يحسب ألف حساب .

لم تمض ثلاثة أشهر أو نحو ذلك على وقعة أحد ، حتى باغ مسامع محمد من رجل من بنى أسد أن طليحة الأسدي وأخاه سلمة ابني خويلد قد جمعوا حلفاء لهم من بنى أسد ليغيروا على المدينة ، أو على نعيم المسلمين وهي ترعى في مراعيها . عندئذ عقد محمد لواء سرية لأبي سلمة بن عبد الأسد عدتها مائة وخمسون رجلاً ، فيهم أبو عبيدة الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وأسيد بن حضير ، وأمره بالسير إلى أرض بنى أسد والإغارة عليهم ، فسار أبو سلمة وأصحابه ومعهم الدليل الذي أخبر محمداً خبر طليحة وأخيه . حتى فاجأوا القوم في نحرهم في الصباح ، فتفرقوا وتركوا نعيماً كثيراً لهم من الإبل والغنم . فأخذ ذلك كله أبو سلمة ، وأعطى الرجل الأسدي الذي دلهم نصيباً وافراً من الغنم . وتحمس الغنيمة . وقسمها بين أصحابه . ثم إن أبا سلمة لم يمكث إلا قليلاً بعد هذه السرية حتى مات . وكان قد جرح بجرحاً بالغاً يوم أحد . وظل يداوى منه شهراً حتى برأ . فلما

خرج في هذه السريّة وغاب فيها بضع عشرة ليأة ، انتفض به جرحه فمات منه .

وبعد ذلك بقليل علم محمد أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذليّ من بني لحيان المقيم بعُرتنة ، وهو جبل لبني أسد شرق المدينة ، يجمع الجموع لحربه ، فأرسل له عبد الله بن أنيس الجُهنيّ ليقنّاه . فاستأذن عبد الله محمداً أن يتقول حتى يتمكن من قتله ، فأذن له وقال : انتسب لخزاعة . فخرج عبد الله حتى أتى سفيان فأخبره أنه رجل من خزاعة سمع يجمعه لمحمد فأتى ليكون معه . فلم ينكر سفيان ما يرمى إليه ، فاستدرجه عبد الله حتى خلا له الجوف فعدا عليه بسيفه فقتله .

ثم إن هذليلاً قوم سفيان ظلت تتحين الفرصة للثأر . فقدم زهط من حلفائهم من عتصل والقارة إلى محمد يطالبون منه أن يرسل معهم نفرأ من أصحابه يفقهونهم في الدين ، وذلك في صفر من السنة الرابعة . فأرسل معهم سبعة من أصحابه على رأسهم عاصم بن ثابت في قول ، أو مرثد بن أبي مرثد الغنوي في قول . وبينما هم عند ماء هذيل بالحجاز بناحية تُدعى الرجيع ، انتقض عليهم رجال من هذيل . فلجأ عاصم وأصحابه إلى رابية مشرفة فأحاط بهم القوم وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً . فرفض عاصم النزول في ذمة كافر وقائلهم حتى قُتِل وثلاثة من أصحابه . أما الثلاثة الآخرون وهم عبد الله بن طارق ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدثينة ، فلانوا وريقوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم . فلما استمكن القوم منهم بعد أن أمنوا ونزلوا إليهم حلّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها ، وعندئذ قال عبد الله بن طارق : هذا أول الغدر ! وأبي أن يصحبهم ، فمجروه وحاولوا اصطحابه فأبى فقتلوه .

وانطلقوا بخبيب وزيد إلى مكة حتى باعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة . فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقنّاه به ،

وكان خُبَيْب هو الذى قتل الحارث يوم بدر . واشترى زيد بن الدثينة صفوانُ ابن أمية ليقتله بأبيه .

فلما خرجوا بخُبَيْب من الحرم ليقتلوه طلب منهم أن يدعوه ليصلي ركعتين ففعلوا ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، فكان أول من سنَّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين . ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنُّوا أنى إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . ثم قال عندما قدموه للموت صلياً : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يُصنعُ بنا . ثم قال : اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً .

وعند ذلك اضطجع الحضور على جوانبهم ، وكان معاوية بن أبى سفيان يقول : حضرته يومئذ مع أبى سفيان ، فما أن دعى حتى رأيت أبى يلقينى إلى الأرض فرقاً من دعوته . وكانت العرب تقول إن الرجل إذا دُعِيَ عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه الدعوة .

ثم إنه أنشد قصيدة وهم يهمون بقتله . منها :
ولستُ أبالى حين أقتلُ مسلماً على أى شيق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يُبارك على أوصال شلوي مُمزع

أما زيد بن الدثينة فبعثه صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس ليقتله ، فلما هم بقتله اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال لزيد حين قدّم ليقتل : أنشدك بالله يا زيد ، أنحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضربُ عنقه وأنتك فى أهلك ؟

قال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى .

قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ! .

وظلت المؤامرات والمؤامرات المضادة تحاك حيناً بعد حين ، وبات الحجاز في ميرجل يغلى بالأحقاد تتطاير هنا وهناك ، ومحاولات الثأر لا تكف ساعة من ليل أو ساعة من نهار . فهذا أبو سفيان بن حرب يقول لنفر من قريش بمكة : ما أحدٌ يغتال محمداً فإنه يمشى في الأسواق فندرك ثأرنا ؟ فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله وقال له : إن أنت وفيتني خرجت إليه حتى أغتاله ، فلإني عارف بالطريق ، معي خنجرٌ مثل خنافية النسر . قال أبو سفيان : أنت صاحبنا . وأعطاه بغيراً ونفقة وقال : اطو أمرك فلإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فيسئمه إلى محمد . قال : لا يعلمه أحد .

فمخرج الأعرابي ليلاً على راحلته وسار خمسة أيام حتى وصل المدينة في اليوم السادس ، ثم أقبل يسأل عن محمد فعلم أنه توجه إلى بني عبد الأشهل . فأتاه الأعرابي حيث هو ، فعقل راحلته ، ثم أقبل عليه فوجده في جماعة من أصحابه يتحدثون في مسجده . فلما رآه محمد من بعيد أدرك بفراسته أنه لا يريد خيراً ، فقال لأصحابه : إن هذا الرجل يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين ما يريده . تقدم الرجل وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال محمد : أنا ابن عبد المطلب . فتقدم منه وانحنى عليه كأنه يسأره ، وهنا كان أسيد ابن حضير له بالمرصاد فعجبه وقال : تنح عن رسول الله ، وجذب بداخل إزاره (١) فإذا الخنجر فقال : يا رسول الله هذا غادر .

أسقط في يد الأعرابي وقال : دمي يا محمد . وكان أسيد بن حضير قد لببته ، فقال له النبي : اصدقني ما أنت وما أقدمك ، فإن صدقتني نفعك الصدق ، وإن كذبتني فقد اطلعت على ما هممت به . قال العربي : فأنا أمين ؟ قال : وأنت آمن .

فلما أمن الرجل أخبره بما كان من أمر أبي سفيان وما جعل له . فأمر به فحبس عند أسيد بن حضير . ثم دعا به في صبيحة اليوم التالي فقال :

(١) ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن .

قد أمّنتك فاذهب حيث شئت أو خير لك من ذلك ؟ قال : وما هو ؟
فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله .

ثم أضاف قائلاً : والله يا محمد ما كنت أفرّق من الرجال ، فما هو
إلا أن رأيتك فذهب عقلى وضعفت ، ثم اطلّعت على ما هممتُ به ، فما
سبقته به الركبان ، ولم يطلع عليه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنتك على
حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان . فابتسم النبي ، وأقام الرجل
أياماً ثم استأذن وخرج من عنده ، ولم يُسمع له بذكر بعد ذلك .

ثم إن محمداً دعا عمرو بن أمية الضميرى ، وسلمة بن أسلم بن حرّيش
وقال لهما : اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب ، فإن أصبها منه غيرّة
فأقتلاه . فلما أتيا مكة طافا بالكعبة سبعاً وصليا ركعتين ، فلما خرجا
لقيهما معاوية بن أبي سفيان فعرف عمرو بن أمية فنادى يقول : عمرو بن
أمية ، واحزننا . فتجمع أهل مكة وقالوا : ما جاء عمرو في خير ، وكان
عمرو فاتكاً في الجاهلية . فأسرع عمرو وسلمة بالهروب ، وخرجت قریش
في أثرهما ولكنهما تمكنا من الفرار .

وفي صفر من هذه السنة أيضاً ، أى من السنة الرابعة الهجرية ، وفد على
محمد بالمدينة أبو براء عامر بن مالك مُلاعيب الأسته ، فطمع محمد في
إسلامه ، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ، غير أنه لم يسلم ولم ينثر ،
ولمّا قال لمحمد : يا محمد لو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد
فدعوهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك .

فقال : إني أخشى عليهم أهل نجد .

فقال أبو براء : أنا لهم جار .

فبعث محمد المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في أربعين أو سبعين
رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين ، كانوا يسمون القرّاء أكثره قراءتهم

للقرآن وحفظهم له . فساروا وهم لا يخشون غائلة لأن أبا براء عامر بن مالك كان رجلاً مسموع الكلمة لا يخشى أحد أجاره اعتداء عليه . فلما نزلوا بئر معونة وهي أرض بني عامر وحرّة بنى سليم . بعثوا حرام بن مباحان بكتاب محمد إلى عامر بن الطفيل سيد بني عامر ، فلما قرأ الكتاب لم يكذب يفرغ منه حتى عدا على رسول محمد فقتله ، ثم استصرخ على المساميين بنى عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم من قتال القوم ولم يرضوا أن ينقضوا العهد الذي عاهده أبو براء إياهم .

فاستصرخ عليهم عامر قبائل من بنى سائيم ، عصبية وذكوان والقارة ، فأجابوه إلى ذلك ، وقاموا معه فخرجوا إلى أصحاب محمد فغشروهم وأحاطوا بهم ، فاستل أصحاب محمد السيوف وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً فيما عدا كعب بن زيد ، وقع بين القتلى وفيه رمق فظنوه قتيلاً فتركوه ، فعاش حتى قُتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار من بنى عمرو بن عوف يجتابان تلك الناحية في ذلك الوقت وعمرو عائد من مكة ، فرأيا الطير تحوم حول العسكر فقالا : والله إن لهذه الطير لشأناً . فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دماهم والرجال الذين أصابوهم لا يزللون هناك ، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية : ماذا ترى ؟ فقال : أرى أن نلحق برسول الله فنخبره الخبر . فقال الأنصاري : لكني لم أكن لأرغب بنفسى عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لأخبر عنه الرجال . واقتحم على القوم يقاتلهم حتى قُتل . وأخذ عمرو أسيراً ، فلما علم القوم أنه من مضر جزّ عامر بن الطفيل ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم .

وخرج عمرو بن أمية عائداً إلى المدينة ، فبينما هو بالقرقرة على ثمانية برد من المدينة إذ لقي رجلين من بنى عامر قد نزلا في ظل هو فيه . فلما ناما عدا عليهما فقتلها وهو يعتقد أنه قد أصاب ثأراً من بنى عامر في

أصحاب محمد الذين قتلوهم ، فلما قدم على محمد أخبره بما كان من أمر أصحابه في بئر معونة . فقال : هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً منخوفاً : ثم أخبره بقتله للعامريين . فقال : بشس ما صنعت ، لقد كان لهما منى أمان وجوار ، وإنى للدافع ديتهما .

وفي ذلك اليوم أيضاً بلغه خبر مقتل عاصم وأصحابه في الرجيع ، فحزن حزناً شديداً ، وظل شهراً يدعو على الغادرين بأصحابه في الصلاة .

ثم إن محمداً توجه إلى بني النضير في منازلهم بجوار قُباء ، بصحبة عدد من أصحابه منهم عمر بن الخطاب ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، يستعينهم في دفع دية العامريين اللذين قتلها عمرو بن أمية ، وقد كان بين المسلمين واليهود ذلك العهد الذي تعاهدوا عليه عند مقدم المهاجرين إلى المدينة ، ويقضى بإسهام كل من المسلمين واليهود في الديات ونفقة الحرب وما إلى ذلك . فلما أتاهم وكلمهم في ذلك قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت .

وبينا محمد قاعد إلى جنب جدار بيت من بيوتهم ، لاحظ أن جماعة منهم يتسارون ، فعلم أنهم يتآمرون فيما بينهم على أن يعلو رجل منهم هذا البيت ويلقى عليه صخرة ويريمهم منه . وعند ذلك أسرع فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فلما غاب ، وكان أصحابه يظنون أنه خرج لقضاء حاجة ، قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيتهم داخلوا المدينة . فأقبلوا عليه فأخبرهم أن خبراً جاءه من السماء بما أراد انقوم به من الغدر . ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة ليبلغهم أنه يقول لهم : « اخرجوا من بلادى فلا تسانكونى وقد هممت بما هممت به من الغدر ، وقد أجتكم عشرين ، فمن روى بعد ذلك ضربت عنقه » .

حار اليهود وضعفوا وأذعنوا للأمر واستعدوا للرحيل ، وبينما هم

يتجهزون لترك ديارهم ، أرسل إليهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سائل
وعدد من المنافقين من بنى عوف ، منهم وداعة ومالك وسويد وداعس
ألاً يدعنا للأمر ، وشجعوهم على أن يقيموا في حصونهم ، ولا يخرجوا
من ديارهم ، وأنهم سيمنعونهم ويقومون دونهم . وفي ذلك تحدث القرآن
وكذب المنافقين :

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب
لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطبع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم
والله يشهد لأنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا
لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون » (١) .

شجعت هذه الوعود اليهود وأطمعتهم فتأخروا في الخروج ، وأرسل
حبيّ بن أخطب إلى النبي : إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك . فكبر
محمد وكبر معه المسلمون وقال : حاربت اليهود .

وأمر النبي بالتهيوّ لحربهم والمسير إليهم ، وخرج على رأس أصحابه ،
يحمل لواءه على بن أبي طالب ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .
فتحصن اليهود بحصونهم ، وظنوا أنها تمنعهم وأن المنافقين ويهود بنى قريظة
سيقومون معهم . ولكن هيات أن ينصرهم أحد . فحاصرهم جيش المسلمين
ست ليال . فلما رأى محمد إصرارهم أمر بقطع نخيلهم وتحريقها ، فنادوا
من حصونهم . أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه .
فما بال قطع النخيل وتحريقها .

غير أن الله تعالى أساغ ما وقع من تحريق ما حرق من نخيلهم وترك
ما ترك منها فقال في كتابه الكريم : « ما قطعتم من لينة (وهو جيد النمر)
أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » (٢) . وفي

(١) الحشر ١١ - ١٢ .

(٢) الحشر ٥ .

هذا إجازة من الله ، ورفع منه للحرج وتأيد لما رأى رسوله من تحريق هذا النخيل ، وليس بفساد كما قال اليهود ، وإنما هو إظهار للقوة وإخزاء لأعداء الإسلام .

فلما رأى اليهود تلك الشدة ، وأيقنوا أن أحداً من الذين شجعوهم سوف لا يقدم على مساعدتهم ، وأن حلفاءهم جميعاً قد تخلوا عنهم ، وخذلواهم وهم أحوج ما يكونون لنصرتهم ، وأنهم غروهم من أنفسهم ، رضخوا لأمر محمد وسألوه الجلاء وأن يكف عن دمائهم ، فسمح لهم بما حملت الإبل دون السلاح . وتولى الإشراف على خروجهم محمد بن مسلمة ، فاحتملوا كل ما قدرت لإبلهم على حمله ، وخرج بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى الشام . وخلفوا وراءهم غللاً كثيرة وسلاحاً ، أحصى فبلغ خمسين درعاً وخمسين خوذة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، فضلاً عن المزارع والنخيل . فكان هذا كله لمحمد يتصرف فيه كيف شاء . ذلك أن الغنيمة التي تؤخذ بغير حرب تكون كما أمر القرآن : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (١) .

لذلك أعطى محمد من هذه الأموال للمهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم دون الأنصار ، فرد المهاجرون لإخوانهم الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم في أوائل عهدهم بالمدينة . كذلك أعطى محمد من هذه الأموال لسهل بن حنيف ولأبي دُجانة إذ ذكرا له فقرهما ، ويقال إنه أعطى أيضاً للحارث بن الصَّمَّة لهذا السبب . ثم إنه أخذ لنفسه نصيباً من الأرض ليزرعها ويدخر منها قوت أهله سنة كما كان يفعل . ولم يسلم من اليهود غير يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب فاحتفظا بأموالهما .

ثم إن محمداً لم يعد ليأمن لليهود بعد أن تكررت بينه وبينهم مثل هذه

المنازعات ، فاستبدل كاتب سره ، وكان يهودياً ، بشاب من شباب المسلمين . فأمر زيد بن ثابت أن يتعلم العبرانية والسريانية ، وكان محمد يكتب رسائله بعض الأحيان بهاتين اللغتين . ولذلك كان مضطراً لاستعمال اليهود قبل ذلك .

وفي ربيع الآخر أو جمادى الأولى من هذه السنة أى سنة أربع من الهجرة ، بلغه أن جوعاً من قبائل نجد يتجمعون لحربه ، هم بنو محارب ، وبنو ثعلبة من غطفان ، فخرج لهم على رأس سبعمائة مقاتل ، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان أو أبا ذر . فساروا حتى باغوا منازل القوم ، فإذا هى خاوية قد هجرها الرجال عندما علموا بجمع المسلمين إليهم وتفرقوا في رؤوس الجبال . ثم إنهم تجمعوا ثانية عند ما رأوا أن المسلمين قد احتملوا نساءهم وأموالهم ، وأقدموا على المسلمين يريدون حرباً . غير أنهم عند ما تقاربوا خاف بعضهم بعضاً ولم ينشب قتال . وفي تلك الأثناء حانت صلاة العصر ، فصلى محمد بالمسلمين صلاة الخوف . وهى أن يصلى بجماعة منهم في حين يظل الآخرون متجهين إلى العدو للملاحضته ، ثم يعود فيصلى بهم . وأخيراً تباعد الجمعان ولم تقع حرب . وتسمى هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع . ويقال إن سبب هذه التسمية إنما يرجع إلى أنهم رقّعوا فيها راياتهم ، أو لأنه كان يقال اشجرة هناك ذات الرقاع ، أو لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم خرقاً من شدة الحر ، أو لأنه كان هناك جبل به بقع حمر وسود وبيض .

لما أهلّ شعبان من هذا العام . كان الموعد الذى تواعده محمد وأبو سفيان بعد معركة أحد قد حل . ذلك أن أبا سفيان نادى بعد معركة أحد وهو يهيم بالانصراف أن ذلك اليوم كان يوماً بيوم بدر . وأن مواعدهم بدر العام المقبل . فأجابه محمد إلى ذلك . وكانت العرب تجتمع في سوق يقام في بدر في شعبان ثمانية أيام للتجارة . وبينما المسلمون يتذاكرون هذا

الموعد ويستعدون للخروج ، إذ وصل إلى المدينة نعيم بن مسعود الأشجعي ليقول للمسلمين إن قريشاً قد جمعت لهم جيشاً لا قبيل لأحد من العرب به . لم يكن هذا صحيحاً ، ذلك أن أبا سفيان لم يرد الخروج لهذا الموعد ، فاستأجر نعيم وأرسله إلى المدينة لإشاعة هذا الخبر ظناً منه أن هذا قد يفت في عضد المسلمين فلا يخرجون إلى بدر فيكونون هم الذين أخلفوا الموعد .

والحق أن كثيرين من المسلمين قد تأثروا بهذا الإرجاف وآثروا البقاء في المدينة وعدم الخروج إلى موعد أبي سفيان . غير أن محمداً ، ذلك البطل الذي لم يعرف العرب مثله من قبل ولا من بعد ، ما كان ليحجم ، وما كان ليتراجع ، بل إنه نادى في أصحابه مغضباً : « والذي نفسي بيده لأخرجنَّ وإن لم يخرج معي أحد » :

ثم إنه خرج على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه يريد بدرأ ، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي . وحمل المسلمون معهم بضائع لعله لا تحدث حرب فيتاجرون في السوق . أما قريش فخرجت مع أبي سفيان في ألبي رجل . غير أن أبا سفيان رأى أن يرجع بعد مسيرة يومين ، فقال لقومه : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ، وإن عامكم هذا جدد ، وإنى راجع فارجعوا . فرجعت قريش وأطاعته . وانتظر المسلمون قريشاً فلم تقدم ، فتاجروا في بضاعتهم التي حملوها معهم فربحوا ربحاً وبيعاً وعادوا غانمين سالمين . يقول تعالى : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » (١) .

رجع جيش المسلمين سالمًا غانمًا وقد استعاد كثيراً من هيئته السابقة التي فقد كثيراً منها بعد أحد . وقضى المسلمون بقية سنتهم وجزءاً من ستة خمس لم يلقوا كيداً من أحد ولم يخرجوا لأحد . وفي ربيع الأول أو ربيع الآخر بلغ محمداً أن جموعاً من بني تميم في شمالي الجزيرة يظلمون من يمر بهم ،

(١) آل عمران ١٧٤ .

ويعتدون على قوافل التجارة ، وأنهم يفكرون في الدنو من المدينة . فقرر أن يخرج إليهم فيدهمهم في مساكنهم على حدود الشام . وخرج في ألف من المسلمين متجاهلاً قول القائلين إن ذلك مما يفرع قبصر الروم . وكان يسير الليل ويكن بالنهار ، ومعه دليل حاذق ماهر بالهداية في هذه الطرق من بني عُدْرَةَ يقال له مذكور . فلما دنا من دومة الجندل (١) ، وهي واحة على حدود الحجاز والشام ، تتوسط الطريق بين البحر الأحمر وخليج العرب . أخبره دليله بسوأم بني تميم في مراعيها ، فهجم على ماشيتهم ورعيانهم . فأصاب منها ما أصاب وهرب من هرب في كل وجه . فلما علم أهل دومة الجندل بهذا الهجوم تفرقوا ودب الذُعرُّ في قلوبهم . فتقدم محمد ونزل بساحتهم فلم يجد أحداً ، وأقام أياماً ، بث في خلالها السرايا هنا وهناك فلم يلق كيداً ولا حرباً وعاد بجيشه سالماً غانماً .

وهنا ينبغي لنا أن نشير إلى حقيقة جديدة بدأت تتبدى في أفق جزيرة العرب وتؤثر على مجرى الأحداث فيها . فقد كانت هذه الغزوة أول غزوة يسير فيها محمد إلى أطراف الشام ويبتعد عن المدينة هذه المسافة الكبيرة . وفي هذا ولا شك دليل كبير على أن المسلمين كانوا في ذلك الوقت - وقد انقضى على معركة أحد أكثر من سنة ونصف . قد استعادوا قوتهم وقدرتهم على القتال بدرجة كبيرة جداً . بل زادت هيبتهم في قلوب العرب ، ومثّل ساطانهم للجميع ، وأصبحوا بذلك يهددون جماعات كبيرة من قبائل العرب تهديداً مباشراً في كل مكان . وربما يكون هذا هو السبب الذي ألب عليهم كثيراً من العرب ، فاتحدوا في جمع كبير عدته عشرة آلاف مقاتل ، وهو جمع لم نسمع بمثله من قبل . وساروا إلى المدينة ابتغاء استئصال المسلمين والقضاء عليهم قضاء مبرماً . فإلى غزوة الجندق .

(١) على مسيرة خمسة عشر ليلة من المدينة ونحو ليل من دمشق .

الفصل الثاني عشر

غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب

تطورت العلاقات بين المسلمين واليهود في الفترة السابقة تطوراً خطيراً . فبعد أن عاش اليهود جنباً إلى جنب مع المسلمين حيناً من الزمن في وثام تام لا يخرق أى منهما ذلك العهد الذى عقده سويماً في بداية عهد المسامين بالمدينة ، بدأ اليهود يسخرون من المسلمين ويستهمزون بهم إذا ألم بهم مكروه أو نزلت بهم نازلة ، أو انهزموا في معركة كعركة أحد ، وبدأوا يكيدون للإسلام ويتآمرون عليه وعلى نبيه مما اضطر الرسول إلى إجلاء بني قَيْنُقَاع أولاً ، ثم إلى إجلاء بني النضير والإستيلاء على أموالهم وأراضيهم كما سبق بيانه .

ولا مرية في أن اليهود لم يقبلوا للمسامين ظهر المِجَنِّ إلا عند ما أيقنوا تماماً وتأكد لديهم أن الإسلام دين قوى ، وأنه أخذ يفشو في القبائل هنا وهناك ، وأن المسلمين يزدادون قوة ومنعة يوماً بعد يوم . فكيف يقبل اليهود هذا الوضع وهم الذين يفخرون على العرب وعلى العالمين ويتسامون عليهم بأنهم أهل توحيد ، وأنهم وجدهم الذين اختصوا بين الشعوب بهذه الكرامة العظيمة ، فضلاً عن اعتقادهم بطبيعة الحال بأنهم شعب الله المختار ، وأن دينهم أعظم الأديان لا يطاوله دين آخر ؟ كيف يرضى اليهود إذن بدين آخر يدعو أيضاً إلى التوحيد مثلما يدعو دينهم الذى يفتخرون به ؟ وكيف يسمحون له بأن ينتشر ويعز بين القبائل ويعز أهله الذين يحاربون الأحمر والأسود من الناس وترتفع كلمتهم ؟

احترقت قاوب اليهود وطفحت بالحقد والغیظ وامتلاّت نفوسهم بالضغينة على محمد وعلى الإسلام والمسلمين . هنا إذن ثأر دينى لن يرجع

اليهود عن الأخذ به ، ولن يتوانوا عن تكذيب النبي الذي جعل منهم مفسدين
لدين إبراهيم وموسى ، وجاهرهم بذلك ودعاهم إلى ترك ما هم فيه إلى دين
إبراهيم وموسى الحقيقي وهو الإسلام ، أو عذاب أليم .
وفضلاً عن هذا كله ، يتبقى ثأرهم الدنيوى ، فقد ظهر عليهم المسلمون
وانتصر عليهم نبي المسلمين ، وهاهى منازل بنى قَيْنُقَاع وبنى النضير ،
وكانت أمس بالعزِّ شامخة ، فإذا بها اليوم يباب ليس بها داع ولا مجيب .
وقد تركها أهلها مرغمين ، وتركوا أموالهم وأراضيتهم وخرجوا خروج
الدليل الضعيف المغلوب على أمره .

أقبلون الإسلام وتنتهى كل المشاكل والمتاعب بالنسبة لهم ؟ كلا ،
فإن أنفسهم ما كانت لتطيب بأن يصبحوا تابعين لمحمد ، وما كانت لتطيب
أيضاً بأن يتراجعوا عنه حتى يأخذوا بثأرهم . ولكنهم لا يستطيعون ذلك
ولا يقدرون عليه وحدهم . فإذا ؟ إذن يؤلبون عايه قريشاً وقبائل العرب
الموتورة منه ، ويجمعونهم له فى حرب طاحنة لا تبقى ولا تذر ولا قبل له
بها ، فتكون خلاصاً لهم منه ، وبلوغاً لثأرهم ، ونيلاً لمآرهم ، وشفاء
لصدورهم ، ثم استرداداً لديارهم وأراضيتهم .

اجتمع جماعة من زعمائهم منهم حُيَيُّ بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق
من بنى النضير ، وهوذة بن قيس من بنى وائل . وخرجوا فى نفر من
بنى النضير وبنى وائل يقصدون قريشاً أول ما قصدوا فى تلك الجولة التى
قاموا بها بين قبائل العرب ليحرضوها على حرب محمد . فلما اجتمعوا
بالملا من قريش وأخذوا يحرضونهم على محمد ويدعونهم إلى حربته ، ويذكرونهم
بما بينهم وبينه ويبينون لهم خطره ، ويعدونهم بأنهم سيكونون معهم حتى
يستأصلونه ، ففكر هؤلاء القرشيون وكأنتهم باتوا يشكون فى دينهم وى أن
محمد قد يكون على صواب ، فسألوا وفد اليهود : يا معشر يهود ، إنكم أهل
الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير
أم دينه ؟

قالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

وأخيراً اتفقت قريش على الخروج مع اليهود في موعد حددوه . ثم إن اليهود انطلقوا بعد أن ضمنوا خروج أكبر رأس في العرب معهم ، إلى غطفان ، وهي من أكبر وأقوى قبائل العرب ، وتقع ديارها في الشمال الغربي من المدينة ، على مائة وعشرين كيلو متراً ، وحرصوا بطونها على حرب محمد والمسلمين وزينوا لهم هذا العمل ، وذكروا من له منهم تيرة بترته ، وقوومهم بما كان من موافقة قريش على هذه الحرب وهو أعدتها اليهود على الخروج معهم .

وفي شوال من السنة الخامسة الهجرية تجمعت هذه الأحزاب وخرجت تريد المدينة . فخرجت قريش وحلفاؤها في أربعة آلاف مقاتل ، وثلاثمائة فرس ، وألف وخمسمائة بعير ، وعلى رأسها أبو سفيان صخر بن حرب ، ويحمل لواءها عثمان بن طلحة ، الذي حمل أبوه لواء قريش يوم أحد وقتل . وخرجت جموع غطفان ، يقود بني فزارة عيينة بن حصن في رجال كثيرة وألف بعير ، ويقود بني مرة الحارث بن عوف في أربعمائة ، وبني أشجع ميسع بن ربيعة في ربيعة أيضاً ، وبني سليم سفيان بن عبد شمس في سبعمائة ، وهم أصحاب بئر معونة ، وبني أسد طليحة بن خويلد . وخرج معهم بنو سعد أيضاً ، فبلغت عدة هذه الجموع حوالي عشرة آلاف مقاتل . وأسندت القيادة العامة لأبي سفيان .

وفي تلك الأثناء كانت أخبار هذه الجموع قد بلغت الرسول ، فجمع أصحابه واستشارهم في كيفية مواجهة هذه الجموع . وأخيراً استقر الرأي على أن المسلمين لا قبيل لهم بمواجهة هذه الحشود الكبيرة وجهاً لوجه في ساحة تدور فيها معركة قد تؤدي فعلاً إلى استئصال المسلمين ، وأجمعوا على التحصن في المدينة وملاقات العدو فيها إذا ما دهمها عليهم . وكان بين المسلمين رجل فارسي اسمه سلمان ، أشار عليهم بخندق في ناحية المدينة غير

الحصينة ، وهى وسيلة من وسائل الدفاع لم تكن معروفة لدى العرب ، ولكنهم أعجبوا بها ووافقوا عليها . وقرروا حفر خندق فى شمالى المدينة من الحرّة الشرقىة إلى الحرّة الغربىة ، وهى الجهة التى كان يمكن للعدو أن يدخل المدينة منها . أما بقىة حدودها فكانت حصينة متشابكة بيوتها ، وفىها حصون بنى قريظة حلفاء المسامىن ، ويسهل الدفاع عنها .

تجهز محمد على رأس ثلاثة آلاف مقاتل ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وحمل لواء المهاجرىن زىد بن حارثة ، ولواء الأنصار سعد بن عبادة . وخرج بهم إلى أطراف المدينة وعسكر عند سفح جبل سلع ، وأمر بحفر الخندق . فشمرو المسلمون عن سواعد الحد ، غير أن جماعة من المنافقىن يلوح بأنهم لم يقتنعوا بمسألة حفر الخندق ، إما لجهلهم بمثل هذه الوسائل ، وإما لأنهم أرادوا خذلان محمد كعادتهم ، قد تخلفوا واعتادروا بالضعف ، وانسلت طائفة أخرى خفىة بغير إذنه .

وقد أنزل الله تعالى فى هؤلاء وهؤلاء قوله : « إنما المؤمنون الذىن آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذىن يستأذنونك أولئك الذىن يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحىم . لا تجعلوا دُعاء الرسول بىنكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذىن يتسللون منكم لوأذا فليحذر الذىن يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب ألىم . ألا إن لله ما فى السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه وىوم يُرجعون إليه فىئنبهم بما عملوا والله بكل شىء علىم » (١) .

أطاع المسلمون صادقو الإسلام أمر نبيهم وأجهدوا أنفسهم كل الجهد وتفانوا فى حفر الخندق ، وظلوا طوال ستة أيام يحفرون فىه بكل

بسالة واسمائه ، على ما بهم من نصب وحووع . وعلى رأسهم محمد يحضر بيديه
الكريمتين وينقل التراب بنفسه ، حتى لقد كان يغبر من التراب . قال البراء .
رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه ، وسمعته
يرتجز بكلمات عبده الله بن رواحة وهو ينقل التراب يقول :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أينا

وبينا محمد يضرب بفأسه مع الضاربين إذ جاءه جماعة قد اشتدت عليهم
صخرة صلبة لم يتمدروا عليها . فنضح شيئاً من الماء عليها ثم ضربها ضربة
فانفلقت ، فقال : الله أكبر ! قصور الشام ورب الكعبة . ثم ضرب ضربة
ثانية فانهاالت وما عادت ترد فأساً ولا مسحاة ، فقال : الله أكبر ! قصور
فارس ورب الكعبة !

فقال عند ذاك المنافقون : نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور
فارس والروم .

فنزل فيهم قوله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض
ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » (١) .

والحق إنها كانت رؤيا صادق ونبوءة تحققت ، وملك هؤلاء العرب
أنفسهم قصور الفرس والرومان وجعلوا ملكهما كأمس الذاهب . كل
هذا فى أقل من خمسة عشر عاماً منذ ذلك الوقت الذى كان المسلمون
يخندقون فيه على أنفسهم حول مدينة واحدة فى جزيرة العرب لا يملكون
سواها .

عسكرت جيوش قريش وحانأها من الأحابيش ومن تبعهم من بنى
كنانة وأهل تيهامة بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة . وعسكرت

جموع غَطَفَان ومن تبعهم من أهل نجد بذنب نتَقَمَى إلى بجانب أحد . وعسكر بجيش المسلمين عند سفح جبل سَاع ، ونصبت لمحمد خيمته الحمراء ، والخذق بينه وبين القوم . وأعد المسلمون أكواماً من الحجارة ليستخدموها عند الحاجة في رمى العدو ، وأخلت المنازل التي خارج الخندق ، ووضع النساء والأطفال في المنازل المحصنة وفوق الحصون .

فوجئت جموع المهاجرين بالخندق وأسقط في أيديهم . فلا هم يستطيعون عبوره . ولا هم بقادرين على اقتحام المدينة ودخولها من جهاتها الأخرى الحصينة ، فاقتصر القتال على الترامى بالسهم .

لم يجد المشركون عورة يدخلون منها المدينة . وأما يهود بني قريظة فكانوا حتى الآن على عهد الوفاء مع المسلمين ، قد أغلقوا حصنهم دون الأحزاب . غير أن حُيَّ بن أخطب شيطان بني النضير ذهب إلى زعيمهم كعب بن أسد القُرَظِيَّ صاحب عقدهم وعهدهم يريد أن يستمياه إلى الأحزاب ليفتح لهم ثغرة يدخلون منها المدينة من جهة بني قريظة . وذلك أنه كان قد عقد العزم على الانتقام من المسلمين ، ثم إنه خشى أن ترتد هذه الجموع الجائرة التي جمعها ليأخذ بثأره من المسلمين إن لم تستطع اقتحام الخندق ، وهيئات له إذا ارتدت دون هزيمة المسلمين هزيمة ساحقة لا تقوم لهم قائمة بعدها ، أن يجمع مثلها مرة أخرى ، أو ينجو هو نفسه وذووه من سيوف المسلمين البواتر وعقابهم الصارم . فهل يُبقي المسلمون على اليهود الذين جمعوا لهم هذا الجمع الرهيب ليستأصلوهم إن هم نجوا من هذا الحصار ؟ ومن يحمي اليهود إذا ما ارتدت الأحزاب وبقوا وحدهم مع المسلمين ؟

نادى حُيَّ بن أخطب كعب بن أسد . فلما سمع كعب نداءه أغلق باب حصنه دونه . فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له . فناداه : ويحك يا كعب افتح لي ! قال كعب : ويحك يا حُيَّ . إنك امرؤ مشثوم . وإنى قد عاهدت محمداً فاست بناقض ما بيني وبينه . ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً .

قال : ويحك افتح لي أكاملك . قال : ما أنا بفاعل . قال : والله ما أغلقت دوني إلا خوفاً على جشيشتك (طعام) أن آكل منها معك ، فنضب كعب وفتح له . فقال حُيَّيٌّ : ويحك يا كعب ! لقد جئتك بعز الدهر وبجحرٍ طامٍ .

قال كعب : وما ذاك ؟ قال : جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم يذنب نقة تسمى إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

فقال كعب : جئتني والله بذلِّ الدهر وبجهام (السحاب الذي لا ماء فيه) قد هراق ماؤه برعدٍ ويبرق وليس فيه شيء ، ويحك يا حُيَّيٌّ فدعني وما أنا عليه ، فإنني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً . وتكلم عمرو بن سعد القرظي فأحسن فيما قال وذكَّرهم بميثاق محمد وعهده ومعاهدتهم إياه على نصره ، وقال : إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه .

غير أن حُيَّيٌّ بن أخطب لم يزل بكعب بن أسد حتى سمع له وانضم للأحزاب ونقض العهد الذي بينه وبين محمد ، على أن يعاهده حُيَّيٌّ عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل حُيَّيٌّ معه في حصنه يصيبه ما يصيب أسداً عندئذ . ولم يحفظ عهد المسلمين من بني قريظة إلا بنو سعيه . أسد وأسيد وثلبة ، فإنهم خرجوا وانضموا إلى محمد .

فلما انتهى الخبر إلى محمد استدعى سعد بن معاذ ، وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد ، وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، ونخوات بن جُبَيْر ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحقاً ما بلغنا عنهم ، فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد المسلمين ، وإن كانوا على وفاء فاجهروا به للناس .

فشيى القوم إلى اليهود حتى أتوهم في حصنهم . فقال سعد بن معاذ : إنكم

قد علمتم الذى بيننا وبينكم يا بنى قُرَيْظَةَ ، وأنا خائف عايتكم مثل يوم بنى النضير أو أمرّ منه . فقالوا : أكلت أير أهلك . فقال : غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن . ثم إنهم نالوا من محمد وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد . فشاتمهم سعد بن مُعَاذ وشاتموه ، وكان رجلا فيه حدة . فقال له سعد بن عبادة : دع منك مشاتمهم ، إن ما بيننا وبينهم أكثر من المشاتمة .

ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى محمد فسلموا ثم قالوا : عُضِل والقارة ، يشيرون إلى خيانة عضل والقارة بأصحاب الرجيع وقتلهم أصحابه ، فما أن سمع محمد ذلك حتى التف بثوبه واضطجع وهكث طويلا ، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع ، ودفروا أنه لم يأتيه عن بنى قُرَيْظَةَ خير . ثم إنه رفع رأسه وقال : أبشروا بفتح الله ونصره .

ثم قام وبعث سَلَمَةَ بن أسلم في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل ، وأمرهما بحراسة المدينة من جهة بنى قُرَيْظَةَ والسهل على النساء والأطفال خشية أن يصيبهم سوء من اليهود .

عظم البلاء واشتد الخوف وبات المسلمون في موقف عصيب جداً لا يحسد أحد عليه ، فقد أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وظن المؤمنون منهم كل ظن ، وجهر المنافقون بنفاقهم . قال معتب بن قُشَيْرٍ أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ! وقال أوس بن قَيْظَى علناً : يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو ، فأذن لنا أن نرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة .

وهؤلاء وأمثالهم هم المرادون بقوله تعالى : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . » وإذ يقول المنافقون والذين

في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا» (١) .

فلما اشتد على الناس البلاء وخشى محمد الفتنة ، أراد أن يستميل غطفان ويسألها ، فأرسل إلى عُبَيْيْثَةَ بن حِصْن ، والحارث بن عوف ، وهما قائدا غطفان يصلحهما على أن يعطيها ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما . وجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا كتاباً بذلك ولكن لم يوقع بعد . فلما انتهى محمد إلى الاتفاق لم يشأ أن يوقعه قبل أن يستشير السعديين : سعد ابن معاذ ، وسعد بن عُبَادَةَ سيدى الأوس والخزرج . فقالا : يا رسول الله ، أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟

فقال محمد : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا ضيافة أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم !

فقال النبي : أنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فحماها فيها من كتابة وقال : لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا .

ودام الحصار حوالى عشرين يوماً لم يحدث فيها قتال إلا المبارزة التي وقعت بين علي بن أبي طالب ، وعمرو بن عبد ود . وذلك أن عمرو بن عبد ود

أحد بني عامر بن لوئى ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب ،
وضيرار بن الخطاب أخذتهم الحمية يوماً فلبسوا لباس الحرب وخرجوا على
خييلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيأوا يا بني كنانة للحرب ،
فستعلمون من الفرسان اليوم . ثم أقبلوا تسرع بهم الخيل حتى بلغوا مكاناً
من الخندق ضيقاً ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم فى السَّبْحَةِ
بين الخندق وساتع . فخرج لهم على بن أبي طالب وجماعة من المسلمين .

فنادى عمرو بن عبد ود : من يبارز ؟ فقام على بن أبي طالب فقال :
أنا لها يا نبي الله . فقال محمد : إنه عمرو ، اجلس . ثم نادى عمرو : ألا
رجلٌ يبرز ؟ فجعل يؤنبهم ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل
منكم دخلها ؟ أفلا تُبرزون إلى رجلا ؟ فقام على فقال : أنا يا رسول الله ،
فقال : اجلس ، ثم نادى عمرو الثالثة وأنشد يقول :

ولقد بَحِثْتُ من النـدا ء لجمعهم : هل من مبارز
ووقفت إذ جـبـن المشـ جمع موقف القيرن المناجز
ولـذاك إني لم أزل متسرعاً قبل الهـزاهـز (١)
إن الشجاعة فى الفتى والجلود من خير الغرائز
فقام على بن أبي طالب فقال : يا رسول الله أنا . فقال : إنه عمرو ،
فقال : وإن كان عمراً ! فأذن له محمد ، فمشى إليه على وهو يقول :
لا تعجـلنـ فقد أتـا ك مجيب صوتك غير عاجز
فى نيـة وبصـيرة والصدق منجى كل فائز
إنى لأرجو أن أقـي سم عايك نائحة الجنائز
من ضربة نجـلاء يـى ذكـرها عند الهـزاهـز

فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا على ، قال : ابن عبد مناف ؟
قال : أنا على بن أبي طالب . فقال : يا بن أخى من أعمامك من هو أسن

(١) الهزاهز : الدواهي والشدائد .

منك ، فإني أكره أن أهرق دمك ! فقال له علي : لكني والله لا أكره
أن أهرق دمك !

غضب عمرو فنزل عن فرسه وسَلَّ سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل
نحو علي والشرر يتطاير من عينيه ، فاستقبله علي بدرقته ، فضربه عمرو
في درقته فقدّمها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجّه ، إلا أن علياً
عاجله بضربة على حبل عاتقه فسقط لتوه ، وصاح المسلمون ؛ وسمع
محمد التكبير فعرف أن علياً قتله . ثم أقبل عليّ على محمد وهو يقول
قصيدته التي منها :

أهليّ تقتحم القوارس مكلنا غني وعنهم أخرجوا أصحابي
عبدت الحجارة من سفاهة رأيه وعبدت ربّ محمدٍ بصواب

أقبل عليّ ووجهه مهلل ، فقال له عمر بن الخطاب : هلا استلبته درعه ،
فإنه ليس للعرب درع خير منها ؟ فقال عليّ : استحيت ابن عمي أن
أسلبه . ثم إن بقية الخيل التي اقتحمت الخندق عادت أدراجها إلى الناحية
الأخرى ، ولم يقع قتال غير هذا . ولم يستشهد غير ستة من المسلمين أصابهم
سهام المشركين ، وقتل ثلاثة من المشركين فقط .

ثم إن المسلمين أقاموا أياماً وهم في أشد ما يكونون من البلاء والخوف
والشدّة ، وعلى الأخص بعد أن نقض بنو قريظة حلفهم مع المسلمين .
وذاث يوم أتى نعيم بن مسعود محمداً وقال له : يا رسول الله إني قد
أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فرني بما شئت . فقال له محمد :
إنما أنت رجل واحد ، فخذلّ عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية
فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا :
صدقت لست عندنا بمتهم .

فقال لهم : إن قريشاً وخطفان ليسوا مثاكم ، البلد بلدكم فيه أموالكم

وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرُونَ على أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قریشاً
وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ناصرتموهم عليه ، وبلدكم
ونساؤهم وأموالهم بغير هذا البلد ، فليسوا مثلكم ، فإن رأوا نُهْزَةً أصابوها ،
وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوْا بينكم وبين محمد ببلدكم ، ولا
طاقة لكم به إن خلا بكم ؛ فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن
من أشرفهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى
تتجاوزوه . قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قریشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال
قریش : قد عرفتم ودِّي لكم وفراقى محمداً ، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت
على حقا أن أبلغكم إياه نصحاً لكم فاكتموه عني . قالوا : نفعنا .

قال : ندم معشر اليهود على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا
إليه يقولون : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من
القبيلتين من قریش وغطفان رجلاً من أشرفهم فنعطيكهم فنضرب أعناقهم ،
ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم . فأرسل إليهم : أن نعم .
فإن بعث إليكم اليهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم
منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج من عند قریش حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان إنكم
أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلى ، ولا أراكم تهملونى . قالوا : صدقت
ما أنت عندنا بمتهم . قال : فاكتموا عني . قالوا : نفعنا . ثم قال لهم مثل
ما قال لقریش وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان وروثوس غطفان إلى بنى فريظة
عكرمة بن أبي جهل في نفر من قریش وغطفان . فقال لهم : يا لئس ، بدار
مقام ، هلك الخلف والحافر ، فأعدوا للقتال حتى يحضر محمداً ونهزم
بما بيننا وبينه .

فقلت اليهود : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدثت فيه بعضنا فيما مضى حدثاً فأصابهم ما لم يخفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهائن من رجالكم يكونون بأيدينا حتى نثق بكم في حربنا لمحمد ، فإننا نخشى إن اشتدت عليكم الحرب وحى القتال أن تعودوا إلى بلادكم وتركونا والرجلَ في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت الرسل إليهم بما قالت بنو قريظة ، لم يعد لدى القوم شك فيما قال نعيم ، قالوا : والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق . فأرسلوا ثانية إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقلت بنو قريظة عنده ما تأكد لديها أن قريشاً وغطفان لا تدفع إليهم رهائن : إن الذى ذكر نعيم بن مسعود لحق ، فما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتزوها ، وإن كان غير ذلك عادوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم . فأرسلوا إلى قريش وغطفان أنهم لا يقاتلون معهم إلا إذا أعطوهم رهائن ، فأبت قريش .

وما هى إلا ساعات حتى انقلب الجو عاصفاً رهيباً لم يشهد القوم عاصفة مماثلة من قبل ، وما أتت عليهم ليلة قط أشد منها ظلمة ولا أشد منها ريحاً ، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة ما كان يرى أحدهم منها لإصبعه . واشتد تهطال المطر وزفرفت الريح وعلا صوتها يصم الآذان ، وراحت تضرب فى الخيام فتقتلعها ، وفى القدور فتكفوها ، حتى لقد انخلت قلوب الرجال ، وتصور لهم أن السماء ستنطبق على الأرض . وفى تلك الأثناء أدرك محمد بقوة بصيرته أن الأعداء لا بد مرتدين عنده . فنادى فى قومه وما يرى أحدهم الآخر : من رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم . فلما تباطأ عنه الرجال من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد نادى

محمد : يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ولا تسجدن شيئا حتى تأتينا .

فتسأل حذيفة ودخل في القوم وقد دخل في روعهم أن جنود الله قد نزلت من السماء تحارب مع محمد . فإذا به يسمع طليحة بن خويلد وهو ينادى : إن محمداً قد بدأكم بشر . فالنجاة النجاة ! وسمع أباسفيان يقول : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الخيل والإبل . وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره . ولقينا من شدة الريح ما ترون . ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا فإني مرتحل . وقامت قريش فارتحلت وتبعها غطفان وجوعها . وعاد حذيفة فأخبر محمداً أنهم يرتحلون .

وما أن أطلت تباشير الصبح وتبين الناظر إلى حيث كان الأعداء معسكرين صورة الأشياء . حتى تأكد لمحمد وللمسلمين أن القوم قد ارتحلوا غن بكرة أبيهم . وأصبحوا أثراً بعد عين .

وأنزل الله تعالى قوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . » (١) إلى أن قال « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا حيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . » (٢) ومعنى هذا أن المؤمنين لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم بل صرفهم القوى العزيز بحوله وقوته . وانصرف محمد عائداً إلى المدينة وهو يقول . « لا إله إلا الله وحده . صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فلا شيء بعده . »

الفصل الثالث عشر

غزوة بني قريظة

لما أصبح محمد ورأى جموع الأحزاب قد ولت الأدبار ، انصرف المسلمون عن الخندق عائدين إلى المدينة ، فوضعوا السلاح ، وحمدوا الله على ما أولاهم من فضاه . غير أن جبريل أتى الرسول يحدثه كما كان يأتيه بالوحي ، فقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت إلا الآن من طلب القوم ، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، فإنى عامد إليهم فزازل بهم . وهؤلاء الملائكة الذين أشار إليهم جبريل بقوله إنهم لم يضعوا السلاح بعد ، هم الذين أشار إليهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » (١) .

أمر محمد من توه بلالا أن يؤذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّينَ العصر إلا في بني قريظة . وأعطى لواءه لعل بن أبي طالب وأمره بالتقدم إلى بني قريظة ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم . فتقدم الناس من كل صوب متجهين إلى بني قريظة ورسول الله في أثرهم على حماره . وما أن مالت الشمس للغروب حتى كانت جموع المسلمين قد توافدت على بني قريظة أفواجا حتى باغت عند العشاء ثلاثة آلاف مقاتل . ولما رأى على بن أبي طالب محمداً مقبلاً ، تلقاه وقال : ارجع يا رسول الله فإن الله كافيك اليهود . وكان على قد سمع منهم قولاً سيئاً لمحمد وأزواجه ، فكره على أن يسمع شيئاً من هذا . فقال محمد : ولم تأمرني بالرجوع ؟

فكتمه على ما سمع منهم فقال : أظنك سمعت فيّ منهم أذى ، فامض فإن أعداء الله لو رأوني لم يقولوا شيئاً مما سمعت .

فلما نزل عليهم بحصنهم . وكانوا في أعلاه . نادى بأعلى صوته نقرأ من أشرفهم حتى أسمعهم فقال : أجيئوا يا معشر يهود ، يا إخوة القردة والخنزير ، قد نزل بكم خزي الله عزّ وجل . فقالوا : يا أبا القاسم لم تكن فحاشاً . غير أنه اشتد عليهم وأمر أصحابه بمحاصرتهم ، فحاصروهم وشدّ دوا عليهم الحصار . ونزل هو على بئر من آبار بني قريظة من ناحية أراضهم يقال لها بئر أنسى ، واعتصم اليهود في حصنهم لا يقوون على الخروج ، ولا يستطيع أحد اقتحام الحصن خساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب ، ولم يعد مفر من التسليم .

فلما أيقن اليهود أن محمداً سوف لا ينصرف عنهم حتى يبلغ منهم ما يريد ، وأنهم سوف لا يحمّلون مشقة الحصار بعد ذلك . قال لهم رئيسهم كعب بن أسد : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون . وإنى عارض عليكم خلافاً ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها . قالوا : وما هن ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل . وأنه للذي تجدون في كتابكم ، فتأمنون على دماءكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيت على هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا . ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف . لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عايبه . وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء .

قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟ !

قال : فإن أبيت على هذه . فالليلة ليلة السبت . وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها . فانزلوا علينا نصيب من محمد وأصحابه عرّة

قالوا : أنفسد سبتنا ونحْدِث فيه ما لم يُحْدِث فيه من كان قبلنا ، إلا من قد علِمْت فأصابه ما لم يخفَ عنك من المسخ .

فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازماً .
ثم إنهم بعثوا إلى محمد أن ابعث إلينا أبا لُبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاءهم ، نستشيره في أمرنا .

فأرسله محمد إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرقّ لهم ، فلما سألوه : يا أبا لُبابة ، أترى أن نزل على حكم محمد ؟ قال : نعم . وأشار بيده إلى حاقه أنه الذَّبْح .

فلما فعل ذلك أبو لُبابة ندم ندماً شديداً على خيانتة لمحمد واطلاعه اليهود على حكمه فيهم ، وانطلق على وجهه حتى أتى مسجد الرسول فارتبط إلى عمود من عمده ، وقال : لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعت . وظلّ مرتبطاً على هذا الحال ست ليال ، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله ليتوضأ ويصلي ثم يرتبط ، حتى نزلت توبته في قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم . » (١) .

فلما تباطأ اليهود في إجابة محمد إلى طلبه بالتسليم والنزول على حكمه ، صاح عليّ بن أبي طالب قائلاً : يا كنيبة الإيمان . وتقدم هو والزبير بن العوام وقال : والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو أفتحمن حصنهم . فأرسل اليهود إلى حلفائهم من الأوس أن يأخذوا لهم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم بني قَيْسُقَاع . عندئذ قالت الأوس : يا رسول الله إنهم كانوا حلفاءنا وقد فعلت مع حلفاء إخواننا الخزرج بالأمس ما قد علمت حين سألت فيهم عبد الله ابن أبيّ ، يشيرون بذلك إلى عفوهم عن بني قَيْسُقَاع والاكْتفاء بإجلالهم . فقال محمد : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا :

بلى . قال : فذلك إلى سعد بن مُعَاذ . وقبل اليهود حكم سعد بن معاذ فيهم ، وقد ظنوا أنه على الرغم من خيانتهم للمسلمين وعلى الرغم من مشائمتهم معه عند ما أوفده محمد إليهم ليذكروهم بخلفهم معه الذي خانوه ، فإنه استجابة لزعزعات العرب ، سوف لا يقبل أن يعامل حلفاؤه بأقل مما عومل به حلفاء عبد الله بن أبيّ ، وأنه سوف يحكم بإجلالهم فحسب .

أرسل محمد إلى سعد بن مُعَاذ وكان جريحاً يداوى في مسجد الرسول لثُر جرح أصيب به في شريان يده في غزوة الخندق . فأتاه قومه من الأوس فحملوه على حمار وقد وضعوا تحته وسادة من جلد ، وكان رجلاً جسيماً جميلاً ، ثم أقبلوا معه إلى محمد وهم يقولون له : يا أبا عمرو أحسن في حلفائك . فلما ألحوا عليه وأكثروا قال : قد آن لسعد إلاّ تأخذه في الله لومة لائم .

وعند ذلك رجع بعض من كان معه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد . وقبل أن يصدر حكمه فيهم ، وذلك استنتاجاً من تلك الكلمة التي قالها سعد .

فلما انتهى سعد إلى محمد والمسلمين ، قام المسلمون إليه وقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر حلفائك لتحكم فيهم . فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت ؛ فقالوا : نعم . قال : وعلى من هاهنا . ونظر في الناحية التي فيها محمد وهو معرض عنه لإجلاله . فقال محمد : نعم . فلما أخذ هذه المواثيق أمر بني قريظة أن ينزلوا ويسلموا سلاحهم ، ففعلوا .

فأصدر سعد حكمه وهو أن يقتل الرجال ، وأن تسبي النساء والأطفال ، وأن تقسم الأموال .

فقال محمد : لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله .
ومصدق هذا ما جاء في الكتاب الكريم : « وَرَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ

لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً» (١) يشير إلى الأحزاب . « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب (أى بنى قريظة) من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطوئوها وكان الله على كل شيء قديراً . » (٢)

أنزل اليهود من حصنهم وقبض عليهم ، وكانت يدا الرجلان تجمعان إلى عنقه بجبل ، وحبسوا انتظاراً لتوقيع العقوبة فيهم . ثم خرج محمد إلى سوق المدينة فخذق بها خنادق ، ثم استحضرهم أفواجاً فضرب أعناقهم في تلك الخنادق - وكانوا ستمائة أو سبعمائة ، وقال المكثرون ثمانمائة أو تسعمائة وقيل أربعمائة - ودفنوا فيها .

والحق أن هؤلاء اليهود قد أظهروا من الشجاعة النادرة . والصبر المدهش على هذه المحنة ، والحلّد أمام القتل ما يحسدون عليه . عندما أتى بحبي بن أخطب وهو مجموعة يدها إلى عنقه ، وكان قد دخل حصنهم بعد رجوع الأحزاب وفاء بعهدده لكعب بن أسد أن يشاطرهم المصير إذا ما ارتدت الأحزاب عن المسلمين ، قال له محمد : ألم ينزك الله يا حبي ؟ قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنني من يخذل الله يُخذل .

ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة (٣) كتبها الله على بنى إسرائيل ! ثم جلس فضربت عنقه .

أما الزبير بن باطا فكان شيخاً كبيراً قد عمى ، وكان قد أسر يوم وقعة بُعثت بين الأوس والخزرج ثابت بن قيس بن شماس ومنّ عليه وأطلقه ، فأراد ثابت أن يكافئه في ذلك اليوم فجاءه فقال : هل تعرفني يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : وهل يجهل مثلي مثلك . فقال له ثابت : أريد أن أكافئك . قال : إن الكريم يجري الكريم .

(١) الأحزاب ٢٥ . (٢) الأحزاب ٢٦-٢٧ .

(٣) الملحمة : الوقعة الشديدة في الحرب .

فجاء ثابت إلى محمد واستطلقه الزبير بن باطا فأطلقه له ، فجاءه ثابت فأخبره . فقال الزبير : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ! فذهب ثابت إلى محمد فاستطلق له امرأته وولده ، فأطامهم له . ثم جاءه فقال الزبير : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابت إلى محمد فاستطلق مال الزبير فأطلقه له .

ثم جاءه فأخبره فقال : يا ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية تراعى فيها عذارى الحى . كعب بن أسد ؟ قال : قُتِل .

قال : فما فعل سيد الحاضر والبادى حِيّ بن أخطب ؟ قال : قُتِل . قال : فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا ، عزّال بن شموال ؟ قال : قُتِل .

قال : فما فعل المجلسان ؟ يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة . قال : ذهبوا فقتلوا .

قال : فلانى أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر والله إفراغة دلو حتى ألتى الأحبة . فقدمه ثابت فضربت عنقه .

ولم يقتل من نساء بنى قريظة غير امرأة واحدة كانت قد قتلت خلاد ابن سويد الخزرجى إذ طرحت عليه رجا فشدخته شدخاً شديداً . وكان المسلمون لا يقتلون النساء والأطفال ولكنها قتلت به . وتروى عائشة أنه عند ما هتف هاتف باسمها قالت لها : ويحك مالك . قالت : أقتل ! قالت عائشة : ولم ؟ قالت : لحدث أحدثه . فانطاق بها فضرب عنقها . وكانت عائشة تقول : فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تُقتل !

أما الصبيان فإنهم فرقوا بين البالغ منهم وغير البالغ بمن أنبت ، أى بمن حشن شعر عانته . فقدم فقتل .

وبعد أن فرغ محمد من قتل الرجال ، قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج الخُمس . وقسم للفارس ثلاثة أسهم ، سهمين للفارس وسهماً للفارس ؛ وكانت الخيل يومئذ ستاً وثلاثين ، وقسم للراجل سهماً ، ثم بعث سعيد بن زيد بعدد من سبايا بني قريظة إلى نجد فباعهم واشترى خيلاً وسلاحاً . ثم إنه اصطفى من نساءهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة ، إحدى نساء بني عمرو بن قريظة ، وكان قد عرض عليها الإسلام ، فامتنعت ، ثم أسلمت بعد ذلك ؛ فسر بإسلامها وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها . فاختارت أن تستمر على الرِّق ليكون أسهل عليها ، وظلت في ملكه حتى توفي

الفصل الرابع عشر

زواج النبي بزینب بنت جحش

التي ولي الله عمده زواجها

تزوج محمد في أعقاب غزوة بني قريظة من زينب بنت جحش ، وكانت زينب زوجاً لمولاه وابنه بالتبني زيد بن حارثة . ويحمل بنا هنا أن نذكر قصة زواجها من زيد ، ثم تطليقها وسببها ، ثم كيفية زواجها من محمد ، من غير إطالة ومن غير إفاضة في ذكر سخافات المرجفين وضلالات المضللين من أعداء الإسلام ، ومن غير أن نخوض في بعض أقوال كثير من السلف الصالح الذين لم يفهموا هم أيضاً مغزى هذا الزواج ، وراحوا ينسجون قصصاً كانت في واقع الأمر النواة التي نسج من حولها المبشرون النصارى والمستشرقون من أعداء الإسلام طعونهم في نبي الإسلام .

لما أراد النبي أن يُزوج مولاه وابنه بالتبني زيد بن حارثة ، اختار له زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب . فأتى أهلها ليخطبها ، غير أنها رفضت رفضاً باتاً وقالت : لا أتزوجه أبداً وأنا سيدة أبناء عبد شمس . ورفض أخوها عبد الله بن جحش ، بطبيعة الحال ، لأن العرب كانوا حريصين جداً على تزويج بناتهم من أكفاء لمن ، ولم تكن المرأة أقل حرصاً من الرجل على التمسك بهذا التقليد . ثم لأنهم كانوا يتبرون الزواج من الموالى - وإن اعتقوا - أمراً يباحق بهم عاراً كبيراً . غير أن الإسلام كان في ذلك الوقت قد وضع معياراً جديداً للشرف بين الناس في هذه الدنيا هو قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »^(١) . وإذن كانت التقوى في شريعة الإسلام

هي المعيار الذي يَشْرُفُ به الرجل . لاحسبه وسبه . ولا لونه وجنسه .
فاما رفض أهلها ونزلت الآية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى
الله ورسولُهُ أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ومن يعص الله ورسوله
فقد ضل ضلالاً مبيناً »^(١) . لم يعد مفر من إطاعة الله ورسوله وتزويج زينب
بزيد بن حارثة .

غير أن زينب تزوجته وهي كارهة ، وكانت تؤذيه ، ويقول بعض
كتاب السيرة إنها ظلت عنده سنة أو أكثر عذراء لم يمسه . وكان زيد
دائم الشكوى منها لمحمد . ودائم الحديث له عن رغبته في تطليقها ،
وكان محمد ينهاه عن ذلك ويقول : « أمسك عليك زوجك واتق الله »
لأن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

ثم إن محمداً عَلِمَ أنه سيتزوجها ، وهذا معنى تفسير قوله تعالى « وتحنى
في نفسك ما الله مبديه »^(٢) أى تحنى في نفسك علمك بأنك ستتزوجها بأمر
الله سبحانه وتعالى .

غير أن الزواج من مطلقة الابن بالتبني كان محرماً عند العرب . فاما
نزلت الآية : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولاكن رسول الله وخاتم
النبين وكان الله بكل شيء عايماً »^(٣) ، وهي من آيات التنظيم الاجتماعى
الذى حرم التبني على المسلمين ، لم يُعد حرج على النبي أن يتزوج من زينب
بنت جحش . وصار زيد ينادى باسمه القديم « زيد بن حارثة » بدلا من
« زيد بن محمد » وكان قد طاقها .

فلما انقضت عدتها بعث محمد زيد بن حارثة ليخطبها له . فانطلقت
حتى أتاها وهي تخمَّرُ عجينها فقال لها : يا زينب أبشرى ، أرسلنى

(٢) الأحزاب ٣٧ .

(١) الأحزاب ٣٦ .

(٣) الأحزاب ٤٠ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أواجه ربى عز وجل ، ثم قامت إلى مسجدها . ونزل القرآن :
« وإذ تقولُ للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه (أى زيد بن حارثة) أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً . ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خاتوا من قبله وكان أمر الله قدراً مقدوراً » (١) .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم إلهها بعد نزول هاتين الآيتين ودخل عليها بغير إذن . ذلك أنه أصبح زوجها بلا عقد ولا شهود من بنى البشر ، فقد تم الزواج بنزول هاتين الآيتين ، وكان الله وليها في العقد وجبريل شاهده . وكانت زينب تقول لمحمد : إني لأدُلُّ عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدُلُّ بهن ، أن جدى وجدك واحد - تعنى عبد المطلب - وأنى أنك حينك الله عز وجل من السماء ، وأن السفير جبريل عليه السلام .

وفي صديحة عرسها نزلت آية الحجاب موافقة لرأى عمر بن الخطاب ، إذ كان عمر كثيراً ما يذكر الحجاب ويقول : لو أطاع فيمكن ما رأتهن حين . فنزل قوله تعالى : « وإذا سألتوهنَّ (أى زوجات النبي) متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذاكم أطهر أقوا بهن وقاوهن » (٢) .

فلما نزلت هذه الآية قال بعض المسلمين : أنشئ أن تكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لأتزوجن عائشة !

فقال تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تكلموا أزواجه من بعده أبداً إن ذاكم كان عند الله عظيماً » (٣) .

(٢) الأحزاب ٥٣ .

(١) الأحزاب ٣٧ - ٣٨ .

(٢) الأحزاب ٥٣ .

أما المؤمنات من غير أزواج النبي فنزل فيهن قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يُبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمُرهن على جيوبهن ولا يُبدين زينتهن إلا لبُعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناءهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (١) .

وكانت النساء في الجاهلية وصدور الإسلام يكشفن عن صدورهن وأذرعهن ويتسدين مفاتنهن . فنزلت الآية : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُبدلن عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن ولا يُؤذَيْن وكان الله غفوراً رحيماً » (٢) والمقصود بقوله : « أن يُعرفن » أي أن يعرفهن الشبان ويفرقون بينهن وبين الإماء ؛ ذلك أن الفتيان كانوا يتعرضون لمغازلة النساء إذا ما خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان .

الفصل الخامس عشر

من غزوة بني قريظة إلى غزوة الحديبية

انطبع تاريخ الإسلام بعد الهجرة بطابع حربي جداً ، وأصبح عبارة عن سلسلة من الحروب الصغيرة والكبيرة . فهل الحرب طبيعة في الدين الإسلامي أم أن الظروف التي نشأ فيها هي التي أملت هذه الضرورة ؟ أما الحقيقة الماثلة التي نستطيع تبيينها فتدلنا أبلغ دلالة على أن الدين الإسلامي ينهى نهياً مطلقاً عن العدوان « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »^(١) . وهذا المفهوم جوهر ثابت في أصول هذا الدين لا شك في ذلك . ولكن الدين الإسلامي في مفهومه الأسمى وفي جوهره الخالص يدلنا أيضاً ، وبطريقة لا مبرية فيها ، على أنه دين الفطرة ودين الحياة . والحق أنه ما كان ينبغي له أن يكون شيئاً غير ذلك ، وما كان ينبغي له أن يكون فيه شيء غير ما في الحياة ذاتها ، وبكل ما نفهم من معاني الحياة ، وما تنطوي عليه الحياة وما ينطوي عليه الاجتماع الإنساني من مبادئ تُسیر الحياة وتحكم الاجتماع . ولأن الإسلام دين الحياة ودين الفطرة ، فليس غريباً بأية حال ولا بأى منطق أن نرى هذا الدين وقد تبلور بالصورة التي تحتّمها الحياة ، وتحتّمها ظروف المجتمع الذي نشأ فيه ، والتي اضطرت مؤسسه الكريم اضطراراً إلى أن يتبع المبادئ التي تحكم الناس الذين يعايشهم .

كان لزاماً على محمد ، وهو يقود المسامتين ويؤسس دولة وديناً في مثل الظروف والبيئة التي وجد فيها ، أن يعامل الناس بالطريقة المثلى التي يفهمونها والتي يحترمونها . ولذلك كان لزاماً عليه أن يكون حربياً ، بل حربياً جداً في تلك البيئة العنيفة التي قست على الناس فطبتهم بطابع العنف

والقوة . وأى عجب فى ذلك فى مجتمع يؤمن بالقوة ويؤمن بان القوى هو الأعظم وأنه الأقدر على الحياة ، بل الأصلح للحياة ، وأنه هو الذى يلبغى أن يدين له الآخرون ويقدموا له فروض الولاء والطاعة ليؤمنوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم .

وهنا يقف أعداء الإسلام من المبشرين ويرفعون أصواتهم عالية ليقولوا إن الإسلام دين السيف ودين العنف وأنه دين حربى ، ويحاولون من ثمة أن يجدوا فى ذلك مطعناً على الإسلام . ونحن لا نريد أن ندخل فى مجادلات مع هؤلاء دفاعاً عن الإسلام ، وإنما يكفى أن نقول مثلاً إن الإنسانية لم تعرف ديناً ارتكبت باسمه الحروب وأريقت باسمه الدماء مثل اليهودية أو المسيحية . ولا يغرثك دعاية المسيحيين التى يقيمونها حول النص القائل « من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً » (متى ٣٩/٥) لأن المسيحيين لم يعملوا قط بهذا النص ، وإنما عملوا بنص آخر نسخ هذا النص هو « ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً » (متى ٣٤/١٠) . والحقيقة الماثلة هى أن كبار اللاهوتيين قد بذلوا آلاف المحاولات للتوفيق بين النصين خدمة للتبشير فلم يوفقوا . أما اليهودية ، فإن التوراة مليئة بالتحريض لا على الغزو بل على إباد الشعوب . ثم إننا لا يجب أن ننسى أيضاً أن المسيحية ليست نقضاً لليهودية ، فالمسيح عليه السلام يقول : « ما جئت لأنقض (الناموس) بل لأكمل » (متى ١٧/٥) .

إذن فالإسلام من هذه الوجة لم يخرج فى طبيعته عن طبيعة الدين المسيحى - إلقاء السيف لإحلال السلام . ومن ثمة كان لزاماً على محمد أن يبذل أقصى جهده ، فى بيئة لا تعرف غير القوة ، لينال احترام الناس . ماذا كان ينبغى له أن يفعل غير ما فعل ليجبر هذه الأقوام على احترامه وإلزامها حدود الطاعة الواجبة نحوه ونحو تابعيه ، حتى لا يتعرض من هنا أو من هناك إلى عدوان هؤلاء الأقوام عليه وعلى أتباعه ؟

والحق أنه ينبغى لأى قائد فى أى مكان أو زمان أن يتصرف مع الناس

الذين يعايشهم بالطريقة المثلى التي يقدرونها حق قدرها ، والتي يقتنعون بها ، وإلا لكان نصيبه الفشل لا شك في ذلك ، لأنه إن لم يقنع الذين يعايشهم بالطريقة المثلى التي تؤثر في نفوسهم وتكبحها لما استطاع أن يحافظ على نفسه هو ولا على النظام الذي يقيمه . ونحن نعلم أن العرب عاشوا في شبه جزيرتهم في قبائل منفصلة تماماً وكأنها جمهوريات مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال ، إن لم تتحالف وتتعاهد هذه وتلك لم يعد بينهما من رادع أياً كان يمنع أياً من الطرفين من الإغارة على الآخر واستباحته . وهذا قانون لم يضعه للعرب ولم ينتهجوه بدعة بين شعوب الأرض - أى قانون بقاء الأصلح أو أكل الأقوى للأضعف - فهذا قانون سارت على هديه الإنسانية منذ كانت ، ولا تزال تسير عليه في أزهي عصورها ، ومع وجود منظمة دولية اسمها الأمم المتحدة تحاول الشعوب عن طريقها جاهدة أن تضع حداً لهذا للقانون فلم تفاجح .

لم يكن من مندوحة إذن لمحمد إذا أراد أن ينتصر ، وإذا أراد لدينه أن ينتشر من أن يدافع عن نفسه في هذه البيئة بأصلح الأسلحة المؤثرة فيها ، وهي رد الصاع صباغين ، وإشعار القبائل التي لا تدين بدينه وليس بينها وبينه موادة أنه قادر على ردها وغزوها ، وأنه قادر على قهرها وعلى حماية دولته ودينه من طغيانها .

استأنف سياسة الردع هذه بعد غزوتي الخندق وبنى قريظة فوراً . فأرسل في المحرم من السنة السادسة محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب ، وتقع منازلهم على بعد سبع ليال من المدينة في طريق البصرة بناحية ضربة . وكان يسير الليل ويكن النهار إلى أن بلغ ديارهم فدهمهم وقتل منهم عشرة وفر الباقون فاستاق مواشيهم وقفل راجعاً إلى المدينة . وبينما هو وأصحابه في بعض الطريق التقوا بثمامة بن أثال من عظماء بنى حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه . فلما قدمه له محمد عرفه وعامله

بحكمة كما كان يعامل الرؤساء ، فأطلق إيساره وأكرمه وإن أعرض عن الإسلام وأبى الدخول فيه ؛ فلما خلا ثمامة إلى نفسه وراجعها ، أثرت في نفسه هذه المعاملة وملكته عاياه كل مشاعره ، فارتد إلى محمد وأسلم بين يديه وهو مختار لا مكره وخاطبه قائلاً :

« يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ . والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلىّ من دينك فقد أصبح أحب الدين كله إلىّ . والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فقد أصبح أحب البلاد إلىّ » .

ثم إن قدّم ثمامة رسخت في الإسلام في أثناء حياة محمد وبعد مماته . ففي أثناء حياته تحدى قريشاً ، وبعد وفاته وقد ارتد أكثر أهل بلاده عن الإسلام ، تصدى ثمامة لمُسَيْلَمَةَ الكذاب ونهى قومه عن الارتداد ، فكان يقول لهم : إياكم وأمرًا مظلماً لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه . فثبت معه الكثيرون .

وفي ربيع الأول ، عقد محمد العزم على الخروج لبني لحيان للنار منهم في مقتل أصحابه عاصم بن ثابت ورفاقه أصحاب الرجيع الذين مرّ ذكرهم . فخرج في مائتي راكب واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وسلك طريق الشام حتى يُعَمِّي على الأعراب مقصده ، وحتى لا يعلم بنو لحيان بمقدمه ، ثم ارتد نحو الجنوب وأسرع المسير ليلحق ببني لحيان ويأخذهم على غيرّة . غير أنه عندما نزل بأرضهم وجدهم تركوا ديارهم وتمنعوا في رعوس الجبال . فأقام بديارهم يومين وأرسل بعضاً من أصحابه إلى عسفان ، وهو موضع قرب مكة ، وكان يقول : لو أنا هبطنا عسفان لرأت قريش أنا قد جئنا مكة . ثم إنه لم يأت كيداً ، لا هو ولا أصحابه ، فرجع إلى المدينة .

وبعد عدة أيام من عودته أغار عُبَيْيْنَةُ بن حصن الفزاري في جمع من

غَطَفَانِ عَلَى عَشْرِينَ نَاقَةً حَلُوبًا لِلنَّبِيِّ كَانَتْ تَرعى بِالغَابَةِ ، (وَهُوَ مَوْضِعٌ عَلَى بَرِيدٍ مِنَ الْمَدِينَةِ بِجِهَةِ غَطَفَانَ) وَفِيهَا رَجُلٌ مِنْ غَفَارٍ وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ ، فَقَتَلُوا الرَّجُلَ وَأَخَذُوا الْمَرْأَةَ وَالنِّبَاقَ . حَدِثَ هَذَا فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ، وَكَانَ سَلَامَةُ ابْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَكْوَعِ الْأَسْلَمِيِّ قَدْ خَرَجَ يَرِيدُ الْغَابَةَ مَتَوْشِحًا قَوْسَهُ وَسَهَامَهُ وَمَعَهُ غَلَامٌ لَطِيفٌ بِنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَمَعَهُ فَرَسٌ لَهُ يَقُودُهُ . فَمَا أَنْ عَلَا نَدِيَّةُ الْوَدَاعِ إِذْ رَأَى بَعْضَ خِيُولِ الْقَوْمِ وَقَدْ اسْتَأَقُوا الْإِبِلَ ، فَاعْتَلَى صَخْرَةً نَاحِيَةَ جَبَلٍ سَلَعٌ لِيُسْمِعَ الْمَدِينَةَ وَصَبَّاحٌ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : وَاصْبَاحَاهُ ! ثُمَّ امْتَطَى فَرَسَهُ وَأَقْدَمَ يَعْدُو نَحْوَهُمْ وَكَانَ مِثْلَ السَّبْعِ ، حَتَّى لَحِقَ بِهِمْ ، وَجَعَلَ يَرْمِيهِمْ بِالسَّهَامِ وَهُوَ يَقُولُ :

خُذْنَاهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ الْيَوْمَ يَوْمَ الرُّضْعِ (١)

فَإِذَا ارْتَدَّتِ الْخَيْلُ نَحْوَهُ ، انْطَاقَ هَارِبًا بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ وَهُوَ يَرْمِيهِمْ بِسَهَامِهِ لِيَرُدَّهُمْ عَنْهُ ، وَكَانَتْ الْخَيْلُ إِذَا دَخَلَتْ بَعْضَ الْمَضَائِقِ بَيْنَ الْجِبَالِ تَحَايِلُ حَتَّى يَعْلُو الْجَبَلَ وَيَلْحَقَهُمْ فَيَلْتَقِي عَلَيْهِمُ الْحِجَارَةَ .

ثُمَّ إِنَّ صَبَّاحَ ابْنِ الْأَكْوَعِ بَلَغَ مُحَمَّدًا فَصَرَخَ بِالْمَدِينَةِ : الْفَرَزَعُ الْفَرَزَعُ ! فَتَرَامَتْ إِلَيْهِ فَرَسَانِ الْمُسْلِمِينَ سَرِيعًا كَأَنَّهُمْ عَلَى أَجْنَحَةِ الرِّيحِ يَتَسَابِقُونَ لِنَصْرَتِهِ ، فَكَانَ الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ أَوَّلَ مَنْ انْتَهَى إِلَيْهِ مِنَ الْفَرَسَانِ . فَمَا أَنْ تَجْمَعُ إِلَيْهِ ثَمَانِيَةَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ وَأَبُو عِيَاشَ ، حَتَّى أَمَرَ عَلَيْهِمُ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ وَأَمْرَهُمْ بِالْخُرُوجِ فَوْرًا فِي طَلَبِ الْقَوْمِ حَتَّى يَلْحَقُوا بِهِمْ . وَقَالَ لِأَبِي عِيَاشَ : يَا أَبَا عِيَاشَ ، لَوْ أُعْطِيتُ فَرَسَكَ لِرَجُلٍ هُوَ أَفْرَسُ مِنْكَ . فَقَالَ أَبُو عِيَاشَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَفْرَسُ النَّاسِ . وَأَطَاقَ لِفَرَسِهِ الْعَنَانَ فَمَا جَرَى بِهِ إِلَّا خَمْسِينَ ذِرَاعًا حَتَّى سَقَطَ ، فَأَعْطَى مُحَمَّدٌ فَرَسَهُ لِمُعَاذِ بْنِ مَاعِصٍ . وَتَلَاحَقَتْ الْخَيْلُ تَجْمَعُ فِي أَثَرِ الْقَوْمِ .

وَتَبِعَهُمْ مُحَمَّدٌ عَلَى رَأْسِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَخَافَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنُ

(١) أَي يَوْمَ هَلَاكِ النَّامِ .

أم مكتوم . فإذا بهم يرون في بعض الطريق قتيلاً عليه بُردُ أبي قتادة ، فاسترجع الناس وقالوا : قُتِلَ أبو قتادة . فقال محمد : ليس بأبي قتادة . ولكنه قتيل قتله أبو قتادة ووضع عليه بُردَه لتعرفوا أنه صاحبه . واستطاع الفرسان أن يستنقذوا بعض النياق ، ونزل محمد بالجبل عند ماء يقال له ذو قرد ، ولحقه الناس فأقام يوماً وليلة . وذبح لكل مائة بعيراً وشوى له بلال من الكبدة والسنام .

فلما أصبحوا أردف محمد سلمة وراءه على بعيره ووجهوا راجعين إلى المدينة . فلما كان بينهم وبينها قريب من ضحوة ، نادى رجل من الأنصار كان لا يُسبَق : ألا من مسابق ؟ ألا رجل يُسابق إلى المدينة ، وأعاد ذلك مراراً ، فرد عليه سلمة وهو خلف محمد على بعيره : أما تُكريم كريماً ولا تهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال سلمة لمحمد : يا رسول الله بأبي أنت وأمي خلّسني فلاسابق الرجل . قال : إن شئت ، فوثب سلمة عن الناقة ثم جرى خلف الرجل فلاحقه وضرب بين كتفيه بيده وقال : سبقتك والله . وضحك الرجل وقال : أظن ذلك . وهكذا كانت حياتهم مع محمد ، سهلة طبيعية فيها إخاء ومودة .

فلما قدموا المدينة أقبلت على محمد امرأة الرجل الغيفاري الذي كان يرعى النياق وهي على ناقة من نياقه ، وأخبرته كيف حدثت الغارة ، فلما فرغت قالت : يا رسول الله إني قد نذرت الله أن أنحر هذه الناقة إن نجاني الله عليها .

فتبسّم محمد وقال : « بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها ، إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا يملكين . إنما هي ناقة من إبلى ، فارجمي إلى أهلك على بركة الله » .

وفي تلك الأثناء أي في أعقاب غزوة الخندق التي ألب فيها يهود خيبر العرب على المسلمين وجمعوا لهم هذا الجمع الكبير ابتغاء استئصال شأفتهم ،

لم ينس محمد بطبيعة الحال أنه من الضروري لردع هؤلاء أن يقدم المسلمون على عمل يشعرونهم به أنهم لهم بالمرصاد .

كان سلام بن أبي الحقيقتى التاجر اليهودى ، فيمن حزّب الأحزاب على محمد ، فجاءت الخزرج تستأذن محمداً قى قتله ، ذلك أن الأوس هم الذين قتلوا من قبل كعب بن الأشرف اليهودى ، وكانت الأوس والخزرج تتصاولان تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن الرسول إلا وقالت الخزرج : والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله . فلا ينتهون حتى يفعلوا مثلها . وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك .

فلما أرادت الخزرج أن تصنع صنيعاً مشابهاً لصنيع الأوس إذ قتلت ابن الأشرف ، تذكروا أبا رافع سلام بن أبي الحقيقتى ، وكان تاجراً ثرياً مشهوراً بأرض الحجاز يعيش فى قصر له فى أرض خيبر . فاستأذنوا محمداً فى قتله فأذن لهم ، ونهاهم عن أن يقتلوا وليداً أو امرأة . فخرج إليه خمسة رجال من بنى سلمة ، فأتوه حتى قاموا على بابه فاستأذنوا ، فخرجت إليهم امرأته فأخبروها أنهم أناس من العرب ياتمسون الميرة ، فأدخلتهم عايه فى غرفة بأعلى الدار ، فأغلقوا الباب وابتدروه بسيوفهم فقتلوه .

وفى هذه السنة ، أى السنة السادسة من الهجرة ، كثرت السرايا وكثرت المناوشات . بعث محمد فى ربيع الأول سرية على رأسها عكاشة بن محصن فى أربعين راكباً ليغير على بنى أسد . وكانوا لا يكفون عن التعرض بالإيذاء للمسلمين الذين يمرون بديارهم . غير أنهم علموا بمقدمه فهربوا ، فلم يجد أحداً غير رجل نائم ، فأمنه أيدهم على مواشى القوم ، فدلهم عليها فاستاقوها ، وهى مائة بعير ووقفوا راجعين إلى المدينة لم يتعرض لهم أحد .

وفى ربيع الأول بلغه أن جماعة بنى القصة ، وهى موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة فى طريق الربذة ، يريدون الإغارة على

مواشى المسلمين التي ترعى بالهيفاء قرب المدينة . فأرسل لهم محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين ، وصلوا ديارهم ليلاً . وكان القوم قد علموا بهم فكمنوا لهم حتى إذا ما نام المسلمون هجموا عليهم يرمونهم بالسهام ، فوثبوا يريدون أسلحتهم ، إلا أنهم غلبوا فقتلوهم إلا محمد بن مسلمة ، تركوه ظناً منهم أنه قتل . فعاد إلى المدينة وأخبر محمداً خبر أصحابه ، فأرسل إليهم في ربيع الآخر من نفس السنة أبا عبيدة بن الجراح ليقتص منهم ، فوجدهم قد تشتتوا فاستاق مواشيهم .

وفي ربيع الآخر أيضاً أرسل زيد بن حارثة لبنى سليم ، وكانوا من المتحزبين في غزوة الخندق ليغير عليهم في الجموم ، فلما بلغ منازلهم وجدهم قد تفرقوا ، غير أنهم وجدوا امرأة هناك فدلتهم على مواشيهم فاستاقوها وأسروا بعض الرجال .

ثم إنه بلغ النبي في ذلك الحين أن قافلة لقريش أقبلت من الشام ، فأرسل زيد بن حارثة لاعتراضها ، فتمكن منها وأخذها جميعاً وأسر حراسها وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت محمد ، فاستجار بزینب فأجارته ، ورد محمد عليه كل تجارته لم يفقد منها شيئاً ، فعاد إلى مكة وأدى لكل ذى حق حقه ، ورجع إلى المدينة فأسلم فرد عليه محمد زوجه كما سبق بيانه .

وفي جمادى الآخرة أرسل محمد زيد بن حارثة أيضاً في خمسة عشر رجلاً ليغيروا على بنى ثعابة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة ، فأقدموا عليهم وهم في الطرف ، وهو ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة في طريق العراق ، فخيّل لهم أنهم طابعة جيش كبير ، ففروا وتركوا مواشيهم فاستاقها المسلمون ورجعوا .

وفي رجب من نفس هذه السنة أيضاً ، أرسل زيد بن حارثة للانتقام من بنى فزارة لتعرضهم له وهو راجع بتجارة من الشام . وفي شعبان أرسل

عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة من الصحابة لغزو بني كلب في دومة الجندل ، وقال له إن هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم . فساروا حتى نزلوا بديارهم فدعواهم إلى الإسلام ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع أسلم رئيسهم الإصبع بن عمرو النصراني ، وأسلم معه جمع من قومه ، فتزوج عبد الرحمن ابنته تماضر .

وفي شعبان أيضاً أرسل عليّ بن أبي طالب في مائة من الصحابة لغزو بني سعد بن بكر بفدك ، وهي قرية على بعد ست ليال من المدينة من جهة خيبر . وذلك لأنه باغى أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين في نظير تمر يعطونه من خيبر . وبينما المسلمون في طريقهم أسروا رجلاً من بني بكر كان يريد خيبر ، فطلبوا منه أن يدلهم على مواشى القوم وهو آمن ، فدلم عليها فاستاقوها وهرب الرعاة وخذروا قومهم فنفروا فزعاً وفرقاً . وعاد المسلمون بغنيمتهم الكبيرة ، خمسمائة بعير وألف شاة .

وبلغ أن بني المصطلق يجمعون الجموع لحربه بقيادة الحارث بن أبي ضرار ، فخرج إليهم في سبعمائة من المسلمين ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة في رواية ، أو أبا ذر الغفاري ، أو نُمَيْلَةَ بن عبد الله الليثي في رواية أخرى . وحمل لواء المهاجرين أبو بكر الصديق ، ولواء الأنصار سعد بن عبادة ، وسار إليهم حتى لقيهم عند ماء يقال له المُريسيع من ناحية قديد إلى الساحل . فلما دنا منهم أمر عمر بن الخطاب فنادى في الناس أن قولوا : لا إله إلا الله ، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم . فأبوا ، فتراموا بالسهم ، ثم أمر محمد رجاله فحملوا حملة شديدة ، فلم يفلت منهم رجل إلا أسر أو قتل . وكان شعار المسلمين يومئذ : يا منصور أميت أميت ! قتل منهم عشرة وأسر سائرهم . ولم يقتل من المسلمين غير رجل واحد يقال له هشام بن صبابة ، أصابه رجل من الأنصار وهو يظن أنه من العدو ، فقتله خطأ . وسُمِّيَتْ نساؤهم وذرايرهم وفيهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار . وغنم المسلمون مواشيهم ، فكانت الإبل ألبى بعير ، والشاء خمسة آلاف شاة .

ثم ورد القوم على الماء ومع عمر بن الخطاب أجبر له من غفار يقال له جهنجهاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجهاه وسنان بن وبر الجهني حاييف بن عوف بن الخزرج على الماء فتقاتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجهاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول فقال : أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ! والله ما أعيدنا وجلابيب^(١) قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأَعزُّ منها الأذلَّ . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع زيد بن أرقم هذا القول ، وكان عند عبد الله بن أبي ، فمشى إلى محمد فأخبره وعنده عمر بن الخطاب ، فقال عمر : مرُّ به عبَّاد بن بشر فليقتله . فقال محمد مقالة صدق : فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لا ولكن أذَّن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

فلما علم عبد الله بن أبي أن زيد بن أرقم أبلغ محمداً مقالته ، مشى إليه فحلف بالله ما قلتُ ما قال ولا تكلمت به . وكان عبد الله في قومه شريفاً . فقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أو همم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل . وذلك حدثاً منهم على ابن أبي ودفاعاً عنه .

فلما سار المسلمون إلى أسبند بن حضير محمداً فقال : يا رسول الله ، والله لقد رحلت ساعة لم تكن ترحل في مثلها ؟

فقال : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : أي صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي . قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إل المدينة

(١) جلابيب قريش أي المهاجرين وهو لقب أطلق على من أسلموا وماجروا ، لقبهم به مشركو مكة كناية عما كانوا يلتحفون به من أزر غلاط .

أخرج الأعرزُ منها الأذَلَّ . قال أسَيْدٌ : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارفق ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُدَاكاً .

ثم مشى محمد بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، واستمر في مسيره حتى أصبح ، وقضى جزءاً من النهار حتى آذتهم الشمس ، ثم توقف فلم يلبث الناس أن وجدوا مسَّ الأرض حتى وقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان من حديث عبد الله بن أبي . وبعد أن استراح الناس ، استأنف المسير .

ثم إنه نزل في عبد الله بن أبيّ قوله تعالى : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعرزُ منها الأذَلَّ ولله العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (١) .

عندئذ مشى عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، وقد اعتقد واعتقد الناس بعد نزول هذه الآية أن محمداً سوف يأمر بقتل عبد الله بن أبيّ ، ووقف بين يدي محمد فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشى في الناس فأقتله ، فأقتل مومناً بكافر فأدخل النار .

فقال محمد : بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا . ثم إنه استطاع بهذه السياسة المشثلي أن يحمل الخزرج أنفسهم ، على ما كان عبد الله بن أبيّ فيهم من الشرف ، يعاتبونه ويعنفونه هم أنفسهم إذا ما أحدث حدثاً يغضبه . فلما أثمرت هذه السياسة نظر معلم المسلمين الأول إلى عمر بن

الخطاب وقال : كيف ترى يا محمد ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعى عِدَّتْ له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

ثم إن عبد الله بن عبد الله بن أبي تصدى لأبيه لما بلغ المسامون مشارف المدينة عائدین من غزوتهم هذه عند مضيق المدينة وقال : قِفْ فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك . فلما جاء محمد استأذنه في ذلك فأذن له .

وكانت جُورِيَّة بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه فيمن أصيب يومئذ من السبايا . فلما قسم السبايا على أصحابه وقعت جُورِيَّة بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس قالت عائشة : « فكاتبته (١) جورية على نفسها ، وكانت امرأة حاوة حسناء لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه . فأنت رسول الله اتستعينه في كتابتها . فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت . فدخلت عايه فقالت : يا رسول الله ، أنا جُورِيَّة بنت الحارث بن ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقت في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسي فجتتك أستعينك على كتابتي . قال رسول الله : فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقضى عنك كتابك وأتزوجك ، قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت . وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله قد تزوج جورية بنت الحارث فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطلقوا السبايا التي بأيديهم فأعتق بزواجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها . »

وكانت عائشة بصحبة محمد في هذه الغزوة ، ذلك أنه كان إذا أراد السفر أقرع بن نسيه فأيتهن يخرج سهمها خرج بها معه ، فخرج سهم عائشة

(١) كاتب العبد على نفسه : كتب مع أسر كتابا اتفق فيه على ثمنه فإذا دفعه صار حرا .

في هذه الغزوة . غير أنها تخافت في بعض الطريق وعاد الجيش كله ما عدا عائشة ، إذ وجدَ هودجها خالياً لا أحد به . ثم إنها وصلت في اليوم التالي وراها الناس وهي تدخل عليهم المدينة على بعير صفوان بن المَعطَّل ، وكان قتي جميلاً مكتمل الرجولية . فلما رأى المنافقون وذوو النفوس الضعيفة عائشة تدخل عليهم المدينة في وضوح النهار مع صفوان وقد تخلّفت عن الركب ليلة كاملة ، أرجفوا بحديث الإفك والسوء ، وكان جديراً بهم أن يترفقوا بها وبنبيهم ، ويتحققوا من سبب تخلفها قبل أن تنطلق ألسنتهم بالإفك الذي انطلقت به ، واكبتها النفس الإنسانية إذا ضعفت وتحقرت وانزاحت إلى دركات الضياع ، أمعنت في الآخرين هدماً وتخريباً لإرضاء لنزعاتها الخسيسة . عجب وأي عجب ألا يفلت من برائن مثل هذه النفوس رجل كمحمد وزوجه .

ونحن على أية حال لسنا جديرين باتخاذ موقف الدفاع عن عائشة طالما أن الله سبحانه وتعالى تكرم عايبها وعلى نبيه وأنزل آيات بينات تقطع ألسنة السوء وتؤكد براءتها . وفي هذا الكفاية كل الكفاية ، وإليك القصة كما روتها عائشة . قالت :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كان غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه ، كما كان يصنع ، فخرج سهمي عليهن معه ، فخرج بي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان النساء إذ ذاك يأكلن العساق^(١) لم يهجن اللحم فيثقلن ، وكنت إذا رُحِل^(٢) لي بعيري جلست في هودجى ، ثم يأتي القوم الذين كانوا يُرحلون لي فيحمونني ويأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه ويضعونه على ظهر البعير فيشدونه بجباله ، ثم يأخذون برأس البعير فينطون به .

(١) العلق : جمع علقة ، وهي كل ما يبلغ به ، أى كل ما يكتفى به .

(٢) رحل البعير : أهد عليه الهودج .

فلما فترغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سقره ذلك وجه قافلا ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل ، ثم أذن مؤذناً في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقدي في جزع ظفار^(١) فلما فرغت انسلت من عنقي ولا أدري ، فلما رجعت إلى الرّحل ذهبت أتمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في الرحيل ، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه أتمسه حتى وجدته ، وجاء القوم خلافي الذين كانوا يعدّون لي البعير ، وقد كانوا فرغوا من إعداده ، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشددوه على البعير ولم يشكروا أني فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به .

فرجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس . فتسكفتت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت أن لو افتتقدت لرجع الناس إلى . فوالله إنني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان بن المعطل السائمي ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته فلم يبيت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف عليّ ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب ، فلما رآني قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! طعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأنا متاففة في ثيابي . قال : ما تخلفك يرحمك الله ؟ فما كلمته . ثم قرب إلى البعير فقال : اركبي . واستأخر عنى .

فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس وما افتتقدت حتى أصبحت ، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي ، فقال أهل الإفك ما قالوا ، وارتجّ العسكر ، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك .

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن مرضت مرضاً شديداً ، ولم يبلغني من ذلك شيء . وقد انتهى حديث الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى

(١) الجزع : الخرز ه وظفار مدينة باليمن .

أبوَيَّ ، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً ، إلا أني قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه بي . فقد كنت إذا اشتكيت مرضاً رحمي ولطف بي ، فلم يفعل ذلك بي في شكواي هذه ، فأنكرت ذلك منه ، وكان إذا دخل عليّ وعندي أمي تمرّضني قال : كيف تبيكم ؟ لا يزيد علي ذلك .

وظل الحال كذلك حتى حزنت فقلت حين رأيت ما رأيت من جفائه لي : يا رسول الله ، لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فرضتني . قال : لا عليك . فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان ، حتى نقيت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوماً عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنُف (١) التي تتخذها الأعاجم نعافها ونكرها ، إنما نخرج في فسح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن في كل ليلة في حوائجهن ، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعى أم مسطح ابنة أبي رهم بن المطلب ، فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها (جابايا) فقالت : تعيس مسطح . ومسطح لقب واسمه عوف . فقالت : بشس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين وقد شهد بدرأ . قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك . قلت : أو قد كان هذا ؟ قالت : نعم . والله لقد كان . فوالله ما قدرت علي أن أقضي حاجتي ، ورجعت ، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصُدع كبدي . وقات لأمي : يغفر الله لك ! تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً ؟ قالت : أي بنية خفي عليك الشأن فوالله لتقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها .

وكان رسول الله قد قام فخطب الناس ولا علم لي بذلك . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون

(١) جمع كنيف .

عليهم غير الحق ، والله ما علمتُ عابهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل
والله ما علمت منه إلا خيراً ، ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معي .

وكان كبيرُ ذلك عند عبد الله بن أبي بن سَلُول في رجال من الخزرج مع
الذي قال مِسْطَح وحمئة بنت جَحْش ، وذلك أن أختها زينب بنت جحش
كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني
في المنزلة عنده غيرها . فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً ،
وأما حمئة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تُضَارُّني لأختها فَشَقِيَّتْ بذلك .

فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك المقال ، قال أُسَيْدُ بن
حُضَيْر : يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا من
إخواننا الخزرج فرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تُضْرَبَ أعناقهم .

فقام سعد بن عبادة ، وكان قبل ذلك يُرى رجلاً صالحاً فقال : كذبت
لعمر الله ما تُضْرَبُ أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت
أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فقال أُسَيْدُ بن
حُضَيْر : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الخيين من الأوس
والخزرج شر .

وتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليّ فدعا علي بن أبي طالب
وأساءة بن زيد فاستشارهما ، فأما أساءة فأنى خيراً ، ثم قال : يا رسول الله
أهلُّك وما نَعْلَمُ منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل . وأما عليّ فإنه قال :
يا رسول الله إن النساء لكثير ، وإنك لقادر عليّ أن تستخلف ، وسل الجارية
فإنها تصدقك . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بُرَيْزَةَ يسألها . فقام إليها
عليّ فضربها ضرباً شديداً ويقول : اصدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قالت : والله ما أعلم إلا خيراً ، وما كنت أعيب علي عائشة إلا أني كنت
أعجن عجيني فأمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكاه ! .

ثم دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي أبوأي وعندي امرأة بن الأنصار ، وأنا أبكي وهي تبكي ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغناك من قول الناس ، فاتق الله ، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبني إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده . فوالله إن هو إلا أن قال لي ذلك فارتفع دمعي حتى ما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبوأيّ يجيبان عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأم يتكأما .

وأيّ الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأننا من أن ينزل الله في قرآناً يقرأ به ويصلى به ، ولكني كنت أرجو أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه شيئاً يكذب الله به عني لما يعلم من براءتي ويخبر خبراً ، وأما قرآن ينزل في فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك . فلما لم أر أبوأيّ يتكلمان قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالا : والله ما ندرى بما نجيبه . ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل علي آل أبي بكر في تلك الأيام . فلما استعجما عليّ استعبرت فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله بما ذكرت أبداً ، والله إنني لأعالم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني . ثم التمت اسم يعقوب أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . فوالله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجني بثوبه ووضعت وسادة من آدم (جلده) تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت وما باليت ، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمى . وأما أبوأي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرّني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخترجنّ أنفسهما فرقا من أن يأبي من الله تحقيق ما قال الناس .

ثم سرّني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاس وإنه ليتحدّر من

وجبه مثل الجُمَان (اللؤلؤ) في يوم شات ، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشري يا عائشة ، قد أنزل الله عز وجل براءتك . قلت : الحمد لله .

ثم خرج إلى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » (١) . إلى قواه تعالى « ولولا إذ سمعتموه قلم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢) .

ثم إنه نزلت بهذه المناسبة أيضاً عقوبة رمى المحصنات :
« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » (٣) .

وبعد أن انتهى محمد من خطابه في الناس وأسمعهم القرآن ، أمر بمسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحننة بنت جحش ، وهم الذين أفصحوا بالفاحشة فضرب كل منهم ثمانين جلدة :

وقال قائل من المسلمين في ضربهم :

لقد ذاق حسان الذي كان أهله وحننة إذ قالوا هجيراً ومسطح (٤)
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم وسخطة ذى العرش الكريم فأترحووا (٥)

(١) الدور ١١ .

(٢) الدور ١٦ - ١٩ .

(٣) الدور ٤ .

(٤) الهجير : فاحش القول .

(٥) أترحوا : أحزوا ، من الترح .

وَأَذُوا رَسُولَ اللَّهِ فِيهَا فَجَبَلُوا تَحَاذَى تَبَقَى تُعْمَمُوهَا وَفُصِّحُوا
وَصُبَّتْ عَلَيْهِمْ مُخَصَّدَاتُ كَأَنَّهُا شَابِيبُ قَطَطٍ فِي ذُرَا الْمِزْنِ تَسْفَحُ
ثم إن النبي عفا بعد ذلك عن الذين أرجفوا بحديث الإفك ، واسترد
حسان منزلته عنده ، وعادت عائشة إلى مكانتها التي كانت تنزلها من قلبه
الكبير ، ووجرت الحياة في مجاريها كما كانت من قبل وكان شيئاً لم يحدث .
واعتذر حسان مما قال في شأن عائشة بأبيات منها :

فان كنت قد قلت الذي قد زعمتم فلا رفعت سوطي إلى أناهلي
فكيف ووُدِّي ما حييت . ونصرتي لآل رسول الله زين المحاسلي
وإن لهم عزاً ترى الناس دونه قصاراً وطال العزُّ كل التطاول

وفي شوال أرسل محمد كُرْزُ بن جابر الفِهْرِيُّ إلى ذلك الرهط من
من عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ الذين قتلوا راعيهم واستاقوا إبله . وقصة ذلك أن جماعة
من عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ أتوا وأسلموا بين يديه ، ثم اشتكوا إليه من أنهم
أناس أهل ضرع وليسوا أهل ريف فأضرهم هواء المدينة . وكانوا سقاماً
مُصْفَرَّةً ألوانهم عظيمة بطونهم . فأمر لهم بقطع صغير من الإبل وراع ،
وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبان الإبل وأبوالها . فلما بعدوا عن
المدينة بعض الشيء قتلوا الراعي واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم .
فبعث إليهم كُرْزُ بن جابر في عشرين فارساً فقبضوا عليهم وردوهم إلى
المدينة . فأمر بمسامير فأحميت فكواهم وقطع أيديهم وأرجلهم وفقاً أعينهم
وألقاهم في الحرَّة حيث قتلوا الراعي ، حتى ماتوا . أما أنه وفقاً أعينهم فلأنهم
فقدوا عيني الراعي ، والعين بالعين والسن بالسن .

(١) المصنوع : السيف . الشديدة القتل . والشيب جمع شقوب وهو الدوم من الحور .
والإذن : السحاب .

الفصل السادس عشر

دراسة غزوة الحديبية

لا مُشاحة في أن حجَّ البيت الحرام ركن أساسي من أركان الدين الإسلامي . بل هو ركنه الركين ، والحق أن المسلمين لم يفرطوا في التمسك بهذا المبدأ من أول عهدهم بالإسلام ، ولم يتصوروا في أي وقت من أوقات كفاحهم أن الدين الإسلامي يمكن أن يتأسس ويستقر له قرار بدون الكعبة بيت أبيهم إبراهيم . غير أن مشركي قريش وقفوا للمسلمين بالمرصاد يمنعونهم من اتخاذ الكعبة بيتاً لعبادتهم ، متصورين أن في سماحهم للمسلمين بهذا الأمر اعتداء على حقوق آلهتهم وأصنامهم .

ولكن ما بال المسلمين وقد انقضى الآن ست سنين على هجرتهم من مكة ، لا يتخذون خطوة إيجابية في سبيل تحقيق هدف الدين الأسمى وهو الحج إلى بيت الله الحرام ؟ .

لم يقصّر المسلمون في الحقيقة في التفكير في هذا الواجب المقدس ، وإنما كانت تشغلهم أحداث خطيرة مرت بهم في تلك الفترة السابقة ، هي التي أخرتهم حتى الآن عن المطالبة بهذا الحق ، أي حقهم في الحج إلى البيت الحرام ، وعاقبتهم عن العمل الإيجابي لبلوغ هذا الهدف . ثم إن المسلمين فضلاً عن تلك المشاغل الخطيرة التي انشغلوا بها ، وتلك الأحداث القاسية التي مرت بهم ، لم يكونوا في موقف القوة الذي يسمح لهم بالمطالبة بهذا الحق والدفاع عنه .

كان اتخاذ الكعبة قبلة من أهم الأمور التي وجه الله أذهان المسلمين إليها بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة ، حتى يظلوا دائماً متطلعين إليها ، وحتى لا يُنسبهم بَعدهم عنها واجبههم المقدس إزاءها . فقد نزلت في غضون

السنة الثانية من الهجرة الآية الكريمة: « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره» (١). وفي هذا تأكيد للمسلمين من ربهم بأن الكعبة مطلب من مطالب الدين الذي لا بد أن يحققوه . وأنها القبلة التي لا بد للمسلمين من أن يتخذوها على مدى الأعصر والأزمان طالما كان هناك مسلمون على الأرض يقيمون شعائر الإسلام .

ولقد خاطب القرآن الكريم المسلمين في مواضع متفرقة منه وذكرهم بفضل البيت العتيق وبواجبهم نحوه .

« ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام » (٢) .
« ولا يجزئكم شتان قوم أن صدكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » (٣) .
« وما لهم ألا يُعذِّبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتؤمنون ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٤) . ثم آية الحج :
« إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهُدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخاه كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » (٥) .

انقضى الآن ست سنين أو نحو ذلك على خروج محمد وأصحابه مهاجرين من مكة ، وأصبحت الظروف في ذلك الوقت تشير إلى أن المسلمين أصبحوا في وضع حسن جداً يؤهلهم لاتخاذ خطوة جادة في سبيل المطالبة بهذا الحق . فأولاً ، بيّنت الأحداث السابقة أن قريشاً لم تعد تقدم على المسلمين بتلك الجسارة التي سيطرت عليها في أوائل الصراع المسلح . ولم تعد تتماكبها هذه الرغبة الجارحة في الانتقام من محمد والمسلمين كسابق عهدها . وهذا الموقف

(٢) (٣) ر ١٤٩ .

(٤) أنفال ٣٤

(١) الممره ١٤٤ .

(٣) المائدة ٢

(٥) آل عمران ٩٦ - ٩٧ .

لم يحدث فجأة ، وإنما حدث نتيجة لمقدمات أدت إليه . فقد انتصر المسلمون على قريش انتصاراً حاسماً في بدر . ثم انتصروا عليهم مرة أخرى في أحد في أول النهار . وتعلم قريش جيد العالم أنها لم تنتصر بعد ذلك على المسلمين إلا لأنهم أتوا فعلة خرقاء هي التي أدت إلى هزيمتهم . ولذلك فنحن لا نعجب أن نرى قريشاً وقد تراجعت عن لقاء المسلمين في الموعد الذي ضربه أبو سفيان للقاء في بدر العام التالي لأحد . ثم إنهم خرجوا للمسلمين في أكبر جمع من العرب في غزوة الأحزاب ، وكانوا يظنون أنهم سيستأصلون محمداً والإسلام . فارتدوا عن المدينة خائبين فزعين هاربين مذعورين في ليلة عاصفة شامية هوجاء . بعد ذلك حدثت مذبحه بنى قريظة فأفرغت اليهود والعرب أجمعين . ثم خرجت جيوش المسلمين وسرايا استطلاعهم ، طوال السنة السادسة من الهجرة تؤدب العرب في طول الحجاز وعرضه ، بل نراها قبل ذلك قد تجاوزت الحجاز إلى دومة الجندل على مشارف الشام . وكل هذا بين بجلاء أن قريشاً لم تعد الآن في مركز القوة الذي يسمح لها بأن تتعنت تعنتها السابق مع المسلمين ، كما بين من ناحية أخرى أن المسلمين هم الذين أصبحوا في المركز الأفضل ، وأنه قد آن الأوان وتهياً الجوا الصالح تماماً لهذه الخطوة التي كان لا بد للمسلمين من أن يتخذوها ويسيروا إلى مكة لحج البيت الحرام وأداء ركن ركين من أركان الدين .

خرج النبي في ذي القعدة على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه معتمراً لا يريد حرباً . وخرجت معه في هذه السفرة من أزواجه أم سلمة ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم في رواية ، أو نميلة بن عبد الله الليثي في أخرى . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، فخرج معه قليل منهم وتخلف معظمهم . وكان يرمى من ذلك إلى تأكيد عزمه على الخروج حاجاً لا غازياً ولا متعرضاً لأحد بحرب . فسار بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، ليس معهم من

السلاح غير سيوفهم وسهامهم ، وساق معه الهدى (وهى المواشى الذبيحة المهداة إلى الحرم) . فلما أتى ذا الحليفة أحرم بالعمرة ليعرف الناس أنه نخرج زائراً للبيت ومعظماً له ، وألبس الهدى الشعار الدال على أنه هدى تمييزاً له ، وبعث عيناً له من خزاعة يتجسس له الأخبار ، وكانت خزاعة موضع سره من أهل تهامة . فأتاه عينه وهو بغدير الأشطاط وأخبره بأن قريشاً جمعت له الجموع ، وأنهم سوف يقاتلونه ويصدونه عن البيت ويمنعونه .

قال لأصحابه : أشيروا أيها الناس على ، أترون أن أميل إلى عيالم وذراى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين (أى سلبوا ذرايهم) .

قال أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه . قال : امضوا على اسم الله . ولما علم محمد بخروج نخالد بن الوليد على رأس مائتى فارس من فرسان مكة للقائه ومنعه من التقدم صوب مكة قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فتقدم له رجل من أسام ، فسلك بهم طريقاً وعرأ كثير الحجارة بين الشعب ، فاجتازه المسلمون بصعوبة ومشقة . حتى خرجوا إلى سهل مستو فاتجهوا ذات اليمين فى طريق يؤدى إلى ثنية المزار مهبط الحديدية من أسفل مكة . ولما رأى نخالد بن الوليد ما صنع المسلمون قاد فرسانه راجعين إلى مكة .

ولما باغ المسلمون الحديدية بركت التصواء . ناقة محمد ، فظن الناس أنها حرنت وبركت بدون سبب ، فقال محمد : ما حرنت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس القيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلاة الرحم إلا أعطيتهم إياها . ثم أمر الناس بالنزول . فقيل له : يا رسول الله ما بالوادى ماء ينزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته

فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في بئر من تلك الأيبار التي كانت هناك
وغيره فيه فظهر الماء .

وبينما هم كذلك جاءه بدليل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه خزاعة
وكانوا موضع سره في تهامة كما قلنا ، مشركهم ومسلمهم لا يخفون عليه
شيئاً كان بمكة . وأخبروه أن قريشاً قد خرجت له ، معهم النساء والأطفال ،
وأنهم مانعوه وصادوه عن مكة .

فقال : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد
نهكتهم الحرب وأضررت بهم ، فإن شاءوا هادنتهم مدة ، ويحلوا بيني وبين
الناس ، فإن أنتصر وشاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد
استراحوا ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى
تفرد سالفتي (أي حتى يضرب عني) ولينفذن أمر الله .

ثم إن بدليل بن ورقاء رجع إلى قريش وبلغهم أن محمداً لم يأت لقتال ،
ولأنما جاء زائراً للبيت معظماً له . فاتهموه وأتهموا من كانوا معه وأغلظوا
لهم القول حتى نكسوا جباههم وطأطأوا رؤوسهم ، ثم قالوا لهم : وإن جاء
ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا تحدث بذلك عنا العرب .

ثم بعثت قريش إليه عدة رسل آماين أن يردوه عنهم بالحسنى أو يحصلوا
منه على شروط تحفظ لهم ماء وجههم أمام العرب . فبعثوا له الحليس بن
علقمة سيد الأحابيش ، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما
راه محمد مقبلاً ، وكان يعرف أنه ممن يغالون في تعبدهم قال : إن هذا من
قوم يتألهون (يتنسكون ويتعبدون) فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ،
فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي رجع إلى قريش ولم يصل
إلى محمد إعظماً لما رأى ، وأخبرهم بما كان من أمره . فقالوا له : اجلس
فإنما أنت أعرابي لا علم لك .

فغضب وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ولا على
هذا عاهدناكم ، أيبصد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحليس

بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أولاً نفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .
قالوا : مه ! كف حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم إنهم كلموا بعد ذلك عروة بن مسعود الثقفي أن يذهب إلى محمد
يفاوضه ، فقال : يا معشر قريش إني قد رأيت ما يأتي منكم من بعثتموه إلى
محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد
(وكان عروة ابن سبيعة بنت عبد شمس) وقد سمعت بالذى نابكم فجاءت
من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى . قالوا : صدقت ما أنت
عندنا بمتهم .

فخرج عروة حتى أتى محمداً وجلس بين يديه ، فقال له مثل
ما قال لبيد . فقال عروة : يا محمد أجمعت أوشاب الناس (أى خليطاً
متفرقاً من الناس) ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد
خرجت معها العوذ المطافيل^(١) ، وقد ابسوا جلود النور ، يعاهدون الله
ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء (أى أصحاب محمد)
قد انكشفوا عنك غداً .

وهنا انفعل أبو بكر وقال : امصص بظفر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ؟
قال عروة : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذى نفسى بيده لولا
يد كانت لك عندى لم أجرك بها لأجبتك .

وكان عروة إذا حدث محمداً تناول لحيته ، والمغيرة بن شعبة واقف
على رأسه في حديد الحرب . وقد أغاظه ما يفعل عروة ، فكان كلما تناول
لحية محمد يقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم
ألا تصل إليك . فيقول عروة : ويحك ما أفضلك وأغلظلك ! .

(١) العوذ المطافيل هي النياق دوات اللبر ومنها أولادها . وهذا كناية عن النساء معها

فتبسم محمد ، فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبه . قال : أي غدر^(١) ! وهل غسلت سواتك إلا بالأمس ؟ ثم إن محمداً لم يزد شيئاً في حديثه مع عروة عما كلم به من سبقه من رسل قريش إليه ، وأكد له أنه لم يأت يريد حرباً . فقام من عنده ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ إلا تزاحموا على وضوئه يحملونه إليه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش إنني قد جئت كسرى في ملكه ، وقبصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ! ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم .

وطالت المباحثات وطال الأخذ والرد . فبعث محمد خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش وحمله إلى مكة على بعير له يقال له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، ويحاول إقناعهم ، غير أنهم عقروا الحمل وأرادوا قتل المبعوث ، فنعهم الأحابيش وخلوا سبيله .

وكانت قريش قد بعثت نحواً من أربعين أو خمسين رجلاً منهم ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر المسلمين ، وليأسروا لهم أحداً من أصحابه ، فأخذهم المسلمون أخذاً وأسروهم ، لم ينبج منهم غير رجل واحد . فلما أتوا بهم إلى محمد عفا عنهم وخلي سبيلهم ، مع العلم أنهم كانوا رموا في عسكره بالحجارة والسهام . ومما لاشك فيه أن هذا التصرف الحكيم دليل على رغبته الأكيدة في مسالمة قريش ، وفيه إفصاح تام عما عقد عليه العزم من المهادنة في سبيل أداء هذا الواجب الديني . وهو إذ فعل ذلك أضعف مركز قريش كثيراً عند حلفائها وعند العرب أجمعين ، وأبطل حجتها في استخدام القوة إذا ما فكرت في استخدامها .

(١) وكان المغيرة قد صحب قوماً في الحاهلية فنبههم ، أحداهم لم ثم أسلم ، فقال له النبي : أما لإسلام فأقل ، وأما المال فليست منه في شيء .

ثم إنه عمد تأكيداً لموقفه هذا إلى أن يرسل لقريش واحداً من كبار صحابته القرشيين ، فاستدعى عمر بن الخطاب ليقوم بهذه المهمة . فقال عمر : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بنى على أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان .

فبعث النبي عثمان بن عفان إلى أبي سفيان وأشراف قريش يؤكد لهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء لهذا البيت معظماً لحرمة حاجاً .

فخرج عثمان إلى مكة فلقبه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى يبلغ رسالة محمد ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن محمد ما أرسله إليهم به ، فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وطالت المفاوضات وطال احتباس قريش لعثمان عندهما ، فبلغ المسامحين أنهم قتلوه . فقال عندئذ محمد : لا نبرح حتى نقاتل القوم .

وجمع الناس ودعاهم إلى البيعة فبايعوه تحت شجرة هناك سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان . ويقال إن البيعة كانت على الموت في رواية ، وعلى ألا يفروا في رواية أخرى . ولم يتخلف عن البيعة غير رجل واحد هو الجعد بن قيس أخو بني سلمة . وقد أخبرنا جابر بن عبد الله أنه رآه يومذاك لا صتماً يلبط ناقته يستتر بها من الناس . وكان أبو سنان الأسدي أول من بايع الرسول بيعة الرضوان . وفي هذه البيعة نزل قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (١) .

أما النتيجة التي أدت إليها بيعة الرضوان ، فهي إفهام قريش بطريقة

لا لبس فيها أن المسامحين سوف لا يتراجعون ، وأنهم لا بد حاصلون من قريش على ما يريدون وإلا فلا سبيل غير السيف . ومن ثمه سارعت فريس إلى إرسال مبعوث لإجراء صلح مع محمد يكون فيه حفظ لكرامة قريش ، فاختارت قريش سهيل بن عمرو وبعثته لمحمد وقالوا له : ائت محمداً وصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً .

وعاد عثمان بن عفان بعد أن مهد للصالح . ونحن نعلم أن محمداً كان قد قال : لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . إذن فما لا شك فيه أن عثمان بن عفان كان مزوداً بتفويض من محمد يسمح له بكثير من حرية المفاوضة على أساس يكون فيه حفظ لماء وجه قريش ، وصيانة لحق المسلمين في الحج إلى بيت الله الحرام . ومما لا نزاع فيه أن كلا الطرفين كان حريصاً أشد الحرص على عدم إشعال نار الحرب في الأشهر الحرم ، إلا إذا اضطرت الظروف اضطراراً إلى ذلك . ولكن تدلنا جميع الملابس على أن كلا الطرفين كان مستعداً لتقديم تنازلات للطرف الآخر .

ثم إن سهيل بن عمرو خرج يريد محمداً . فلما رآه محمد مقبلاً أيقن أن قريشاً قد أرادت الصالح وقال : لقد سهل لكم من أمركم . وانتهى سهيل إلى محمد وطال الحديث بينهما . واتفقا أخيراً حول عدة نقاط . منها أن يرجع المسلمون عامهم هذا ثم يأتون العام القادم ، وأن من جاء إلى المسامحين من قريش مسامحاً يردونه . ومن جاء إلى قريش من المسامحين مرتدداً لا يردونه . وكان المسلمون لا يشكون في الفتح وفي أنهم سوف يطوفون حول الكعبة ويقومون بشعائر الحج . وذلك لرؤيا رآها النبي وأخبرهم بها قبل مجيئهم من المدينة . فلما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا تحيروا من أمرهم ودخلتهم الشكوك . حتى لقد وثب عمر بن الخطاب فزعاً مرتاعاً فأتى أبا بكر فقال :

يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال عمر : أولسنا بالمسلمين ؟
قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي
الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر الزم أمره ولا تخالفه فإنني أشهد أنه
رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم إن عمر بن الخطاب لم يقتنع بهذا فأتى محمداً فقال : يا رسول الله
أأنت برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى .
قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟
قال : أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني .

وكان عمر يقول بعد ذلك : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق
من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمته ، حتى رجوت أن
يكون خيراً .

ثم دعا محمد علي بن أبي طالب فقال : اكتب : باسم الله الرحمن الرحيم .
فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم .
فقال محمد : اكتب باسمك اللهم . فكتبها . ثم قال اكتب : هذا ما صالح
عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول
الله أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال محمد : اكتب
هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ثم كتب ما تصالحا عليه
وهو أولاً : وضع الحرب بين قريش والمسلمين عشر سنين يأمن فيهن الناس
ويكف بعضهم عن بعض . وثانياً : أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن
وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وثالثاً : أن
يرجع محمد من غير عمرة عامه هذا ، ثم يأتي العام المقبل فيدخل مكة هو
وأصحابه بعد أن تخرج منها قريش ثلاثة أيام ، ليس معهم من السلاح غير
السيوف في القراب والأقواس . ورابعاً : أن من أحب أن يدخل في عقد
محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم
دخل فيه .

ولقد دخلت خزاعة في عقد محمد وعهده . ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم . وتم الصلح . ولكن المسلمين لم يرتاحوا له كل الراحة وظلوا في حيرة من أمرهم بعض الوقت غير قادرين تماماً على استيعاب ما حدث ، إذ أن في عودتهم من غير أن يطوفوا بالبيت إخلافاً للرؤيا التي حدثهم عنها نبيهم في المدينة ، ولكن الحقيقة أن محمداً لم يحدثهم أنه رأى في رؤياه أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، وإنما رأى أنهم داخلون مكة فحسب ، فأقنعهم بهذا التفسير ، وإن ظلوا ذاهلين غاضبين غير مرتاحة أنفسهم ، وأذهانهم لا يزال يتردد فيها : أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ وبينما هم يكتبون كتاب هذه الهدنة إذ أقبل عليهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيد من حديد كان أبوه قد وضعه فيه خشية أن يفلت إلى المسلمين . فلما رأى سهيل ولده مقدماً قام وأخذ بتلايبه وضربه على وجهه وقال : يا محمد قد لحت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فجعل سهيل ينثر أبا جندل بتلايبه ويجره ليرده إلى قريش ، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أريد إلى المشركين يفتنونني عن ديني . فكان هذا أيضاً مما زاد من ألم الناس وحيرتهم .

فقال محمد : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

أما عمر بن الخطاب فوثب إلى أبي جندل يمشى إلى جنبه وهو يقول : اصبر أبا جندل . ثم إنه كان يلدني قائم السيف منه لعماء يأخذ السيف فيضرب أباه ، ولكنه لم يفعل . فكان عمر يقول : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه ففضن الرجل بأبيه ونفذت القضية .

فلما فرغ من كتابة عهد الهدنة أمر محمد المسلمين أن يقوموا فينحروا الهدى ثم يحلقوا . فلم يقيم منهم أحد حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقيم

منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، وقال : هلك
المسلمون ، أمرتهم فلم يمثلوا . فقالت : يا رسول الله اعذرهم فقد حملت
نفسك أمراً عظيماً في الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك
مكرويون ، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد فإذا رأوك
فعلت اتباعوك .

فخرج لم يكلم أحداً فنحر هديه ودعا حالقه فحلقه . فما أن رآه المسلمون
يفعل حتى توابوا على الهدى فنحروه وحاقوا وهم في غم أشد من غمهم
السابق لأنهم تأخروا عن طاعته .

وعاد المسلمون إلى المدينة بعد أن اطمأنت قلوبهم إلى حكمة محمد
وإلى أن ربه سوف لا يخذله ، وأنهم سوف يحضرون العام القادم ويطوفون
البيت الحرام في أمن واطمئنان . وزاد اطمئنانهم وأدخل السكينة على قلوبهم
نزول سورة الفتح وهم في طريق عودتهم إلى المدينة : « إنا فتحنا لك فتحاً
مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك
صراطاً مستقيماً » (١) . ثم إن مهاجرة جاءتهم هي أم كلثوم بنت عقبة بن
أبي معيط أخت عثمان بن عفان لأمه ، فطلب المشركون ردها عليهم ،
فأنزل الله في سورة الممتحنة قوله :

« يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم
بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لا هن حل لهم
ولا هم يحلون لهن وآبؤهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا
آتيتوهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وأسألوا ما أنفقتم وليسألوا
ما أنفقوا ذاكم حكيم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » (٢) .

عندئذ لم يعد مفر من استبقاء القرشيات إذا هاجرن وهن لا يبغين من
هجرتهن شيئاً غير الإسلام . فكانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ما خرجت

(٢) الممتحنة ١٠ .

(١) الفتح ١ - ٢ .

رغبة بأرض عن أرض ولا من بغض زوج ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين ، وما خرجت إلا حبا لله ولرسوله . وهى حلفت بذلك فإنها لا ترد ، ويعطى لزوحها المشرك ما أنفقه عليها ، وبعد ذلك يجوز تزويجها لمسلم .

وفى أعقاب عودة المساميين إلى المدينة فر أيضاً رجل مسلم من قريش هو أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفى ، فأرسلت قريش إلى النبي رجلين فى طابه فأتياه فقالا : العهد الذى جعلت لنا . فدفعه إلى الرجائين وأمره بالرجوع معهما فقال أبو بصير : يا رسول الله أتردنى إلى الكفار يفتنونى عن دينى بعد أن خلصنى الله منهم ؟ فقال : إن الله جاعل لك وإخوانك مخرجاً . فلم يجد الرجل بدأ من الإذعان والسير مع الرجلين . فلما بلغا ذا الحليفة نزلوا يأكاون من تمر كان معهم . فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً . فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد ولقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرنى أنظر إليه . فلما أمكنه منه ضربه حتى قتله وفر الآخر . ورجع أبو بصير إلى المدينة فقال لمحمد : يا نبي الله قد أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى إليهم ثم أنجاني الله منهم . فقال النبي : ويل أمه ! مسعر حرب لو كان له أحد ؛ فلما سمع أبو بصير النبي يقول ذلك فهم أنه سيرده إليهم . فخرج حتى أتى ساحل البحر عند مكان تمر به قوافل الشام وأقام به .

ثم إن أبا جندل بن سهيل بن عمرو هرب من مكة ولحق به ، واجتمع إليهم كل من أسلم بمكة ، وانضم إليهم جماعة من الأعراب حتى اجتمعت منهم عصابة قوية . عمدت إلى قوافل تجارة قريش فى ذهابها إلى الشام أو إيابها منه تهاجها وتقتل الرجال وتأخذ الأموال . فلما ضجت قريش من أعمالهم استغاثوا بمحمد وسلدوا بإبطال الشرط الذى عقده معه برد من جاءه منهم مسلماً . فقبل منهم ذلك . وكفت هذه العصابة عن قريش . وانراح عن المسلمين شرط من الشروط التى كانت تؤلمهم .

فان أبو بكر ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية . والحق

أنا إذا نظرنا في هذه الغزوة وفي الصلح الذي عقده محمد ، ذلك الصلح الذي قصر رأى المسلمين وقتذاك عن إدراك ما ينطوى عليه ، لوجدنا أن الخطة التي رسمها وانتهجها وحقق ما يريد منها ، إنما كانت خطة بارعة جداً . نستبين من الخطوات التي اتبعها أنه كان يدرك تماماً أن أسهم الإسلام في ارتفاع ، وأن أسهم قريش في نزول . ثم إنه أدرك أيضاً أن قريشاً لم تعد تمتلكها تلك الرغبة المجنونة المحمومة ضده ، وأنه إذا ما أتاها في الأشهر الحرم وظل خارج مكة ، ولمح إليها بالصلح لأسرعت وأجابته إليه . وهذا ما حدث فعلاً .

والحق أن محمداً استفاد فوائد كبيرة جداً من هذا الصلح . أولاً ، حصل على إقرار من قريش بحقه وحق المسلمين في اتخاذ البيت الحرام بيتاً لهم أيضاً ، وبحقهم في إتيانه ليطوفوا حوله ويؤدوا شعائر دينهم في حرية وأمن . وهذه خطوة كبيرة جداً في سبيل تدعيم الإسلام في جزيرة العرب . وثانياً ، كان في هذا الإقرار سند كبير لمحمد في مخاطبة قبائل العرب ودعوتها للإسلام بطريقة أنسب . فأى شيء الآن يمنع قبائل العرب من الدخول في الإسلام وقد قرب جداً إلى مفاهيمهم بعد أن سلمت قريش بحق المسلمين في أداء فرائض دينهم في الكعبة ؟ أما مسألة الأصنام وتشبث هؤلاء الأعراب بها ، فإن الإسلام كان قد أضعف هذا الوهم بدرجة كبيرة ، وبدد كثيراً من التصورات التي كانت تسيطر على خيال هؤلاء الأعراب حول قوة هذه الأصنام ، إذ هاهو محمد لا يكف منذ حوالي عشرين سنة عن سبها وعن تسفيه أحلام عابديها ، وهي بعد لم تصبه بسوء ، بل على الضد ، يكثر أعوانه وينتصر في حروبه . فإذا ما رأت قبائل العرب الآن أن قريشاً سدنة البيت وحجابه قد قبلوا أن يدخل المسلمون البيت ويطوفوا به ويؤدوا فيه شعائر دينهم ، وهم الذين يعيرون الأصنام ويسبونونها ، أفلا يكون في ذلك إيحاء لهم بأن قريشاً قد بدأت تتخاذل أو أنها تخاذلت فعلاً ؟ .

ومصداق هذا كله ما أنزل الله على نبيه وهم في طريقهم من الحديبية إلى المدينة من آيات بينات : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » (١) إلى أن قال : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقتصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » (٢) .

ثم إن محمداً بدأ بعد هذه الهدنة في إرسال مبعوثيه إلى الملوك والأمراء هنا وهناك ، في جزيرة العرب وخارجها ، وكأنه قد أيقن فعلاً ورأى رؤيا صدق أن دينه قد استقر نهائياً ، وأن مسألة إقناع بقية العرب ودخولهم فيه لم تعد أكثر من مسألة وقت لا غير .

(١) الفتح ١ - ٣ .

(٢) الفتح ٢٧ .

(١٩ - محمد)

الفصل السابع عشر

دعوة الملوك والأمراء للإسلام

بعد أن عقد محمد عهد الحديبية مع قريش أمن بذلك كيد العرب و حربهم ، لأن أحداً من العرب غير قريش لم يكن في مقدوره أن يجمع الجموع ضده كما تفعل قريش ، ولم يكن يملك المنزلة الدينية التي تؤهله لأن يتصدى لمن يعتدى على حرمة الدين . فإذا كانت قريش قد تراجعت هذا التراجع وسمحت لمحمد الذي يسب آلهتها وآلهة العرب ويعيبها ، ولا يكف منذ حوالي عشرين سنة يدعو لهدمها وعبادة رب واحد هو الله ، إذن فأى من العرب بعد ذلك يتصدى لمحمد ، وبأية روح أو دافع يقف ضده إذا كانت قريش ذاتها قد صالحته وهادنته ؟ لا أحد على وجه الإطلاق . ولذلك بدأ محمد ، وكان دينه قد ظهر على أديان العرب كلها ، يتطلع إلى رحاب العالم الفسيح ، وبدأ يضع الخطط الجديدة على هذا الأساس .

لذلك نراه - انطلاقاً من هذا المفهوم - قد أعد بعد عودته مباشرة من غزوة الحديبية مبعوثين يرسلهم إلى الملوك والأمراء والرؤساء في شبه الجزيرة العربية وخارجها ، يدعوهم للإسلام ويخبرهم بأنه نبي مرسل أرسله الله ليبلغ دينه الحق للناس كافة . غير أن كتاب السيرة يختلفون في تحديد الفترة التي أرسل فيها مبعوثيه . فمنهم من يقول بأنه أرسلهم دفعة واحدة بعد غزوة الحديبية في أواخر سنة ست من الهجرة . ومنهم من يقول بأنه أرسلهم الواحد إثر الآخر منذ ذلك التاريخ وعلى فترات متقطعة حتى وفاته . والأرجح أنه أرسلهم متفرقين . ونحن نعلم على أية حال أنه أرسل رسلاً إلى نجاشي الحبشة ، وإلى هرقل إمبراطور الروم ، وإلى كسرى الفرس ، وإلى

المقوقس حاكم مصر ، وإلى أمير بصرى ، وإلى الحارث بن أبي شمر ،
وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وإلى جيفر وعبد ابني الجلندى ملكى
عمان ، وإلى هوزة بن على ملك اليمامة . وهؤلاء هم الذين بلغنا من كتاب
السيرة القدماء أنه أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام . وإليك الكتب التى
أوردها كتاب السيرة ن نقلها كما جاءت فى كتاباتهم . ولقد اتخذ محمد
عند ما شرع فى إرسال هذه الرسائل خاتماً من الفضة نقش عليه « محمد
رسول الله » .

أرسل أول رسله عمرو بن أمية الضمري إلى نجاشى الحبشة ، وكانت
علاقات المسلمين به حسنة كما نعلم ، ودفع إليه كتابين ، أحدهما يدعو
الإسلام والآخر يفوضه فى تزويجه من أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت
من مهاجرات المسلمين إلى الحبشة ، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش
فارتد هناك عن الإسلام وتنصر .

أما كتابه إلى النجاشى فهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد
رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة . سلام . أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله
الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن
عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة
فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله
وحده لا شريك له ، والموالاته والطاعة ، وأن تتبغنى وتوقن بالذى جاءنى
فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل . وقد بلغت
ونصحت فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » . فجامله النجاشى
ورده رداً جميلاً .

أما كتابه إلى قيصر الروم هرقل فدفعه إلى دحية الكلبي ، وأمره أن
يدفعه إلى والى قيصر على بصرى ليوصله إليه ، وفيه يقول : « من محمد
رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ،

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، اسلم تسلم يوثك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (الفلاحين ، أى الرعايا) « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فلما وصل هذا الكتاب إلى قيصر ، وكان وقتئذ بالشام بعد حربه مع كسرى واسترداده الصليب الأعظم الذى كان استولى عليه الفرس ، أمر بعض أتباعه أن ينظر له أحداً من قوم هذا الرجل الذى يدعى النبوة فيجيبه به . وكان أبو سفيان فى ذلك الوقت فى تجارة لقريش بالشام فأتوه به فى جمع من أصحابه ، ودار بينهما حديث نوره بنصه كما أورده الكتاب التدماء لا ننقده ولا نزيد عليه ولا ننتقص منه .

فلما انتهوا إلى مجلس قيصر قال : أيكم أمس به رحماً ؟ فقال أبو سفيان أنا . قال هرقل : أدنوه منى . ثم أجلسه بين يديه ، ثم أمر أصحابه فأجلسهم خلفه ، وقال : إن كذب فردوا عليه .

ولقد قال أبو سفيان فيما بعد إنه كان يعلم أن أصحابه مشركى قريش ما كانوا ليردوا كلامه ويكذبوه ، ولكنه كان يستحى إذ هو رجل سيد فى قومه أن يكذب ، فيتحدث بذلك أصحابه فى مكة ، فلم يكذب ..

فلما طلب منه هرقل أن يحدثه فى شأن هذا الرجل الذى يدعى النبوة ، زهد أبو سفيان فى ذلك مصغراً له من أمره ، غير أن هرقل لم يلتفت إلى شىء من ذلك ، وأمره أن يخبره عما يسأله عنه .

قال هرقل : كيف نسبه فيكم ؟ قال : من أشرفنا نسباً .

قال : هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به ؟

قال : لا .

قال : فأخبرنى هل له ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوه

عليه ؟ . قال : لا .

قال فأخبرني عن أتباعه ، من هم؟ قال : الأحداث والضعفاء والمساكين ، فأما أشرفهم وذوو الأنساب منهم فلا . قال : فأخبرني عن صحبه أيحبه ويكرمه أم يقلبه ويفارقه ؟ . قال : ما صحبه رجل ففارقه .

قال : فأخبرني عن الحرب بينكم وبينه ؟ قال : سجال يدال علينا وندال عليه .

قال : فأخبرني هل يغدر ؟ قال : لا ونحن منه في مدة ولا نأمن غدره فيها (وهنا أراد أبو سفيان أن يغمزه فلم يلتفت إليه هرقل) .

قال : زعمت أنه من أمحضكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبي ، لا يأخذه إلا من أشرف قومه . وسألتك : هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به ؟ فقلت : لا . وسألتك : هل كان له من ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ فقلت : لا . وسألتك عن أتباعه ، فزعمت أنهم الأحداث والضعفاء والمساكين . وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان . وسألتك عن يتبعه أيحبه ويكرمه أم يقلبه ويفارقه ؟ فزعمت أنه قل من يصحبه فيفارقه . وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه . وسألتك كيف الحرب بينكم وبينه ؟ فزعمت أنها سجال يدال عليكم وتداولون عليه . وكذلك يكون حرب الأنبياء ولهم تكون العاقبة . وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر . فلئن كنت صدقتني ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين .

ثم إنه أمر أبا سفيان أن يلحق بشأنه . فقام أبو سفيان وهو يضرب إحدى يديه على الأخرى ويقول : يا عباد الله لقد أمر ابن أبي كبشة ، وأصبح ملوك بني الأصفر يخافونه في ساطنهم .

وأرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى ، فبينما هو في طريقه تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني في قرية من عمل الباقاء بالشام فسأله أين يريد فقال الشام . قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم .

فأمر به فضربت عنقه . وهو المبعوث الوحيد الذى قتل من مبعوثى محمد ،
وقد حزن عليه حزناً شديداً .

وبعث شجاع بن وهب إلى أمير دمشق الحارث بن أبي شمر عامل
هرقل بكتاب فيه « باسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث
ابن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق . وإنى أدعوك أن
تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ما بكك » . فلما قرأ الحارث الكتاب غضب
ورمى به وقال : من ينزع منى ملكى ؟ وأراد أن يرسل جيشاً لحرب محمد
والمسلمين ، وقال للمبعوث : أخبر صاحبك بما ترى . غير أن قيصر
لم يأذن له بذلك ، وكتب إليه يثنيه عن هذا العزم . فصرف الحارث شجاع
ابن وهب بالحسنى .

ووجه لحاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من قبل
هرقل وهو بالإسكندرية : « باسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله
إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . فإنى أدعوك
بدعاية الإسلام . اسلم تسلم يوثك الله أجرك مرتين . وإن توليت فإنما عليك
إثم القبط . ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا ألا نعبد إلا الله
ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا
فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فلما قرأ المقوقس الكتاب قال لحاطب : إني أسألك عن كلام فأحب أن
تفهم عنى . قال : هلم . قال : أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبي ؟ قال
حاطب : بلى . هو رسول الله . قال المقوقس : فما له حيث كان هكذا
لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟ قال حاطب : عيسى
ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ؟ قال : بلى . قال : فما له حيث أخذه
قومه فأرادوا أن يصلبوه . ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه
الله إلى السماء الدنيا ؟ فقال : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم .

ثم إنه رده رداً جميلاً وأخبره أنه يعلم أن نبياً أن أوانه ولكنه ينتظر ظهوره على ما يعتقد في الشام . وأرسل معه إلى محمد هدية هي جاريتان قبطيتان ، إحداهما مارية التي تسرى بها محمد فولدت له ابنه إبراهيم ، والأخرى سيرين التي وهبها محمد لحسان بن ثابت فولدت له ابنه عبد الرحمن . وكان في جملة الهدية بغلة بيضاء اسمها اللدليل لم يكن بجزيرة العرب بغلة في مثل بياضها ، وحمار اسمه اليعفور ومقدار من المال وبعض خيرات مصر ، وغلام أسود خصى اسمه مأبور . وكان مأبور يدخل على مارية كعادة أهل مصر ، فجعل بعض الناس يتكلم في ذلك وهم لا يعلمون بأنه خصى ، فأمر رسول الله على بن أبي طالب بقتله ، فوجده خصياً فتركه .

ووجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس بكتاب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . فإن تسلم تسلم ، فإن أبيت فلإنما عليك إثم الجوس » ، فلما قرأ المترجم الكتاب لكسرى غضب غضباً شديداً حين بدأ محمد بنفسه ، وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه وأمر بمبعوث محمد فأخرج . وأرسل إلى بإذان وهو نائبه على اليمن : أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأتياي به . وفي هذا التصرف دليل وأى دليل على أن كسرى كان يجهل تماماً مقدار القوة التي كان قد وصل إليها الإسلام في ذلك الوقت . أما محمد فإنه عند ما بلغه أن كسرى مزق كتابه قال : « مزق الله ملكة » . ولقد تمزق في عدة سنين بعد ذلك .

وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمد الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا

فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول . من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبي فإن عليه الجزية . فلما قرأ الكتاب أسلم وكتب في جوابه : أما بعد يا رسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين . فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه . وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إلى فى ذلك أمرك . فكتب إليه يقول : « باسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك ، فإنى أخذ الله إليك الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً ، وإنى شفعتك فى قومك فأترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عمالك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » .

وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابى الجلندى ملكى عمان بكتاب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابى الجلندى . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام . أسلما تسلسما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما فإن ملككما زائل ونخيل تحمل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما » .

سأل عبد بن الجلندى عمرو بن العاص عما يأمر به محمد وعما ينهاى عنه ، فقال : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . فقال عبد : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ، ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به . ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه يصير تابعاً . قال عمرو : إن أسلم أخوك ملكه

رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم . فقال عبد : إن هذا نلحق حسن . وما الصدقة ؟ فأخبره عمرو بما فرض الله من الصدقات في الأموال . ولما ذكر المواشي قال يا عمرو : يوثخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه ؟ قال : نعم . فقال عبد : والله ما أرى قومي على بعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا . ثم نهض عبد فأوصل عمرأ لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو كلاًه أألان قابه حتى أسلم هو وعبد .

وبعث سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوزة بن علي ملك اليمامة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوزة بن علي : سلام على من اتبع الهدى . واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والحافر ، فاسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك » . فلما قرأ الكتاب جاء في رده : « ما أحسن ما ندعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر أتبعك » . فلما بلغ محمد رده هذا قال : لو سألتني قطعة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما في يديه : فلم يلبث أن مات بعد أن انصرف محمد من فتح مكة .

وكان محمد يولي على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

الفصل الثامن عشر

غزوة خيبر

نعلم مما سبق أن يهود خيبر كانوا أكثر المتحمسين لتجميع القبائل ضد المسلمين وأكثر الدعاة في شبه جزيرة العرب ضد محمد وضد الإسلام ، ونعلم أنه كان من نتيجة سعيهم هذا أن تجمعت الأحزاب في غزوة الخندق ، وأقدمت جموع على المدينة لا قبل للمسلمين بها ، ربما كان من شأنها أن تستأصل شأفتهم تماماً ، لولا حكمة محمد وحكمة رجاله ، والعاصفة الهوجاء التي هبت في تلك الليلة فأدخلت الرعب في قلوب الأحزاب فارتدوا عن المدينة بما يشبه المعجزة ، فسلم المسلمون من مكر اليهود .

ثم إننا نعلم أيضاً أن بني قريظة وهم يهود المدينة جيران المسلمين وحلفاؤهم الذين اعتمد المسلمون عليهم في حماية جانب من المدينة ، قد قلبوا للمسلمين في أحلك ساعات الحصار ظهر الحن وانحازوا للأحزاب ، ولولا لطف الأقدار وحدث تلك العاصفة التي اقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم فانخلعت لها قلوبهم قبل أن تنفذ خيانة بني قريظة لربما تغير وضع المعركة تغيراً كاملاً وشاملاً . لذلك كان لزاماً على محمد أن يعاقبهم على هذه الخيانة . والحق أن بقاء قلة متمسكة بخاتنة مفسدة وأى مفسدة لجسم الأغلبية وشوكة دائمة في جنبها . ولا مزية في أن سياسة استئصال هذه الأقلية سياسة حكيمة جداً . مبررها الحفاظ على حياة الأغلبية التي هي أحق بالبقاء آمنة مطمئنة في أرضها ووطنها .

تظهرت المدينة من هذه الأقلية المفسدة ، ولكن يهود خيبر هناك في شمال غربي المدينة على مسافة تبعد مئة وخمسين كيلومتراً أو أكثر قليلاً يهددون المسلمين من الشمال ، وعلى الأخص لأن يهود خيبر إذا اجتمعوا

مع غطفان التي لا تبعد ديارها كثيراً عنهم ، أصبحوا قوة كبيرة تهدد المسلمين تهديداً فعلياً .

أما النتيجة الطبيعية التي اتجهت إليها الأحداث بعد عهد الحديبية وتأمين المسلمين لحدودهم الجنوبية ، فكانت على الضرورة استغلال هذا الظرف المواتي والقضاء على هذا العدو الرابض هناك يوئلب العرب ويكيد للإسلام . فلم يكف النبي يرجع من الحديبية في أواخر ذى الحجة من سنة ست من الهجرة ، وأوائل المحرم من سنة سبع ، حتى أمر أصحابه بعد راحة قليلة للتجهز للخروج إلى خيبر . فسار إليهم في النصف الثاني من المحرم سنة سبع ، وكان عند ما استنفر الناس للخروج معه وجاء الذين تخلفوا عن الحديبية أفهمهم أنهم لا يخرجون معه في هذه الغزوة إلا رغبة في الجهاد لا طمعاً في الغنيمة ، وأنه لن يعطيهم منها شيئاً . فخرج معه مئتان زيادة عن كانوا معه في غزوة الحديبية ، فأصبحوا جميعاً ألفاً وسبعمائة مقاتل ، منهم مائة فارس ، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري في رواية أو نميلة بن عبد الله الليثي في رواية أخرى .

سار محمد بجيشه حتى نزل به بواد يقال له الرجيع ، وهو واد يقع بين خيبر وغطفان ، وقصد من ذلك أن يقطع بينهما الاتصال فيحول بين غطفان أن تمد خيبر . ولقد تحقق له ما أراد فعلاً ، إذ أن غطفان كانت قد همت بالخروج ليساعدوا أهل خيبر ، فما أن ساروا قليلاً حتى سمعوا حساً فخافوا على أموالهم وأهاليهم ، فرجعوا على أعقابهم وتخلوا عن نصرة أهل خيبر نجاة بأنفسهم وأموالهم .

وكان محمد إذا غزا قوماً لا يغير عليهم يوم وصوله ديارهم ، بل كان ينتظر حتى يصبح . فإن سمع أذاناً أهسك عن الإغارة عليهم ، وإن لم يسمع أذاناً أغار . وصل بجيش المسلمين خيبر ليلاً فبات الجيش حتى أصبح ، فلم يسمع أحد أذاناً ، فركب محمد حماره . ويقال إنه كان على فرس

لا على حمار في ذلك اليوم ، وركب الناس وتقدموا نحو حصون اليهود . وقد استقبلهم عمال خيبر وهم خارجون من الحصون بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا محمداً والمسلمين صاحوا قائلين : محمد والخيس^(١) ! وعادوا هاربين ، فقال محمد : الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

أما حصون خيبر فكانت ثلاثة مجموعات من الحصون منفصلاً بعضها عن بعض : حصون النظاه وهي ثلاثة : حصن ناعم ، وحصن الصعب ، وحصن قلة ؛ وحصون الكتيبة وهي حصنان : حصن أبي ، وحصن البريء ؛ وحصون الشق وهي ثلاثة : حصن القموص ، وحصن الوطيح ، وحصن السلام .
والحق أن يهود خيبر كانوا أقوى طوائف اليهود في بلاد العرب وأكثرهم نفوذاً ومالاً وسلاحاً .

بدأ المسلمون الهجوم على حصن ناعم ، فعسكروا بعيداً عن مرمى السهام ، وأمر النبي بأن يقطع نخلم حتى يفت إهلاك المال في عضدهم ، فقطع المسلمون حوالي أربعمئة نخلة ، فلما لم يستسلم اليهود ، ورأى المسلمون أنهم صمموا على الجلال والحرب ، أمر محمد المسلمين بالكف عن تقطيع النخيل . وكان شعار المسلمين يوم خيبر : يا منصور أميت أميت !

وكان اليهود قد أدخلوا أهولهم وعيالهم في حصن الوطيح والسلام ، وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم ، والمقاتلة وأهل الحرب في حصن آخر . بدأ الهجوم على حصن ناعم بالمرامة بالسهام ، وكان لواء المسلمين في اليوم الأول بيد رجل من المهاجرين فلم يصنع شيئاً ، وقتل في ذلك اليوم محمود ابن مسلمة أخو محمد بن مسلمة إذ ألقيت عايه رحي من داخل الحصن فقتلته ؛ وكان محمد يصحب في كل يوم جماعة من المهاجرين ويخالف على العسكر أحد المسلمين . ومرت الأيام والحصن منيع واليهود مستقتلون في

الدفاع عنه . حتى إذا كانوا في الليلة السابعة أسر عمر بن الخطاب - وهو حارس الخيش يومئذ - يهودياً كان خارجاً في جوف الليل من الحصن لأمر يريده ، فأتى به إلى محمد . فلما أدرك الرجل الرعب ورأى الموت بعينه قال : إن أمنتوني أدلكم على أمر فيه نجاتكم . فلما أمنوه أخبرهم أن أهل هذا الحصن قد خارت قواهم وأدركهم الملل والتعب من المحاصرة ، وأنه تركهم وهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق لأنهم عقدوا العزم على الخروج في الغداة للقاء المسلمين . وقال لهم إنه إذا كتب لهم الغلبة على أهل الحصن فإنه سوف يدهم على مخزن بالحصن فيه منجنيق ودبابات^(١) ودروع كثيرة وسيوف تساعدكم على فتح بقية الحصون .

وكان محمد في خلال الأيام السابقة قد أخذته الشقيقة ، وهي صداع نصفي كان يصيبه بعض الأحيان ، فأعطى الراية لعدد من الصحابة ، فأعطاه يوماً لأبي بكر فقاتل ورجع ، وأعطاه لعمر فقاتل ورجع دون فتح الحصن . وفي ذلك اليوم سأل عن علي بن أبي طالب ، وكان يومئذ أرمدا العينين ، فاستدعاه وأعطاه الراية وقال له : « اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك » . قال علي : علي ما أقاتل الناس ؟ قال : « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

فخرج علي يصول ويهرول هرولة نحو الحصن والمسلمون يتبعون أثره حتى ركز رايته في كومة من الحجارة تحت الحصن . فلما دنا المسلمون من الحصن خرج إليهم اليهود يقاتلون أشد قتال ، حتى لقد ضرب رجل منهم علي بن أبي طالب ضربة هائلة طار على أثرها ترسه من يده ، فأسرع علي وتناول باباً تترس به عن نفسه ، فلم يزل الباب بيده حتى انهزم اليهود ،

(١) الدبابة آلة يتخذها المحاربون في حصار الحصون ، يدخلون تحتها ويتقدمون إلى الحصن في حمايتها فيقبون فيه ثغرة يدخلونه منها .

فجعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل الحصن . وقتل في هذه الموقعة الحارث بن أبي زينب قائد الحصن . كما قتل مَرْحَبٌ أيضاً وكان أشجع اليهود ، وكان قد خرج من الحصن وهو يرتجز :

قد عامت خيبرُ أنى مَرْحَبُ شاكى السلاح بطل مجرَّبُ
أطعن أحياناً وحيناً أضربُ إذا الليوث أقبلتْ تحمَّرُ
إنَّ حِمَىَ لِلْحِمَى لا يُقَرَّبُ يُحْتَجَمُ عن صوتى المجرَّبُ

وجعل يقول : هل من مبارز ؟ فقال محمد : من لهذا ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور والثائر ، قتلوا أخى بالأمس . فقال : قم إليه ، اللهم أعنه عليه .

فلما دنا أحدهما من الآخر اعترضتهما شجرة ، فجعل كل منهما يلوذ من صاحبه بها ، كلما ضرب ضربة اقتطع بسيفه جزءاً منها حتى صارت بينهما كالرجل القائم ليس فيها غصن واحد . فحمل مرحب على محمد بن مسلمة وضربه بسيفه فاتقاه بالدرة فعض سيفه فيها فعاجله محمد بن مسلمة وضربه حتى قتله .

وعاد محمد وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبرُ أنى ماض حلوا إذا شئت وسمَّ قاض

ويقال إن محمد بن مسلمة قطع رجلى مرحب فقال له : أجهز على . فقال : لا ، ذق الموت كما ذاقه محمود بن مسلمة . فربه على بن أبى طالب وقطع رأسه ، فاختصما فى سلبه إلى محمد ، فأعطى محمد بن مسلمة سيفه ورمحه ومغفره وبيضته . وكان على سيفه :

هذا سيف مرحبُ من يدقه يعطب

فلما قتل مرحب خرج أخوه ياسر وهو يقول : هل من مبارز ؟ فخرج له الزبير بن العوام ، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : يقتل ابنى يا رسول الله . فقال : بل ابنك يقتله إن شاء الله . فالتقيا فقتله الزبير

والحق أن اليهود قاتلوا قتالا مريراً ودافعوا عن حصونهم دفاعاً لا هوادة فيه ، غير أنهم انهزموا وتوالى سقوط الحصون في أيدي المسلمين .

فبعد أن سقط حصن ناعم ، وكانت فيه ذخيرة اليهود الحربية . وحصن للصعب بن معاذ ، وكان فيه غنائم كثيرة من الطعام والمؤن وعلائف الدواب ، تحولت اليهود إلى قاعة الزبير فحاصروهم محمد ثلاثة أيام ، لم تلن لهم فيها قناة ، فأتاه رجل من اليهود يقال له عزال وقال له : يا أبا القاسم توأمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النظاة وتخرج إلى أهل الشق ، فإن أهل حصون الشق قد هلكوا رعباً منك ؟ .

فلما أمنه على أهله وماله قال اليهودي : إنك لو أقمت شهراً تحاصروهم ما بالوا بك ، فإن لهم تحت الأرض جداول ماء يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعته . فقطع عنهم محمد هذه الجداول ، فخرجوا مضطربين وقاتلوا أشد قتال ، ثم استسلموا بعد أن قتل نفر من المسلمين وقتل عشرة من اليهود ، وكان هذا الحصن آخر حصون النظاة . وتحول المسلمون بعد ذلك إلى حصون الشق ، فبدأوا بحصن أبي ، وقام محمد بنفسه على رأس المهاجمين الذين هاجموا قلعة يقال لها سموان فقاتل قتالاً شديداً ، فخرج منها رجل اسمه عزول فدعا إلى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، فقطع يده اليمنى من نصف ذراعه ووقع السيف من يده ، وفر اليهودي راجعاً إلى القلعة فلم يمهل الحباب وأسرع إليه وضربه ضربة أطار بها عرقوبه . ثم برز منهم رجل آخر فتقدم له رجل من المسلمين فقتله اليهودي ، فهض إليه أبو دجانة ففتك به فتكاً شديداً وأخذ سلبه . بعد ذلك أحجم اليهود عن البراز فكبر المسلمون . واقتحموا يقاتلون وأمامهم أبو دجانة بعمامة الحمراء ، عصابة الموت ، بذلل لهم الطريق بسيفه البتار حتى دخلوا القلعة ، فوجدوا فيها أثاثاً ومتاعاً وغنائماً وطعاماً كثيراً .

وكان المسلمون إذ طاك الحصار قد أصابهم مجاعة سيده حتى لقد نكلوا

الخمير ، فهام محمد عن أكلها . فلما فتحت بعض الحصون تهافتوا على الطعام أول شيء .

روى عبد الله بن مغفل المزني أنه أصاب في خيبر جراب شحم ، فاحتمله على عنقه إلى حيث رحله وأصحابه ، فلقبه صاحب المغنم الذي جعل عليها ، فأخذ بناصية الجراب وقال : هلم حتى تقسمه بين المسلمين . فقال : لا والله لا أعطيك إياه . وأخذ الرجلان يتجادبان الجراب حتى رأهما محمد وهم يصنعان ذلك فتبسّم ضاحكاً وقال لصاحب المغنم : خل بينه وبينه . فانطلق به عبد الله إلى رحله وأصحابه فأكلوه .

ويروى لنا أبو اليسر كعب بن عمرو ، طرفاً من أخبار هذا الجوع الذي أصاب المسلمين في أثناء حصارهم خيبر . قال : لاني لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخير ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من اليهود تريد حصنهم ونحن محاصروهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يطعمنا من هذه الغنم ؟ فقلت : أنا يا رسول الله . قال : فافعل . فخرجت مسرعاً مثل الظليم (ذكر النعام) فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مولياً قال : اللهم أمتعنا به . فأدركت الغنم وقد دخلت أولها الحصن ، فأخذت شاتين من أخراها فاحتضنتهما تحت يدي ، ثم جثت بهما مسرعاً كأنه ليس معي شيء حتى ألقيتهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذبحوهما فأكلوهما . وكان أبو اليسر من آخر أصحاب النبي موتاً . وكان إذا حدث هذا الحديث بكى ثم قال : أمتعوا بي لعمرى ا حتى كنت من آخرهم .

لما بدأت الحصون تقع في أيدي المسلمين فر المقاتلون من اليهود إلى حصن البزاة بالشق وتمنعوا به أشد الامتناع ، فزحف إليهم النبي وأصحابه فتراموا بالسهام ، ورمى يومئذ محمد بيده الكريمة ، حتى أصاب سهم من سهامهم بنانه . وحى الوطيس واشتد القتال واقتحم المسلمون الحصن وأخذوا اليهود أخذاً باليد .

وتحول محمد وأصحابه إلى يهود الوطيح والسلام ، حصنى أبي الحقيق ، فتحصن اليهود أشد تحصن واستماتوا في الدفاع ، وكان كل من انهزم من النطاة قد جاء إليهم ، فتجمعوا في حصن القموص والكتيبة والوطيح والسلام . وكانت حصوناً منيعة جداً ، وامتنعوا عن الخروج منها . فهم محمد بأن ينصب المنجنيق عليهم ليضربهم به . فلما أيقنوا بذلك وبأنهم هالكون وأن المسلمين قد حصروهم ولن يرجعوا عنهم ، وكان الحصار قد دام أربعة عشر يوماً حول هذه الحصون جهد فيها اليهود ، نزل ابن أبي الحقيق إلى محمد فصالحه على حقن دمائهم وعلى أن يتركوا جميع ما كان لهم من الأرض والأموال والسلاح والمواشى ، ولا يخرجون إلا بما يحمل الإنسان على ظهره . فرضى بذلك محمد ، واشترط عليهم ألا يكتبوا ولا يخفوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد . فرضوا بذلك .

وتم الصلح .

غير أنهم أخفوا مسكاً (جلدأ) فيه مال وحلى لحي بن أخطب ، كان قد احتمله معه إلى خيبر عند ما أجليت بنو النضير من المدينة ، فقال محمد : وأين مسك حيي الذي جاء به من النضير ؟ قال ابن أبي الحقيق : أذهبته النفقات والحروب . فقال محمد : العهد قريب والمال أكثر من ذلك . ثم إنه دفعه إلى الزبير بن العوام فعذبه حتى أقر بأنه كان رأى حياً قد دخل خربة يطوف بها ، وأشار إلى وضع بالحصن . فلما نقبوا فيه وجدوا المسك ، وكان فيه أساور ودمالج وخلانجيل وأقراط وخواتم من الذهب ، وعقود من الزمرد وغير ذلك .

تحلل عندئذ محمد من العهد الذي عقده معهم ، ذلك أنهم نكثوه بأنفسهم فلم يصبح لهم عنده ذمة ولا عهد ، فقتل ابني أبي الحقيق ، وكان أحدهما زوج صفيية بنت حيي بن أخطب ، وسبى نساءهم وأبناءهم وقسم أموالهم . ولما أراد إجلاءهم طلبوا منه أن يبقينهم في ديارهم وأراضيتهم يعملون

فيها مزارعة بالنصف مما خرج منها ، فأقرهم على ذلك خشية أن يصيب هذه الأموال الكثيرة أضرار إذا ما تولاها المسلمون وهم على غير معرفة بإدارتها : غير أنه اشترط عليهم أن يخرجهم منها في أى وقت شاء ، فارتضوا ذلك : ثم إنه أرسل إلى يهود فلدك إنذاراً بأن يشهدوا شهادة الحق أو يساموا أموالهم . فلما لم يجدوا في أنفسهم قدرة على قتال المسلمين ، وكانوا قد رأوا ما حدث لليهود خيبر ، تصالحوا على البقاء في ديارهم والعمل في أراضيهم مزارعة بالنصف في كل ما خرج منها . فكانت فلك خالصة لرسول الله وحده ليس للمسلمين فيها شيء لأنها لم تؤخذ عنوة ولا حارب في سبيلها أحد . كذلك صالح يهود تيماء ، وهي قرية على ثمانى مراحل من المدينة ، على دفع الجزية . ثم إنه انتهز فرصة القضاء على هؤلاء اليهود الأقوياء للتخاص أيضاً من يهود وادى القرى ، فر عليهم وهو في طريق عودته إلى المدينة وعرض عليهم الاستسلام فأبوا فقاتلهم ، فما كان منهم إلا الاستسلام والإذعان للصلح . وبذلك انكسرت شوكة اليهود نهائياً من جزيرة العرب .

وكان في خيبر وحدها أربعون ألف نخلة للمسلمين نصف ثمارها ، حتى لقد قال ابن عمر : ما شبعنا تمرأ حتى فتحنا خيبر . وقالت عائشة عند فتحها : الآن نشبع من التمر .

قسم محمد الغنائم على المسلمين فأعطى للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً ، وأعطى للعبيد والنساء الذين شهدوا خيبر نصيباً غير محدد . روت فتاة من بنى غفار قصة ذهابها مع محمد في هذه الغزوة قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بنى غفار فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ، فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال : على بركة الله . فخرجنا معه . وكنت فتاة حديثة السن فأردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم على حقيبة رحله ، فوالله لنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله ، وإذا

بها دم منى ، وكانت أول حيضة حضتها ، فتقبضت إلى الناقة واستحييت ،
فأما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ورأى الدم قال : « مالك ؟
لعلك نفستِ » . قلت : نعم . قال : « فأصلحي من نفسك ثم خذى إناء
من ماء فاطرحى فيه ملحاً ثم اغسلى ما أصاب الحقيية من الدم ، ثم عودى
لمركبك » .

واستطردت تقول لمن تحدث : « فلما فتح الله خير أعطانا رسول الله
من الغنيمة ، وأخذ هذه القلادة التي تزين عنقى فأعطانيها وعلقها بيده
في عنقى ، فوالله لا تفارقنى أبداً » . وظلت القلادة في عنقها حتى ماتت ،
ثم إنها أوصت أن تدفن معها تيمناً بها .

كانت صفية بنت حيي بن أخطب زوجة ابن أبي الحقيق في جملة السبايا
الذين سباهم المسلمون من خير ، وقد وقعت في نصيب دحية الكلبي .
وكانت صفية سيدة قريظة والنضير ، وكانت فتاة قريية عهد بعرس ، فجاء
رجل من المسلمين إلى محمد فقال : يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي
سيدة قريظة والنضير ، وهى ما تصلح إلا لك . قال : « ادعوا بها » . فلما
نظر إليها النبي قال لدحية : « خذ جارية من السبي غيرها » . ثم إنه أعتقها
وتزوجها وجعل عتقها صداقها . وكانت صفية تقول : كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم من أبغض الناس إلى ، قتل زوجى وأبى ، فما زال يعتذر
إلى ويقول : إن أباك ألب على العرب وفعل ما فعل ، حتى ذهب ذلك من
نفسى . ثم إنه بنى بها وهم عائدون إلى المدينة فى سد الصباء ، وهو موضع
بينه وبين خير مرحلة .

وكانت التى جعلتها إليه ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان
أم أنس بن مالك . ولقد بات بها فى قبة ، وبات أبو أيوب متوشحاً بسيفه يجرسه
ويطيف بالقبة حتى أصبح . فلما رآه مكانه قال : « مالك يا أبا أيوب ؟ »
قال : خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قد قتلت أباهاً وزوجها
وأهلها ، وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك .

وكان النبي إذا ركب بعيره يحوى لها وراعه بعباءة ثم يجاس فيضع لها ركبته فتضع صفيحة رجلها عليها حتى تركب .

غير أن محمداً لم يسلم من مكائد اليهود وغلهم وضحيتهم وجسارتهم وهو في أوج انتصاره ، إذ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وبنت أخي مرحب بعد الصباح شاة مشوية مسمومة . وسألت أى عضو أحب إلى النبي فتقبل لها الذراع . فأكثر فيها السم ، ثم سمت سائر الشاة ثم حملتها إليه ، فوضعتها بين يديه . فتناول الذراع ولاك منها مضغة فلم يسفها فقال لأصحابه : « أمسكوا فإنها مسمومة » . فأمسكوا ، ولكن كان بشر بن البراء ابن معرور قد بلع لقمته فمات منها لساعته . فاستدعى المرأة وقال لها : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قالت : أردت أن أعلم إن كنت نبياً فسيطلعك الله عليه ، وإن كنت كاذباً أريح الناس منك . فخلى سبيلها ولم يعرض لها بشر .

وقام فاحتجم^(١) . غير أن الألم ظل يعاوده ، حتى إذا كان في وجعه الذى توفى فيه بعد ذلك بثلاث سنين قال : « ما زلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر معاودة للألم حتى كان هذا أو انقطاع أبهرى^(٢) . لهذا يرى المسلمون أنه مات شهيداً .

وفي أثناء إقامتهم بخيبر أو بعد ذلك في رواية أخرى ، رجع المسلمون الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة بعد أن قضوا هناك عشر سنين ، وفيهم جعفر بن أبي طالب والأشعريون ، أى أبى موسى الأشعري وقومه . وقد فرح محمد برجعهم فرحاً عظيماً ، وأعطى للأشعريين من غنائم الحصون المفتوحة صلحاً ، وكان معهم أيضاً أم حبيبة بنت أبى سفيان التى كان محمد قد تزوجها وهى فى الحبشة ، وزوجه إياها النجاشى نفسه بكتاب كتبه إليه ومهرها أربعة آلاف درهم . وفى قدوم جعفر قال محمد : « والله ما أدرى بأيهما أفرح ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » .

(١) الاحتجم هو جذب دم المريض بآلة كالكأس توضع على جسم المريض فمصر الدم .

(٢) الأبهر : وريد العنق ، ويراد بانقطاع الأبهر الهلاك .

الفصل التاسع عشر

عمرة القضاء

لما رجع محمد من خيبر إلى المدينة أقام بها شهري ربيع وجماديين ورجب وشعبان ورمضان وشوالاً . على أن هذه الأشهر لم تمض وادعة هنيئة ، فقد كانت جزيرة العرب تغلي كالمرجل ، وكان محمد لا يكف عن إرسال السرايا في تلك الأثناء إلى هنا وهناك . فأرسل سرية أبي بكر الصديق إلى بني فزارة ، وسرية عمر بن الخطاب إلى تربة من أرض هوازن وراء مكة بأربعة أميال ، وسرية عبد الله بن رَوَاحَة إلى يسير بن رِزَام اليهودي ، وسرية بشير بن سعد إلى فدك ، وسرية أبي حنْدَرْد إلى الغابة ، وغير ذلك من السرايا .

ثم إنه نخرج في شهر ذي القعدة ، وهو الشهر الذي صده فيه المشركون في العام السابق ، معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التي صده عنها . ويقال لهذه العمرة أيضاً عمرة القِصَاص لأن قريشاً صده عنها في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست عند ما أراد العمرة ، فاقتصر منهم فدخل مكة في ذي القعدة من سنة سبع في الشهر الحرام الذي صده فيه . وفي ذلك أنزل الله تعالى : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » (١) . ويقال لها أيضاً عمرة القضية ، وهي من المقاضاة التي كان قاضاهم عليها على أن يرجع عنهم عامه هذا ، ثم يأتي في العام المقبل ، ولا يدخل مكة إلا بالسيوف في أجربتها ، وألا يقيم بمكة أكثر من ثلاثة أيام فقط .

وهذه العمرة هي المذكورة في قوله تعالى في سورة الفتح : « لقد صدق الله رسوله الرويا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين

رعوسكم ومقصرين لا تخافون»^(١). وهى أيضاً الموعود بها فى قول النبى
لعمر بن الخطاب حين قال له : ألم تكن تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف
به ؟ قال : بلى أفأخبرتلك أنك تأتبه عامك هذا ؟ قال : لا . قال : فإنك
أتبه ومطوف به .

خرج محمد لقضاء هذه العمرة فى ألفين من أصحابه ، واستخلف على
المدينة أبا ذر الغفارى . وساق أمامه فى هذه العمرة ستين بدنة . وسار يلبى
والمسلمون معه يلبون . ومضى أمامهم محمد بن مسلمة على رأس مائة فارس
حتى إذا ما بلغ مر الظهران وجد نفراً من قريش ، فسألوا محمد بن مسلمة
فعلموا منه أن محمداً سيصل هذا المكان بالغد ، فلما رأوا سلاحاً كثيراً يتقدم
المسلمين مع بشير بن سعد ، رجعوا مسرعين إلى قريش فأخبروهم بأمر
السلاح الذى أحضره محمد وبأمر الخليل ، ففزعت قريش لأن العهد الذى
قطعوه مع محمد فى الحديبية كان يقضى بدخول المسلمين مكة بسلاح
المسافر لا غير ، أى بالسيوف فى أجربتها .

بعثت قريش عندئذ مكرز بن حفص بن الأحنف فى نفر من قريش
يستطلع لهم من محمد الخبر ويسأله لماذا يغزوهم ، فلقوه ببطن بأجج فى
أصحابه ، والهدى والسلاح قد تلاحقوا ، فقالوا : يا محمد ما عرفت صغيراً
ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم
ألا تدخل عليهم إلا بسلاح المسافر السيوف فى القراب . فقال : إني لا أدخل
عليهم بسلاح . فقال مكرز بن حفص : هذا الذى تعرف به ، البر والوفاء .
وأما حمل النبى للسلاح فلم يكن على التأكيد للغدر بقريش ، وإنما كان
احتياطاً مشروعاً خشية أن تغدر قريش به فيكون السلاح قريباً منه .

ترك محمد السلاح خارج الحرم ، والهدى بئى طوى ، وخرج وهو على
ناقته القصواء وأصحابه محذون به يلبون وهم متوشحون بالسيوف حتى دخلوا

مكة وهم يصيحون : لييك لبيك . وعبد الله بن رواحة يرتجز بشعره ويقول .
وهو أخذ بزمام القصواء :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الحبر في رسوله
يا رب إني مؤمن بقييله أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهمام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

أما أهل مكة فخرجوا منها كارهين أن يروا محمداً والمسلمين يطوفون
بالبيت . طاف محمد وقد اضطجع بردائه^(١) وأخرج عضده اليمنى ،
وذلك حتى يرى المشركون معنى الفتوة ، وقال : « رحم الله امرأة أراهم
اليوم من نفسه قوة » . واستلم الركن الأسود ثم هرول ، أي أسرع في مشيته ،
حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش ، وكانت
تنظر من فوق أبي قبيس : ما يرضون بالمشى ، أما لأنهم لينفرون نفر الظباء !
ركان المسلمون كلما هرول النبي هرولوا خلفه ، وكلما مشى مشوا
خلفه . فمل ذلك ثلاثة أطواف فكانت سنة . وفي غمرة هذه الحماسة الشديدة
جى عبد الله بن رواحة وهم بأن يصيح في وجه قريش صيحة الحرب ،
فمنعه عمر ، وقال له محمد : مهلاً يا بن رواحة ، وقل لا إله إلا الله وحده ،
نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده . فنادى بها عبد الله
ابن رواحة بأعلى صوته ، والمسلمون يرددون هذه الصيحة ، فتجاوبت بها
أصداء مكة جميعاً ، والمشركون وجوم كأن على رؤوسهم الطير .

ولما أتم محمد الطواف بالكعبة ، انتقل ومن خلفه المسلمون إلى الصفا
والمروة ، فركب بينهما سبعاً كما كان يفعل العرب ، ثم نحر الهدى عند
المروة وحلق رأسه ، وبذلك تمت فرائض العمرة . وفي اليوم التالي أصبح
فدخل الكعبة ومكث بها حتى صلاة الظهر ، وأمر بلالا أن يعاوها ليؤذن

(١) أ أدخل بعضه تحت عضده وجعل طرفه على منكبه .

للصلاة ، فقام بلال وأذن للصلاة بين أصنام الكعبة ، وصلى محمد والمسلمون فيها . فلما رأى المشركون ذلك وسمعوا بلالا يؤذن اغتاظوا أشد الغيظ حتى لقد قال عكرمة بن أبي جهل : لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول ! وقال صفوان بن أمية : الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا . وقال خالد بن أسيد : الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم حتى يقوم بلال ينهق فوق البيت . وأما سهيل بن عمرو وعدد من أصحابه فإنهم غطوا وجوههم لما سمعوا بذلك .

وفى أثناء إقامته بمكة بعث جعفر بن أبى طالب يخطب له ميمونة بنت الحارث فزوجه إياها العباس بن عبد المطلب ، ذلك أن ميمونة كانت قد جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل ، فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس ، فزوجها من محمد وأصدقها عنه أربعمائة درهم . ويقال بأنه لما انتهت إليها أخبار خطبة محمد لها وهى راكبة بعيراً قالت : الجمل وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها نزلت الآية : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » (١) . وقد تزوجها محمد وهو محرم ودخل بها وهو حلال بعد مغادرته مكة بمكان يقال له سرف .

أقام محمد وأصحابه بمكة ثلاثة أيام ، فلما أتى الصبح من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، وهو فى مجلس من الأنصار يتحدث مع سعد بن عباد ، فصاح حويطب : نناشدك الله والعقد أن تخرج من أرضنا ، فقد مضت الثلاث . فقال سعد بن عباد : كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا بأرض آبائك والله لا يخرج . وقال محمد لسهيل وحويطب : « إني قد تزوجت منكم امرأة فما يضر أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا » . فقالا : نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا .

عندئذ أمر أبا رافع فأذن بالرحيل . وبينما ركب المسلمون يغادر مكة
تبعته النبي عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ، وكانت مع أمها سلمى بنت
عميس بمكة ونادته : يا عم يا عم . فتناولها على فأخذ بيدها وقال لفاطمة : دونك
ابنة عمك : ثم إن علياً وزيداً وجعفرأ اختصموا ، كلهم يريد أن يكفلها ،
فحكّم بها النبي لجعفر ، ثم زوجها لسلمة بن أبي سلمة بعد أن رفض جعفر
أن ينزوجه ، إذ كانت ابنة أخيه من الرضاعة . وكان النبي يقول لسلمة :
هل جزيت أبا سلمة ، ذلك أنه هو الذي زوجه بأمه أم سلمة ، لأنه كان
أكبر من أخيه عمر بن أبي سلمة .

الفصل العشرون

إسلام خالد بن الوليد وصاحبيه

عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة

كان لمقدم محمد إلى مكة معتمراً في غزوة الحديبية ، والصلح الذي عقدته معه قريش على أن يدخل مكة في العام المقبل معتمراً على رأس المسلمين ، أثر بالغ في نفوس الكثيرين من قريش ، وعلى الأخص في نفوس أولئك الذين رأوا بثاقب فكرهم وبعد نظرهم أن الإسلام غالب ، وأن محمداً لا محالة منتصر على قريش ، ذلك بأن إقرار قريش لمحمد وأصحابه بحقهم في الكعبة وسماحتهم لهم بالدخول إلى حرمة وإقامة شعائر دينهم فيها ، فضلاً عن إقامتهم بمكة ثلاثة أيام تهجرها فيها قريش ، كان الدليل الأكبر على أن قوة قريش قد اضمحلت فعلاً إلى جانب قوة الإسلام المتزايدة التي لم يعد لأحد قبل بها .

والدليل على ذلك تلك البلبلة التي أصابت نفراً من دهاة قريش ، على رأسهم عمرو بن العاص ، الذي يروى لنا بنفسه صورة من هذه الحيرة التي نحيمت على أفكارهم فاضطربت لها نفوسهم أشد اضطراب . كان يقول : كنت للإسلام مجانياً معانداً . حضرت بدرأ مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحداً فنجوت ، ثم حضرت الخندق فنجوت . فقات في نفسى : كم أدبر وأحارب ؛ والله ليظهرن محمداً على قريش . فلحقت بمالى بالرهط (موضع) وأقلت من لقاء الناس .

فلما حضر الحديبية وتم الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجعت قريش إلى مكة ، جعلت أقول : يدخل محمد العام المقبل مكة بأصحابه ، فما مكة بعد الآن بمنزلى ولا الطائف ، ولا شيء خير من الخروج

والهجرة ، وأنا بعد ناء عن الإسلام ، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسام .

فقدمت مكة وجمعت رجلا من قومي ، وكانوا يرون رأبي ويسمعون مني ويقدمونني فيما نابههم ، فقلت لهم : كيف أنا فيكم ؟ قالوا : ذو رأينا ومدرهنا (أى المدافع عنا فى يمن نفسه وبركة أمره) . قلت : تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنى قد رأيت رأياً . قالوا : وما هو ؟ قلت نلحق بالنجاشى فنكون معه ، فإن ينتصر محمد كنا عند النجاشى . وإنما إن نكن تحت يد النجاشى أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، وإن تنتصر قريش فنحن من قد عرفوا . . . إلى آخر القصة : هذه صورة من اليأس الذى خيم على أفكار صناديد قريش وذوى الرأى فيها بعد صلح الحديبية . إذن لم يكن غريباً أن يخلو رجل مثل خالد بن الوليد إلى نفسه ليمعن النظر فى مجريات الأمور ، وفى هذا الحدث الذى يحدث فى بلاد العرب ، ويحاول مستعيناً بشرف نفسه وعلوها أن يعقد مقارنة بسيطة بين ما يدعو إليه محمد وبين الدين الذى تدين به قريش ، ويستعلى بروحه الكبيرة ويخلصها مما طبعته فيها تقاليد الجاهلية القبلية ، تلك التقاليد التى كانت من أكبر أسباب النزاع الذى قام فى قريش بين محمد وساداتها الآخرين .

واستدار العام ونفذت قريش صلح الحديبية ودخل محمد وأصحابه مكة فى عمرة القضاء . كل هذا يحدث والأفكار تدور فى رأس الكثيرين من سادة قريش وذوى الرأى فيها حتى استبان لهم الحق من الباطل . وها هو خالد بن الوليد بن المغيرة فارس قريش المعلم وبطلها لم تفارق صورة المسلمين وهم يطوفون حول الكعبة خياله ، ولم تنزع من قلبه ، ولا فارقت الأفكار التى كانت تدور برأسه ذهنه . فلم يكذب يخرج المسامون من مكة بعد عمرة القضاء حتى بلغ اليقين عند خالد برسالة محمد مبلغاً لم يعد اخفاؤه أمراً ممكناً ، فخرج إلى منتدى قومه ووقف على رموس الأشهاد يقول :

« لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه » .

فابتدره عكرمة بن أبي جهل قائلاً : لقد صبوت يا خالد . قال : لم أصبو ولا كنى أسلمت . قال عكرمة : والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت . قال : ولم ؟ قال عكرمة : لأن محمداً وضع شرف أهلك حين جرح ، وقتل عمك وابن عمك بيد ، فوالله ما كنت لأسلم ولا أتكلم بكلامك يا خالد . أما رأيت قريشاً يرون قتاله ! قال خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها . لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق .

ثم إن خالداً أرسل إلى النبي أفراساً وبعث إليه بإقراره بالإسلام . فلما بلغ أبا سفيان إسلام خالد ، بعث إليه وسأله فى هذا الأمر ، فأقر خالد بالإسلام ، فغضب أبو سفيان غضباً شديداً وقال : واللوات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد . قال خالد : فوالله إنه لحق على رغم من رغم . فقام له أبو سفيان محتداً ، فحجز بينهما عكرمة بن أبي جهل وقال : مهلاً يا أبا سفيان . فوالله لقد خفت للذى خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه . أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه وهذه قريش كلها تبايعت عليه . والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم .

ويقول خالد : فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصحاب إلى رسول الله ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن كأضراس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف ؟ فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبداً . فافترقنا وقلت : هذا رجل قتل أخوه وأبوه بيد . فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية . فقال لى مثل ما قال صفوان .

فأمرت براحتى فركبتها وخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة

فقلت : إن هذا لى صديق ، فلو ذكرت له ما أرجو . ثم ذكرت من قتل من آباءه ، فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما على وأنا راحل من ساعتى . فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت : إنما نحن بمنزل ثعلب فى حجر لو صب فيه ذنوب^(١) من ماء لخرج ، وقات نحواً مما قلت لصاحبى ، فأسرع الإجابة ، فقلت له : إنى غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى بفتح مناخة . فاتعدت أنا وهو يأجج ، إن سبقنى أقام وإن سبقته أقمت حتى يأتى .

فشيننا ليلتنا حتى إذا طلع الفجر التقينا بيأجج ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة فوجدنا عمرو بن العاص بها ، فقال لنا : مرحبا بالقوم . فقلنا : وبك . فقال : : إلى أين مسيركم ؟ فقلنا : وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجكم ؟ قلنا : الدخول فى الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم . قال : وذاك الذى أقدمنى .

فسرنا معاً حتى دخلنا المدينة فأنحنا بظهر الحرة ركائبنا فأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا . فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله فلقينى أخى الوليد بن الوليد فقال : أسرع فإن رسول الله قد أخبر بك فسر بقدمك وهو ينتظركم .

فأسرعنا المشى وأقدمنا عليه ، فما زال يتبسم إلى حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله . فقال : تعال . ثم قال : « الحمد لله الذى هدأك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير » . قلت : يا رسول الله إنى قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادع الله أن يغفر لى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) الدلو العظيمة .

« الإسلام يجب ما كان قبله » . قلت : يا رسول الله على ذلك . قال :
« اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صده عن سبيل الله » .
ثم تقدم عثمان بن طلحة ، وعمرو بن العاص فبايعا رسول الله . ثم قال :
والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بي أحداً من أصحابه فيما
حزبه . وكان قدوم هؤلاء الثلاثة في صفر من سنة ثمان . وبإسلامهم أسلم
كثير من أهل مكة ، وأصبح فتح مكة أمراً لم يعد يشك فيه أحد .

الفصل الحادى والعشرون

سرية مؤتة

استمر القتال بين المسلمين والمشركين منذ أن بدأ بعهد الهجرة إلى المدينة . وكان إذا توقف حيناً عاد ثانية ليشب أعنف وأضرى مما كان . ولقد استأنف النبي بعد عودته من عمرة القضاء إرسال سرايا المقاتلة ، فبعث عمر بن الخطاب إلى هوازن ، وأبا بكر إلى بنى كلاب ، وغالب ابن عبد الله الليثى إلى بنى عواد ، وابن أبي العوجاء السلمى إلى بنى سليم ، وكعب بن عمرو الغفارى إلى ذات أطلاح من أرض الشام . غير أن أشهر السرايا التى بعثها فى تلك الفترة ، كانت سرية زيد بن حارثة إلى أرض البلقاء من أطراف الشام ، وكانت فى ثلاثة آلاف مقاتل .

نعلم أن محمداً أرسل بعد صلح الحديبية رسلاً إلى الملوكة والأمراء فى خارج جزيرة العرب وفى داخلها يدعوهم إلى الإسلام . وكان الحارث بن عمرو الأزدي مبعوثه إلى ملك بصرى . فلما بلغ الحارث مؤتة لقيه شرحبيل ابن عمرو الغسانى فقتله . وكان الحارث المبعوث الوحيد الذى قتل من مبعوثى محمد ، فشق ذلك على نفسه ، وانتهز فرصة سانحة ليجهز فيها جيشاً يرسله للانتقام من أهل مؤتة . غير أنه يقال فى رواية أخرى إن بعثة هذه السرية كان انتقاماً لسرية كعب بن عمرو الغفارى التى أرسلها إلى ذات أطلاح من أرض الشام يدعو أهلها إلى الإسلام فقتلوه ومن معه ، لم ينبج منهم غير رجل واحد جريح ، تحامل على نفسه حتى عاد إلى المدينة وأخبر محمداً الخبر .

جمع محمد فى جمادى الأولى من سنة ثمان ثلاثة آلاف من خيرة المسلمين وأمّرت عليهم زيد بن حارثة ، وقال : « إن أصيب فجعفر بن

أبي طالب على الناس ، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ،
فإن قتل فايرتض المسلمون من بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم » .

ثم أن أوان الرحيل وأخذ الناس يودعون الأمراء ، فلما ودعوا عبد الله
ابن رواحة بكى ، فقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ قال : أما والله ما بي
حب الدنيا ولا صباة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقراً آية من كتاب الله يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردها كان على
ربك حتماً مقضياً » (١) . فلست أدري كيف لي باله بعد الورود ؟ !

فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

فأنشد عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا (٢)
أو طعنة يبدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدنى أرشده الله من غاز وقد رشدا
ثم قال :

فتبت الله ما أتاك من حسن تثبتت موسى ونصراً كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة الله يعلم أنى ثابت البصر
أنت الرسول فن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر
ثم خرج الجيش وخرج محمد معه يشيعه حتى إذا ودعهم وانصرف ،
قال ابن رواحة :

خلف السلام على امرئ ودعته فى النخل خير مشيع وخليـل
ومضى الجيش إلى وجهته حتى إذا بلغ تخوم البلقاء من أطراف الشام
لقيته جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ،
فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ، وعندها التقى الجمعان ودارت رحى
المعركة . ويقال بأن جموع الروم والعرب الموالين لهم بلغت ثلاثمائة ألف

(١) مريم ٧١ . (٢) الفرغ : السعة . (٣) الحران : الشديد .

في رواية ، ومائتي وخمسين ألفاً في رواية ، وأقل المقلين جعلها مائة وخمسين ألفاً . غير أن هذا العدد مبالغ فيه جداً على أية حال ، وإن كانت جموع الروم والعرب أكثر كثيراً من جموع المسلمين . ذلك أن شرحبيل كان قد علم بمقدم المسلمين فأعد جيشاً كبيراً من العرب ، وكتب إلى عاهل الروم فأمدته بجيش كبير آخر .

قال أبو هريرة وكان في الجيش : شهدت مائة فلما دنا منا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والخيل والديباج والحريير والذهب ، فبرق بصرى ، فقال لى ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ قلت : نعم . قال : إنك لم تشهد بدرأ معنا ، إنا لم ننصر بالكثرة . غير أن الناس لما أيقنوا أن جموع المشركين تفوق جمعهم أضعافاً مضاعفة ، جعلوا يتشاورون في أمرهم ، فقال قائل نرسل إلى رسول الله نخبه بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له . غير أن عبد الله بن رواحة شجع الناس وقال : يا قوم والله إن التي تكروهون لتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا بكثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا وإنما هي إحدى الحسينين ، إما ظهور وإما شهادة .

فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة ، وتقدموا للحرب .

ثم التقى الجيشان واقتتل الناس قتالاً شديداً ، فقاتل زيد بن حارثة براية الرسول حتى مزقته رماح الأعداء . فنزل جعفر عن فرس له شقراء كان يركبها وذبحها^(١) ، ثم تناول راية محمد وقاتل القوم حتى قتل ، وهو يقول :

يا حبيذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

(١) جواز العلماء قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو ، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر حيواناً في الإسلام لهذا الغرض .

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

على إن لاقيتها ضرابها

ويقال بأن جعفرأ أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل . وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة عندئذ ، وفي رواية ابن إحدى وأربعين سنة ، وربما هذا أصح . وقد روى ابن عمر أنه وقف على جعفر بن أبي طالب وهو يومئذ قتيل فعدد به خمسين بين ضربة وطعنة ليس منها شيء في ظهره . ويقال أيضاً إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين .

فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى متردداً بعض التردد وهو يقول :

أقسمت يا نفس لتزلنه لتزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشهدوا الرنة مالى أراك تكرهين الجنه (١)
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنه (٢)
ثم قال :

يا نفس إن لا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت قد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت (٣)

ثم نزل عن فرسه فأناه ابن عم له بعرق من لحم وقال : شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت . فأخذه من يده فانهش منه نهشة ، ثم سمع ضربات السيوف وجلبة المعركة فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه ثم تقدم ، فقاتل حتى قتل .

عندئذ أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بني العجلان فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل .

(١) أجلب الناس : تجمهوا من كل جهة للحرب . الرنة : الصيحة الشديدة .

(٢) الشنة : القرية الصغيرة القديمة كناية عن الجسم .

(٣) فعلهما : أى فعل زيد وجعفر .

فاصطلىح الناس على خالده بن الوليد ، وكان قد خرج مع الجيش متطوعاً ليدل بذلك على حسن إسلامه ، وكان حديث عهد بالإسلام . فلما تناول الراية عمل بالحكمة الإلهية القائلة : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (١) . ذلك أنه أيقن تماماً بأن المسلمين سوف يهلكون عن آخرهم إن هم استمروا في قتال عدو يفوقهم أضعافاً مضاعفة لا قبل لهم بها .

استلم خالده الراية عند المساء لما قتل ابن رواحة في أواخر ساعات القتال . فبات ليلته وهو يفكر في مكيدة حربية يوهم بها العدو أن مدداً قد وصل إلى المسلمين . فلما أصبح جعل مقدمة الجيش مؤخرة ، ومؤخرته مقدمة ، وميمينته ميسرته ، وميسرته ميمينته . ونجحت الخطة إذ أنكر العدو ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم في اليوم السابق ، وظنوا أن مدداً قد جاءهم ، ففت ذلك على أية حال في عضدهم لما شهدوا من ضراوة المسلمين في القتال على قلة عددهم في اليوم السابق ، فأحجموا عن مبادأتهم بالقتال ، واستطاع خالده بحكمته ومهارته الحربية أن يناور مناورة باسلة وينسحب بجيش المسلمين شيئاً فشيئاً داخل الصحراء . كل هذا من غير فرار حتى لا يطمع فيهم العدو ، ومن غير قتال حتى لا يهلك أصحابه ويقحظهم فيما لا طاقة لهم به . فلما توغل في الصحراء ، ارتد المشركون ، ورجع المسلمون سالمين إلى المدينة ، لم يقتل منهم غير ثمانية في قول ، واثنى عشر في قول آخر . وهذا ولا شك أمر عظيم جداً ، ذلك أن جيشين متعاديان في الدين ، أحدهما فئة قليلة تقاتل فئة كثيرة ، فلا يقتل من الفئة القليلة إلا هذا العدد فحسب . وفي هذا دليل على ما ذهبنا إليه من أن عدد المشركين لم يكن بمثل تلك الكثرة التي حدثنا عنها كتاب المغازي . وربما لم يشترك في القتال ذلك اليوم كل جموع المشركين ، لأنها لو اشتركت كلها لكان تصديق ذلك عسيراً .

لما بلغت المدينة أنباء عودة الجيش وعلم النبي بمقتل أصحابه الثلاثة ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وكانوا من

(١) البقرة ١٩٥ .

أعز أصحابه على نفسه ، حزن حزناً شديداً حتى إنه لم يتمالك عبرات أن تتحادر على خديه . توجه بنفسه إلى بيت جعفر بن أبي طالب . وكانت زوجته أسماء بنت عميس قد قامت بشئون البيت فعمجنت وغسلت بنيتها ودهنتهم ونظمتهم ، فقال : ائذني ببني جعفر . فلما أتته بهم شمهم وذرفت عيناه ، فاضطربت أسماء وقالت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ! ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : نعم أصيبوا هذا اليوم . فقامت تصيح واجتمع إليها النساء ، وخرج محمد إلى أهله فقال : « لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » .

ولما دنا الجيش من المدينة خرج المسلمون للقائه ، وأسرع الصبيان في أعقابهم ، وأقبل محمد على دابة مع القوم ، ونظر إلى الناس فقال : خذوا الصبيان فاحلوهم وأعطوني ابن جعفر . فأتوا له بعبد الله بن جعفر فحمله بين يديه ، والناس يصبون على الجيش التراب ويقولون : يا فرار ، فررت في سبيل الله ! فقال محمد : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » . ثم إنه أثنى على مهارة خالد .

ولقد صدق قوله هذا كل الصدق ، فقد كروا بعد ذلك بأقل من عشر سنين على أكبر إمبراطوريتين في العالم ، فما هي إلا أعوام تعد على أصابع اليد الواحدة حتى كان ملك الروم والفرس كأمس الذهب .

وفي أعقاب سرية مؤتة ، بعث محمد في جمادى الآخرة سرية في ثلاثمائة من الأنصار ، والمهاجرين إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بلى وعبد الله ومن يليهم من قضاة . ويقول بعض رواة السيرة إن هذه السرية وجهت إلى جمع من قضاة بلغ الرسول أنهم تجمعوا في ديارهم وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة ، ويقول آخرون إنه أرسل عمرو بن العاص ليستنفر هؤلاء العرب إلى الإسلام . وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بني بلي . وقصد من تأمير عمرو بن العاص أن يتألف بذلك قلوبهم .

سار عمرو على أية حال يقود رجاله حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل - وبه سميت هذه السرية بذات السلاسل - خاف كثرة عدوه فبعث إلى محمد يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين من المهاجرين الأولين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : « لا تختلفا » .

فلما قدم أبو عبيدة على عمرو بن العاص ، قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي ، فقال له أبو عبيدة : لا ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه .

وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا ، فلما أصر عمرو ابن العاص على أنه الأمير وأن أبا عبيدة مدد له ، قال أبو عبيدة : يا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لي « لا تختلفا » وإنك إن عصيتني أطعتك . فقال له عمرو : فإني أمير عليك وإنما أنت مدد لي . فامثل أبو عبيدة للأمر ، وصلى عمرو بن العاص بالناس ، وتولى أمر الجيش في كل صغيرة وكبيرة . حتى لقد قيل إنه لما أراد رجال من الجيش إيقاد نار فنعهم عمرو ، وأنكر ذلك عليه عمر بن الخطاب ، قال له أبو بكر : إنما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه ، فامثل للأمر .

والحق أن عمرو بن العاص كان داهية من كبار الدهاة الذين لا يتكرر مثلهم كثيراً . فقد وطىء بلاد بلي ودوخها ، وكان كلما انتهى إلى موضع قيل له إن به جمعاً ، لم يجد به داعياً ولا مجيباً ، ذلك أن الأعراب كانوا إذا سمعوا بمقدمه تفرقوا ، وظل على هذه الحال حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلي وعذرة وبلقين . وأخيراً التقى بجمع صغير ، فإذ أن دار القتال ساعة وحمل عليهم المسلمون حتى انهزم الأعراب وتفرقوا في الصحراء .

وأقام عمرو بجيشه أياماً بتلك البلاد لا يسمع بجمع لهم ولا مكان صاروا فيه حتى يهاجمهم . وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فينهجرون ويأكلون .

ولم يكن شيء أكثر من ذلك ، أى لم تكن هناك غنائم تقسم ، فقفل راجعاً بالجيش ظافراً .

ومن طريف ما يروى أن عمرو بن العاص احتلم وهم في الطريق في ليلة باردة كأشد ما تكون من البرد . فلما أصبح أشفق على نفسه أن يغتسل في هذا البرد فتيمم وصلى بالناس صلاة الصبح . فلما عادوا إلى المدينة وجلسوا إلى محمد يحدثونه عن غزوتهم ، وأخذ يسألهم عن أنباء سفرتهم كعادته إذا أرسل سرية هنا أو هناك ، أخبروه بما كان من عمرو بن العاص عند ما منعهم من إيقاد النار ، ونهيه لهم عن اتباع العدو ، وكانوا يريدون اقتفاء أثره فرفض ، ثم صلاته جنياً . فلما سأله النبي عن ذلك قال : منعهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم ، ونهيتهم عن اتباع العدو خشية أن يكون له كمين ، أما صلاتي جنياً فوالذي بعثك بالحق لو أني اغسلت لمت ، لم أجد برداً قط مثله ، وقد قال تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً . » (١) فضحك النبي عندئذ ولم يقل شيئاً .

وفي رجب من نفس السنة أى سنة ثمان من الهجرة ، بعث النبي سرية إلى شاطئ البحر عدتها ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار بقيادة أبي عبيدة ابن الجراح . وفي شعبان أرسل أبا قتادة بن ربعي الأنصاري إلى خضرة وهي أرض محارب بنجد على رأس عشرين مقاتلاً أو نحو ذلك للإغارة على غطفان . وفي رمضان سار بنفسه على رأس أكبر جيش عرفه المسلمون حتى ذلك الحين ، ووجه إلى مكة .

الفصل الثاني والعشرون

غزوة الفتح الأعظم

فتح مكة

لم يعرف أحد محمداً إلا صادقاً صغيراً وكبيراً ، وإلا وفيأ بعهدده صغيراً وكبيراً ، وإلا برأ بأهله وبالناس بخبياً صغيراً وكبيراً . فأى شيء حدث الآن ليخرج على رأس أكبر جيش إسلامي عرف حتى ذلك الحين ليغزو مكة ، وعهد الحديبية لم تنقض مدته بعد ؟ أينقض محمد العهد ؟

نعلم مما سبق أنه جاء في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهدده دخل ، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل . فدخلت خزاعة في عقد محمد وعهدده ، ودخل بنو بكر في عقد قريش وعهدهم . غير أن بنى بكر بعد نحو سبعة عشر أو ثمانية عشر شهراً ، هاجموا خزاعة ليلا عند ماء يقال له الوثير ، وهو قريب من مكة ، فأعانهم قريش بالخيال والسلاح وقاتلوا معهم ظناً منهم أن الليل من شأنه أن يخفى هذا العمل القبيح . عندئذ خرج بُدَيْل بن ورقاء في نفر من أصحابه حتى قدموا على محمد في المدينة ، وأخبروه بما أصيب منهم ، وما كان من مناصرة قريش لبني بكر عليهم . وأنشده عمرو بن سالم أبياتاً من الشعر يستنصره بها على بنى بكر ، قال :

يا ربّ إني ناشد محمداً	حلفَ أيّه وأيينا الأتلدا
قد كنتم ولدأ وكننا والدأ	ثُمَّتَ أسلمنا فلم نزع يدا
فانصر رسول الله نصرأ أبدا	وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا
فهم رسول الله قد تجردأ	إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلتقى كالبحر يجرى مزبدا	إن قريشاً أخلفوك المتوهدا

ونقضوا ميثاقتك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رسدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا فهم أذل وأقل عـدا
هم بيئتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعاً وسجدا
فقال عندئذ محمد : نصرت يا عمرو بن سالم .

أما السبب الذي أدى إلى نشوب هذا القتال فيرجع إلى خصومات ومشاحنات وقعت بين خزاعة وبنى بكر قبل الإسلام . فيقال إن رجلاً من بنى الحضرمي اسمه مالك بن عبّاد من حلفاء الأسود بن رزّن كان قد خرج تاجراً . فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله . فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه . فعدت خزاعة على بنى الأسود بن رزن الدثلي . وهم مفخر بنى كنانة وأشرفهم ، سامي وكلثوم وذويب ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم .

وجاء الإسلام وهم على هذا الحال . فلما كان يوم الحديبية دخل بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعة في عقد محمد ، وكانت الهدنة ، وعند ذلك اغتنمها بنو الدليل من بنى بكر . وخزاعة مطمئنة ، وأرادوا أن يصيبوا منها ثأراً ، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في قومه وهو يومئذ سيدهم وقائدهم ، ولكن لم تكن كل بنى بكر تتبعه . فبيت خزاعة وهم على ماء لهم يقال له الوتير فأصابوا منهم رجلاً واقتتلوا . ثم إن قريشاً أمدت بنى بكر بالسلاح . وقاتل معهم جماعة من قريش بالليل وهم مستخفون حتى ساقوا خزاعة إلى الحرم . حتى لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء بمكة . وإلى دار حليف لهم يقال له رافع .

ثم إن القوم خرجوا راجعين إلى مكة . فلقوا أبا سفيان عند مكان يقال له عسفان . وكانت قريش قد شعرت بنقضها للعهد وتخوفت مغبة ذلك ، فأرادت منه أن يطلب من محمد أن يشاء لهم العقد ويزيد في المدة . فلما أتى أبو سفيان بديلاً قال له : من أين أقبلت يا بديل ؟ فقال : سرت في خزاعة

في هذا الساحل في بطن هذا الوادي . غير أن ذلك لم يقنع أبا سفيان ، فما شك في أنه أتى محمداً ، فقام إلى حيث بركت ناقته فأخذ من بعرها ففتته فرأى فيه النوى ، وهو من علائف يثرب فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

وقدم أبو سفيان على محمد في المدينة ، وكان طبيعياً أن يذهب إليه في دار ابنته أم حبيبة . فلما هم بأن يجلس على فراش النبي طوته ، فقال : يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ فقالت : هو فراش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجاس على فراشه . فقال : يا بنية والله لقد أصابك بعدى شر ! وخرج .

ثم إنه أتى النبي وطالب منه أن يشدد العقد ويزيدهم في المدة . فسأله محمد : ولذلك قدمت ؟ هل كان من حدث قبلكم ؟ فقال أبو سفيان : معاذ الله ! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل . فلم يزد محمد عندئذ على ذلك شيئاً ، وظل صامتاً .

فلما رأى أبو سفيان أن النبي لم يجبه إلى طلبه ، ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم محمداً ، فلم يقبل . فأتى عمر بن الخطاب ، فقال عمر : أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فوالله لو لم أجد إلا النمل لجاهدتكم به . فخرج من عنده وذهب إلى علي بن أبي طالب فوجده مع زوجته فاطمة بنت محمد ، وعندهما الحسن وكان لا يزال غلاماً ، فقال : يا علي إنك أمس القوم بي رحماً وأقربهم مني قرابة ، وقد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى محمد . فقال علي : ويحك أبا سفيان ! والله إذا عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة فقال : يا بنت محمد هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ فقالت :

والله ما بلغ ثبني ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير (١) أحد على النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت فانصحنى . قال : والله ما أعلم شيئاً يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . فقال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظن ، ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فدخل أبو سفيان على محمد فقال : يا محمد إني قد أجرت بين الناس ، لا والله ما أظن أن يخضرنى أحد ولا يرد جوارى . فما كان من النبي إلا أن قال : أنت تقول يا أبا حنظلة . عندئذ خرج أبو سفيان لتوه وقفل راجعاً إلى مكة .

فلما قدم مكة قالت له قريش : ما وراعتك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟ قال : لا والله لقد أبي على ، وقد تتبععت أصحابه فما رأيت قوماً ملك عليهم أطوع منهم له ، غير أن على بن أبي طالب قد قال لي : التمس جوار الناس عليك ولا تجر أنت عليه وعلى قومك ، وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها ألا تخضر جواره . فقممت بالجوار ثم دخلت على محمد فذكرت له أني أجرت بين الناس وقلت : ما أظن أن تخضرنى . فقال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة . فقالوا : رضيت بغير رضى ، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً ، وإنما لعب بك على لعمر الله ! ما جوارك يجائز وإن إخفارك عليهم لهين .

ثم قام فدخل على هند زوجته ، فلما حدثها بما صنع قالت : قبحك الله من وافد قوم ! فما جئت بخير .

(١) نحن نعلم أنه إنما يجير على المسلمين أدناهم ، وقد قبل الرسول جوار ابنته زينب عندما أجارت زوجها أبا العاص بن الربيع وقبل جوار غيرها ، ولكن مفهوم كلام فاطمة هنا يعني أن المراد بقبول جوار أدنى المسلمين هو جواره في فرد واحد أو نفر يسير ، أما من يجير عدداً كبيراً من فزرو الإمام إياهم فليس له ذلك .

لم تمض أيام حتى بدأ النبي يعد عدته للغزو ، فأمر عائشة أن تجهز للسفر وأن تخفى ذلك . فبينما هي في دارها وعندها حنطة تنسف وتنقى إذ دخل عليها أبو بكر ، فقال لها : يا بنية لم تصنعين هذا الطعام ؟ فسكتت . فقال : أريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو ؟ فصمتت . فقال : يريد بني الأصفر - أي الروم - ؟ فصمتت ، قال : فلعله يريد أهل نجد ؟ فصمتت . قال : فلعله يريد قريشاً ؟ فصمتت .

فلما دخل محمد قال له : يا رسول الله أريد أن تخرج مخرجاً ؟ قال : نعم . قال : فلعلك تريد بني الأصفر ؟ قال لا . قال : أريد أهل نجد ؟ قال : لا . قال : فلعلك تريد قريشاً ؟ قال : نعم . فقال أبو بكر : يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدة ؟ قال : ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب ؟ ثم إنه أذن في الناس بالغزو وأمرهم بالتجهز ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . فقدمت جموع من قبائل غفار ومزينة وأشجع وجهينة ، غير أنه أخفى عن الناس مقصده حتى لا يشيع الخبر فيبلغ قريشاً فتجهز للقائه ، وكان لا يريد حرباً في مكة ، بل يريد أن يبعث قريشاً من غير حرب ولا لإراقة دماء ولا مساس بحرمتها . فكان يدعو ربه قائلاً : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها .

غير أن حاطب بن أبي بلتعة وهو من أوائل المهاجرين ومن أصحاب الرسول في بدر ، قد سارع في لحظة من تلك اللحظات التي تضعف فيها النفوس ، وكتب كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه أن محمداً قد نفر ، إما إليكم ، وإما إلى غيركم ، فعليكم الحذر . ودفع بالكتاب إلى امرأة قيل إنها من مزينة ، وقيل إنها سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ثم فتلث عليه ضفيرتها وخرجت به إلى مكة . غير أن محمداً علم بأمر هذا الكتاب ، فبعث في أثرها على بن أبي طالب ،

والزبير بن العوام ، وقال لهما : أدركا امرأة قد كتبت معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم . فخرجنا وراءها حتى أدركاها في بعض الطريق ، فاستنزلاها من فوق بعيرها وفتشا عن الكتاب في الرحل فلم يجدا فيه شيئاً ، فقال لها علي : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كذبنا ، ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الحد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت ضفائر رأسها واستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فرجعا به .

استدعى النبي حاطباً فقال له : يا حاطب ما حملك على هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل علي ، إني كنت امرأة آليس لي في قريش من أصل ولا عشيرة ، ولي بين أظهرهم ولد وأهل ، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يجمعون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

فقال محمد : أما إنه قد صدقكم . فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال : أنقتل رجلاً من أهل بدر ؟ وعفا عنه .

وأنزل الله في حاطب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوتكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » (١) إلى آخر القصة .

وفي العاشر من رمضان سنة ثمان من الهجرة ، خرج النبي على رأس جموع غفيرة من المسلمين يريد مكة ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم . وكان كلما تقدم نحو مكة انضمت إليه جموع جديدة من سائر

قبائل المسلمين الذين استنفرهم للخروج معه ، حتى أربى الجيش على عشرة آلاف مقاتل أو نحو ذلك . وسار الناس وهم صائمون حتى إذا بلغوا الكديد أجهدهم الصوم ، فقال بعضهم لمحمد إن الناس قد اشتد عليهم الصوم ، وإنما ينظرون كيف فعلت . فدعا بماء فشرب وهو على ناقته والناس ينظرون ، يعلمهم بذلك أنه قد أفطر ، فأفطر المسلمون .

وما أن بلغوا الجحفة حتى لقيهم العباس بن عبد المطلب مهاجراً بعياله ، وكان حتى ذلك الحين لا يزال مقيماً بمكة متولياً سقاية الحاج والنبى راض عنه . ويقال بأنه كان قد أسلم سرّاً . ومن اتى الرسول أيضاً فى تلك الأثناء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبى أمية ، إذ كانا قد خرجا من مكة أيضاً للقائه فلقياه بنيق العقاب والتمسا الدخول عليه . ولعله كانت قد بلغت قريشاً أبناء الزحف الإسلامى ، فخرج هؤلاء يطلبون الأمان من محمد قبل أن تدهم مكة بجيوشه فلا يكون لهم عذر بعد ، وكانا ممن أساء إليه من أهله فى أثناء إقامته بمكة يدعو الناس إلى دين الحق . فلما التمسا الدخول عليه كلمته زوجته أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله ابن عمك وابن عمك وصهرك . قال : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهنتك عرضى ، وأما ابن عمى فهو الذى قال لى بمكة ما قال (١) .

فلما بلغهما أنه يرفض لقاءهما قال أبو سفيان وكان معه بنى له : والله ليأذن لى أو لآخذن بيد بنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما سمع محمد بذلك ، تجأت العاطفة العربية الجياشة إزاء الأهل والأقرباء بأجلى معانيها . فضلاً عما عرف به من البر بأهله ، فرق لهما وأذن لهما فدخلا عليه وأسلما ، وأنشده أبو سفيان قوله فى إسلامه واعتذر إليه مما كان قد مضى من فعاله ، وعفا عنهما .

لما انتهى محمد إلى مر الظهران نزل فيه فأقام ، وأغلب الظن أنه أراد

(١) وهو الذى قال له بمكة : والله لا آمنت بك حتى تسخذ سلماً إلى السماء فتدرج فيه وأنا أنظر ، ثم أتى بصك وأربعة من الملائكة بشهدون أن الله قد أرسلك .

أن يستأخر بعض الوقت عن الوصول إلى مكة لعل أهلها يقدمون عليه ويستأمنونه ويدخلون في الإسلام ، فلا يدخل مكة عنوة ، فيقتل الأهل ويستباح الحرم .

روى بعض الصحابة من أخبار تعايشهم في تلك الأيام ما يدل على روح البساطة والصفاء النفسى الذى انطبع به هذا المجتمع . روى جابر أنهم عندما نزلوا بمصر الظهران أخذ الناس يجتنون الكباش وهو ثمر الأراك (١) ، وكان النبي يقول لهم : عليكم بالأسود منه فإنه أطيب . فقالوا : يا رسول الله أكنت ترعى الغنم ؟ قال : نعم ، وهل من نبي إلا وقد رعاها . وكان الرجل منهم إذا أصاب حبة طيبة منها قذفها في فيه ، وكانوا ينظرون إلى دقة ساقى ابن مسعود وهو يرقى الشجرة ويضحكون ، فقال لهم محمد : تعجبون من دقة ساقية ؟ فوالذى نفسى بيده لهما أثقل في الميزان من أحد !

وكان ابن مسعود إذا اجتنى شيئاً جاء به وخياره فيه إلى النبي . قال في ذلك :

هذا جناى وخيارى فيه إذ كل جان يده إلى فيه

وروى أنس بن مالك أنه وجماعة من أصحابه أثاروا أرنباً وسعوا إلى اصطيداده فأدركها أنس فأتى بها إلى أبي طلحة فذبحها ، وبعث إلى محمد بوركها فقبله . وكان عليه السلام سمحاً جواداً كريماً رقيقاً مع أصحابه ، يقبل منهم الهدية مهما صغرت ومهما قلت قيمتها ويكافئ عليها .

ولما خيم الظلام في تلك الليلة أمر محمد أصحابه فأوقدوا نيراناً لم ير أحد مثلاً من قبل . ويقال إنهم أوقدوا عشرة آلاف نار ، وذلك حتى يرهب قريشاً فتأتى طائفة مختارة بدون حرب ، وتظل مكة حراماً كما كانت ، وكما ابتغى لها أن تكون .

والحق أن قريشاً كانت قد انهزمت فعلاً ولم يعد من شيء إلا أن تستسلم ،

(١) ضرب من الشجر ترعاه الماشية ، له ثمر كعناقيد العنب .

ولكن بصورة تحفظ لها ماء وجهها على الأقل . لقد أضعفها عهد الحديدية كما قلنا ، بل إنه أفصح عن ضعفها الشديد إزاء محمد . ثم هزت عمرة القضاء هيبتها ، وأخيراً ضعفتها سفارة أبي سفيان عند ما أراد أن يشد العقد ويزيد من مدة الحديدية ، فعاد خائباً خاسراً مرفوضاً طلبه . عندئذ كانت قريش في واقع الأمر قد نزلت إلى الحضيض . كل هذا كان من شأنه أن يشير بوضوح إلى أن نهاية قريش قد أصبحت محتومة ، وأن دخول محمد على رأس المسلمين مكة أصبح أمراً لا يُشك فيه ، وكان العباس بن عبد المطلب عند ما رأى تلك النيران وقدر قوة المسلمين ، قد دخل في روعه أن مكة هالكة لا محالة إن هي لم تستأمن النبي . وهذا أمر لم يكن يرتضيه العباس ولا ابن أخيه .

قال العباس : واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر . وهنا يروى لنا العباس كيف استأمنت قريش ، يقول : جلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت : لعلي أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ليخرجوا فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . فوالله إنى لأسير عليها وأتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان^(١) ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً . فيقول بديل : هذه والله خزاعة تمسحتها الحرب . فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم . قال : ما لك فذاك أبي وأمي !

(١) وكان أبو سفيان قد خرج من مكة مع حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ويتجسسون الأخبار لملهم يجدون خبراً أو يسمعون من المسافرين شيئاً .

قلت : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس . فقال : واصباح قريش والله ! فما الحيلة فذاك أبي وأمي ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله فأستأمنه لك . فركب خلني ورجع صاحباه . وكنت كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إلى . فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد .

فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه غمر فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلاضرب عنقه . فقلت : يا رسول الله إني قد أجرته . ثم جلس رسول الله فأخذت برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلة دوني رجل . فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلا يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف . فقال : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ! وما بي أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب . فقال محمد : « اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به » .

فذهبت به إلى رحلي فبات عندي ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد !

قال : « ويحك ! يا أبا سفيان ألم بأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » .
فقال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه فإن في
النفس منها حتى الآن شيئاً !

فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله قبل أن تضرب عنقك ؟
فشهد شهادة الحق فأسلم .

فقال العباس للنبي : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر
فاجعل له شيئاً . قال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .
فقال أبو سفيان : وما تسع داري ؟ فقال : « ومن دخل الكعبة فهو آمن » .
قال : وما تسع الكعبة ؟ فقال : « ومن دخل المسجد فهو آمن » . قال :
وما يسع المسجد ؟ فقال : « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » . فقال
أبو سفيان : هذه واسعة .

فلما سار أبو سفيان أمر محمد العباس أن احبس أبا سفيان عند مضيق
الجبيل حتى ينظر إلى المسلمين . ولقد أراد من ذلك أن يرى أبو سفيان بنفسه
عزة المسلمين وقوتهم فيحدث قريشاً بها عند عودته فتتكسر شوكتهم نهائياً
فلا يطمعون في قتال . فصحب العباس أبا سفيان ووقف معه حيث أمره
محمد ، فكان كلما مرت بهم قبيلة يسأل عنها العباس فيقول : بني فلان ،
حتى إذا مرَّ محمد في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى
منهم إلا الحدق من الحديده ، قال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟
قال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار .
قال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء من قبيل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد
أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ! قال : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال :
تعم إذن . قال العباس : النجاء إلى قومك .

فأسرع أبو سفيان إلى مكة وصاح بأعلى صوته في قريش : يا معشر

قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة ، وكانت امرأة عنيدة جداً مقدامة لا تهاب شيئاً ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس (١) . قبح من طليعة قوم .

فقال أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ! وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فنفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وتقدم جيش المسلمين نحو مكة ، حتى إذا وصل إلى ذي طوى ، ورأى النبي مكة هادئة مستسلمة ، وقف على راحلته وعلى رأسه عمامة من شقة برد حمراء ، قد ارتد طرفها على وجهه ، وانحنى انحناءة كبيرة خافضاً رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه به من الفتح ، حتى لقد كادت لحيته تمس واسطة الرجل (٢) .

يا لجلال تلك اللحظات ، ويا لروعة هذا النصر .

هذه قريش تستسلم أخيراً عند قدميه ، وهذه مكة مهبط الوحي ومقر البيت العتيق تستقبله بالراحتين ، وكأنى بها ودموع الفرح على خديها ترحب بهذا القادم العظيم ، بهذا النبي الأُمى ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، وتقول له : تقدم فخذنى ، أنا طوع بنانك وتحت أمرك . تقدم فاعتل شامخ أنحأى ، وترجع على قمة مجدى . أستغفر الله أن أكون إلا مدينتك ، مستقط رأسك ، ومهبط وحيك ، ومنزل سعدك .

(١) الحميت : وعاء السمن ، والدسم : السمين ، والأحمس : الكثير اللحم .

(٢) ما يوضع على ظهر الجمال ليركب .

اغفر لي يا أعظم البشر ، ويا أحن البشر ، ويا أرق البشر ، سابق ذنوبي ،
واطلب لي من السماء العفو عن أخطائي ، والتغاضي عن جهالاتي ، والتغافل
عن سفاهاتي . أنت نبي ومعلمي وسيدى . ها أنا ذا لك فخذنى .

فرق النبي جيشه أربع فرق ليدخلها من أربع جهات . وأمر أمراء الفرق
ألا يقاتلوا إلا إذا أكرهوا على القتال . فكان الزبير بن العوام أمير الفرقة التي
أمرها أن تدخل مكة من جهة جبل كدى بأسفل مكة ، وسعد بن عباد
الخزرجي أمير الفرقة التي أمرها بالدخول من جهة جبل كداء بأعلى مكة ،
وأبو عبيدة بن الجراح أمير المهاجرين الأولين ، ومعهم النبي ليدخلوا
مكة محاذين لجبل هند ، وخالد بن الوليد أمير الفرسان ، وأمره أن يدخلها
من جهة الليط حيث يقيم أشد قريش عداوة للرسول وعلى رأسهم عكرمة بن
أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية .

ويقال بأن سعد بن عباد عند ما تأهب لدخول مكة بفرقة قال :
اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما شاع
ذلك بين الناس ، أسرع عمر بن الخطاب إلى محمد فقال : يا رسول الله
اسمع ما قال سعد بن عباد ، ما تأمن أن يكون له في قريش صولة ! وعندئذ
أمر محمد بالراية فأخذت من سعد بن عباد ، غير أنه أحب ألا يغضبه ،
فأعطيت لابنه قيس بن سعد بن عباد . ثم إن محمداً نهى عند ذلك عن القتل
إلا سبعة عشر شخصاً لم تدر كههم رحمة على سعتها ، فأمر بقتلهم ولو وجدوا
متعلقين بأستار الكعبة .

أطبقت جيوش الإسلام على مكة من أربع جهاتها ، ومكة خاشعة
طائعة مستسلمة ، لم يعكر صفو هذا السلم غير جماعة من المتعصبين الموغلين
في عداوتهم للإسلام ونبي الإسلام ، على رأسهم عكرمة بن أبي جهل ،
وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، فحملوا السلاح في وجه خالد بن
الوليد ، فما هي إلا ساعة حتى كان خالد قد قتل منهم اثني عشر أو ثلاثة
عشر رجلاً ، ثم انهزموا شر هزيمة وفر عكرمة وسهيل وصفوان .

ولما رأى محمد تلماع السيوف وخالد مجد في القتال قال : ألم أنه
عن القتال ؟ قيل : يا رسول الله إن خالد بن الوليد قوتل فقاتل ، فقال :
قضاء الله خير .

ولم يقتل من فرسان خالد غير ثلاثة منهم اثنان قتلا خطأ إذ شذا عن
طريقه . وكان شعار المهاجرين يوم الفتح : يا بنى عبد الرحمن . وشعار
الخزرج : يا بنى عبد الله ، وشعار الأوس : يا بنى عبيد الله .

دخل محمد بفرقة آمنة مطمئناً لم يعترضه عائق ولا مانع ، ودخلت
الفرقتان الأخريان بغير قتال أيضاً . وكان دخوله مكة من أذاخر ، وكان
مردفاً أسامة بن زيد ، ولقد نزل بأعلى مكة فضربت له خيمة ، فيها من
زوجاته ميمونة وأم سلمة .

وكان منادى محمد ينادى في مكة عند دخول الجيوش : من دخل
دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه
بابه فهو آمن . وبعد أن استراح محمد قليلاً في خيمته ، قام بعد أن اطمأن
الناس ، فسار وبجانبه أبو بكر وهو يقرأ الفتح حتى بلغ البيت العتيق ،
فطاف به سبعاً وهو على ناقته . وكان في يده محجن يلمس به الحجر الأسود .
وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً . فضلا عن هبل بداخلها ، فجعل
يشير إليها بالمحجن الذي في يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل
كان زهوقاً » . وأمر بتكسير الأصنام فألقيت إلى وجوهها وظهورها ،
ودعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، وأمر بفتحها وإخراج الأصنام
منها ، فلما أخرجت صورة إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزام قال :
« قاتلهم الله ! لقد علموا ما استقسموا بها قط » . وكان في الكعبة صور فأمر
عمر بن الخطاب أن يحرقها فبل عمر ثوباً ومحاها به . فدخاها وما فيها
شيء منها .

فلما فرغ أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت ، ثم رفع يده وجعل

يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو ، وقد أهدت به الأنصار . فلما رأوا ذلك قالوا فيما بينهم : أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : بماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال : معاذ الله ! الحيا حياكم والممات مماتكم .

ثم إنه عاد إلى الكعبة فوقف ببابها وخطب في الناس أول خطبة خطبها بعد الفتح ، وفيها بين كثير من الأحكام الإسلامية ، ثم قال : « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وادم من تراب » . ثم تلا الآية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » (١) . ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم جلس في المسجد ، وأمر بفتح الكعبة فأعطاه لعثمان بن طلحة لتكون له سدانتها كما كانت لأبيه ، وقال : هاك مفتاحك يا عثمان فاليوم يوم بر ووفاء . وجعل للعباس السقاية كما كانت في يده . ودعا بلالا وأمره أن يصعد فوق الكعبة فيؤذن ، فصعد بلال وأذن :

« الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

حدث هذا كله في صبيحة يوم واحد ، وقضى كفاح مرير استمر أكثر من عشرين سنة على عبادة الأصنام ، ولم يعد يُنادى من فوق الكعبة إلا باسم الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له . انتصر محمد وانتصر دينه . أما قريش فوقفت مذهولة لا تملك من أمرها كثيراً ولا قليلاً ، وهى تنظر إلى هذا كله

مفغورة أفواه كبيرهم وصغيرهم دهشة وعجباً مما يحدث في هذه الساعات .
ولقد أخذ منظر بلال وهو يؤذن من فوق الكعبة باب رجل من قريش فهمس
للحارث بن هشام مستنكراً . وكان لا يزال على شركه : ألا ترى إلى هذا
العبد أين صعد ؟ فقال الحارث : دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره . أما
المسلمون فإنهم لم يزالوا ذلك اليوم في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى
أصبحوا .

ثم إن الناس توافدوا يبايعون محمداً على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه محمد
قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه ؟ قال أبو بكر :
يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه . فأجلسه بين يديه
ثم مسح صدره ثم قال : أسلم . فأسلم ، ففرح كثيراً بإسلامه ، وجاء رجل
يبايعه وهو يرتعد خوفاً ووجلاً فقال له : « هون عليك فإني لست مابكاً ،
إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء ، وكانت هند بنت عتبة زوج
أبي سفيان فيهن متنقبة وجملة تخفى حديتها خشية أن يعاقبها بما صنعت بحمزة
يوم بدر . فلما دنين منه ليبايعهن قال : « بايعني على ألا تشركن بالله
شيئاً » . فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال .
ثم قال : « ولا تسرقن » فقالت : والله إني كنت لأصيب من مال أبي سفيان
الهنة بعد الهنة . وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا ؟ فقال
أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل .
وعندئذ عرفها محمد فقال « وإني لك لهند بنت عتبة » قالت : نعم . فاعف عما
سلف أعفا الله عنك . ثم قال : « ولا يزنين » . فقالت هند : يا رسول الله
وهل تزني الحرة ؟ ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » فقالت : قد ربيناهم
صغاراً أفنقتلهم كباراً ؟ فأنت وهم أعلم ! فضحك عمر بن الخطاب حتى
بدت نواجذه . ثم قال : « ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن » ،

فقلت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل . ثم قال :
« ولا يعصينتى » فقلت : فى معروف . فقال عندئذ لعمر بن الخطاب
« بايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » . فبايعهن عمر وكان محمد
لا يوافق النساء ، ولا يمس إلا امرأة أحلها الله له ، أو ذات محرم منه .
أما الذين أهدر محمد دماءهم ، فقد ضاقت بهم الأرض على سعتها ،
فها هى عشرة آلاف سيف مملوذة إليهم يجد أصحابها كل الجحد فى طلبهم .
فأين النجاء ، وكيف المفر ، وإلى أين ؟ لقد فروا فى كل وجه واستخفوا
هنا وهناك ، ولكن على الرغم من أن هذا النفر من الناس قد آذوا الرسول
أشد الإيذاء فى شخصه أو فى دينه أو ارتكبوا من الجرائم ما لم يشأ أن يغفره
لهم ، فإن رحمته وبره وسعة صدره قد وسعت هذا كله ، فاستطاع معظمهم
أن يستأمن منه ، ولم تعاجل السيوف غير أربعة نفر منهم فقتلوا بأعمالهم ،
لم يقتل غيرهم . ومن مشاهير الذين عفا عنهم العفو الجميل سعد بن أبى
سرح ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وكعب بن زهير .
أما سعد بن أبى سرح فكان يكتب الوحى ثم ارتد وافترى عليه كذباً
فكان يقول : إن محمداً كان يأمرنى بأن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور
رحيم ، فيقول كل جيد ! وكان سعد أخا عثمان بن عفان من الرضاة ،
فلما دخل محمد مكة وقد أهدر دمه ، فر إلى عثمان فأخفاه عثمان حتى
هدأ الناس ثم جاء به ، يستأمن له من محمد ، وقال له : يا رسول الله قد
أمنت فبايعه ، فأعرض عنه ثلاث مرات ثم قال : نعم . فلما انصرف مع
عثمان قال النبى لمن حوله : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين
رأى قد صمت فيقتله » فقالوا : يا رسول الله هلا أومأت إلينا ؟ فقال :
« إنه لا ينبغي لنبى أن تكون له خائنة الأعين » . وأما عكرمة بن أبى جهل
فكان من ألد أعداء محمد وأكثرهم إيذاء له . هرب وأراد أن يركب
البحر إلى الحبشة ، فاستأمنت له زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحويرث ،
وكانت قد أسلمت قبل الفتح ، فأمنها محمد فخرجت فى أثره حتى لحفته

فقلت : جئتك من عند أبر الناس وخيرهم ، لا تهلك نفسك ، وإني قد استأمنتك لك ، فرجع ، فلما رآه محمد بش له وفرح ووثب قائماً وقال : مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً . ثم إن عكرمة أسلم بين يديه وأصبح من خيرة المسلمين وأغيرهم على الإسلام .

وأما صفوان بن أمية فخرج هو الآخر يريد أن يركب البحر إلى الحبشة . فاستأمن له عمير بن وهب ، إذ جاء محمداً فقال له : يا نبي الله إن صفوان ابن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر ، فأمنه يا رسول الله صلى الله عليك . فقال : هو آمن . فقال : يا رسول الله اعطني آية يعرف بها أمانك . فأعطاه عمامته التي دخل فيها مكة . فلاحقه عمير وهو بهم يركوب البحر فقال : يا صفوان فذاك أبي وأمى الله الله في نفسك أن تُهلكها ، هذا أمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جئتك به . قال : ويلك اعزب عني فلا تكلمني . قال : أي صفوان فذاك أبي وأمى أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ، ابن عمك عزيزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك . قال : إني أخافه على نفسي . قال : هو أحلم من ذلك وأكرم . فرجع معه فقدموا إلى محمد ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك أمنتني ؟ قال : صدق . قال : فاجعلني بالخيار فيه شهرين ، قال : أنت بالخيار أربعة أشهر .

أما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية فقد استجارا بأم هانئ بنت أبي طالب . فدخل أخوها علي عليها يريد قتلها فنعته ، وجاءت محمداً فقالت : يا نبي الله أمنت رجلين من أحمائي فأراد علي قتلها . فقال النبي : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ .

أما كعب بن زهير ، وهو ممن كانوا يهجون النبي ، فجاء المدينة بعد أن عاد إليها محمد ، وأسلم بين يديه وأنشده قصيدته الشهيرة التي مطلعها « بانث سعاد » التي يقول فيها :

تسعى الغواة جنابها وقولهم
وقال كل صديق كنت آمله
فقلت خلّوا سبيلي لا أبا لكم
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
إلى أن قال :

إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول
نبئت أن رسول الله أوعى لى
والعفو عند رسول الله مأمول
فلما قال كعب هذين البيتين ، أشار محمد إلى من معه أن اسمعوا ، ثم
خلع عليه برده تكريماً له ، وعفا عنه أجمل عفو .

أما الذين قتلوا فعبد الله بن خطل ، وكان محمد قد أرسله جايياً للصدقات
وبعث معه رجلاً من الأنصار ، وكان معه مولى له فغضب عليه غضبة
فقتله ، ثم ارتد مشركاً ، وكان له قينتان (١) فكانتا تغنيان بهجاء محمد
والمسلمين ، فلهذا أهدر دمه ودم قينتيه . ولقد قتل عبد الله هذا وهو متعلق
بأستار الكعبة ، قتله رجلان ، وقتلت إحدى قينتيه واستؤمن للأخرى .
وأما الحويرث بن نقيد ، فكان ممن يؤذون محمداً بمكة ، وهو الذى نحس
جمل فاطمة وأم كلثوم بنتى محمد عندما أركبهما العباس ليلحقا بأبيهما
بالمدينة فى أوائل الهجرة فسقطتا إلى الأرض . قتله على بن أبى طالب .
وأما مقيس بن صُبابة فأهدر دمه لأنه قتل قاتل أخيه خطأ بعد أن أخذ الدية
ثم ارتد مشركاً ، قتله رجل من قومه يقال له نيملة بن عبد الله . وهو بين
الصفاء والمروة .

والحق أن محمداً كان حريصاً أشد الحرص على أن تظل مكة بلبداً

(١) القينة : المنية .

حراماً لا يحل فيها القتل إلا لتلك الضرورات التي ارتآها ذلك اليوم .
ولا لشيء غير ذلك على إطلاق القول مهما كانت الظروف . فلما قتلت
خزاعة رجلاً مشركاً من هذيل يوم الفتح أخذاً بثأر قديم ، قام النبي خطيباً
في الناس فقال : « يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات
والأرض ، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرئ يؤمن
بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمأ أو يعصده (١) فيها شجراً . لم تحلل لأحد
كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي . ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضباً على
أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . فن
قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها
لكم يا معشر خزاعة . ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر إن نفع ، لقد
قتلتم قتيلاً لأدينه ، (أي لأدفع ديته) . فن قتل بعد قتالي هذا فأهله بخير
المنظرين ، إن شاءوا فدم قاتله وإن شاءوا فعقله (أي ديته) . « ثم دفع دية
الرجل الذي قتله خزاعة .

أقام بمكة خمسة عشر يوماً ، قضائها في تقبل مبايعة الناس له وفي
تثقيفهم في دينهم وتبيان الأحكام لهم ، وفي إرسال السرايا إلى القبائل لدعوتهم
إلى الإسلام ، وعلى الحملة في العمل على القضاء على جميع مظاهر الشرك .
أرسل خالد بن الوليد في سرية لهدم العزى ، وكانت بيتاً بنخلة يعظمه قريش
وكنانة ومضر فهدمه . وأرسل عمرو بن العاص لهدم سُرَاع ، وكان هيكله
على ثلاثة أميال من مكة فهدمه ، وبعث سعد بن زيد الأشهلي لهدم مناة ،
وهي صنم لكعب وخزاعة وهيكلها بالمشال وهو جبل على ساحل البحر يهبط
منها إلى قديد فهدمه .

ثم إنه أرسل أيضاً خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بن عامر يدعوهم إلى
الإسلام ولم يبعثه مقاتلاً . ومعه قبائل من العرب وسليم بن منصور ومدلج

(١) عصد الشجرة أي قطعها بالمعصد وهو حديدة كالمنجل .

ابن مِرَّة . فدهموا بنى جذيمة فى أرضهم . فلما رأوه أخذوا السلاح وهموا
بقتاله . فأمرهم خالد بوضع السلاح . وقال لهم إن الناس قد أسلموا . غير
أن رجلا منهم يقال له جحلم رفض وضع السلاح وقال لقومه : ويلكم
يا بنى جذيمة إنه خالد ! والله ما بعدَ وضع السلاح إلا الإِسار ، وما بعد
الإِسار إلا ضرب الأَعناق ، والله لا أضِع سلاحى أبداً . فقال له رجال من
قومه : يا جحلم ، أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضع
الحرب وآمن الناس . ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه . ووضع القوم
سلاحهم لقول خالد .

غير أن خالداً أمر بهم فكتفوا ، ثم أعمل فيهم القتل ، حتى قتل نفرأ
منهم . فأتى رجل وأخبر محمداً بما كان من فعل خالد ، فقال : هل أنكر
عليه أحد ؟ قال الرجل : نعم أنكر عليه رجل أبيض ربعة فنهزه خالد فسبكت
عنه ، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب فاشتدت مراجعتهما . فقال
عمر بن الخطاب : أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالم
مولى بنى حذيفة . عندئذ دعا محمد على بن أبى طالب فقال : « يا على
اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » .
ويقال إن خالد بن الوليد صنع هذا ليثأر لعمه الفاكهة بن المغيرة ، وكان
بنو جذيمة قد قتلوه فى الجاهلية . ويقال فى رواية أخرى إنه لم يفهم أنهم
أسلموا إذ قالوا : صباأنا صباأنا ، ولم يقولوا أسلمنا ، وهم يقصدون بذلك
الإسلام .

فخرج على بن أبى طالب ومعه مال جهزه به محمد حتى أتى القوم
فدفع ديات من قتل منهم وعوضهم عن أموالهم ، حتى إنه كان يعرضهم عن
مبلغه الكلب . حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا عوض عنه ،
بقيت معه بقية من المال . فقال لهم على حين فرغ : هل بقى لكم دم أو مال
لم يؤد إليكم ؟ قالوا : لا . قال : فإنى أعطيتكم هذه البقية من هذا المال

احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون .
فلما رجع وأخبر محمداً بما صنع ، قال : « أصبت وأحسنتم » .
ثم قام فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبَيْه ،
وقال ثلاثاً : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » .
دخل محمد مكة في العشرين من رمضان ، وخرج منها في الخامس من
شوال لما علم بما كان من شأن هوازن وجمع مالك بن عوف سيدها الجموع
لحربه ، فكانت وقعة حُنين .

الفصل الثالث والعشرون

غزوتنا حنين والطائف

أثار فتح مكة هواجس هوازن ، فتوقعت أن يدهمها محمد وجيوشه في بلادها غازياً بعد أن تمكن له الأمر في أم القرى . فجمع مالك بن عوف سيد هوازن أشراف قبائلها وروساء بطونها ، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر ، ورجال من بني هلال ، وتخلف من هوازن كعب وكلاب . وبعد أن تشاور هؤلاء السادة أجمعوا رأيهم على حرب النبي وأتباعه ، وعلى الخروج إليهم غازين قبل أن يدهمهم في بلادهم .

فلما خرجت جيوش هوازن وحلفائها ، أخرج مالك بن عوف مع المقاتلة أموالهم ونساءهم وأبناءهم . فلما نزلت جموعهم بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وكان في جشم دريد بن الصمة ، الشاعر الفارس الشهير ، وكان قد كبر وبلغ من السن أرذله ، وإنما حملته جشم معها وهو يرعش من الكبر للتيمن برأيه لما خبر من حروب في سابق أيامه . فلما نزل من شجاره (هودج مفتوح من أعلاه) قال : مالي أسمع رغاء^(١) البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار^(٢) الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ، ونساءهم وأبناءهم . فقال : أين مالك ؟ فلما دعوه إليه سأله دريد عن سبب ذلك ، فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

فزجره دريد ، ثم قال : « راعى ضأن والله ! هل يردُّ المهزم شيء ؟ »

(٢) صوت النعم .

(١) صوت الجمال

لأنها إن كانت لك لم ينفعلك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .

وتناقش الرجال واحتدت المناقشة ، فأخذت حية الشباب مالك بن عوف ، وكان في الثلاثين أو دون ذلك ، فقال لدريد : إنك كبرت وكبر عقلك ! ثم قال لقومه : والله لتطيعنني يا معشر هوزان أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . وكره أن يكون لدريد فيها رأى أو ذكر . فأطاعوه ولم يستمعوا لرأى دريد .

فلما بلغت مسامع محمد ما أجمعت عليه هوازن ، بعث إليهم عبد الله ابن أبي حنود الأسلمي ، وأمره أن يدخل بينهم ، ويقيم فيهم حتى يعلم خوافيهم ويأتيه بخبرهم . فلما رجع وأخبره بما رأى من إجماعهم على حربه ، استقر رأيه على الخروج إليهم ، فأمر المسلمين بالتجهيز للحرب وأذن بالسير إلى هوازن .

وبينما المسلمون يتجهزون للحرب ويعلمون علمتها ذكر لمحمد أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً كثيراً ، فأرسل إليه وهو يومئذ لا يزال مشركاً أن أعرنا سلاحك هذا نلتى فيه عدونا غداً . فقال صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال : بل عارية مضمونة حتى نوذيتها إليك . قال : ليس بهذا بأس . وأعطى للنبي مائة درع بما يكفيها من السلاح . ويقال إن النبي سأله أن يكفيهم حملها ففعل .

وخرج محمد في جمع لم يشهد المسامون مثله من قبل ، بلغ اثني عشر ألف مقاتل ، منهم عشرة آلاف قدموا من المدينة في غزوة فتح مكة ، وألفان من مكة ، مساميين ، ومشركين ، فيهم صفوان بن أمية وغيره من المشركين . وانضم للجيش جماعة من نساء المسلمين ، وعدد كبير من نساء المشركين يرجون الغنائم . لا يهمهم من أمر الإسلام أو المسلمين شيء ، ولا يكرهون أن تكون الدائرة عليهم . واستخلف النبي على أهل مكة عتّاب

ابن اسيد بن أبي العيص بن عبد شمس الأموي ، وهو يومئذ ابن عشرين سنة . خرج هذا الجيش من مكة في السادس من شوال سنة ثمان ، تعجب المسلمين كثرتهم ، حتى لقد قال أبو بكر : ان نُغَلَبَ اليومَ من قِلَّةٍ ، وانتهى إلى حنين في عاشره .

أما مالك بن عوف فسبق المسلمين إلى حنين ، وأعد هناك جيشه وتحصن في مضائق الوادي وأحناثه . فلما أقبل جيش المسلمين يتقدمه خالد ابن الوليد على رأس بني سليم ، وفي مؤخرته النبي ممتطياً بغلته البيضاء ، وكان ذلك في عمية الصبح ، انقضت عليهم جموع هوازن وحملت عليهم حملة رجل واحد ، وثارت الخيل في وجوههم وأمطرهم رماة السهام بوابل من سهامهم ، ففرعت خيل المسلمين ، وركبت الإبل بعضها بعضاً ، وارتد الرجال على أعقابهم لا يقبل أحد على أحد منهزمين من شدة المفاجأة ، وفر الرجال في كل وجه ، وأخذت الدهشة بالكثيرين منهم كل مأخذ حتى لقد بلغ ببعضهم الفرار مبلغاً كان من شأنه أنهم لم يتوقفوا إلا في مكة . وكان أول من انهزم بنو سليم ، ثم أهل مكة ، ثم بقية الناس .

فلما انهزم المسلمون تصور جماعة من ضعيفي الإسلام والمشركين أن الدائرة دارت على المسلمين ، وأنه لا نجاة لهم ذلك اليوم من هوازن ، فوقفوا يتفرجون وهم شامتون فرحون . فقال أبو سفيان صخر بن حرب ، وكان إسلامه لا يزال ضعيفاً والأزلام لا تزال معه يومئذ : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! وقال أخ لصفوان بن أمية من أمه : ألا بطل السحر اليوم . غير أن صفوان ، وكان لا يزال مشركاً ، لم يعجبه ما حدث ، ولم يرضه ما يقال ، فرد على أخيه قائلاً : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يماكني رجل من قريش أحب إلى من أن يماكني رجل من هوازن . ومرّ على صفوان رجل من قريش فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجتبرونها (١) أبداً .

(١) أي لا يصلح حالهم بعدها أبداً .

فقال له صفوان مغضباً : تبشرني بظهور الأعراب ؟ فوالله لربُّ من قریش أحب إلى من ربُّ من الأعراب . وقال عكرمة بن أبي جهل وكان حاضراً : أما كونهم لا يجتبرونها أبداً فليس بيدك ، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء . إن أدبيل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً . فقال سهيل بن عمرو : والله إن عهدك بخلاف ما تقول لحديث . فقال عكرمة : يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة ، نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع .

أما محمد فما كان مثله لينهزم أبداً ، ولو انهزم من حوله عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً أو مائة ألف . انما ذات اليمين وهو يقول : « أين أيها الناس ؟ هلموا إلىَّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » . غير أن أحداً من المهزمين لم يثب لرشده في تلك اللحظات ، فقد كانت القبائل تمر عليه منهزمة الواحدة تلو الأخرى ، وكانهم لا يسمعون ولا يرون شيئاً من هول ما أصابهم من الفزع . ولم يثبت من حول محمد غير جماعة من أهل بيته فيهم علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وأخوه ربيعة ، والفضل بن العباس ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، ورهط من المهاجرين فيهم أبو بكر ، وعمر ، لا يزيدون على مائة رجل .

ماذا إذن ؟ ألا يتوقف هؤلاء الناس ؟ أنتصر هوازن ؟ أينهم محمد في ساعة من نهار ؟ أضيع جهاد هذه السنين الطوال ؟ كلا ثم كلا !

وقف محمد في الركابين وهو ممتط بغلته البيضاء ، ورفع يديه إلى الله يدعو ويقول : « اللهم إني أنشدك ما وعدتني ، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهرُوا علينا » . ثم أخذ ينادي أصحابه ، ويحرضهم على القتال ، ويذكرهم بعهودهم وبيعاتهم له ، وبالجهاد في سبيل الله ، فنادى : « يا أصحاب البيعة يوم الحديبية ، الله الكثرة على نبيكم » . و « يا أنصار الله وأنصار رسوله ، يا بني الخزرج ، يا أصحاب سورة البقرة » . وأمر العباس أن ينادي ، وكان

جهورى الصوت : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة (أى بيعة الرضوان) إن محمداً حى فهلموا .

ثم إن الحمية أخذته ، وسيطر على جماع نفسه يقين الأنبياء ، فأخذ يركض بغلته قبل الكفار ، فتشبث العباس بن عبد المطلب بلجامها خشية أن تسرع ، وتعلق أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فى الركاب فى محاولة مستميتة لمنع البغلة من اقتحام صفوف العدو الثائر فىكون ما لا تحمد عقباه ، ومحمد عليه السلام ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، مصر على النصر ، مقدم للملاقاة عدوه وهو يقول وسيفه فى يده :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فلما سمع الناس النداءات ، ورأوا ما رأوا من إصرار نبهم على القتال وثباته فى مواجهة عدوه وعدوهم ، ثابوا إلى رشدهم ونزلت عليهم سكينه ، فأخذوا يوقفون جمالم فلا يقدرون ، فكان الرجل إذا لم يقدر على إيقاف جملة الجامح ، يقذف درعه عن عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويؤم الصوت . ثم تعالت صيحاتهم من كل صوب : لبَيْتِكَ ، لبَيْتِكَ ، ثم تجمعوا نحو الصوت ، وهدأ سبل الفرار ، ثم توقف ، ثم استل المسلمون سيوفاً كأنها الشهب ، وبدأ قتال رهيب . وعندئذ هدأ محمد ، ووقف فى الركابن يشرف على سير المعركة ، وقد اطمأن قلبه إلى نتيجهما عند ما رأى جلادة أصحابه فقال : « الآن حمى وطيس الحرب » . ثم طلب من العباس أن يناوله حفنة من الحصى ، فألقاها فى وجوه العدو قائلاً : « شاهت الوجوه » ، ثم قال : « انهزموا ورب العكبة ! »

وكان رجل من هوزان يركب جملاً أحمر وبيده راية سوداء فى رأس رمح طويل يتقدم هوازن ، وكان إذا أدرك مسلماً طعنه برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراه من هوازن فاتبعوه . فبينما هو كذلك يُقتل فى

الناس ، تقدم نحوه على بن أبي طالب ، ورجل من الأنصار يريدانه ،
فأتى عليّ من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوق على عجزه ، ووثب
الأنصارى على الرجل فضربه ضربة فأطار قدمه بنصف ساقه .

وحيت الحرب واشتد القتال ، وبدأ المسلمون يضربون في عدوهم
ضرباً لا هوادة فيه . وكان محمد قد أذن في الناس أن من قتل قتيلاً فله
سلبه . فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلحتهم . وكانت زوجته
أم سليم معه تجول بين الصفوف ، وقد استلت خنجرأ وحزمت وسطها ببرد .
وهي يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة . فلما رآها أبو طلحة ، قال :
ما هذا ؟ قالت : خنجر ، إن دنا منى بعض المشركين بعجته في بطنه . فقال .
أبو طلحة لمحمد : أما تسمع ما تقول أم سليم ؟ فضحك محمد ، فقالت :
نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل
الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل . فقال : « إن الله قد كفى وأحسن يا أم
سليم » . ومرّ محمد يومئذ بجماعة قد تجمعوا حول امرأة قتلها خالد
ابن الوليد ، فقال « ما كانت هذه لتقاتل » ثم أمر بعض أصحابه أن يلحق
بخالد بن الوليد فيقول له : « إن رسول الله ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة
أو عيسياً » (١) .

وما لبثت هوازن غير قليل حتى أدركت أن الدائرة قد دارت عليها ،
وأن النصر من نصيب المسلمين حتماً ، فتخاذل المقاتلة وفر رؤسائهم وفيهم
مالك بن عوف . وما هي إلا ساعة حتى كانت جحافل المسلمين قد أطبقت
على جموع هوازن وسأقت الرجال مكتوفين عند نبيهم ، ومن خلفهم النساء
والأطفال ، واستولت على مواشيهم وأموالهم .

لا شك في أن المسلمين خرجوا في هذه الغزوة تعجبهم كثرتهم . وقد
استهانوا بقلة عدوهم . غير أن أحداث المعركة أثبتت لهم أن الأثرة لا تغنى

(١) الذى يسير على غير هدى .

شيئاً إذا لم تكن كثرة مؤمنة بهدف مشترك . ذلك أن جموع المسلمين في ذلك اليوم كانت تداخلها أخلاط كثيرة من مشركين وأعراب وحديثي عهد بالإسلام ، لا يهمهم كثيراً ولا قليلاً نصرٌ أو هزيمة . لذلك حدثت هذه البلبلة التي كادت أن تُحدث كارثة في صفوف المسلمين ، لولا ثبات محمد وإيمان المسلمين صحيحى الإسلام بالهدف المشترك الذى يدافعون عنه ، فما لبثوا أن تابوا إلى رشدهم ، وانقشعت عنهم الغمامة التي تاهوا فيها ساعة أو بعض ساعة ، وارتدوا يجاهدون في سبيل الله ، وفي سبيل الهدف المشترك الذى تجمعوا من حوله وعاهدوا نبيهم على حرب الأحمر والأسود من الناس في سبيله .

ولقد نزل من القرآن في هذه الواقعة قوله تعالى : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » (١) .

بلغت جملة الأسرى من الرجال ، والسبايا من النساء والذرية ، حوالى ستة آلاف نسمة . وبلغت جملة الغنائم نحواً من أربعة وعشرين ألف بعير ، وأكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة . فجمع ذلك كله وأمر محمد بالتحفظ عليه في وادى الجِعْرانة ريثما يعود من مطاردة فلول هوازن المنهزمة والقضاء عليها . وكانت هذه الفلول قد تفرقت فرقاً ثلاثاً : فرقة منهم فيهم الرئيس مالك بن عوف لحأوا إلى الطائف وتحصنوا بها ، وفرقة عسكرت بمكان يقال له أوطاس ، وفرقة صغيرة اتجهت نحو نخلة . فأرسل النبي في آثار من توجه منهم إلى أوطاس أبا عامر الأشعري في جماعة فيهم أبو موسى الأشعري ، فقاتل أبو عامر واستبسل

في القتال وأثنى في أعداء الإسلام القتل حتى قُتل ، فولى الناس أبا موسى ، فتم له النصر ، وجمع ما تبقى مع القوم من الغنائم .

وفي أثناء هذه المطاردة أدرك ربيعة بن رفيع بن أهان السلمى ويعرف بابن الدغنية - وهى أمه - دريد بن الصمة ، فأخذ بنحطام جملة وهو يظن أنه امرأة ، وذلك لأنه كان فى شجار (ضرب من الهودج) . فلما أناخ البعير إذا بشيخ قد حطمته السنون لا يعرفه الغلام ، فقال دريد : ماذا تريد بي ؟ قال : أقتلك . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رفيع السلمى . ثم ضربه بسيفه فلم يصب منه مقتلاً . فقال له دريد : بئس ما سلحتك به أملك ! خذ سيفي هذا من مؤخر رحلي فى الشجار ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فلانى كذلك كنت أضرب الرجال ! ثم إذا أتيت أملك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب والله يوم منعت فيه نساءك ! فلما رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها بقتله دريداً قالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً .

وكان المسلمون قد أصابوا نساء من سبي أوطاس لهن أزواج ، ففكروا أن يقعوا عليهن ولهن أزواج ، فلما سألوا النبي فى ذلك نزلت الآية الكريمة : « والمحصنات من النساء إلا ما مَلَكت أيما نكحتم »^(١) فاستحل المسلمون بها نساء المشركين وإن كن ذوات أزواج .

أما محمد فسار على رأس بقية الجيش إلى الطائف حيث تحصن بها أهلها ومن تجمع فيها من هوازن ، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد . ولقد سلك طريقاً مر على نخاة اليمانية ، ثم على قرن ، ثم على المليح ، ثم على بحرة الرغاة من لية حيث ابتنى بها مسجداً فصلى فيه . وأمر وهو بلية بهدم حصن هناك لمالك بن عوف فهدم . ومر ببستان لرجل من ثقيف فأرسل له إما أن تخرج إلينا ، وإما أن نُخرب عليك بستانك ، فأبى الرجل أن يخرج ، فأمر ببستانه

أن يُخرب ، فخرَّب . ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا أهلها ومن تجمع إليهم من هوازن قد تمنعوا في حصنها واستعدوا لحصار طويل فأدخلوا معهم قوت سنتهم ، وكان حصن ثقيف من أمنع الحصون وأقواها . فلما عسكر المسلمون قريباً من الحصن ، رمتهم ثقيف رمياً شديداً بالسهم ، فأصيب منهم كثيرون بجراح بالغة ، فأصيب عبد الله بن أبي بكر بجرح ظل ينغر عليه حتى قتله في خلافة أبيه ، وفقت عين أبي سفيان صخر بن حرب ، ومات نحواً من اثني عشر رجلاً . فلما رأى ذلك محمد أمر جنده بالانسحاب بعيداً عن مرمى السهم ، فانسحبوا إلى حيث بنى مسجد الطائف فيما بعد . وضربت في هذا المكان الآمن خيمتان من جلد أحمر لزوجتي النبي أم سلمة وزينب . وكان النبي يقيم صلواته بين هاتين الخيمتين . غير أن ثقيفاً امتنعت عن جند الإسلام في حصونها ، وكان خالد بن الوليد ينادى كل يوم بالبراز فلا يخرج له أحد . وذات يوم ناداه عبد ياليل رئيس ثقيف وعظيمها ، وقال : إن أحداً سوف لا ينزل إليك منا ، ولكن نقيم في حصننا ، فان فيه من الطعام ما يكفيننا سنين ، فإن أقمتم حتى ينفى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافتنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا .

فلما طال أمد الحصار ، استشار النبي أصحابه ، فأشار عليه بعضهم برميهم بالمنجنيق^(١) ، ويقال بأن سلمان الفارسي هو الذي أشار بالمنجنيق وعمله بيده ، وقيل هو الذي صنع دبابة^(٢) أيضاً . فأمر النبي بذلك فكان أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق . وفي غضون ذلك دخل جماعة من الصحابة تحت دبابة ثم زحفوا لينقبوا جدار الحصن ، فقتلهم أهل الحصن بالحديد الحمى ، واضطروهم إلى الخروج من تحتها ، ثم رموهم بالسهم فقتلوا رجلاً منهم . فلما لم تجد هذه الوسائل معهم أمر النبي بأن تقطع أعناقهم ليغيظهم .

(١) آلة من آلات الحصار ترمى بها الحجارة وغيرها من القذائف .

(٢) آلة تتخذ لتقب الحصون يدخل في جوفها الجنود ويضربون في أصل حائط الحصن

حتى ينقبوه .

وهي أعناب لم يكن بجزيرة العرب مثلها . فلما انتقض الناس عليها يقطعونها ، ناداهم أهل ثقيف : لا تفسدوا الأموال فإنها لنا أو لكم . ثم إنهم ناشدوا النبي بالله وبالرحم أن يتركها فتركها .

وكان منادى النبي ينادى « بأن من خرج إلينا فهو آمن » فخرج إليه جماعة ، علم منهم أن بالحصن في الحقيقة مؤن كثيرة تكفي أهل الطائف مدة طويلة ، فلما رأى امتناع ثقيف ، استشار نوفل بن معاوية الديلي في المقام أو الانصراف ، فقال : يارسول الله ، ثعلب في جحر ، إن أقمت أخذته ، وإن تركته لم يضرك . فأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن بالرحيل ، وذلك بعد حصار استمر نحواً من شهر . فلما سمع عيينة بن حصن بذلك قال : أجل ، والله مجدة كراماً . فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله يا عيينة ! أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جئت تنصره ؟ فقال : إني والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطؤها لعلها تلد لي رجلاً ، فإن ثقيفاً مناكير (أى ذوى دهاء) . وفي هذا القول دليل على الخطر الذى كان يتعرض له هذا الجيش على ضخامته ، وذلك لاحتوائه عدداً كبيراً من أمثال هذا الضعيف الإسلام ، فضلاً عن المشركين .

رجع النبي معتمراً إلى الجعرانة حيث كان ترك السبي والغنائم ، فأحصى ذلك كله وخمسه (أى فصل الخمس لنفسه حسب الشرع) ووزع ما بقي على أصحابه حسب ما رأى له . وبينما هو في الجعرانة أدركه وفد هوازن وقد أسلموا وشهدوا شهادة الحق وقالوا له : يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك . وقام حطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال : « يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ، ولو أنا ملحننا لابن أبي سمر الغسافى أو النعمان بن المنذر . ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك رجونا عائدتهم وعطفهما . وأنت رسول الله خير المكفولين » . فقال :

« نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » . فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا . فقال : « أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبنائنا ونسائنا ، فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

فلما صلى بالمسلمين قاموا فقالوا ما أمرهم به ، فقال : « أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم » . وعندئذ وافق المهاجرون والأنصار على التنازل عن حقوقهم في النساء والذرية . غير أن عدداً من رؤساء قبائل الأعراب لم يوافقوا ، فهض الأقرع بن حابس فقال : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مرداس السلمى : أما أنا وبنو سليم فلا . غير أن بنى سليم خالفوه وقالوا : بل ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال العباس لهم : وهتيموني . فلما رأى محمد تمسك بعض الناس بحقهم في السبي قال لهم : « من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض^(١) من أول غنيمة نصيبها . فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم . » فردوا النساء والأبناء .

فلما رد السبي قام النبي فركب دابته ، فتدافع من حوله الأعراب وتزاحوا وجعلوا يهتفون به أن أقسم علينا غنيمتنا ، وكأنهم خشوا أن يرد إلى هوازن الأموال كما رد إليهم النساء والأطفال ، وبلحوا في السؤال وأفرطوا في تزاحمهم حتى دفعوه إلى شجرة فانتزعت رداءه ، فوقف وصاح بهم مغضباً : « رُدُّوا عليَّ ردائي أيها الناس ، فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » . وقام فأخذ من سنامة بعير وبرة فجعلها بين

(١) الفريضة : الحصة المفروضة .

إصبعيه ثم رفعها فقال : « أيها الناس والله ما لي من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم . فإن الخيانة في المغنم عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة » . وشرع في قسمة الغنائم فأصاب الرجل أربعة من الإبل ، وأربعون شاة ، والدارس ثلاثة أمثال ذلك . وعندئذ قال رجل من المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فغضب النبي حتى احمر وجهه وقال : ويحك من يعدل إذا لم أعدل ؟ فقام عمر وخالد بن الوليد وقالوا : دعنا يا رسول الله نضرب عنقه . فقال : لا لعله أن يكون يصلي . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال : إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم .

وقد يكون السبب الذي ألبأ جفأة الأعراب إلى هذا التكالب أن محمداً أثر أناساً في القسمة من رؤساء القبائل وأمرائهم ، أراد أن يتألف قلوبهم إلى الإسلام بالمال . فأعطى أناساً من ضعيفي الإسلام ، منهم أبو سفيان وابناه معاوية ويزيد . أعطى كلا منهما أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل ، وأعطى حكيم بن حزام مثل ما أعطى لأبي سفيان . وأعطى كلا من عيينة بن حصن والعباس بن مرداس مائة من الإبل . ثم إنه أعطى لغيرهم ممن لم يسلموا بعد ليحجب الإسلام إلى قلوبهم ، فأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاء كان يراه يرمقه فقال له : هل يعجبك هذا ؟ فقال : نعم . قال : هو لك . ثم إن مالك بن عوف سيد هوازن ، وفد عليه تائباً طائعاً مسلماً . فرد عليه أهله وأعطاه مائة من الإبل ، وكان قد قال لو فد هوازن عند ما علم منهم أن مالكا لا يزال مقيماً بالطائف : « أخبروه إنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وأعطيته مائة من الإبل » .

والحق أن جفأة الأعراب لم يكونوا وحدهم الذين لم يدركوا المقصد من إعطاء أمثال هؤلاء أكثر من غيرهم . فإن الأنصار قد غضبوا في أنفسهم عند ما لم يقسم لهم شيئاً . وتحدث بعضهم إلى بعض : أما من قاتله

فيعطيه ، وأما من لم يقاتله فلا يعطيه ؟ ! وغضب بعضهم ، وقال : إن هذا هو العجب ، يُعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دماءهم ! وقال من قال منهم : لقي والله رسول الله قومه ! .

ثم إن سعد بن عبادة مشى إليه ، وقال له : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد غضبوا في أنفسهم . فقال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء . فقال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي . فلما رأى منه ذلك أمره بأن يجمع له الأنصار في حظيرة كانت هناك .

فاما اجتمعوا خرج إليهم ، وقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » . قالوا : بلى . ثم قال : « ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وبماذا نجيبك ؟ المن لله ولرسوله . قال : « والله لو شئتم لقتلتم فصدقتم وصدقتم : جثتنا طريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فأمنّاك ، ومخذولاً فنصرناك » . فقالوا : المن لله ولرسوله .

فقال : « أغضبتكم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لُعماعة^(١) من الدنيا تألّفتُ بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » . لم يمالك القوم أنفسهم فبكوا حتى بللوا لحاهم وقالوا : رضينا بالله رباً ورسوله قسماً . ثم انصرفوا وتفرقوا .

(١) اللعماعة : القليل من كل شيء .

ومما لا شك فيه أن محمداً استطاع في كل هذه الظروف والملابسات التي أحاطت بهذه الغزوة ، بما أوتي من شجاعة ، وحسن سياسة ، وحكمة ، ونورانية ، أن ينتصر في جميع الحالات ، وأن يتألف قلوب الناس أجمعين ، كل حسب الطريقة المثلى التي تؤثر في نفسه .

ومن أطرف ما يروى أنه بينما محمد مقيم في الجعرانة ظفر المسلمون برجل من بني سعد بن بكر يقال له نجاد ، كان محمد قد أمرهم بالقبض عليه لحدث أحدثه . فلما ساقوه وأهله إليه ، ساقوا معه الشياء بنت الحارث وهي من بني سعد بن بكر أيضاً . فلما عنفوا عليها في السوق قالت لهم : تعلمون والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة . فلم يصدقوها حتى مثلت بين يديه فقالت : يا رسول الله إني أختك من الرضاعة . فقال لها : « إن تكوني صادقة فإن بك مني أثرأ لا يبلى » . فكشفت عن عضدها وقالت : نعم يا رسول الله ، وأنت صغير عضضتني هذه العضة . فلما تيقن من صدقها ، حنا عليها وبسط لها رداءه أن تجلس ، وقال : « سلى تعطى واشفعى تشفعى » . ثم قال لها : « إن أحببت فعندى محبة مكرمة ، وإن أحببت أن امتلك وترجعى إلى قومك فعلت » . قالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومي . ففعل .

ولما فرغ من تقسيم الغنائم وحل المشكلات واسترضاء الأنصار وتأليف قلوب الناس إلى الإسلام ، خرج من الجعرانة معتمراً وأمر بأن يجبس جزء من الغنائم لم يوزع بناحية مر الظهران . والظاهر أنه إنما استبقي بعض الغنائم ليوزعها على الأعراب فيما بين مكة والمدينة في أثناء عودته ، ليتألف به قلوبهم إلى الإسلام . ثم إنه لما انتهى من عمرته خرج راجعاً إلى المدينة ، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد الأموى ، وخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن . وكان قد وكل إليهما هاتين المهمتين قبل خروجه إلى هوازن .

الفصل الرابع والعشرون

غزوة تبوك

كان طبيعياً بعد أن فتح المسلمون مكة ، واستتب لهم الأمر فيها ، ودخل البيت الحرام في حوزتهم ، وطهروه من رجس الأوثان والأصنام ، أن يلي ذلك خطوة أساسية في تحديد علاقة المشركين بهذا البيت ، فنزلت الآية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا (العام التاسع الهجري) وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم » (١) . قالت عندئذ قريش إن المتاجر والأسواق سوف تنقطع عنهم أيام الحج ، وأنهم سيحرمون من المغنم التي كانوا يصيبون منها . ثم إنه نزل في أعقاب ذلك الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلّموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٢) .

من هنا اتجه محمد إلى غزو الروم ، أولاً لأنهم أقرب الناس إليه من أهل الكتاب . وثانياً ، لأنهم أولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » (٣) .

وكان محمد قسماً ينصح عن الجهة التي يقصدها في سابق غزواته ، وذلك حتى يأخذ عدوه على غيرته . إلا ما كان من غزوة تبوك . فإنه أفصح

(٢) التوبة ٢٩ .

(١) التوبة ٢٨ .

(٣) التوبة ١٢٣ .

عنها للناس ، وبين لهم مقصده تماماً ، وذلك لبعده الشقة ، وشدة الزمان في ذلك الوقت ، وكثرة العدو وقوته ، حتى يتأهب الناس للأمر عن بيته ويستعدوا له ويوطدوا العزم على ما هم مقبلون عليه . ثم إنه أمرهم بالجهاد ، وحثهم على التجهز لملاقاة الروم ، واستنفر المسلمين من الأعراب ومن أهل مكة وغيرها . وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ذلك الوقت في ظلالهم وبين أموالهم . ولذلك سمي جيش العسرة ، ومع ذلك اجتمع له ثلاثون ألفاً من المسلمين ، خرجوا معه يضحون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

واقع الأمر أن معظم الناس خرجوا مع النبي عن إيمان صادق ورغبة حقيقية في الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فأنفقوا نفقة عظيمة وخرجوا بأنفسهم . من هؤلاء أو على رأس هؤلاء عثمان بن عفان ، إذ حمل ألف دينار من ماله وجاء محمداً فصباها في حجره ، فسر كثيراً وأخذ يقلبها بين يديه وهو يقول : « اللهم ارض عن عثمان فلاني عنه راض » . هكذا أقدم المسلمون الأصدقاء على الجهاد ، كل بما يقدر عليه من النفقة ، فضلاً عن التضحية بالذات . ولم يبق غير سبعة نفر من فقراء المسلمين لم يجدوا من الدواب ما يحملهم ، فلما لم يجدوا عند النبي ما يحملهم عليه ، انصرفوا وهم ييكون ، فسموا بالبكائين . وهؤلاء وأمثالهم هم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » (١) .

وفي حين كان هذا موقف معظم المسلمين الذين آمنوا عن صدق بالله

وبروسوله وبما فرض عليهم من جهاد ، كان جماعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يشبطون الناس عن الخروج . فكان جماعة من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يشبطون الناس عن الخروج في هذه الغزوة ، فأرسل إليهم محمد طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، فأحرق طلحة عليهم البيت . وكان الضحاك بن خليفة في البيت ففر من ظهر البيت فانكسرت رجله ، وأفلت أصحابه . وفي ذلك قال الضحاك .

كادت وبيت الله نار محمد يشيط بها الضحاك وابن أبيرق
وظلت وقد طبقت كيبس سويلم أنوء على رجل كبيراً ومرفق
سلام عليكم لا أعود لملها أخاف ومن تشمل به النار يحرق

ومن الناس من تعلق بأسباب سخيفة واستأذن النبي في التخلف ، مثل الحد بن قيس أحد بني سلمة ، ذلك أن محمداً سأله : « يا جده هل لك العام في جيلاد بني الأصفر ؟ » فقال : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر . فأعرض عنه وقال : « قد أذنت لك » . ثم نزل في الجدة قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » (١) .

وكان قوم من المنافقين يقول بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر ، زهادة منهم في الجهاد ، وشكا في الحق ، وإرجافاً بالرسول ، فأنزل الله فيهم قوله : « وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون » (٢) .

وقال جماعة من المنافقين : أئحسبون جيلاد بني الأصفر (الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله كأنكم بهم غداً مقرنين في الجبال . فلما علموا

أن قولهم هذا بلغ مسامح محمد وجاءوا إليه يعتذرون ، فقال أحدهم :
يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فنزل فيهم قوله تعالى : « ولئن
سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون .
لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة
بأنهم كانوا مجرمين » (١) .

ثم إن محمداً كان إذا جاءه أحد من المنافقين مستأذناً في عدم الخروج
معه أذن له حتى يتخفف منهم . فلما جاءه نفر من الأعراب من بني غفار
ليأذن لهم في التخلف ، وهم يعتذرون إليه ، لم يعذرهم الله ، فنزل فيهم
قوله : « وجاء المعتذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله
ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٢) .

ومن الناس من تخلف من غير شك ولا ارتياب ، وكانوا نفر صدق
لم يهتموا في إسلامهم ، وإنما أبطأت بهم النية ، فكانوا يؤجلون خروجهم
يوماً بعد يوم حتى تأخروا ولم يعد لحاقهم بالجيش ممكناً . من هؤلاء كعب
ابن مالك بن أبي كعب أخو بني سلمة ، ومرارة بن ربيع أخو بني عمرو بن
عوف ، وهلال بن أمية أخو بني واقف ، وأبو خيثمة أخو بني سالم بن
عوف . أما أبو خيثمة فلحق بالجيش ، وأما الثلاثة الآخرون فقد ندموا ندماً
شديداً وتابوا إلى الله حتى تاب عنهم ، وقد خاصمهم محمد والمسلمون
بعد عودتهم ، وظلوا فترة لا يكلمهم أحد حتى ضاقت عليهم الأرض ،
وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا
ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ
من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » (٣) .

فلما تجهز هذا الجيش وهو أكبر جيوش المسلمين حتى ذلك الحين ،
وأخطرها شأناً ، إذ اتجه الإسلام عندئذ إلى خارج بلاد العرب ، وإلى جلال

إمبراطورية هي في واقع الأمر أكبر قوة في الدنيا في ذلك الوقت ، خرج به محمد في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية ، وضرب عسكره على ثنية الوداع ، وهي هضبة مشرفة على المدينة على طريق مكة ، وضرب عبد الله بن أبي عسكره على حدة يجبل ذباب ، إلا أنه تخلف عن اللحاق بهم في طائفة من المنافقين وأهل الريب ، عندما سار الجيش إلى مقصده .

استخلف محمد على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري في قول ، أو سباع بن عُرْفُطَةَ في قول ، وخلف على بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم . وهنا انتهر المنافقون هذه الفرصة وأرجفوا بعلي فقالوا : ما خلفه إلا استئقلا له وتخفياً منه . وعند ذلك أخذ على سلاحه ثم خرج حتى لحق بابن عمه وهو نازل بالحرف ، فأخبره بما قالوا ، فقال : « كذبوا ، ولكني خلفتك لما تركت ورأى ، فارجع فانخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي » .

ثم سار النبي بالجيش ميمماً شطر الشام ، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق . ولا مرية أن في إعطائه لواءه الأكبر لأبي بكر الصديق ، وتخليفه على بن أبي طالب على أهله إشارة لطيفة لا تخفى على اللبيب ولا يفوت مفهومها الحصيف . أما الرايات ففرقها على ثلاثة ، أعطى الزبير بن العوام راية المهاجرين ، وأسيد بن حضير راية الأوس ، والحباب بن المنذر راية الخزرج .

وكان المسلمون في أثناء سيرهم يبلغون الرسول كلما عرفوا بتخلف رجل له شأن فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان ، فيقول لهم : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » . وكان أبو خيثمة قد تخلف ، وأبطأ بأبي ذر بعيره . أما أبو خيثمة فإنه رجع إلى أهله في يوم حار بعد أن سار المسلمون أياماً ،

فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستانه ، وقد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت ماء وهيأت له فيه طعاماً . فلما دخل بستانه ورأى ما صنعت له امرأته قال : رسول الله صل الله عليه وسلم في الشمس والرياح والحر ، وأبو خيشمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء في ماله مقيم ! ما هذا بالانصف . والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيئت لي زاداً . فجهزاه فركب بعيره وسار حتى لحق النبي بتبوك . فلما أقبل سلم عليه فقال له : « أولى لك يا أبا خيشمة ! » ثم إنه أخبره خبره ، فقال خيراً ، ودعا له بخير .

أما أبو ذر الغفاري فقد انتظر بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ثم خرج في أثر المسلمين ماشياً . وبيناهم في بعض منازلهم نظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله إن هذا الرجل ماش على الطريق . فقال : « كن أبا ذر » فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر . فقال : « يرحم الله أبا ذر ! يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده » .

ولما انتهى إلى تبوك أرسل إلى يوحنا بن روثبة أمير أيلة (العقبة) أن يذعن أو يغزوه ، فأتاه طائفاً مدعياً وتصالح على إعطاء الجزية . وأتاه أيضاً أهل جرباء وأذرح (من قرى جنوب الشام) وأعطوه الجزية . ولقد كتب ليوحنا بن روثبة وأهل أيلة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن روثبة وأهل أيلة : سفنهم وسياراتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر » . ثم إنه فرض على كل من وصل سن البلوغ منهم في السنة ديناراً ، فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار .

وجاءه أهل أذرح وجرباء فكتب لهم كتاباً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرح ، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب ، ومائة أوقية طيبة ، وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ، ومن لجأ إليهم من المسلمين » .

وأثناء مقامهم بتبوك ، أرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك ، وهو رجل من كندة كان ملكاً على دومة الجندل . فأتاه خالد ابن الوليد في خيل المسلمين فوجده يصيد البقر الوحشى ومعه نفر من أهل بيته فيهم أخوه حسان ، فهاجمهم خالد وأسر أكيدر وقتل أخاه حسناً ، وكان عليه قباء^(١) من ديباج مخصوص بالذهب ، فاستلبه خالد وبعث به إلى محمد قبل قدومه . فلما رآه المسلمون جعلوا يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه ، فقال لهم : « أتعجبون من هذا ، فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا » . ويروى أن خالد بن الوليد عاد ومعه ثمانمائة من السبى ، وألف بعير ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح . أما أكيدر فأسلم .

أقام محمد بتبوك بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ولم ياق حرباً من أحد . فلما استشار أصحابه في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام ، قال عمر : إن كنت أمرت بالسير فسر . فقال : لو كنت أمرت بالسير لم أستشر . فقال عمر : يا رسول الله إن للروم جمعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا منهم ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا في هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً . فتبع مشورة عمر ، وأذن مؤذنه في الناس بالعودة ، وفضل راجعاً إلى المدينة . أما أن فكرة غزو الشام ظلت تراوده

(١) القباء ثوب يلبس فوق القميص .

فأمر مؤكده ، ذلك أنه أعد جيشاً كبيراً بعد ذلك بإمرة أسامة بن زيد لغزو الشام ، كان على أهبة الخروج إليها عند ما قبض ، فأنفذه أبو بكر .

ولما قارب المدينة نزل بندي أوان ، وهو مكان بينه وبين المدينة ساعة . وفيها نزل عليه الوحي في شأن مسجد الضرار . وهو مسجد بناه اثنا عشر رجلاً . وكان هؤلاء القوم قد أرادوا من النبي وهو ذاهب إلى الشام أن يصلح لهم فيه حتى يروج لهم ما أرادوا من الفساد والكفر والعناد . فعصم النبي من الصلاة فيه ، وذلك لأنه كان على جناح سفر إلى تبوك . فلما عاد ونزل بندي أوان نزل قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم أكاذبون . لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » (١) .

أما قوله « ضراراً » فلأن الذين بنوه أرادوا مضاهاة مسجد قباء ، و « كفراً » بالله لا الإيمان به ، و « تفريقاً » للجماعة عن مسجد قباء . أما قوله « وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل » وهو أبو عامر الراهب الذي هرب من المدينة على أثر هجرة محمد إليها وألب أهل مكة عليه وقدم معهم يحارب محمداً والمسلمين في غزوة أحد . وكان نصرانياً ، فلما لم يقدر على حرب محمد بنفسه في بلاد العرب ، هاجر إلى بلاد الروم واستنصر قيصر على المسلمين ، وكان يكتب إلى إخوانه من المنافقين يعدهم ويمنيهم .

فبنوا هذا المسجد وظاهره أنه للإسلام وباطنه دار حرب ومقر لمن يفد إليهم من عند أبي عامر ، ومجمَعٌ لمن هو على طريقتهم من المنافقين . وقد نهى الله رسوله عنه بقوله « لا تقم فيه أبداً » وأمره وحثه على القيام في مسجد قباء ، وهو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هاجر فيه محمد إلى المدينة . ثم إن محمداً دعا مالك بن الدُخَشُم ، ومعن بن عديّ - أو أخاه عاصم - وأمرهما بأن يحرقا هذا المسجد ، فحرقاه بالنار ، وتفرقا عنه أهله .

الفصل الخامس والعشرون

وفود العرب وإسلامهم

بدأ العرب بعد فتح مكة يراجعون أنفسهم ، وينظرون للإسلام نظرة جدية . فأى شيء إذن بعد أن أسلمت قريش وهم سادة البيت الحرام وحجابه وحفظته وسادة الناس وأعلمهم بدين العرب ؟ أى شيء بعد أن يهجر هؤلاء دين الآباء والأجداد إلى دين محمد . إلا أن يكون نبياً حقاً ؟ ولا عجب فإن العرب كانوا ينتظرون فتح مكة وهم يقولون : أتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي حقاً . فلما انتصر على قريش وفتح مكة وحطم أصنام الكعبة وطهرها من الشرك وأسلم أهلها ، بادرت قبائل العرب إليه تعلن إسلامها . وية قول الله تعالى في ذلك « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » (١) .

بدأت وفود القبائل تقدم على محمد في أواخر السنة الثامنة بقدم وفد تميم ، ثم تزايدت بعد ذلك . وكانت وفود القبائل تبايعه على الإسلام ، وتشهد بين يديه شهادة الحق . وتلقى إليه بأزمة قيادتها في أمور دينها ودنياها . ومما يجدر بنا ذكره هاهنا أن محمداً . كان على الرغم مما عرفت جزيرة العرب في ماضى تاريخها الطويل من ممالك وملوك وأمراء أقوياء ، أول عربي استطاع أن يوحد قبائل العرب جميعاً ويخضعهم تحت راية واحدة ، ويجمع صفوفهم في دولة لها نظم وشرائع يخضعون جميعاً لها ، ويوجههم من ثمة نحو هدف مشترك . ولا غرو فإنه أسسدى للإنسانية بهذا الصنيع مآثرة لا تنسى ، إذ جمع هؤلاء الأقوام الأشداء ، وأطلقهم إلى رحاب العالم الفسيح ، بعد أن هداهم وهدبهم وبلور صفاتهم العليا في بوتقة واحدة ،

ونهاهم عن مناقصهم ومثالبهم ، فكونوا دواة الإسلام في القرون الوسطى لتصبح في أيام عزها وسطوتها ومجدها ، نوراً أشرق على الظلمات التي كانت تعمر وجه الأرض في ذلك الزمان .

تدلنا الحقيقة التاريخية الماثلة أوضح دلالة على أن فتح مكة كان في واقع الأمر كما قدمنا الخطوة الحاسمة التي دت مباشرة إلى دخول العرب في أدين الإسلام . ذلك أنه لم يقع بعد فتح مكة . من الأحداث ما يدعو جميع قبائل العرب لأن تتدفق طائفة مختارة على محمد لتباعه على الإسلام ، وإن كان لإسلام ثقيف وغزوة تبوك أثر مساعد ولا شك في هذا الموقف .

ونحن إذا حاولنا استعراض الغزوات التي غزاها محمد والسرايا التي أرسلها هنا وهناك بعد فتح مكة ، إذن لازددنا يقيناً بهذه الحقيقة . فإن غزوتي حنين والطائف لم تكونا بينه وبين سائر العرب ، بل كانتا بينه وبين هوازن وثقيف . أما غزوة تبوك فكانت ضد قبائل صغيرة في شمالي بلاد العرب ، بعيدة عن الأحداث التي كانت تجري من قبل . ثم إنه لم يقع فيها قتال ، وإن كان لضخامة الجيش الإسلامي أثر كبير في النفوس . أما السرايا التي أرسلها بعد فتح مكة فقليلة نلخصها فيما يأتي : بعث في أواخر سنة ثمان سرية بقيادة قيس بن سعد في أربعمئة مقاتل ليدعو صداء وهي قبيلة تسكن اليمن إلى الإسلام ، فجاءت وفود صداء وأسلمت . وأرسل في أعقاب ذلك بشر بن سفيان العدوي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ الصدقات فمنعه جيرانهم بنو تميم ، فأرسل لهم عيينة بن بدر في خمسين فارساً ، فأسر منهم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً . ثم بعث الوليد بن أبي معيط لأخذ صدقات بني المصطلق ، فتوهم أنهم ممتنعون ، فلما علم محمد بذلك أرسل لهم خالد بن الوليد ، فسار إليهم في عسكره حتى أتاهم فلم ير منهم إلا الطاعة . وبعث علقمة بن مجذر في ثلاثمئة مقاتل لجمع من الأحباش بلغه أنهم تجمعوا في جزيرة إزاء جدة للإغارة عليها . وفي ربيع الأول من

السنة التاسعة أرسل على بن أبي طالب في خمسين فارساً لهدم الفلس (صنم لطبي) فسار إليه فهدمه وأحرقه . وفي رمضان من السنة العاشرة أرسل على بن أبي طالب أيضاً إلى بني مذحج وهم قبيلة يمانية يدعوهم للإسلام فقاتلهم حتى قبل رؤسائهم للإسلام :

وبعث خالد بن الوليد في ستة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران فأسلموا بغير قتال . وبعثوا بوفدهم للدخول في الإسلام . وبعث على ابن أبي طالب إلى همدان ، فلما قرأ عليهم كتاب محمد أسلموا جميعاً ولم يقاتلوا .

وكان النبي يبتى رؤساء القبائل إذا ما أسلموا في مناصبهم ، فكانت هذه السياسة الحكيمة سبباً كبيراً في إقدام الكثيرين منهم على الإسلام طائعين مختارين . بعد ما تبين لهم الحق من الباطل .

يتضح لنا إذن من استعراض الأحداث التي وقعت فيما بين فتح مكة ، وقلوم وفود العرب من مختلف أنحاء الجزيرة يمثلون مئات الآلاف من المقاتلين المبرزين . طائعين مختارين ، أن الأثر الأكبر لهذا التصرف كان نتيجة لما أحدثه فتح مكة وإسلام قريش من أثر عميق في نفوس العرب أجمعين .

أما الكلام في ذكر كل ما وقع من أحداث ومناقشات وروايات تتعلق بعشرات من الوفود فأمر يطول شرحه ، ولذلك سوف نقتصر هنا على ذكر جملة من الأحداث الشهيرة . والوقائع اللطيفة التي ذكرت بهذه المناسبات .

ذكرنا فيما سبق أن عيينة بن بدر أسر من تميم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً . فقدم رؤسائهم بسببهم ، وفيهم عطارد بن حاجب بن زرارة ، والزبيرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهم ، والأقرع بن حابس وغيرهم . فلما دخلوا المسجد نادوا النبي من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد نفاخرك . فإن مدحنا زين وإن ذمنا

شين ، فقال النبي « ذاك الله عز وجل » ، ثم إنه تأذى من صياحهم ، وفيهم نزلت الآية « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم » (١) . فلما خرج إليهم تعلقوا به وقالوا : يا محمد بجثنا نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال : « ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا » . ثم أذن بلال لصلاة الظهر ، فصلى ثم جلس إليهم ، وأذن لخطيبهم وشاعرهم .

فقام عطارد بن حاجب بن زرارة فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنُّ وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظيماً نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة . فن مثلنا في الناس . ألسنا بروؤوس الناس وأولى فضلهم ؟ فن فإخترنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، وإكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك . أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال محمد لثابت بن قيس بن شماس أخى بنى الحارث بن الخزرج :
« قم فأجب الرجل في خطبته » .

فقام ثابت فقال : الحمد لله الذي السهوات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسيع كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله . ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خيرته رسولا ، أكرمه نسباً ، وأصدقه حديثاً ، وأفضله حساباً ، فأنزل عليه كتاباً واثمته على خلقه ، فكان خيرة الله في العالمين . ثم دعا الناس إلى الإيمان به فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرمُ الناس أحساباً ، وأحسن الناس وجوهاً . وخير الناس فعلاً ، ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن : فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ،

نقاتل الناس حتى يؤمنوا ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهلناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً . أقول هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

ثم قام شاعر تميم الزبرقان بن بدر فقال ما قال ، ثم أمر الرسول شاعره حسان بن ثابت أن يرد عليه فأجابه حسان . فلما فرغ حسان قال الأقرع ابن حابس : وأبي إن هذا لموتى له ! لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . ثم أسلم القوم فرد عليهم النبي أسراهم وأجزل لهم العطاء ، وأقاموا عنده مدة يتعلمون القرآن ويتفقهون في الدين ثم عادوا فأسلمت تميم .

وفي رمضان من سنة تسع قدم وفد ثقيف . وكان عروة بن مسعود أحد ساداتها قد قدم قبل ذلك وأسلم بين يدي محمد ، واستأذنه أن يعود إلى قومه ليهديهم إلى الإسلام . فخاف عليه لما عرف فيهم من نخوة الامتناع ، وقال له : « إنهم قاتلوك » غير أن عروة أجابه بقوله : يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبصارهم . وكان فيهم محبباً مطاعاً . فأذن له فرجع إلى ثقيف ، ودعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه . فلما أصبح قام فوق عليّة له يؤذن للصلاة ، فتحققت عند ذلك ببيعة النبي إذ لم يطق قومه ذلك فرموه بسهام فقتلوه . فلما جاءه أهله قال لهم وهو يستلم الروح : كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها إلى . فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم . وطلب منهم أن يدفنوه مع هؤلاء الشهداء ففعلوا .

ثم إن ثقيفاً أقامت بعد مقتل عروة شهراً ، ثم ائتمروا فيما بينهم وانتهوا إلى أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا . وذلك أن مالك بن عوف النصرى سيد هوازن ، كان قد أسلم بعد غزوة حنين وأمره محمد على قومه . فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى صاروا لا يأمنون على أموالهم وأنفسهم . ثم إنهم أجمعوا على أن يرسلوا كبيرهم

عبد ياليل إلى محمد ليعرض عليه صلح ثقيف ويأخذ منه كتاباً . غير أنه رفض خشية أن يصيبه ما أصاب عروة من قبل ، فأرسلوا معه خمسة آخرين ، فيهم عثمان بن أبي العاص وكان أصغرهم سناً .

فلما دنوا من المدينة قابلوا المغيرة بن شعبة وهو يرعى ركاب أصحاب الرسول ، فأسرع إلى المدينة ليبلغ النبي بمقدم وفد ثقيف ، فلقه أبو بكر الصديق فأخبره عن ركب ثقيف وأنهم قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يشرط لهم الرسول شروطاً ويكتب لهم كتاباً في قومهم . فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أول من يحدثه . ودخل أبو بكر فأخبره بقدمهم . وعاد المغيرة فرد ركاتهم إلى المراح ، وعلمهم كيف يحيون النبي بتحية الإسلام ، غير أنهم كانوا قوماً عنيدين فلم يحويه إلا بتحية الجاهلية .

ضربت لهم قبة في ناحية من المسجد حتى يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، فتلين قلوبهم . وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يقوم بينهم وبين محمد بالمفاوضات ، وهو الذي يأتهم بطعامهم ، إلا أنهم كانوا لا يأكلون منه شيئاً حتى يأكل خالد منه قبلهم . وكان من ضمن شروطهم على محمد أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين . فأبى عليهم أشد الإباء ، فما برحوا ينتقصون من هذه السنين حتى سألوه شهراً واحداً بعد عودتهم إن أهاليهم حتى يتألفوا سفاءهم ، فأبى عليهم أن يدعها مدة محددة .

ثم إنهم سألوه أيضاً ألا يصلوا ، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فقال « أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك ، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه . » فقالوا : سنؤتيكها وإن كانت دناءة . كذلك اشترطوا ألا يُجَنَّبوا ، ولا تؤخذ عشر أموالهم ، ولا يجبوا ، ولا يستعمل عليهم غيرهم . فأجابهم محمد إلى ذلك ، وكان يقول « سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا . » فأسلموا وكتب لهم كتاباً ، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص :

وكان أصغرهم سنّاً ، واركنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن . ذلك أنهم كانوا يتركونه في رحالهم إذا أتوا محمداً ، فإذا رجعوا وسط النهار قام هو فجاءه فسأله عن العلم واستقرأه القرآن ، فإن وجدته نائماً ذهب إلى أبي بكر الصديق ، فلم يزل كذلك حتى تعلم كثيراً من أصول الإسلام ، وأحبه الرسول حباً شديداً . ومن وصاياہ لعثمان قوله : « يا عثمان تجوز في الصلاة ، وتخفف عن الناس ، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة » .

فلما فرغ القوم من أمرهم استأذنوا النبي أن يسبقوا رسله الذين سيهدمون الربة إلى قومهم . وانفتموا فيما بينهم ، خشية ما قد يحدث من رد فعل عند الناس أن يكتسوا أمرهم حتى يتأكلوا من قبول الناس الإسلام . فلما سألوهم : ما وراءكم ؟ أظهروا الحزن وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف ، يحكم ما يريد ، وقد دوخ العرب . قد حرم الربا والزنا والخمر ، وأمر بهدم الربة . فنفر الناس وقالوا : لا نطيع لهذا أبداً . وتأهبوا للقتال ومكثوا على ذلك يومين أو ثلاثة ، ثم تابوا إلى رشدهم وعلموا أنه لا طاقة لهم بحرب محمد ، فرجعوا عن غيهم وأتابوا وقالوا للوفد : ارجعوا فشارطوه على ذلك وصالحوه عليه . فقال الوفد : فإننا قد فعلنا ذلك ووجدناه أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم . وقد بورك لنا وإكم في مسيرنا إليه وفيما قاضيناه عليه ، فافهموا ما في القضية واقبلوا عافية الله . قالوا : فلم كتمتمونا هذا أولاً ؟ قالوا : أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان . ثم إنهم أسلموا جميعاً .

وبعد أيام قدم عليهم رسل محمد على رأسهم خالد بن الوليد ، وفيهم أبو سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، فعمدوا رأساً إلى اللات ليهدموها . فخرجت ثقيف عن بكرة أبيها : رجالها ونساؤها والصبيان لم يبق فيها أحد منهم ، وكان عامتهم يظنون أنها لا تهلدم ، وأنها سوف تمتنع على الهدم .

فلما تقدم المغيرة بن شعبه وفي يده المعول لهدمها قال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف . وهوى بالمعول فضرب ضربة ثم سقط على الأرض وقام يركض برجله . فصاح أهل الطائف صيحة واحدة وفرحوا فرحاً شديداً وقالوا : أبعد الله المغيرة قتلته الربة ! وقالوا لأصحابه : من شاء منكم فليقترب منها .

فقال لهم المغيرة : والله يا معشر ثقيف إنما هي حجارة وطين ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه . ثم ضرب الباب فكسره ، وعلا سورها وعلا معه الرجال من أصحابه . وهوا عليها بمعاولهم يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض . وكان أبو سفيان يقول كلما ضربها المغيرة بالفأس : واهاً لك ! آهاً لك ! حدث هذا وثقيف مبهوتة كأن على رؤوسهم الطير .

وأتى وفد بني حنيفة ، وكان معهم مسيلمة بن حبيب الملقب بالكذاب ، إلا أنهم خلفوه في رحالهم عند ما دخلوا على محمد في المسجد . فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا : يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركائبنا يحفظها لنا ، فقال : « أما إنه ليس بشركم مكاناً » وأمر له بمثل ما أمر لأصحابه . فلما انصرفوا وعادوا إلى الإمامة فسر مسيلمة قوله محمد « أما إنه ليس بشركم مكاناً » على أنه دليل على أنه أشرك معه في النبوة . وأخذ من ثمة يسجع لقومه السجعات مضاهاة للقرآن . وكان فيما يقول : لقد أنعم الله على الحبلى . أخرج منها نسمة تسعى . من بين صفاق^(١) وحشا^(٢) . ولقد صدقته بنو حنيفة وشاع أمره بينهم وشاعت تقليداته للقرآن حتى لقد كان المار بذيابهم يسمع ببعض مساجد بني حنيفة قراءة ما أنزلها الله على محمد كقول مسيلمة : والطاحنات طحناً والعاجنات عجنناً . والحازبات خبزاً . والثاردات ثرداً . واللاقمات لقماً . ولا عجب فأمر مسيلمة وارتداد بني حنيفة معروف . وقد قتله في حروب الردة زيد بن الخطاب .

(٢) الحشا : ما في جوف البطن .

(١) الصفاق : جملة البطن .

ومن الوفود وفد نصارى نجران : وكان محمد قد كتب إلى أسقف نجران كتاباً « باسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران ، فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام » . فلما قرأ الأسقف هذا الخطاب ذعر وفزع فزعاً شديداً ، واستشار مستشاريه ، وقر الرأي على إرسال وفد لمحمد . فأتاه وفد نجران من ستين راكباً ، ودخلوا عليه المسجد وهم يلبسون ثياب الحرير مختمين بالذهب ، وقدهوا له بسطاً فيها تماثيل ومسوحاً^(١) فلم يقبل البسط وقبل المسوح . ولما جاء وقت صلاتهم صلوا في المسجد مستقبلين بيت المقدس . فلما أتموا صلاتهم دعاهم النبي للإسلام فأبوا وقالوا كنا مسلمين قباكم . فقال : « يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولداً » . قالوا فن مثل عيسى لا أب له ؟ وما تقول فيه ؟ فقال : « ما عندي فيه شيء يومي هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى » .

فأنزل الله في ذلك سورة آل عمران ، فلما أصبح الغد قرأ عليهم « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فن حاجك فيه من بعد ما جاعك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »^(٢) . فأبوا أن يقروا بذلك ورفضوا الإسلام ورضوا بالجزية ، وكانت ألف حلة في صفر ، وألف حلة في رجب ، مع كل حلة أوقية من ذهب . ثم طلبوا منه أن يرسل معهم أميناً فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ، فلذلك سمي أمين هذه الأمة .

(١) المسح : الثوب من شعر .

(٢) آل عمران ٥٩ - ٦١ .

وقدم وفد بنى عامر وفيهم عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ، وحيان ابن سلمى ، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء قومهم ودهاتهم . وكان بنو عامر قد أجمعوا على الإسلام وقالوا لعامر : يا عامر إن الناس قد أسلموا فاسلم ، غير أن العزة أخذته وغره بالله الغرور فقال : والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبي ، فأنا أتبع عقب هذا الفتي من قريش . فلما جلسوا إلى محمد قال عامر : يا محمد ما تجعل لى إن أسلمت ؟ فقال « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » قال عامر : أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك . قال : « ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل » . فقال : أنا الآن فى أعنة خيل نجد ، اجعل لى الوبر^(١) ولك المدر^(٢) . فلم يقبل محمد ، فانصرف عنه عامر غاضباً وهو يقول : أما والله لأملأها عليك خيلاً ورجلاً . فقال محمد : اللهم اكفنى عامر بن الطفيل .

فلما خرجوا ثارت حمية عامر فقال لأربد : يا أربد نعود إلى محمد فأشغله بالحديث وأنت فاضربه بالسيف ، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب ، فسنعطيهم الدية . ثم إنهما قفلا راجعين إليه ، فقال له عامر : يا محمد قم معى أكلمك . فقام معه إلى الجدار ووقف يكلمه ويقول له : يا محمد صادقى ، فيقول له : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » . ثم إن أربد حاول عندئذ أن يستل السيف ، غير أن شجاعته خانته ، ففطن محمد إلى ما يريد أربد فانصرف عنهما . فلما تنحيا ، قال عامر لأربد : أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسه منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً .

فقال أربد : لا أباك ! لا تعجل على ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

ثم إن وفد بني عامر خرجوا عائدين إلى بلادهم . وبينما هم في بعض الطريق أصيب عامر بالطاعون في عنقه فنزل في بيت امرأة من بني سلول ، غير أنه كره أن يموت في بيت سلولية للوهمهم ، فخرج من بيتها ، فوثب على فرسه وأخذ رمحه وأقبل يجول وهو يرغب أن يموت موة الفرسان ، لا حتف أنفه وهو يقول : غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية ! ولم يزل كذلك حتى سقط عن فرسه ميتاً .

أما أربد فإنه لما عاد إلى بني عامر سأله : ما وراءك يا أربد ؟ فقال : لا شيء والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله الآن . ثم إنه خرج بعد ذلك بيوم أو يومين ومعه جمل له يريد بيعه ، فانقضت عليهما صاعقة فأحرقتهما . أما بنو عامر فقد أسلموا . ولقد أنزل الله تعالى في عامر وأربد قوله « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال »^(١) إلى قوله « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال »^(٢) .

وقدم ضيام بن ثعلبة وافداً عن قومه بني سعد بن بكر ، وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ودخل المسجد ومحمد جالس في أصحابه . وكان ضيام رجلاً جليداً أشعر ذا غدبرتين ، من أهل البادية جهورى الصوت لا يفقه ما يقول ، فأقبل يقول : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال محمد : « أنا ابن عبد المطلب » .

فقال : يا ابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تغضبني فى نفسك . قال : « لا أغضب فى نفسى فسل ما بدا لك » .

(٢) الرعد ١٣ .

(١) الرعد ١٠ - ١١ .

فقال : أنشدك إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،
آله بعثك إلينا رسولا ؟ قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنشده الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،
آله أمرك أن تصلي هذه الصلوات الخمس ؟ قال : « نعم » .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ، الزكاة ، والصيام ،
والحج ، وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده
في التي قبلها . حتى إذا فرغ قال : فاني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن
محمد رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم
لا أزيد ولا أنقص . وعاد إلى قومه فأخبرهم بما أمرهم به وما نهاهم عنه ،
فأسلموا وبنوا المساجد وأذنوا بالصلاة .

وقدم وفد طى وفيهم زيد الخليل ، وهو زيد بن مهلهل بن زيد ،
وسمى زيد الخليل لخمس أفراس كنى له ، وكان من أحسن العرب وسيماً
طويلاً . فأسلموا بين يدي محمد وحسن إسلامهم ، وقد قال محمد في زيد
الخليل : « ما ذكر رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيت دون ما يقال فيه ،
إلا زيد الخليل ، فإنه لم يبلغ كل الذي فيه » . وسماه زيد الخير .

ومن الوفود وفد كندة ، قدم في ثمانين راكباً ، فدخلوا على النبي
مسجده وعليهم جُسيبُ الحبرة قد كنفوها بالحرير ، فقال لهم : « ألم تسلموا ؟ »
قالوا : بلى . قال : فما بال الحرير في أعناقكم ؟ فشقوه منها فألقوه . ثم قال
له الأشعث بن قيس : يا رسول الله نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل
المرار . فتبسم وقال : « ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب ، وربيعه
ابن الحارث » . وذلك أن العباس وربيعه كانا تاجرين إذا سألهما أحد من
العرب ممن أنتم ، قالوا : نحن بنو آكل المرار ، يريدان الانتساب إلى كندة
ليعزوا في تلك البلاد ، لأن كندة كانوا ملوكاً ، فاعتقدت كندة أن قريشاً
منهم لقول العباس وربيعه « نحن بنو آكل المرار » . ثم إن محمداً قال لهم :

« لا ، نحن بنو النضر بن كنانة لا نتهم أمنا بالفجور ، ولا نفتنى من أبينا » .
وقدم عليه كتاب مالوك حمير ورسولهم بإسلامهم في أثر عودته من تبوك ،
وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال . والنعمان قيل ذى
رعين ، ومعاقر ، وهمدان . وبعث إليه زرعة ذو يزن بن مرة الرهاوى
بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله .

فكتب إليهم كتاباً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى
الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذى رعين ،
ومعاقر ، وهمدان ، أما بعد ذلكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ،
فإنه قد وقع بنا رسولاكم منقلبنا من أرض الروم ، فلقينا بالمدينة فباغ
ما أرسلتم به وخبرنا ما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله
قد هداكم بهداه ، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة
وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم وصفية وما كتب
على المؤمنين فى الصدقة ، من العتق عشر ما سقت العين وسقت السماء وعلى
ما سقى الدلو نصف العشر ، وأن فى الإبل فى الأربعين ابنة لبون ، وفى
ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر ، وفى كل خمس من الإبل شاة ، وفى كل
عشر من الإبل شاتان ، وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين
تبيع جذع (١) أو جذعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة (٢) وحدها شاة ،
لأنها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو
خير له .

ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه
من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة رسوله ، وإنه من
أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم .
ومن كان على يهوديته أو نصرانيتها فإنه لا يراد عنها ، وعليه الجزية

(١) الجذع من الحيوان الصغير . (٢) السائمة : الماشية التى ترسل لترعى .

على كل حالم ذكر وأنثى حر أو عبد دينار وافر من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً ، فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله .

أما بعد ، فإن رسول الله محمداً النبي أرسل إلى زرعة ذى يزن : أن إذ أتاك رسلي فأوصيكم بهم خيراً ، معاذ بن جبل ، وعبد الله بن زيد ، ومالك بن عبادة ، وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي ، وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضياً .

أما بعد فإن محمداً يشهد أنه لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين ، فأبشر بخير ، وأمرك بحمير خيراً ، ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم ، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته ، وإنما هي زكاة يُزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل . وإن الكأ قد بلغ الخبر وحفظ الغيب فأمركم به خيراً ، وإنى قد أرسلت إليكم من صالح أهلي وأولى دينهم وأولى علمهم ، فأمركم بهم خيراً فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

الفصل السادس العشرون

أبو بكر أميراً على الحج

حدث في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الإسلام . وهي الفترة التي استقر فيها الدين الجديد بعد فتح مكة وإسلام قريش وثقيف ومعظم قبائل الحجاز . وانتهت المواقع الحربية الكبيرة . وبدأت وفود القبائل ترد على المدينة خاضعة لحكم الإسلام . تطور هام جداً في تحديد علاقة الإسلام النهائية بالمشركون في جزيرة العرب . وكان المشركون حتى هذه السنة ، أى السنة التاسعة الهجرية ، لا يزالون أحراراً كاملي الحرية في الحج إلى بيت الله الحرام ، وإقامة شعائرهم الوثنية في حماية العهد العام الذي قطعه محمد للجميع بالأبى يُصدِّد عن البيت العتيق أحد جاءه ، وألا يخاف أحد في الأشهر الحرام ، فضلاً عن العهود التي كانت بينه وبين بعض قبائل المشركين إلى آجال مسماة . وكان حج أبى بكر بالناس في هذه السنة حداً فاصلاً بين الإسلام والوثنية في جزيرة العرب من جميع الوجوه ، وعلامة واضحة على الطريق الذي انبغى للعرب أن يسلكوه .

بعث محمد أبى بكر الصديق في أخريات ذى القعدة للحج بالناس . فخرج من المدينة على رأس ثلاثمائة من حجاج المسلمين ، ومعه من الهدى عشرون بدنة أهداها النبي وخمس أهداها هو . غير أنه حدث بعد أن خرج أبو بكر بقليل أن نزل على النبي صدر سورة براءة ، وفيه تحديد كامل وشامل وتام لعلاقة المسلمين بالمشركون في جزيرة العرب . فقيل له : لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟ فقال : « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » .

ودعا على بن أبى طالب فقال : « اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : ألا إنه لا يدخل الجنة كافر ،

ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته .

فخرج علي بن أبي طالب على ناقة محمد العصباء ، حتى أدرك أبا بكر ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور .

فلما كان يوم النحر واجتمع الناس بمنى ، تقدم إلى فقراً على الناس صدر سورة براءة : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة رضونكم بأفواههم وتأبي قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصّدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » (١) .

الفصل السابع والعشرون

حجة الوداع

ما إن آذنت شمس السنة العاشرة الهجرية بالمغيب حتى كانت جزيرة العرب عن بكرة أبيها تدين بالإسلام . وكان طبيعياً وضرورياً أن يحج رسول الله بالمسلمين ليأخذوا عنه مناسك الحج . ولقد سميت هذه الحجة بحجة الوداع ، لأن النبي ودع الناس فيها ولم يحج بعدها ، وسميت حجة الإسلام أيضاً لأنه لم يحج من المدينة غيرها ، وسميت حجة البلاغ كذلك لأنه بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً ، ولم يكن قد بقي في ذلك الوقت من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه وعلمه للناس . فلما بين لهم شريعة الحج ومناسكه ليأخذوها عنه نزل عليه وهو واقف بعرفة قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) .

لما ترامت الأنباء بأن النبي نخرج للحج أقبلت عشرات الألوف من المسلمين من كل حدب وصوب على المدينة يريدون الخروج معه لقضاء هذه القرينة التي فرضها عليهم الله . فتجمع في المدينة نحو من مائة ألف أو أكثر ، وضربوا خيامهم حولها انتظاراً للخروج في صحبة نبيهم ، وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة من السنة العاشرة أذن النبي بالخروج ، فركب ناقته القمصاء ، ومعه نساؤه كل منهن في هودجها ، وسار على رأس هذا الجمع الذي لم تشهد جزيرة العرب مثله من قبل ، واستخلف على المدينة أبا دجانة .

فلما بلغوا ذا الحليفة أقاموا ليلتهم ، ولما أصبحوا صلى بهم الصبح ،

ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم وقلدها نعلين ،
وتولى إشعار بقية الهدى وتقليده غيره . ثم أحرم وأحرم المسلمون ، ثم
ركب راحيته حتى إذا استوت به البيداء أهلّ بالحج (مفرداً أو مقروناً
بعمره في قول البعض) فقال : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ،
إن الحمد والنعمة لك ، والمملك لك ، لا شريك لك » . ولبي الناس ، وكان
يدعو ربه ويكرر الدعاء في أثناء مسيره فيقول : « اللهم اجعله حجاً لا رياء
فيه ولا سمعة » . ولما بلغوا سرف (مكان في الطريق بين المدينة ومكة)
قال لهم : « من لم يكن منكم معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن
كان معه هدى فلا » .

وفي اليوم الرابع من ذى الحجة وصل الركب الكبير إلى مكة فحل (١)
كل من لم يكن معه هدى ، وحل نسائه بعمره . ودخل النبي مكة ضحى
ذلك اليوم من الثانية العليا وهي ثنية كداء ، وهو على ناقته القصواء ومن
تحته رحل رث عليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم . فلما بلغ باب بني شيبه
ورأى بيت الله الحرام رفع يديه وقال : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً
وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه وعظمته ممن حججه واعتمره تشريفاً
وتكريماً ومهابة وتعظيماً وبراً » . فلما أتى الكعبة طاف بها سبعمائة ، رمى ثلاثة
ومشى أربعة ، وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ثم قرأ : « واتخذوا من مقام
إبراهيم مصلى » (٢) . ثم استلم الحجر الأسود ، أي قبله ، ثم قرأ : « إن الصفا
والمروة من شعائر الله » (٣) . ثم قال : « نبدأ بما بدأ الله به » فصعد على الصفا
وهو راكب راحلته ، فنظر إلى البيت وكبر ثم قال : « لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله
وحده . أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ثم سعى بين
الصفا والمروة سبعمائة ، وكان إذا رقى المروة قال كما قال على الصفا . فلما

(١) أي خرج من إحرامه ورجاز له ما كان ممنوعاً .

(٢) البقرة ١٢٥ . (٣) البقرة ١٥٨ .

كان السابع عند المروة قال : أيها الناس إني لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى ولجعلتها عمرة ، فمن لم يكن معه هدى فليحل وليجعلها عمرة . فأحل كل من لم يكن معه هدى وقصروا ، وحل نساء النبي وحلت ابنته فاطمة ، ولم يبق على إحرامه إلا كل من كان معه هدى .

ولما كان يوم التروية ، الثامن من ذى الحجة ، ذهب النبي والمسلمون إلى منى وأهلوا بالحج ، وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا بعد الفجر حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة له من شعر فضربت له بنميرة . وسار وقريش لا تشك في أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت تصنع قريش في الجاهلية ، غير أنه تجاوزها حتى جاء عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنميرة . ولما مالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت ، وركبها حتى أتى بطن الوادي ، فوقف هناك يخطب في الناس خطبة الوداع ، وكان يلقيها بصوت جهورى قوى ، ويردها من بعده ربيعة بن أمية بن خلف . قال :

« الحمد لله نحمله ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . »

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحسبكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير . »

« أما بعد أيها الناس . اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . »

« أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . إن ربا الجاهلية

موضوع ، وإن أول رباً أهدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن
دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أهدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ،
وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود (قصاص)
وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من
أهل الجاهلية .

« أيها الناس : إن الشيطان يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد
رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . »

« أيها الناس إن النسيء^(١) زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا
يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله . وإن الزمان قد استدار
كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر
شهرأ في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض منها أربعة حرم ثلاث
متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين
جمادى وشعبان . »

« أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكن عليهن حق ألا يوطئن
فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرر هونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين
بفاحشة . فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن^(٢) وتهجروهن في المضاجع ،
وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن
بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ولا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن
بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . فاتقوا الله في النساء واستوصوا
بهن خيراً . »

« أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن
طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدي كفاراً

(١) تأجيل شهر من الأشهر الحرام إلى السنة التالية ، وذلك أنهم كانوا إذا استطالوا
الأشهر الحرام وتعجلوا الحرب أجلوا المحرم وحرموا صفراً من عامهم المقبل .
(٢) أ تحبسوهن وتضيقون عليهن .

يضرب بعضكم رقاب بعض فأني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدى ، كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت : فقال وهو يرفع إصبعه السبابة إلى السماء ثم يشير بها إلى الناس : « اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد » ثلاث مرات . وكان ربيعة بن أمية بن خلف يردد بعده مقطوعاً مقطوعاً ، وهو يسألهم بين هذا وذاك سؤالا ليحتفظ بيقظتهم ، فيأمر ربيعة أن يسألهم هل تدرسون أى يوم هذا . فيقول ربيعة : إن رسول الله يقول : هل تدرسون أى يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر . فيقول النبي ويردد بعده ربيعة : « إن الله قد حرم عليكم دماءكم . . . » ثم يقول لربيعة : « قل هل تدرسون أى بلد هذا ؟ » فينادى فيقول الناس : البلد الحرام . فيقول مقطوعاً آخر من خطبته ويردده بعده ربيعة . وهكذا حتى انتهى من خطبته .

وفى ذلك اليوم وبعد أن ألقى خطبة الوداع نزل عليه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) . فلما سمعها أبو بكر تحادرت على خديه الدموع ، فقد أحس عند ذاك قلبه أن أجل النبي قد حان وأنه سيلقى ربه غن قريب .

غادر النبي بعد ذلك عرفات وقضى ليلته بالمزدلفة ، ثم قام فصلى الفجر حتى إذا تبين له الصبح ركب ناقته القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ودعا الله عز وجل وكبره وهلله ووحده عملاً بقوله تعالى : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » (٢) . ولم يزل واقفاً هناك حتى أضاء الصبح ثم رحل عنه قبل أن تطلع الشمس . ثم توجه إلى منى وهو لا يزال يلبي حتى رمى جمرة العقبة ، وهو يكبر مع كل حصاة ، ثم قطع التلبية مع آخر حصاة . وكان يقول للناس : « لتأخذوا مناسككم فأني لا أدري لعلى لا أحج بعد حجتي هذه » . ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين ناقة بيده ، وذلك مناسب لعمره . ثم أعطى علياً فنحر بقية

(١) المائدة ٣

(٢) البقرة ١٩٨ .

الهدى وجمته مائة وأشركه فيه ، ثم حلق وأتم حجه . وأمر بأن يؤخذ من كل ذبيحة قطعة فتوضع سوياً في قدر فتطبخ ، ليأكلوا منها ويشربوا مرقها . وقسم لحومها وجلودها على الناس .

ثم لبس ثيابه بعد أن رمى الجمرات ونحر هديه وحلق وطيبته عائشة ، وذلك قبل أن يطوف بالبيت . ثم ركب وأتى البيت الحرام فطاف به سبعمائة وهو راكب ، وصلى الظهر . ولم يطف بين الصفا والمروة هذه المرة ، واكتفى بطوافه الأول . ورجع إلى منى فمكث بها ليلتي أيام التشريق يرمى الجمرتين إذا زالت الشمس ، كل جمرتين بسبع حصيات ، ويكبر مع كل حصاة . فلما كان ثالث أيام التشريق ، ركب والمسلمون معه . وغادر منى إلى المحصب وهو واد بين مكة ومنى فصلى العصر به . ثم ركب إلى البيت فطاف به طواف الوداع . ثم خرج من أسفل مكة من الثنية السفلى أي من كُدِّي ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

الفصل الثالث والعشرون

أهل البيت

زوجات النبي وخطيباته وسراريه وأولاده

يختلف كتاب السيرة في تحديد عدد زوجات النبي ، فقال بعضهم لأهن خمس عشرة امرأة ، وقال آخرون ثمانى عشرة امرأة . أما ما لا خلاف فيه فهو أنه دخل بإحدى عشرة امرأة ، توفيت اثنتان في حال حياته ، ومات عن تسع ، ولم يتزوج غير بكر واحدة .

تزوج خديجة بنت خويلد وهو في الخامسة والعشرين وهى فى مثل هذه السن أو أكبر قليلا ، وإن اختلفت أقوال كتاب السيرة كثيراً فى تحديد عمر كل منهما عند الزواج .

وكانت قد تزوجت قبله برجلين ، الأول منهما عتيق بن عائذ بن مخزوم ولها منه ابنة ، والثانى أبو هالة التيمى فولدت له هند بن أبى هالة الصحابى . وهى أم أولاده ما عدا إبراهيم ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت فى السنة العاشرة من مبعثه ، وهو ابن خمسين سنة .

وبعد وفاة خديجة بقليل تزوج عائشة بنت أبى بكر التيمية وهى بنت سبع سنين ، ولم يدخل بها إلا بعد الهجرة وهى بنت تسع سنين . ولم يتزوج بكراً غيرها . ويقال بأنها أسقطت منه والمدآ سماه عبد الله ، ذلك أنها كانت تكنى بأم عبد الله . وقيل إنما كانت تكنى بعبد الله ابن أختها أسماء من الزبير بن العوام .

وتزوج قبل الهجرة أيضاً سودة بنت زمعة العامرية ، وكانت قبله زوجة

السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمرو ، مات عنها زوجها مسلماً بعد رجوعه وإياها من أرض الحبشة .

وتزوج بعد الهجرة حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية ، وكانت قبله زوجة خنيس بن حذافة بن عدى ، مات عنها مؤمناً .

وتزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية ، وكانت قبله زوجة لابن عمها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد .

وتزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية ، وكانت قبله زوجة لعبيد الله بن جحش بن رثاب ، مات بأرض الحبشة نصرانياً ، فبعث إليها عمرو بن أمية الضمري فخطبها عليه وزوجها منه عثمان بن عفان وكان لا يزال مهاجراً بالحبشة ، وأصدقها عنه النجاشي أربعمئة دينار .

وتزوج زينب بنت جحش الأسدية ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمته ، وكانت قبله زوجة مولاه زيد بن حارثة فطلقها . وهى التى تولى الله عقد زواجها . وكانت أول نسائه لحوقاً به ، وأول من عمل لها النعش ، صنعتها أسماء بنت عميس على طريقة أهل الحبشة .

ثم تزوج زينب بنت خزيمة ، وهى من بنى عبد مناف ، ويقال لها أم المساكين ، وكانت قبله زوجة عبد الله بن جحش بن رثاب قتيلاً يوم أحد ، ولم تلبث عنده إلا قليلاً حتى توفيت .

وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجت قبله رجلين أحدهما ابن عبد ياليل الثقفى . ويقال إنها هى التى وهبت نفسها ، والأصح أنه خطبها ، وكان السفير بينهما أبو رافع .

وسبى جويرية بنت الحارث المصطلقية يوم المريسيع ، فأعتقها وتزوجها . ويقال بل قدم أبوها ، وكان ملك خزاعة ، فأسلم ثم تزوجها منه . وكانت قبله زوجة ابن عمها صفوان بن أبي الشغر .

وسبى صفية بنت حيى بن أخطب من يهود بنى النضير وهى يومئذ

عروس لكنانة بن أبي الحقيق ، فأعتقها وجعل عتقها صداقها وتزوجها .

اجتمع عنده من زوجاته تسع نساء في وقت واحد . هن من ذكرك
آنفاً فيما عدا خديجة ، وزينب بنت خزيمة . وهن اللأثى توفى عنهن ، وهن
حرام على الناس من بعده بالإجماع المحقق ، وعدتهن بانقضاء أعمارهن عملاً
بالآية « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من
بعده أبداً إن ذلكنم كان عند الله عظيماً » (١) .

أما القول بأنه اجتمع عنده إحدى عشرة امرأة ، فيراد به أولاء التسع ،
وسريته مارية القبطية ، وريحانة اليهودية .

أما اللأثى تزوجهن ولم يدخل بهن فليس عليهن إجماع من كتاب
السيرة . نذكر منهن عمرة بنت يزيد الغفارية ، وكان بها برص عند ثديها .
فلما جردها من ثيابها ورأى هذا البرص ، أمرها أن تلبس ثيابها ثم ردها
إلى أهلها ، وأوجب لها الصداق وحرمت على غيره .

ثم الشبابة وقد قاومته عند ما أدخلت عليه فتركها ينتظر بها اليأس ،
فلما مات ابنه إبراهيم على بغثة قالت : لو كان نبياً لم يميت ابنه ، فطلقها
وأوجب لها الصداق وحرمت على غيره . أما العالية بنت ظبيان فطلقها قبل
أن يحرم الله نساء النبي . ثم أميمة أو أمينة وهي امرأة من بني الجحون ،
رفضته لما دخل عليها وقال لها : « هي لي نفسك » فقالت : وهل تهب
الملكة نفسها لسوقة ؟ فأهوى بيده عليها لتسكن ثأرتها فقالت : أعوذ بالله
منك . فقال : « عُدَّتْ بعظيم ، الحقى بأهلك » . وتزوج قتيلة بنت قيس
أخت الأشعث بن قيس ، وزعم بعض كتاب السيرة أنه تزوجها قبل وفاته
بشهرين . وزعم بعض آخر أنه تزوجها في مرضه ، ولم تكن قدمت عليه
ولا رآها . وزعم غيرهم أنه أوصى أن تخيّر قتيلة فإن شاءت يضرب عليها
الحجاب وتُحَرَّم على المؤمنين . وإن شاءت فلتتزوج من تشاء ، فاختارت

الزواج فتزوجها بكرمة بن أبي جهل . وذكر كتاب السيرة غير أولاء
عدة نسوة أخر .

ثم إنه خطب عدة نسوة ولم يعقد عليهن . خطب أم هانئ فاختة بنت
أبي طالب ، فاعتذرت إليه بأن لها صبية صغيراً فعذرها . ويروى أن ليلي
بنت الخطيم أقبلت إليه وهو مول ظهره إلى الشمس فضربت منكبه ، فقال :
« من هذا » قالت : أنا بنت مطعم الطير ، ومبارى الريح ، أنا ليلي بنت
الخطيم ، جئت لك لأعرض عليك نفسى ، تزوجنى ؟ قال : « قد فعلت » .
فرجعت إلى قومها فقالت : قد تزوجت النبى ، فقالوا : بئس ما صنعت ،
أنت امرأة غيرى ورسول الله صاحب نساء تغارين عليه ، فيدعو عليك ،
فاطلبى منه فسخ الخطبة ، فلما طالبت منه ذلك فعل . وخطب ضباعة بنت عامر
من ابنها فسكت عن إجابته إذ كانت قد طعنت فى السن ، فسكت عنها .
وخطب صنفية بنت بشامة العنبرى ، وكان أصابها فى سبى ، فخبرها فقال :
« إن شئت أنا وإن شئت زوجك » فقالت : بل زوجى ، فأطلقها لزوجها ،
فلعننها بنو تميم . وخطب حبيبة بنت العباس بن عبد المطلب فوجد أباه
أخاه من الرضاعة ، أرضعتها ثوية مولاة أبي لُب .

أما من تسرى بهن فاثنتان على التحقيق ، هما مارية القبطية المصرية ،
وريحانة اليهودية ، قيل من بنى قريظة وقيل من بنى النضير . أما مارية
فأهداها له المقوقس أسقف الأسكندرية ونائب إمبراطور الروم على مصر .
وأهدى له معها أختها سيرين التى وهبها لحسان بن ثابت ، وغلاماً يدعى
مأبور كان خصياً ، وكان يدخل على مارية وشيرين بلا إذن كما
جرت العادة فى مصر . وكانت مارية جميلة بيضاء أعجب بها النبى وأحبها
وحظيت عنده ولا سيما بعد أن ولدت إبراهيم . أسكنها فى مال له بالعالية
من أموال بنى النضير ، وكان يأتها هناك ، فولدت منه غلاماً سماه إبراهيم .
ولقد سر سروراً كبيراً عند ذلك وقال : « أعتقها ولدها » . وكان ميلاد

إبراهيم والحظوة التي نالتها مارية عنده سبباً في تألب نساءه عليه وتآمرهن عليها ، مما أدى إلى تنغيص حياته في أخريات أيامه . وجاءته مارية يوماً وهي تحمل إبراهيم على عاتقها فقال : « يا عائشة كيف ترين الشبه ؟ » قالت : أنا وغيرى ما أرى شهماً . فقال : « ولا اللحم » قالت : لعمرى من تغذى بألبان الضأن ليحسن لحمه . وكان قد اشترى لمارية شاة لبوناً لتغذى منها الصبي . ثم لهن أكثرن الكلام في حق مارية واتهمنها مع مأبور ذلك القبطى الذى جاء معها من مصر ، وكان يزورها ويختلف إليها ويدخل عليها بلا إذن .

فلما كثر القيل والقال واستاء محمد من هذا الوضع ، نادى علياً وقال له : « خذ هذا السيف فانطلق فإن وجدته عندها فاقتله » . فامتل على للأمر ، ولكنه استأذنه : أكون في أمرك لا يثني شياً حتى أنفذ ما أمرتني به ، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ فقال : « بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب » .

فانطلق على متوشحاً بالسيف فوجد مأبوراً عند مارية فاستل السيف ، فلما رآه مأبور خشيته وأدرك ما يريد ، فرمى بنفسه على الأرض وشال رجليه ، فإذا به نحصى أمسح ليس له ما للرجال لا قليل ولا كثير . فتركه على ورجع إلى محمد فأخبره فقال : « الحمد لله الذى صرف عنا أهل البيت » .

ثم إن مارية كانت سبباً في إشعال فتنة في بيت محمد ، بسبب ما حدث بينها وبين حفصة ذات يوم . ولقد زادت هذه الفتنة اشتعالاً غيراً عائشة من زينب بنت جحش ، وغيره بقية زوجاته من عائشة ، وغيرهن جميعاً من مارية . وذلك أن حفصة ذهبت يوماً إلى أبيها تزوره ، فلما عادت وجدت محمداً في حجرتها ومعه مارية . فانتظرت حتى يخرجها ، وطل انتظارها والغيرة تمزق قلبها ، فلما خرجت مارية دخلت حفصة مغضبة

على محمد فقالت : لقد رأيت من كان عندك ، والله لقد سببتني ، ما كنت لتصنعها لولا هواني عليك . وأدرك محمد ما قد يحدث إشاعة ما حدث بين زوجاته من فتنة ، فأقبل على حفصة يلاطفها ويترضاها حتى لقد حلف لها أن مارية عليه حرام إن هي لم تذكر لأحد مما رأت شيئاً . فوعده بالكميان ، غير أنها لم تستطع أن توفى بهذا الوعد ، فباحث بالسر لعائشة ، وهذه أشارت إليه بأنها علمت من حفصة قصة ما حدث . فغضب وطلق حفصة ثم راجعها إكراماً لأبيها . وفي ذلك نزل قوله تعالى : « وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير » (١) .

ولم تنته الفتنة عند هذا الحد ، بل لقد تجاوزت حدود ما كان يحدث بين محمد وأزواجه من قبل كثيراً . وتطور الأمر حتى لقد صارحنه بأنه لا يعدل بينهن ، وتناولت زينب بنت جحش على عائشة أمامه ، وكررن الشكوى من قلة النفقة وخشونة العيش . فلما أكثرن من لجأتهن ورأى أنهن ماثرات على هذه اللجاجة ، قرر أن يهجرهن شهراً وأن يهدهن بالطلاق إن لم يشن إلى نفوسهن ويعدن إلى رشادهن . وانقطع في مشربة بجوار المسجد كان يرقى إليها على جذع من جذوع النخل . غير أنه عفا عنهن أخيراً وعادت حياته معهن إلى سابق عهدهما . ونزل في ذلك قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » (٢) .

أما أولاده فكلهم من خديجة فيما عدا إبراهيم من مارية القبطية . ولدت له خديجة القاسم وهو أكبر ولده مات قبل النبوة ، ثم عبد الله ويقال له الطيب والطاهر ، مات بعد النبوة . وقد ماتا طفلين رضيعين .

(١) التحريم ٢ .

(٢) الأحزاب ٢٨ - ٢٩ .

فلما مات عبد الله قال العاص بن وائل : قد انقطع نسبه فهو أبتير .
فأنزل الله على نبيه قوله : « إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن
شأنك هو الأبتير » (١) . أى أن مبغضك هو الأبتير من كل خير . وولدت
له خديجة من البنات زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة . زينب أكبر
بناته وفاطمة أصغرهن وأحبهن إلى قلبه ، تزوجت زينب قبل الهجرة أبا العاص
ابن الربيع فولدت له علياً وأمامة ، وهى التى يذكر أنه كان يحملها
فى الصلاة ، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها . وأغلب الظن أن ذلك كان
بعده موت زينب سنة ثمان من الهجرة . وقد تزوجها على بن أبى طالب بعده
وفاة فاطمة .

أما رقية فكان قد تزوجها ابن عمها عتبة بن أبى لهب ، وتزوج أختها
أم كلثوم أخوه عتيبة بن أبى لهب . غير أنهما طلقاهما قبل أن يدخلها بهما
بغضة فى النبى حينما ثار النزاع بينه وبين عمه أبى لهب ، ونزل قوله تعالى :
« ثبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات
لهب . وامراته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » (٢) . ثم تزوج عثمان بن
عفان رقية ، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة ، ويقال إنهما أول من هاجر
إليها . ثم رجعا إلى مكة ، وهاجرا إلى المدينة . وولدت له رقية ابنه عبد الله ،
حتى إذا بلغ ست سنين نقره ديك فى عينه فمات ، وبه كان يكنى ، ثم
اكتنى بابنه عمرو . وتوفيت رقية يوم التقي الجمعان فى بدر سنة اثنين من
الهجرة ، وهى التى جاء البشير بالنصر زيد بن حارثة فوجدهم قد ساووا
على قبرها التراب . وكان عثمان قد تخلف عن بدر بأمر محمد ليقوم
بتمريضها ، فضرب له بسهمه وأجره . ثم زوجه بأختها أم كلثوم أيضاً ،
ولهذا كان يقال له ذو النورين . وماتت أم كلثوم عند عثمان فى شعبان
سنة تسع ولم تلد .

(٢) المسد ١ - ٥ .

(١) الكوثر ١ - ٣ .

وتزوج فاطمة ابن عمها علي بن أبي طالب في صفر سنة اثنتين ، فولدت له الحسن ، والحسين ، ويقال ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب . وقد تزوج عمر بن الخطاب في أثناء ولايته بأُم كلثوم بنت علي وأكرمها إكراماً زائداً . فلما قتل عمر تزوجها ابن عمها عون بن جعفر ، فلما مات تزوجها أخوه محمد ، فمات عنها ، فتزوجها أخوها عبد الله بن جعفر فماتت عنده .

أما إبراهيم فن مارية القبطية . ولدته في ذى الحجة سنة ثمان . ومات وهو ابن ثمانية عشر شهراً . فلما مات أرسل محمد علي بن أبي طالب إلى أمه مارية وهي في مشربة لها ، فوضعه علي في قفصة ووضعه بين يديه علي الفرس ، ثم جاء به إلى أبيه ، فغسله وكفنه وخرج به وخرج الناس معه ، فدفنه في الزقاق الذي يلي دار محمد بن زيد ، وسوى على قبره التراب ، ثم رشه بالماء ، ثم بكى وقال : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يغضب الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمخزونون » .

ومما يؤثر عنه أنه لما كسفت الشمس ذلك اليوم ، فقال الناس كسفت لموت إبراهيم ، قام فخطب فيهم فقال في خطبته : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

الفصل التاسع والعشرون

مرض النبي ووفاته

عاد النبي من حجة الوداع إلى المدينة راضى النفس مرضياً . فها هم عشرات الألوف من المسلمين صادق الإسلام يصاحبونه إلى حج البيت الحرام ، وها هي قبائل العرب في كل أنحاء الجزيرة قد طأطأت الرؤوس ودانت بدين الحق ، واستتب الأمر للدين الجديد ، ولم يعد ليخشى من شيء على دينه ، وهذه الألوف المؤلفة التي جمع قلبها الإسلام تلتف من حوله وتدين بتعاليمه وتجاهد في سبيل نصرته بما لها ودمها .

كان الإسلام عندئذ قد استقر استقراراً نهائياً في جزيرة العرب ، وإن تخلل هذا الاستقرار ارتداد قبيلة هنا أو عصيان قبيلة هناك ، ذلك أن قوة الإسلام كانت قد طغت وغلبت ولم يعد لأحد قبيل بمعارضتها أو صد تيارها الجارف . عندئذ كان طبيعياً أن يتطلع محمد إلى ما وراء حدود جزيرة العرب . وكان طبيعياً أن يتطلع إلى الشام بالذات . ونحن نعلم مما سبق أنه عند ما خرج في غزوة تبوك إنما كان يريد الشام ، ولكنه عاد بدون قتال ومن غير أن يتجاوز حدود جزيرة العرب إلى أرض الشام ، مكتفياً بمصالحة بعض الأمراء على الجزيرة ، وأجل هذا الغزو إلى فرصة أخرى . فأى شيء إذن يمنع جيوش الإسلام الآن ، وقد اختلف الوضع اختلافاً كبيراً جداً عما كان عليه في أواخر السنة التاسعة الهجرية ؟ لقد أسلمت جزيرة العرب الآن عن بكرة أبيها ، وأصبحت جميع قبائلها وفيها من جنود الله عشرات الآلاف ، بل مئات الآلاف ناصراً ومؤزرراً ومعيناً . لم يعد من شيء في واقع الأمر ليحول دون تنفيذه لأوامر ربه عملاً بآية القتال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون

دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (١) ،
جهز محمد جيشاً كبيراً فيه كبار المهاجرين الأولين ، وأمر عليه أسامة
ابن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض
فلسطين . فتجهز أسامة والمسلمون وتجمعوا وخيموا بالحرف على فرسخ
من المدينة استعداداً لإيذان الرسول لهم بالمسير . وانصاع المسلمون كبيرهم
وصغيرهم لأوامر نبيهم وقائدهم الأعلى ، إلا أن بعض أصوات ارتفعت
عندئذ بالطعن في إمارة أسامة لصغر سنه . فخرج النبي إليهم وخطب فيهم
فقال : « إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ،
وأيم الله إن كان خليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا
لمن أحب الناس إلى بعده . » .

وفي تلك الأثناء وقبل أن يأمر الجيش بالمسير بدأ مرضه الذي قبض
فيه . ويختلف كتاب السيرة في تحديد المكان واليوم الذي بدأ فيه المرض ،
ولكن اختلافهم لا يتعدى أياماً . والمؤكد أنه مرض في أواخر صفر من
السنة الحادية عشرة الهجرية ، وتوفي في أوائل ربيع الأول ، ولم يطل به
المرض أكثر من عشرة أو ثلاثة عشر يوماً ، ولا خلاف على أنه توفي يوم
الاثنين . وكان حينئذ قد أتم عشر سنين في المدينة ، وبلغ من العمر ثلاثاً
وستين سنة .

أرق في ليلة من أواخر شهر صفر ، فخرج من جوف الليل إلى بقيع
الغرق حيث مدافن المسلمين ، وادّطحب معه أبا موهبة ، فقال له :
« يا أبا موهبة إني أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي » . فلما
وقف بين أظهرهم قال : « السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم
فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ،
الآخرة أشد من الأولى » .

وفي الغداة انطلق فصلى على شهداء أحد ، ثم أقبل على دار عائشة وهو يشعر بصداع شديد ، ووجدتها هي الأخرى تعاني صداعاً وتقول :
وارأساه ! فقال لها : « بل أنا والله يا عائشة وارأساه ! » .

ثم أقبل عليها يداعبها فقال : « وما عليك لو ميتٌ قبلي فوليت أمرك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ؟ فقالت ترد عليه دعابته : والله إني لأحسب لو كان ذلك لقد خلوت ببعض نساءك في بيتي من آخر النهار . فضحك .

وظل أياماً بعد ذلك يوم المسلمين في الصلاة ، ويقاوم المرض بقدر ما يستطيع . وكان يطوف على نسائه كعادته ، حتى إذا كان يوماً في بيت ميمونة اشتد به الوجع فاجتمع إليه أهله . ولما تشاوروا في علاجه وكان قد أغمى عليه ، قال عمه العباس : إنا لنرى برسول الله ذات الجنب فهلما فلتلده^(١) . فقاموا فلدوه ، فلما أفاق قال : « من فعل هذا ؟ » . قالوا : عمك العباس تخوف أن يكون بك ذات الجنب . فقال : « ما كان الله ليلسطها علي ، لا يبق في البيت أحد إلا لددتموه إلا عمي العباس » . فلد أهل البيت كلهم حتى ميمونة وكانت صائمة ، وهو ينظر إليهم .

ثم إنه استأذن أزواجه أن يمرض في بيت عائشة ، فأذن له ، فتحامل على نفسه وخرج مستنداً إلى العباس وعلى وهو يجر رجله جراً لا يقوى على المسير . فلما دخل بيت عائشة واشتد به وجعه قال : « صبوا علي سبع قرب من آبار شتى لعملى أعهد إلى الناس » . فأجلسه نساؤه في طست لحفصة وصبين عليه مياه القيرب السبع حتى أشار إليهن بيده أن كفى . ثم عصب رأسه بخرقه وخرج إلى الناس فصلى بهم ، ثم حمد الله وأثنى عليه واستغفر للناس ودعاهم ثم قال : « يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد ، ولهم عيبتي التي أويت إليها ، فأكرموا كريمهم

(١) الله : هو صب الدواء بالمسح في أحد شق الفم .

وتجاوزوا عن مسيئتهم . أيها الناس ، إن عبداً من عباد الله قد خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله . وهذا فطن أبو بكر لما يعنى فبكى وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا . فقال : « على رسلك يا أبا بكر » ، ثم استطرد يقول : « انظروا إلى هذه الأبواب الشارعة في المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر ، فإنى لا أعلم أحداً عندي أفضل في الصحبة منه » .

ثم إن الوجع والحمى اشتدتا به بعد ذلك حتى لقد شعر بالعجز عن الصلاة بالناس ، فلما أذن بلال للصلاة ، أمر أن يصلى أحد بالناس ، وكان عنده نفر من المسلمين فيهم عبد الله بن زعنة ، فخرج فإذا عمر في الناس وأبو بكر غائب ، فقال لعمر : قم يا عمر فصل بالناس . فلما كبر عمر وسمع النبي صوته الجمهورى ، قال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون » . فبعث الناس إلى أبي بكر فجاء وصلى بالناس . وفي هذا إشارة يستبان منها أنه كان يفضل أبا بكر لخلافته وإن لم يشأ أن يوصى بذلك صراحة حتى يظل الأمر شورى بين المسلمين في مستقبل عهودهم .

حدث هذا على الأرجح في يوم الأربعاء أو الخميس السابق على وفاته . والظاهر أنه وجد خفة بعد أن صلى أبو بكر بالناس صلاة أو صلاتين ، فخرج متحاملاً على العباس ورجل آخر فدخل المسجد ، فلما رآه أبو بكر أراد أن يتأخر فأوماً إليه أن لا يتأخر ، وأمرهما فأجلساه إلى جنبه ، فصلى أبو بكر وهو قائم مقتدياً به ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر . وهذه آخر صلاة صلاها مع الناس .

وحدث في أثناء ذلك اليوم الذى اشتد عليه فيه المرض أن قال لأصحابه وفيهم عمر : « ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » . فقالوا : ما شأنه أمّـجـر ؟ أى هل اختلف كلامه وتغير واختلط بسبب المرض . وقال عمر :

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبننا كتاب الله . وتنازع القوم فهذا يقول قول عمر ، وذلك يقول بل يكتب لنا ما أراد ، حتى إذا كثر لغظهم قال لهم : « قوموا عني » ، وعاوده الإنعفاء . ثم إنه انقطع عن الناس قبل وفاته ثلاثة أيام كوامل ، لا يقوى على الخروج ، وهي الجمعة والسبت والأحد . وكانت حمّاه شديداً ، وكان وجعه أشد ، فضلاً عن إنعفاء كان يعاوده بين الحين والحين . وكان إذا أفاق أقبل على من حضر عنده ينصحهم فيقول : « الله الله فيما ملكت أيما نكم ، ألبسوا ظهورهم وأشبعوا بطونهم ، وألينوا لهم القول » أو يقول لابنته فاطمة ولعمته صفية : « يا فاطمة بنت محمد ، ويا صفية عمّة رسول الله ، اعملا لما عند الله ، فإنّي لا أغني عنكما من الله شيئاً » . ومما كان يردد في أثناء تلك الصحوات قوله : « أحسنوا الظن بالله » . ومن آخر ما تكلم به في أيامه هذه قوله : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لا يقين دينان بأرض العرب » .

ولما أفاق مرة في اليوم السابق على وفاته لم ينس أمر ستة دنانير كانت كل ما بيده عنده ما دمه المرض ، وكان قد أعطها لعائشة لتتصدق بها ، فسألها : « ما فعلت الستة ؟ » . قالت : ما تزال عندي . فأمرها بإحضارها فوضعها في كفه وقال : « ما ظن محمد بربه أن لولتي الله وعنده هذه ؟ » . ثم قسم خمسة منها على خمسة بيوت من فقراء الأنصار وأمرها أن تنفق الدينار الباقي وقال : « الآن استرحت » .

وفي صبيحة يوم الاثنين أفاق إفاقة حسنة من غمرة ذلك الوجع الذي أصابه . فتحامل على نفسه حتى باب الحجر وكشف سترها ونظر إلى المسلمين وهم يصلون صلاة الصبح ساعتئذ خلف أبي بكر ، فهم المسلمون أن يتركوا صلاتهم لفرحهم به ، وهم أبو بكر أن يتأخر ليخلى له مكانه ، فأشار إليهم أن يمكثوا كما هم وأرخى الستار . فكان آخر العهد به . لم يكن أحد يدرى أنها صحوة الموت ، بل ظنوا أنه برئ من علمته فاغتبط أهله

وفرح المسلمون . وأقبل أبو بكر بعد الصلاة منشرحاً فقال لعائشة : ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قد أقلع عنه الوجع ، وهذا يوم بنت خارجة ، يعنى لإحدى زوجتيه ، وكانت تسكن بالسَّنْح شرقى المدينة . ثم ركب على فرس له وذهب إلى منزله .

وما هى إلا لحظات حتى انتابت النبي سكرات الموت ، فكان يغشى عليه ساعة ويفيق ساعة ، وعائشة آخذة به فى حضنها ورأسه الشريف على صدرها حيناً ، وحيناً على فخدها . فكان إذا أفاق أشخص بصره إلى سقف الحجرة وقال : « اللهم الرفيق الأعلى » . ومن آخر ما نطق به يومذاك قوله : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » حتى جعل يُغترُّغِرُ بها وما يفصح بها لسانه . وكان إلى جواره قدح فيه ماء فيدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول : « اللهم أعنى على سكرات الموت » . وبينما هو يعانى هذه السكرات وهو مسند رأسه إلى صدر عائشة دخل عبد الرحمن بن أبى بكر وفى يده سواك ، فلما رآته ينظر إلى السواك ، وهى تعرف أنه يحبه قالت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أى نعم . فلينته له فأمره إهارة على فيه . ثم أخذ يدخل يده فى قدح الماء فيمسح بها وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله إن للموت لسكرات » . ثم نصب لإصبعه اليسرى وجعل يقول : « فى الرفيق الأعلى فى الرفيق الأعلى » . ومالت يده فى الماء .

قُبُض النبي والشمس بعد لا تزال تعتلى كبد السماء ، فى حوالى الظهر أو بعد ذلك بقليل . أما عائشة فإنها من حداثة سنها حينذاك وضعت رأسه على وسادة وقامت تضرب صدرها وتلطم وجهها مع النساء . وجعات فاطمة تبكى وتقول : يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ينعاه ، يا أبتاه من ربه ما أدناه .

وتناقل الناس خبر موت النبي ، فاجتمعوا فى المسجد ، بعضهم هنا يقول مات ، وبعضهم هناك يقول لم يمت ، وآخرون لا يحIRON قبلا ولا

قالاً ، قد أخرجهم المصاب . أما عمر بن الخطاب فانتابته حالة ذعر شديد وذهول ، فأخذ يتوعد من قال مات بالقتل والضرب ، ويقول : لا أسمع أحداً يقول إن محمداً قد مات ، ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران ، فلبث عن قومه أربعين ليلة ، وإني والله لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات .

وفي تلك الأثناء وصل أبو بكر ، فدخل على النبي فكشف عنه الثوب ونظر إليه وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم انحنى عليه من قبل رأسه فقبل جبهته ثم قال : وا نبياه ! ثم رفع رأسه وانحنى مرة ثانية وقبل جبهته ثم قال : وا صفياء ! ثم رفع رأسه وانحنى مرة ثالثة وقبل جبهته ثم قال : وا خليلاه ! مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . وخرج إلى المسجد فوجد عمر بن الخطاب لا يزال في ذهوله ، يقول للناس : إن رسول الله لا يموت حتى يُفتنى المنافقين . فأسرع أبو بكر يتخطى رقاب الناس حتى أتى المنبر ، فأمر عمر أن اجلس فجلس ، ثم نادى الناس فجالسوا وأنصتوا ، فقال بعد أن تشهد : أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

فلما تلى أبو بكر هذه الآية أفاق الناس من ذهول الصدمة التي تلقوها عند خبر وفاته ، وكانهم كانوا لا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية ، وراحوا هنا وهناك يتأونها ويترحمون . أما عمر فقال : هذه الآية في القرآن ؟ والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم . وقد قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « إنك ميت ولهم ميون » (٢) . وقال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » (٣) . وقال : « كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك

(٢) الزمر ٣٠ .

(١) آل عمران ١٤٤ .

(٣) القصص ٨٨ .

ذو الجلال والإكرام» (١). وقال «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة» (٢).

وتحقق الناس من موت النبي ، فعاد أسامة بن زيد بجيشه المعسكر في أطراف المدينة ، وركز رايته عند باب عائشة حيث يرقد محمد مسجى في فراش الموت . وما لبث الناس ساعة بعد أن هدأت الجلبة والبلبله التي حدثت في أعقاب الوفاة ، حتى بدأ صراع على السلطة .

تجمع الأنصار حول سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا سعداً . فلما علم عمر بأمرهم اجتمع إلى أبي بكر ، واجتمع إليهما المهاجرون ، وتخلف على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطاحه بن عبيد الله ، ومن تخلف معهم في بيت فاطمة . وانطلق عمر وأبو بكر على رأس المهاجرين إلى سقيفة بني ساعدة خشية أن يتفاقم الأمر إذا قرأ رأى الأنصار على أمر لم يجمع عليه المسلمون ، ورسول الله لا يزال في بيته لم يفرغ من جهازه ودفنه .

وبينما وفد المهاجرين منطلق صوب سقيفة بني ساعدة لقيهم رجلا ن صالحان فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قالوا : نريد لإخواننا من الأنصار . فقالا : لا عليكم إلا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين . فقال عمر : والله لنأتيهم .

فلما جاءوهم في السقيفة وجدوهم مجتمعين حول سعد بن عباد ، وهو مريض قد التف في ثوبه . فلما جلسوا قام خطيب الأنصار فأثنى على الله وقال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا ، وقد بدرت بادرة منكم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويمنعونا من الأمر .

(١) الرحمن ٢٦ - ٢٧ .

(٢) آل عمران ١٨٥ .

فلما سكت همّ عمر بأن يتكلم فخشى أبو بكر حدثه فبادره قائلاً :
على رسلك يا عمر . فامتثل عمر لما يعلم من حكمة أبي بكر ووقاره ، وفضل
السكوت ، فقال أبو بكر : أيها الناس ، نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ،
وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة
في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقدّمنا في القرآن
عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار
والذين اتبعوهم بإحسان » (١) . فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في
الدين ، وشركاؤنا في النية ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من
خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالشأن من أهل الأرض جميعاً . فأما العرب
فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، فنا الأمراء ومنكم الوزراء .
عندئذ قام الحجاب بن المنذر منفعلاً فقال : أنا جئذ يلها المحكك وعُذيقها
المرجّب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش .

فقال عمر لما لك : ما يعنى : أنا جئذ يلها المحكك وعُذيقها المرجّب ؟
قال : كأنه يقول أنا داهيتها .

وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشى العقلاء مغبة الاختلاف ،
فنادى عمر بأعلى صوته : ابسط يدك يا أبا بكر . فبسط أبو بكر يده فبايعه
عمر وهو يقول : ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ،
ونحن نبايعك فبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً . فما أن رأى ذلك
الناس ، وقد وعوا ما قال عمر وأدركوا مغزاه حتى أقبلوا على أبي بكر
ببايعونه .

فلما كان الغد صبيحة يوم الثلاثاء اجتمع الناس في المسجد وتمت بيعة
العامّة من المهاجرين والأنصار جميعاً . وكان ذلك قبل تجهيز الرسول .
حث عمر أبا بكر على أن يصعد المنبر ، ولم يزل به حتى صعده ، ثم

تكلم عمر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت ، وما وجدتها في كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهدته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنني كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا ، وإن الله قد أتى فيكم كتابه الذي هو به هدى رسوله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوه .

فقام الناس فبايعوا أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

ونهض أبو بكر فوق المنبر فحمد الله وأثنى عليه وألقى في الناس خطاباً يعتبر دستوراً ينبغي أن يأخذ به الحكام في كل زمان ومكان ، قال :

« أما بعد ، أيها الناس فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أزيح عيلته إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم برحمتكم الله . »

فلما تمهدت الخلافة وتوطدت واستقر أمر المسلمين واطمأنوا على إجماع كلمتهم ولم تشملهم ، وحسناً ما صنعوا ، شرعوا من ثمة في تجهيز النبي . وكانوا قد شغلوا بالبيعة بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء . تشاوروا في أين يدفن ؟ واستقر رأيهم على دفنه في المدينة . ثم تشاوروا في أي مكان يدفن بالمدينة ؟ واتفقوا على دفنه حيث قبض بناء على مقالة

أبي بكر أنه سمعه يقول : ما قبض نبيّ إلا دفنَ حيث يُقبض . أما كيفية دفنه فقد استقر الرأي على أن تكون إما على طريقة أهل مكة وإما على طريقة أهل المدينة أيهما استخارها الله . فأرسل العباس رسولين أحدهما لأبي عبيدة بن الجراح وكان يصرح كحضر أهل مكة ، والثاني لأبي طلحة زيد ابن سهل وكان يلحد لأهل المدينة ، فوجد الثاني صاحبه فجاء ولحد له كأهل المدينة .

واجتمع الناس لغُسله ، فقام به أهله ، عمه العباس بن عبد المطلب ، وعلى بن أبي طالب ، والفضل ، وقُثم ابنا العباس ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، وصالح مولاه . فلما هموا بغسله نادى أوس بن خولى الأنصاري الخزرجي وكان بدرياً ، أن يا علي نُنشدك الله وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأدخله عليّ فحضر الغسل ولم يَلِ من غسله شيئاً . أسنده على إلى صدره وعليه قميصه لم يجرده منه ولم ير أحد منه ما يرى من الميت ، وكان العباس والفضل وقُثم يلقبونه ، وعلي يغسله ، وأسامة بن زيد وصالح مولاه يصبان الماء . وكانوا يغسلونه بالماء والسدر . ثم جففوه ، ثم صنع به ما يصنع بالميت ، ثم أدرجوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة .

فلما فرغوا من تكفينه وضعوه على شفير قبره ، ثم صلى عليه أهل بيته ، ثم دخل أبو بكر وعمر والمسلمون فصلوا عليه لا يؤمهم أحد في صلاتهم هذه . ثم دخل الرجال أفواجا حتى فرغوا ، ثم دخل النساء أفواجا فصلين عليه ، ثم أدخل الصبيان فصلوا ، ثم أدخل العبيد فصلوا ، وكانوا يدخلون من باب ويخرجون من الباب الآخر . ثم دفن في حوالى منتصف الليل من ليلة الأربعاء . وولى دفنه وقبره أربعة ، علي ، والعباس ، والفضل ابن العباس ، وصالح مولاه . لُحِد له كما قدمنا وبني فوقه باللبن ثم أهالوا التراب .

وارتد محمد إلى أمنا الأرض ، التي منها أتينا وإليها نعود . أما إذا كان كل إنسان في هذه الدنيا إنما يخلف من بعده أثراً ، قد يزول بعد لحظات أو أيام أو سنين أو آلاف السنين ، كل حسب ما أوتي من قوة عقلية وقدرة نفسية ، وما ترك للأجيال من بعده ، فإن الأثر الذي خلفه محمد رسول الله ، ذلك النبي الأُمى ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، سوف يبقى خالدًا على الدهر ، وعلامة على الطريق في حضارة الإنسان . فإلى الفصل التالى .

الفصل الثالثون

أثر الإسلام في الحضارة

ظهر محمد في أوئل القرن السابع الميلادي ، في عصر كان عالم الحضارة قد انحدر فيه إلى أقصى دركات الانحدار ، وأسس ديناً ودولة ، فكان الدين لله والدولة للجميع . وانتصر المسلمون في حروبهم الأولى على أكبر إمبراطوريتين في العالم المعروف في ذلك الوقت ، وأقاموا دولة كبرى كان أهم خصائصها أنها دولة علمية حمت جميع رعاياها بغض النظر عن معتقداتهم الدينية أو سلالاتهم ، واستطاعت بفضل المفاهيم التي أرساها مؤسسها الكريم أن تضع أصول حضارة مميزة الطابع يحق لنا أن نسميها بالحضارة الإسلامية العلمية ، وهي حضارة حققت في واقع الأمر إنجازات علمية ضخمة جداً يدين لها عالم الحضارة في كل مكان .

ولما كانت دولة الإسلام هذه قد تأسست في واقع الأمر على أشلاء الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية من حيث رقعة الأرض التي اكتسبتها ، وعلى بقايا الحضارة العلمية القديمة التي عرفها حوض البحر الأبيض المتوسط ، والتي قوضتها الدولة الرومانية أولاً ، ثم آباء الكنيسة المسيحية ثانياً ، كان لزاماً علينا إذا أردنا أن نتكلم عن الدور الذي أداه الإسلام للحضارة الإنسانية ، أن نلم ولو على عجل بالحالة التي أحدثتها الإمبراطورية الرومانية أولاً ، ثم المسيحية ثانياً ، في عالم الحضارة القديم ، وكيف انهارت هذه الحضارة القديمة ، وكاد كل أثر لها أن يزول ويضيع تماماً لولا ظهور الإسلام وتأسيس الدولة الإسلامية التي انطبعت بطابع علمي أصيل ، وأخذت على عاتقها انتشار العلوم القديمة من وهدة الضياع التي ألقتها فيها المسيحية ،

وكيف وضعت علوم جديدة كانت الأساس الذي بنيت عليه الحضارة الحديثة في أوروبا .

وأعتقد أنه ينبغي لنا قبل أن نتكلم في أثر الرومان والمسيحية في الحضارة أن نذكر باختصار كيف انتقلت الحضارة القديمة من الشرق ومصر خاصة إلى اليونان ، وكيف طبعوها باسمهم ، حتى نستطيع - اعتماداً على أوثق المراجع الحديثة - أن نصحح بعض الأوضاع العجيبة التي سادت قروناً طويلة في هذا الشأن . ذلك لأن معرفتنا الصحيحة بهذه الحقائق ضرورة قومية لا ينبغي الاستهانة بها . وفضلاً عن هذا فقد حاول كتاب الغرب بكل طاقهم أن يعمموا القول بأن الحضارة اليونانية حضارة نابعة من الوسط اليوناني وحده ، وأنها لم تتأثر بمؤثرات خارجية ، وعمدوا من ثمة إلى ربطها بحضارة غربي أوروبا متناسين حضارة الإسلام باعتبارها دوراً من أدوار الحضارة ممزاطابع ، وعندئذ يكونون في ظنهم وتحقيقاً لإسرافهم في وطنيتهم العمياء وغرورهم ، قد تمكنوا من الادعاء بأن أوروبا لا تدين للحضارة أخرى خارجية غير حضارتها هي التي نشأت على الأرض الأوربية . وهذا منهج وإن ساد في عصر الاستعلاء الأوربي في القرن التاسع عشر ، فقد بدأ ينهار تحت وطأة البحوث الجديدة ، وعلى الأخص تلك التي ساعدت عليها المستكشفات التي عثر عليها المنقبون في خلال ذلك القرن في حفائر مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين . ولا عجب أن نرى أكبر كاتب غربي معاصر في تاريخ العالم يهزأ من هذا المنهج فيقول : « إنه من سداجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق ، لأن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من البلدان . أما العلم اليوناني فكان إحياء أكثر منه اختراعاً . وكفانا (أى الغربيين) سوءاً أننا أخفينا الأصول الشرقية التي لم يكن التقدم الهليني مستطاعاً بدونها » (١) .

والحق أن العلم اليوناني لم ينتعش إلا بعد هجرة اليونان إلى وادي النيل كما يقول الأستاذ ملهود . ليس هذا فقط ، بل إن معظم المآثر العلمية اليونانية لم تتحقق في بلاد اليونان ، وإنما حققها علماء من أصل يوناني تعلموا في الجامعات المصرية وعاشوا في الإسكندرية ، وكتبوا مؤلفاتهم فيها ، مثل إقليدس ، وبطليموس ، وديوفانتس وغيرهم . وقصة هذا كله أن مصر عند ما سمحت لليونان بدخول معاهدها العلمية ، كانت في آخر عهودها بالاستقلال . فلما قضى على استقلالها في أعقاب السماح لليونان بالهجرة إليها ودراسة علومها ، لم يكن هناك في واقع الأمر مصريون قادرون على الدفاع عن علومهم . وأما اليونان أنفسهم فدخلوا دنيا العلم المصري وكأنها لم يعد لها صاحب فنسبوه إلى أنفسهم .

غير أن الحقيقة التي لا زالت تثير فكر الباحث في أصول الحضارة اليونانية ، إنما تنحصر في عجزه عن التمييز تمييزاً نهائياً بين ما هو يوناني أصلي ، وما هو مصري ، أو بابلي ، أو شرقي عموماً . والسبب في ذلك كما قال الأستاذ تشارلز سنجر : « إنه لم يصلنا إلا نادراً اسم مستكشف أو مخترع من علماء الحضارات القديمة فيها عدا الحضارة اليونانية فقط ، لأن طابع الإنتاج الثقافي للعصر السابق كان جماعياً لا فردياً . وعلى هذا كان الحظ حليف علماء المدن اليونانية عند ما وضعوا أيديهم على هذا الإرث الشرقي الذي لا صاحب له ، وأنهم كثيراً ما يشيرون شكاً مريباً حول إخفاء الدين الذي في عنقهم للحضارات القديمة . ومن سوء الحظ أن ضاعت الأخبار والمؤلفات التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد أصول العلم اليوناني ، مثل تاريخ الرياضيات ليوديموس تلميذ أرسطو . ثم إن اليونان عند ما ورثوا هذه المادة العلمية طبعوها بطابعهم الفردي وبطريقتهم الشخصية . ولقد أشار البعض إلى خالقهم المركز حول ذواتهم . وهذا أمر لاحظناه اليونان أنفسهم . لقد كانوا يفكرون باعتبارهم أفراداً لا جماعة . ولذلك فإن العلوم التي

ورثوها من الحضارات القديمة انقلبت في أيديهم من علوم جماعية لا صاحب لها بذاته ، إلى علوم أصبحت تعرف بأسمائهم ، وهذا طابع احتفظت به حضارتهم منذ ذلك الحين» (١) .

مثال ذلك ما أحيط به أبقراط في عالم الطب حتى أواخر القرن التاسع عشر . لقد سمي هذا الطبيب الشهير بأبي الطب ، وظل هذا اللقب يتناقل عبر العصور حتى عصر قريب جداً ، عند ما اكتشف المنقبون عن الآثار المصرية القديمة في أواخر القرن التاسع عشر بردية مصرية ، فيها بحث طبي كامل ، هو عبارة عن دراسة تشريحية لجسد الإنسان من قمة الرأس إلى أخمص القدمين . وعندئذ بدأت منزلة أبقراط تراجع كثيراً ، بل كثيراً جداً ، من رأس القائمة في عالم البحث الطبي العلمي ، إلى مجرد منتصف القائمة بيننا وبين محتب الطبيب المصري الذي كتب هذه الرسالة الطبية في مصر القديمة . ونحن على أية حال لا تعوزنا أمثلة أخرى ، ولكن نكتفي بهذا القدر في هذه العُجالة .

بدأ الرومان في خلال القرن الأول قبل الميلاد يستولون على عالم الحضارة القديم في حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى تم لهم إخضاع هذا العالم إخضاعاً نهائياً لسلطانهم . أما إذا نظرنا في العلم اليوناني القديم الذي ركزت فيه جميع الجهود العلمية السابقة التي خلفتها حضارة مصر القديمة ، وحضارة بلاد ما بين النهرين ، لعلمنا أنه كان قد فقد عندئذ نضارته ، وبدا في أواخر القرن الثاني الميلادي وكأنه يحتضر .

واقع الأمر أن الرومان بغطرستهم الوطنية ، ونظام استعبادهم البغيض ، وقسوتهم ، وظلمهم ، واضطهادهم وكبحهم للشعوب التي حكموها والتي كانت موئل الحضارة القديمة ، قد حطموا فيها روح الخلق والابتكار ، والشعور بالاستعلاء ، وقضوا بهذا على شعوب البحر المتوسط وعلى رغبتها

Ch. Singer : Oreek Science and Modern Science P. 9 (١)

في التطلع إلى ما هو أحسن . والحق أن تلك الرغبة الجارحة التي تتملك الشعوب في بعض الفترات التاريخية وتدفعها إلى النهوض والاستعلاء والعظمة ، لا تظهر إلا في عصور الرخاء والحرية والنجاح والمثل الأعلى . أما هذه الشعوب أي شعوب شرق البحر المتوسط التي كانت تحمل الحضارة القديمة وتحافظ عليها وتنميتها وتطورها ، فأصبحت تحت عسف الحكم الروماني الغشيم مخذولة بائسة منكودة لا حول لها ولا قوة . ومن ثمة نجت فيها تلك العزيمة الجبارة والرغبة الجارحة التي سيطرت عليها في الماضي ودفعتها للاستعلاء ، بل كادت تنطفئ شعلتها التي تلاعبت بها تلك الرياح العاصفة التي هبت عليها من روما . وبهذا حطمت روما حضارة العصور القديمة - ولو عن غير قصد منها - ولم تعوض عالم الحضارة عنها شيئاً . وإنما الحقيقة التاريخية ذات بال ، هي أن الرومان لم يكونوا في الحقيقة مؤهلين للعلم . فروما لم تكن في أي من عصور ازدهارها مركزاً من مراكز الثقافة العلمية ، مثل أثينا ، أو الإسكندرية ، أو بغداد ، أو القاهرة ، أو قرطبة ، أو باريس ، أو أكسفورد .

ضعف العلم اليوناني بالتدريج ، واختتم بطلميوس وجالينوس في القرن الثاني الميلادي قوته الابتكارية ، ولم يظهر بعدهما عالم يوناني واحد نستطيع أن نصفه بأنه كان ذا أثر في تاريخ العلم . وظل العلم اليوناني ينحدر في خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين في ظل الحكم الروماني . ولم تستطع روما بكل جلالها وبِعظيم إمبرطوريتها أن تعوض عالم الحضارة عنه شيئاً كما قلنا . يقول الأستاذ دامبير قوله صدق : « ابتعدت الفلسفة والعلوم في ذلك العصر شيئاً فشيئاً عن أن تكون طبيعية وتجريبية ، وارتبطت شيئاً فشيئاً بالأفكار الغامضة . ذلك أن الأفلاطونية الجديدة قد تبنت وامتصت كل خرافة شعبية وكل ما يتعلق بالتنجيم والشعوذة والسحر ، وكل ميل نحو الباطنية والتصوف ، مما أصبح يبشر بعصر انحلال قريب » . أما الضربة القاضية فجاءت على أيدي رجال اللاهوت المسيحي .

ونحن إذا نظرنا في انتشار المسيحية ، وفي الآثار التي أحدثتها في عالم الحضارة ، إذن لعلمنا أولاً أن هذا كله لم يحدث مباشرة بعد ظهور المسيح عليه السلام . ذلك أن المسيحية لم تنتشر فوراً ، وإنما انتشرت ببطء شديد وبالتدريج ، وفي خلال ثلاثة قرون ، لم يكن للمسيحيين فيها قوة مادية تذكر . فقد اعتبرتهم سلطات الإمبراطورية الرومانية طوال هذه القرون طائفة منبوذة خارجة على القانون ، ولاحقهم بألوان من الاضطهاد والتعذيب والتنكيل حتى أوائل القرن الرابع الميلادي . فحتى سنة ٣٠٣ م . كان لا يزال الإمبراطور ديوكلشيان يصدر الأوامر بتدمير كنائس المسيحيين وحرق كتبهم . غير أنه حدث تغير شامل في موقف السلطات الرومانية من المسيحيين في عهد الإمبراطور قسطنطين الأكبر . فقد أصدر الإمبراطور في السنة التالية لجلوسه على العرش (٣١٣ م) مرسوماً يأمر فيه بالتسامح مع المسيحيين : « نقرر أنه من الأوفق لحكم العقل ألا يحرم أحد من الارتباط بشعائر المسيحيين أو أى شعائر دينية أخرى يقوده إليها عقله . وبناء على ذلك فإن ممارسة الشعائر الدينية جميعاً بحرية وعلنية أصبح ممنوحاً للجميع بما فهم المسيحيون ، ذلك أنه من الأفضل لاستقامة الأمور ولاستتباب الهدوء الذي ننشده لحكمنا ، أن يُسمح لكل فرد وبناء على اختياره أن يعبد ربه »

غير أن الأمور لم تستتب للمسيحية بمجرد ظهور هذا المرسوم ، ذلك أن الإمبراطور قسطنطين نفسه لم يعتنق المسيحية إلا في أواخر حكمه ، أى بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة ، وظلت الدولة الرومانية دولة وثنية . ثم جلس على عرش الإمبراطورية إمبراطور وثني هو جوليان الذي ظل يحارب المسيحية حتى أواخر عهده في سنة ٣٦٣ م ، ويحاول جاهداً إعادة الوثنية وإحياء الفلسفة القديمة . ثم تمكنت المسيحية بعد ذلك إبتداء من عهد الإمبراطور ثيودوسيوس (المتوفى في سنة ٣٩٥ م) وأصبحت ديناً رسمياً للدولة الرومانية .

وكان هذا الإمبراطور نفسه الذى مكن للمسيحية ، أول من اعتصرتة السلطات الإكليروسية وأخضعته لحكمها ، ومن ثمة أفتح الباب على مصراعيه لسيطرة رجال الدين المسيحى سيطرة تامة على مجريات الأمور فى الإمبراطورية فأخضعوا السلطات الحاكمة وشعوب الإمبراطورية للعقائد اللاهوتية التى استمدوها من الكتاب المقدس . وبدأ من ثمة مع ميلاد القرن الخامس الميلادى عصر عجيب لم يشهد التاريخ البشرى له مثيلاً ، انطبع بطابع نسيج وحده من النظريات التحكيمية ، والعقائد الغريبة اللاعقلية التى أخذ آباء الكنيسة المسيحية ورجال اللاهوت - بعد أن تمكن لهم سلطان دينى ودينوى باخضاع الأباطرة لهم - يفرضونها فرضاً على الجماهير ، بقوة الإقناع تارة وبقوة السلاح أخرى ، وبالتعذيب والإحراق والشق ومختلف وسائل الاضطهاد فى معظم الأحيان .

تناول آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت المسيحى نصوص الكتاب المقدس ، وآمنوا أول شيء بأن هذه النصوص لا يمكن أن يأتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأنها بكل ما تحمل من تفسيرات حرفية إنما تعبر تعبيراً صادقاً وحقيقياً عما تشير إليه وما نخبنا به صراحة ، وأن الكتاب المقدس قد حوى بين دفتيه كل ما يمكن للإنسان أن يعرفه أو يبتغيه سواء فى هذه الدنيا أو فى الآخرة . ومن ثمة وضعوا نظرياتهم اللاهوتية وبنوا عقائدهم اللدنية على هذا الأساس . وانتهوا إلى أن هذه النظريات والعقائد المستمدة من النصوص الصريحة للكتاب المقدس ، هى وحدها التى ينبغى للناس أن يؤمنوا بها ، وأن الذين يعارضونها أو يشكون فى صحتها إنما يستحقون اللعنة والعذاب والهلاك ، وبرروا لأنفسهم اتخاذ أقصى ضروب القهر والتنكيل بمن يعارضهم ، مستمدين هذا التبرير من نظرية توهموها هى أنهم طالما كانوا الممثلين لله فى الأرض ورعاة كنيسته ، فلماذا لا يقلدونه إذ يعذب المارقين من دينه تعذيباً أبدياً فى مدته رهيباً فى قسوته ، ويفعلون بعباده كما يفعل هو بهم .

ثم إن هؤلاء اللاهوتيين اعتقدوا أنه من واجبه المقدس ، وانطلاقاً من إيمانهم بكتاب الله وأوامره ، وباعتبارهم ممثلين لله في الأرض ، أن يعملوا بكافة الوسائل على فرض هذه المعتقدات التي استملوها من الكتاب المقدس ، وآمنوا بأنها كلمة الله النهائية في كل شئون الإنسان والكون . فما هي إذن طبيعة النظريات والأصول التي وضعها علماء اللاهوت المسيحي والتي بنى عليها هؤلاء التقاة الورعون هذا النسيج كله ؟ ثم ما هي طبيعة النظريات والأصول الإسلامية التي بشرت بمبادئ وعقائد جدد مختلفة ، كان لها الأثر الأكبر في وضع حد لعصور الظلام في القرون الوسطى ، وفي إرساء قواعد الحضارة الحديثة العلمية ؟

الأصل الأول^(١) الذي حدثنا عنه علماء المسيحية هو المعجزات وخوارق العادات ، بمعنى أن الدليل الذي قدمه المسيح على صدقه هو ما كان يصنع من الخوارق والمعجزات ، وهي كثيرة جداً تفيض بها صفحات الأنجيل . ومن ثمة جعلت هذه الخوارق والمعجزات دليلاً على صحة الدين للآتين من بعده . ولما كانت خوارق العادات أموراً مخالفة لقوانين الطبيعة وسنن الكون وشرائعه ، فإنها كانت من ثمة مضادة لكل علم من العلوم التي اكتشف العلماء قوانينها الطبيعية كالفلك مثلاً ، وهي علوم لا بد فيها ما يخالف هذه الخوارق . ومن هنا وقف هذا الأصل عائقاً كبيراً جداً في وجه العلوم وصدها عن الانطلاق في مجراها الطبيعي . وبرر لرجال اللاهوت المسيحي مواقفهم المعروفة ضد العلم ، والتي لم يتنازلوا عنها تنازلاً نهائياً إلا في أواخر القرن التاسع عشر .

أما الإسلام فليس فيه ما يجعل من المعجزات دليلاً على صحة الدين ، ولا يعول في الدعوة إلى الحق على غير الدليل ، وليس فيه من معجزة على صدق مؤسسه سوى القرآن . ولقد تمسك نبي الإسلام تمسكاً شديداً بأنه

(١) راجع الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده .

ليس له معجزات غير القرآن . ومصداق ذلك ما أفصح عنه في كثير من
المواقف . احتاج جيش المسلمين في يوم حار إلى ماء للشرب وكان النبي
على رأس هذا الجيش ، فلما أمطرت السماء وارتوى الناس ، زعم بعضهم
أنها معجزة . ولكن محمداً نهاهم عن مثل هذه التهويمات ، ورفض هذا
القول وقال بمنتهى البساطة : « إنها سخابة مارة » . ولما كُشفت الشمس يوم
وفاة ولده إبراهيم ، قال الناس إنها إنما كُشفت حزناً عليه ، وظنوا أن
كسوفها معجزة ، ولكن النبي هنا أيضاً نهاهم عن مثل هذا التفكير وخطب
فيهم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تنكسفان لموت
أحد ولا لحياته » .

والأصل الثاني من أصول المسيحية هو السلطة الدينية لروساء الدين على
المؤمنين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم . جاء في الإصحاح السادس عشر من
إنجيل متى : « أعطيك مفاتيح ما كوت السماوات فكل ما تربطه على الأرض
يكون مربوطاً في السماوات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في
السماوات » . وجاء في الإصحاح الثامن عشر من نفس الإنجيل : « الحق أقول
لكم : كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه
على الأرض يكون محلولاً في السماء . »

من هنا تأسست في المسيحية طبقة رجال الدين التي تتدرج في نظام
هرمي من أصغر القسيس إلى الحبر الأعظم المعصوم من الخطأ ممثل المسيح
في العالم وهو البابا . وهذه الطبقة من رجال الدين في المسيحية ركن ركين
من أركانها ، ذلك أنها موكلون إليها أمر المسيحيين في دنياهم وأخراهم ،
ترشدهم وترعاهم وتفرض عليهم ما تراه ضرورياً لحفظ الدين وحفظ
أرواحهم ذاتها من الهلاك . معنى هذا أن الشخص في المسيحية إنما بصير
مسيحياً من خلال التعميد وبقول القسيس له إنه أصبح مسيحياً . كذلك
يستطيع القسيس أن يحكم على شخص بأنه لم يعد مسيحياً فيصير كذلك .

وإذن فالشخص في المسيحية ليس حراً كاملاً الحرية الشخصية في اعتقاده بما يرشده إليه عقله ، بل إن كونه مسيحياً أو غير ذلك مربوط بما يتفوه به رئيسه الديني . ولقد جرت المسيحية على هذا الأصل طوال تاريخها ، ولم ينزع فيه بعض النصارى إلا أخيراً . والحق أن الشعوب المسيحية تحملت نتيجة لهذا الاعتقاد آلاماً تفوق الوصف (١) أحدثها كثير من البابوات والأساقفة والمساوسة وقضاة محاكم التفتيش طوال قرون عديدة لم تنته إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، وذلك بما وضعوا من نظريات دينية وعلمية وهمية فرضوها فرضاً على المؤمنين ، وتصلوا لمن قاومها من العلماء بالحديد والنار .

ثم إنه سار إلى جانب هذه السلطة الدينية المسيحية غير المحدودة على ضوائر الناس ومكونات نفوسهم ، سلطة مدنية أخرى استمدت شرعيتها من نصوص الكتاب المقدس التي جاءت على لسان القديس بولس . يقول القديس في رسالته إلى أهل رومية : « باركوا على الذين يضطهدونكم ، باركوا ولا تلعنوا » . ويقول في نفس الرسالة : « لتخضع كل نفس للسلطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله ، حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . ولا يخفى بطبيعة الحال ما كان لمثل هذه التعاليم من آثار وخيمة .

يقابل هذه التعاليم في الإسلام تعاليم واضحة جداً تحث الناس على عدم الخضوع للسلطين إذا رأوا أنهم لم ينهجوا السبيل القويم في حكم الناس بما جاء في القرآن والسنة . ولا عجب إذن أن نسمع أبا بكر أول خليفة للمسلمين يقول للناس في أول خطبة له بعد أن ولوه شئونهم : « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » . ويأتي من بعده عمر بن الخطاب فيؤكد هذه الروح فيقول : « من رأى منكم في أعوجاجاً

(١) راجع A. D. White : A History of the warfare of Science with Theology in Christendom.

فليقوموا . فيقوم له رجل من عامة الناس فيقول له : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا .

ولقد وقف الإسلام على طرفي نقيض مع المسيحية هنا أيضاً . فليس في الإسلام سلطة دينية ، ولا رجال دين ، ولا أحد على الإطلاق بين الإنسان ونخالقه . فليس لأحد سلطان على عقائد الناس ولا سيطرة على إيمانهم ، ذلك أن أحداً لا يمكن أن يعرف دخائل الناس إلا الله . ولقد نهى رسول الإسلام عن أخذ الناس بالشبهات ، ويؤثر عنه قوله إنه لم يؤمر بأن يفتش عما في قلوب الناس . وجاء في الحديث قوله : « إن الله بعثنى بالحنيفية السمحة ولم يعثنى بالرهبانية المبتدعة » . والإيمان في الإسلام يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده . وليس لأحد في الإسلام مهما علت منزلته ، على آخر ، مهما انحطت منزلته ، إلا حق النصيحة والإرشاد . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١) . ويقول : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٢) . ويقول : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (٣) .

المسلمون إذن يتناصحون ويقيمون أمة تدعو إلى الخير ، وأما المتفقهون في الدين فليس لهم على الأمة الإسلامية إلا الدعوة والتذكير والإنذار والتحذير بالمعروف ، وليس لأحد من الناس أياً كان أن يكشف عن عورة أحد أو يتجسس عليه في عقيدته . ولا ينبغي للمسلم أن يتلقى عقيدته أو يأخذ أصولها عن أحد إلا عن كتاب الله الذي هو القرآن ، ثم سنة رسوله . أما خليفة المسلمين فرجل منهم ينتخبونه بالشورى ، ليس معصوماً ،

(٢) العصر ٣ .

(١) آل عمران ١٠٤ .

(٣) التوبة ١٢٢ .

ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ، يطيعه المسلمون ما دام على محجة الصواب ونهج الكتاب والسنة ، فإذا انحرف انبغى لهم أن يكونوا له بالمرصاد يقومون عوجته ويردونهم إلى الصواب ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فإذا لم يردوا عنهم أن يسحبوا عنه بيعتهم ويستبدلوه بغيره .

والأصل الثالث للمسيحية هو ترك الدنيا وانتظار ملكوت السماء ، أي التجرد من الدنيا والانقطاع للآخرة . وجاء في الإصحاح السادس من إنجيل متى قوله : « لا تقدر أن تخدموا الله والمال . . . لذلك أقول لكم لا تفكروا في حياتكم ، وفيما تأكلون ، وفيما تشربون ، ولا تفكروا في أبدانكم ، وفيما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ . . . ولكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه تزداد لكم . . . فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه ، يكفي اليوم شره » . وجاء في الإصحاح التاسع عشر من نفس الإنجيل : « الحق أقول لكم إنه لا يسر للجمل أن يدخل في ثقب إبرة من أن يدخل الرجل الغني مملكة السماء » . وجاء في الإصحاح العاشر : « لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم . . . ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ » . وفي الإصحاح التاسع عشر من إنجيل متى أيضاً حث صريح على الرهبانية وترك الزواج إطلاقاً ، يقول : « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات من استطاع أن يقبل فليقبل » .

أما النتائج المباشرة لمثل هذه التعاليم التي تلقاها آباء الكنيسة الأوائل باعتبارها أوامر لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فكانت عجيبة جداً . فقد شاع في طول عالم النصرانية وعرضه روح تهدف إلى ترك الدنيا وما فيها والانقطاع إلى الآخرة ، حتى لقد شاع القول بأنه طالما سهلك هذا العالم ويزول ، فلماذا إذن التفكير فيه وفي أموره ؟ . ثم إنه مناد بجو عجيب

من الزهد . وبدلنا التاريخ على كثيرين من القديسين الذين تركوا أجسادهم
نهياً للحشرات والهوام تديننا . ولا عجب فقد امتنع بعضهم عن الاستحمام
أو غسل الأيدي والأطراف طوال حياته . وشاع المثل القائل بأن القنطرة
من الإيمان ، وظلت البيوت في أوروبا تبنى بدون حمامات حتى القرن العشرين ،
ولسنا نعلم أن أحداً في العالم المسيحي الأوربي نادى بأن النظافة من الإيمان
قبل جون وزلى في أواخر القرن الثامن عشر .

ومن ناحية أخرى وبناء على النص السابق ذكره الذى يتحدث عن
المحصيان الذين خصوا أنفسهم ، تكونت في أعقاب انتشار المسيحية
جماعات دينية يعرفها التاريخ من رجال خصوا أنفسهم اختياراً عملاً بهذا النص .

ثم إننا لا ينبغي أن ننسى أنه لما كان الهم الأكبر للمسيحيين في هذا
العصر العجيب قد وُجّه للعبادة وللعمل على انتظار ملكوت السماء دون أي
شيء آخر ، كان لزاماً على عالم كهذا أن ينظر نظرة شلتك إلى العلم والعلماء .
وإننا لنقع على نصوص صريحة تقف حجرة عثرة ضد العلم والعلماء ، أدت
في النهاية إلى وقوف عالم النصرانية كله موقفاً عدائياً من العلم . وجاء في
رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس في الإصحاح الثالث : « لا يتخذ عن
أحد نفسه . إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر فليصير جاهلاً
لكي يصير حكيماً . لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله لأنه مكتوب
الآن الحكماء بمكرهم . وأيضاً الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة . إذن
لا يفتخرون أحد بالناس » . وجاء في هذه الرسالة أيضاً : « اختار الله جهلاء
العالم ليخزي الحكماء . واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء » . وجاء
في الرسالة إلى كولووسى : « انظروا ألا يكون أحد بسببكم بالفلسفة وبغرور
باطل حسب تقليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح » وفي
الرسالة الأولى إلى تيموثاوس : « يا تيموثاوس احفظ الوديعة معرضاً عن
الكلام الباطل الدنس ومخالفات العلم الكاذب الإسم » .

وبناء على هذا كله شاع في عالم المسيحية المثل القائل بأن « الجهالة أم التقوى ورأس العبادة » . وبرر آباء الكنيسة وزعماء اللاهوت المسيحي الحرب ضد العلم والعلماء مما سيأتي بيانه فيما بعد . ولا ينبغي إذن والحال كذلك أن نستغرب قول القديس أوغسطين : « أى شأن لى فى أن أعرف إذا كانت السماوات كرة تتضمن الأرض ، معلقة فى وسط الكون ، أم أنها تشرف مرتكزة عليها من كلا الجانبين » . أو قول القديس أمبروز : « إن البحث فى الطبيعة ومركز الأرض أمور لا تساعدنا فى آمالنا فى الحياة الأخرى » أو موقف البابا جريجورى الأكبر الذى كان من أكبر المتحمسين المفسرين للمثل الكنسى القائل بأن « الجهالة أم التقوى ورأس العبادة » والذى كان يباهى بأنه لا يعبأ بقواعد الكتابة ، والذى نجح فى استئصال شأفة كل أثر للعلوم من إيطاليا .

وبينما كان هذا هو موقف المسيحية من هذه الدنيا ، كان الإسلام على نقيض ذلك تماماً . فقد حض الإسلام المؤمنين على أن يتمتعوا بهذه الدنيا وبطيّبات ما رزقهم الله . ويؤثر عن النبي قوله : « سنتى الصلاة والنوم والإفطار والصوم فن رغب عن سنتى فليس منى » . وقوله : « اعمل للدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . هذا فضلاً عن أحاديث نبوية كثيرة تحض على العلم وتشيد بالعلماء كقوله عليه السلام : « الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج » . و « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » . و « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . و « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » . و « اطلب العلم ولو فى الصين » . و « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ، ولمداد ما تجرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله » .

وكان طبيعياً أن يشيع فى عالم الإسلام نتيجة لهذه المفاهيم التى تحض على الإقبال على الدنيا بأقصى ما يستطيع الإنسان ، وعلى التمتع بما فيها من

طيبات ، المثلان : « النظافة من الإيمان » و « الكتابة أشرف المراتب بعد الخلافة » وأن يحاول الناس من ثمة بلوغ أقصى درجات الرقى ، وأن يحصلوا أقصى ما يستطيعون من علم . وكان نتيجة ذلك انقلاب جذرى فى عالم الحضارة أدى إلى أسعد النتائج .

والأصل الرابع الذى تمسك به علماء اللاهوت المسيحى والذى يعيننا فى هذه الدراسة هو أن الكتاب المقدس قد حوى كل ما يحتاج إليه البشر فى المعاش والمعاد ، وأن الله لم ينزل على أنبيائه ورسله وحياً يقتصر على هداية البشر إلى الدين فحسب ، وإنما أنزل عليهم كل ما أراد أن يعلمه البشر من شئون الكون ، وأن الكتاب المقدس يحوى من المعارف الدينية والدينية كل ما قدر الله للبشر أن يعرفوه . إذن فجميع ما جاء فى الكتاب المقدس من شئون السماء وما فيها ، والأرض وما بجوفها وما عليها ، وما ذكر فيه من تاريخ الأمم والشعوب ، ينبغى أن يكون فى الدرجة الأولى ما يُعول عليه المؤمنون ، والمصدر الذى يستمدون منه كل علومهم التى يحتاجون إليها ، لأن الكتاب المقدس صدق ولأن الله لم ينزل على رسله وأنبيائه هذه التعاليم هباء . ومن هنا عمد آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت بعد أن قضوا قضاء مبرماً على كل أثر للعلم اليونانى القديم سواء فى الجغرافيا أو الطب أو الفلك أو غير ذلك ، وحرموه بتاتاً ، إلى وضع علوم جديدة فى الجغرافيا والطب والفلك والجيولوجيا والتاريخ والحيوان إلخ ، واستمدوا أسسها مما جاء فى الكتاب المقدس وفرضوا هذه العلوم على عالم النصرانية فى القرون الوسطى ، وصارعوا العلم والعلماء الذين رجعوا إلى العلوم الدينية أو نظروا نظرة حرة فى الكون صراعاً شديداً استمر حتى أواخر القرن التاسع عشر وتجلى بصورة أو بأخرى (١) .

(١) يقع القارئ على شرح واف ومفصل لجميع النظريات والعلوم التى وضعها آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت فى القرون الوسطى ولمراحل الصراع بين اللاهوت المسيحى والعلم فى هذه العصور وحتى أواخر القرن التاسع عشر فى كتاب الأستاذ الكبير أندرو ديكسون آيت : **A History of the warfare of Science with Theology in Christendom**

أما الإسلام فليس في نصوصه ولا في روجه شيء يمنع المسلمين من حرية النظر في الوجود وكيف خلق وكيف تسير شئونه . وقد بحث الإسلام المسلمين على العلم وعلى التفاضل بالعلم في قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . ثم إن علماء الإسلام اتفقوا على أنه إذا تعارض الدليل العقلي القطعي مع ظاهر الشرع غير القطعي ، وجب تفضيل الدليل العقلي والأخذ به . ومن هنا اتسع المجال أمام العلماء ووجدوا مجالاً فسيحاً لتأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل . وبهذا لم يبق من عقبة في سبيل العقل لينطلق إلى أقصى حدوده باحثاً عن الحقيقة . والحق أن شيئاً من مثل هذه التهوريمات التي أشاعها رجال الكنيسة في القرون الوسطى لم يقف أمام العقل الإسلامي ولم يصدده عن الانطلاق ، فاعتمدت حضارة الإسلام أول ما اعتمدت على العقل ، وعلى العلم ، وعلى ما تثبتته التجربة ، فكانت بحق حضارة علمية في المقام الأول .

نضرب هنا مثلاً نبين به كيف نظر كل من المسيحيين والمسلمين إلى حقائق الأشياء ، وكيف تصرف كل فريق لإزاء النصوص المقدسة . وضع الراهب المصري قزماس في القرن السادس الميلادي نظرية في جغرافية الكون استمدتها من الكتاب المقدس ، وقيل في ذلك الوقت إنها نظام كامل مفصل عن الكون . ولقد قبلت نظرية قزماس كما لو كانت وحياً منزلاً ، واعتبرها اللاهوتيون في الشرق والغرب حصناً حصيناً من حقائق الكتاب المقدس . ومما جاء في هذه النظرية أن الملائكة لا يدفعون الأجرام السماوية ويجذبونها لتتير الأرض فحسب ، وإنما يفتحون ويقفلون طاقات السماء أيضاً ليندفع منها الماء على الأرض ليرويها . واعتمد قزماس في هذا القول على نص سفر التكوين القائل : « انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء » (١) . وهذا مثال من نوع التفكير الذي سيطر على عقول علماء اللاهوت المسيحي

(١) سفر التكوين : ٧ : ١٢ .

وجعلهم يستمدون العلم من ظاهر نصوص الكتاب المقدس ونتيجة لتفسيرها تفسيراً حرفياً لا غير . والحق أنهم تمسكوا بالتفسير الحرفي لنصوص الكتاب المقدس في مختلف مجالات العلوم التي استخرجوها من هذا الكتاب ، وأكدوا صحتها ، وظلوا يتمسكون بها قروناً طويلة ويصدون بها كل علم حقيقي بالحديد والنيار ومحاكم التفتيش ، وما أدراك ما محاكم التفتيش .

ضربت هذا المثل بالذات لأن في القرآن آية مشابهة لهذا النص الذي استشهد به قزماش هي قوله تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر » ، لنرى كيف وقف المسلمون منها ، وكيف استطاعوا أن يقرروا الحقيقة العلمية اعتماداً على المبادئ السابق ذكرها ، من غير أن يحدث صراع بين علماء الدين المسلمين حول تفسير الآية والحقائق التي قال بها العلماء . فبينما قال قوم إن الله خلق في السماء جبلا من برد وبحاراً ، قال آخرون إنه قد يراد هنا الحقيقة وقد يراد المجاز . فإذا كان يراد الحقيقة يكون إذن في السماء كظاهر الآية أبواب تغلق وتفتح ، وأما إذا أريد الاستعارة فيكون ذلك بمثابة قول القائل في المطر الوابل : « جرت ميازيب السماء وفتحت أفواه القرب » . وهؤلاء لا يستبعدون أن يكون هذا هو المراد (٢) . ومن هنا استطاع جغرافيو العرب أن ينطلقوا بحرية في تقرير الحقيقة العلمية كما ثبتت لهم . فقالوا إن الأنهار تبتدئ من الجبال وتنتهي إلى البحار في جريانها ، وإلى البطائح والبحيرات ، وتسقى في ممرها المدن ، والقرى ، والسوادات ، وما يفضل من مائها ينصب إلى البحار ، ويختلط بماء البحر ، ثم يصير بخاراً ويصعد في الهواء ، وتتراكم منه الغيوم ، وتسوقه الرياح إلى رؤوس الجبال والبراري ، ويمطر هناك ويسقي البلاد ، وتجري الأودية والأنهار ، ويرجع إلى البحار من الرأس ، وذلك دائماً في الشتاء والصيف (٣) .

(١) للقمر ١١ . (٢) انظر تفسير الفخر الرازي .

(٣) رسائل إخوان الصفا : رسالة الجغرافيا .

انطبع تاريخ المسيحية من ثمة طوال قرون بطابع الإصرار العنيد على تفسير نصوص الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً لا غير . وكانت حججهم في ذلك أن الله لم يكلم موسى بالحجاز ولا بالاستعارة . وأدى هذا الموقف غير المرن إلى أوخم النتائج بالنسبة لتقدم العلوم . وأما تاريخ الإسلام فانطبع بطابع النظر العقلي في حقائق الأشياء ، وبالعامل على التوفيق بين ما يتوصل إليه العلماء من حقائق وبين ظاهر النص الديني ، كما رأينا في المثال السابق ، وهو مثال واضح جداً . ويكشف لنا هذا المثال بجلاء عن حقيقة هامة جداً ، هي أن فارقاً جوهرياً في الرجال ذاتهم الذين قادوا المسيحية ، والرجال الذين قادوا الإسلام ، كان من أهم العوامل التي أدت إلى وقوف هؤلاء أو أولئك هذه المواقف المختلفة .

يتبين جلياً مما سبق أن المبادئ والمفاهيم التي سيطرت على دنيا المسيحية وحكمتها ، كانت مخالفة للمبادئ والمفاهيم التي سيطرت على دنيا الإسلام وحكمتها ، بل لا نكون مغالين البتة إذا قررنا أن مفاهيم الإسلام كانت على طرفي نقيض مع مفاهيم المسيحية . ومما لا مريبة فيه ولا نزاع من حوله ، أن كلا من هذه المفاهيم والتطبيقات أحدث أثراً واضحاً جداً في مجرى التاريخ الحضاري للإنسانية كلها . نشأت الحضارة وتطورت في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتوالى دوراتها في مصر القديمة ، وبلاد ما بين النهرين ، واليونان ، إلى أن توقفت بعد انتشار المسيحية ، ثم استأنفت المسير بقدم العرب وانتشار حضارة الإسلام حتى استقرت في الأندلس وصقلية تحت الحكم العربي الإسلامي ، ثم انتقلت إلى غربي أوروبا .

أما ما يهمننا فتلك الفترة التي توقفت فيها الحضارة نتيجة لانتشار المسيحية ، ثم الفترة التي تلتها بظهور الدور العربي الإسلامي من الحضارة ، وكيف كان هذا الدور في واقع الأمر الأساس الذي بنت عليه أوروبا حضارتها الحديثة . كانت النتيجة الطبيعية لسيطرة رجال الدين المسيحي على مقدرات

الإمبراطورية الرومانية ، وحصولهم على هذا السلطان الدينى والدنيوى ، مع عدم قدرتهم على النظر نظرة عقلية فى نصوص الكتاب المقدس التى فسروها تفسيراً حرفياً لا غير ، أن يحدث صراع عنيف بين الدين الذى يمثله هؤلاء الرجال الأتقياء الورعون الجامدون ، والعلم الذى يمثله الفلاسفة والعلماء الذين ينظرون فى الكون والطبيعة نظرة حرة ، ويبحثون بحثاً علمياً لا يمكن أن يتوافق منهجه مع التفسيرات الحرفية لنصوص الكتاب المقدس . عند ما استقر للمسيحية سلطان القوة المادية وخضع أباطرة الرومان أخيراً لسلطان الكنيسة ، لم يستطع آباء الكنيسة الأوائل وعلماء اللاهوت فيها أن يدركوا معنى العلم أو الفلسفة ، ولم يسيطر على أذهانهم إلا أفكار استمدوها من النصوص الدينية ، هى أن هذا العالم سوف لا يلبث أن يهلك ويذول ، وأن أعمال الفلاسفة والعلماء باطلة ، وأن الجهالة أم التقوى ورأس العبادة . ومن ثمة أمعنوا فى القضاء على كل مظاهر العلم القديم والفلسفة ، وغالوا فى اضطهاد العلماء والفلاسفة . وبدأ عصر عجيب انهارت فيه كل أسس الحضارة القديمة التى بذل فى وضعها قدماء المصريين والبابليين واليونان آلافاً من السنين .

وبدأت الكنيسة عملية تخريب هذا العلم القديم الذى سموه آنذاك بالعلم الوثنى ، وثار فى طول العالم المسيحى وعرضه موجة عارمة محمومة من الاضطهاد والبطش ضد العلماء وكلامهم الباطل الدنس كما قال القديس بولس ، وضد العلم الكاذب الاسم كما وصفه أيضاً . أحرق الأسقف ثيوفيل بطريق الأسكندرية فى سنة ٣٩٠ م . جزءاً من مكتبة الأسكندرية ، وفى سنة ٤١٥ م . انقضت جماعة من الرهبان على العالمة الجليلة هيباشيا ابنة الفلاكيثيون وآخر أستاذة للطب والرياضيات بجامعة الأسكندرية ، وجردوها من ثيابها وقادوها مكشوفة العورة إلى كنيسة فى الأسكندرية ومزقوا جسدها لرباباً . وكان هذا العمل كما يذكر المؤرخون بتحريض من كيرلس بطريق الأسكندرية الذى كان يغار من شعبيتها ، والذى أراد أن يضع حداً للعلم

الوثني في مدينته . وفي سنة ٤٨٩ م هاجر جماعة من العلماء إثر موجة من الاضطهاد إلى فارس فسمح لهم الإمبراطور الفارسي باللجوء إليها وأكرم وفادتهم ، وظلت موجات الاضطهاد ضد العلم والعلماء تتكرر حتى شهدت أرض أوروبا في القرن السادس آخر فلاسفتها بوثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤ م) وهو يعلم بتهمة المروق من الدين والمهرطقة . وكان كل اضطهاد من هذا القبيل يعد عن دنيا المسيحية عدداً من أحسن الرجال الذين كانوا يقتلون أو يفرون إلى الشرق ، ليحل محلهم على رأس المجتمع أجهل الرجال وأسوأ المثل^(١) . وأما النهاية فجاءت على يدي الإمبراطور جوستينيان الذي أمر في سنة ٥٢٩ م . بإغلاق أكاديمية أفلاطون بأثينا ، وكانت حينئذ آخر معقل للعلوم الدنيوية في العالم المسيحي الروماني كله .

ولقد قصد بهذا العمل بطبيعة الحال القضاء على آخر أثر للعلوم والفلسفة القديمة ، أو العلوم والفلسفة الوثنية كما سماها رجال الكنيسة آنذاك . وظلت أوروبا منذ ذلك الوقت وحتى مقدم المسلمين إلى أسبانيا وصقلية بلا مدرسة واحدة في أى جزء من أجزائها غير المدارس الدينية . وبذلك « لم تتخرب روما وأثينا باعتبارهما السياسى والاجتماعى فقط ، وإنما بادت أيضاً السلالة اليونانية التى أخرجت الفنانين والعلماء والفلاسفة ، والسلالة الرومانية التى أخرجت المحامين والإداريين ولم يعد لها وجود »^(٢) .

وعند هذا الحد من التخريب غرقت أوروبا في عصور ظلامها الدامس ، واقتصرت جميع الكتابات في عصور الظلام هذه على النظريات التى استمدتها علماء اللاهوت من الكتاب المقدس ، أو على الأمور والاحتياجات الدينية ، فكانت المدارس الأسقفية مثلاً تلقن أبسط قواعد الرياضيات اللازمة للتجارة ، أو للمحاسبة ، أو لتحديد مواعيد الاحتفالات الدينية لا غير .

G. Sarton : Ancient Science and Modern Civilization P. 115 (١)

W. C. Dampier : A History of Science and its Relationship to (٢)

Philosophy and Religion P. 6.

ماتت الحضارة القديمة وتلاعبت بها رياح الكنيسة ، وحرمت دراسة العلوم الدنيوية في طول العالم المسيحي وعرضه ، وحل محلها العلوم التي استمدتها علماء اللاهوت من نصوص الكتاب المقدس ، فوضعت علوم جديدة ، جغرافية ، وطبية ، وفلكية ، وبيولوجية ، وحيوانية ، وتاريخية ، إلخ . وتنافس علماء اللاهوت المسيحي في استخراج كنوز الكتاب المقدس العلمية كما صور لهم فكرهم الديني ولنضرب الآن مثلاً نستعين به على فهم الطريقة التي تناول بها آباء الكنيسة العلم ، نستقيه من بين أمثلة كثيرة ضربها الأستاذ أندرو ديكسون وايت .

اختمرت في عقول الفلاسفة مع تقدم الحضارة وارتقاؤها ، وبخاصة فلاسفة اليونان أفكارات حول كرية الأرض . ولقد اتجه بعض آباء الكنيسة من أصحاب العقول الأقوى والأرجح إلى الأخذ بهذا الرأي . غير أن الغالبية العظمى منهم فزعت في الحال من هذا الاتجاه ، ولاح لهم أن هذا الرأي مضمع بأشد المخاطر التي تهدد الكتاب المقدس . وما كان ذلك بغير شك إلا تفسيرهم الحرفي للكتاب المقدس لا غير . وكان يوسابيوس القيصرى من أوائل الذين هاجموا هذا الرأي ، إذ سعى آخذاً بنصوص العهد الجديد التي تشير إلى قرب فناء العالم ، إلى القضاء على هذه الفكرة من طريق تحقير الدراسات العلمية . فنراه إذ يتحدث عن الباحثين في العلم يقول : « إننا لا نهم بمثل هذه الأمور التي يستحسنها العلماء لجهلنا بها ، وإنما احتقاراً لشأنها ، إذ هي أمور بائرة عديمة الجدوى ، وإنما نحن نتجه بأرواحنا إلى أمور أعم نفعاً » . وتكلم بازيل القيصرى عن هذه الفكرة فأعلن أنه « لا يعنيننا كثيراً ولا قليلاً أن تكون الأرض كرة أو أسطوانة أو قرصاً مسطحاً أو مقعراً كالمروحة » . وأشار لكتانثيوس إلى أفكار الذين يدرسون الفلك على أنها « قبيحة عديمة المعنى » وعارض نظرية كرية الأرض باعتبارها مناقضة للكتاب المقدس ومنافية للعقل . واستغل القديس يوحنا كريستوم نفوذه في معارضة هذا المعتقد العلمى . كذلك لم تكن معارضة أفرام كيرلس أكبر آباء الكنيسة

السورية القديمة الذي اشتهر بأنه « قيثاره الروح القدس » أقل حماسية .
غير أن المتعصبين للعلم الكتابي ، أي لعلم الكتاب المقدس ، وعلى الأخص كبار الآباء والأساقفة مثل ثيوفيل الأنطاكي في القرن الثاني ، وكليمنت السكندري في القرن الثالث ، وغيرهم في القرون التالية ، لم يكتفوا بمجرد معارضة الفكر العلمي الذي وصموه بأنه نظرية وثنية قديمة ، وإنما استمدوا من كتبهم المقدسة نظرية مسيحية جديدة ، أضاف إليها هذا الأب فكرة ، وذلك فكرة أخرى ، حتى اكتملت قسامتها . فقد تناولوا بقايا المأثورات القديمة المختلفة التي ذُكرت في الآية السابعة من الإصحاح الأول من سفر التكوين ، وأصروا على الأخذ بهذا البيان الجلي الواضح الذي ذكره السفر المقدس ، الذي يبين لنا أن الأرض غطيت عند خلق الكون بقبة صلبة هي « السماء » . وأضافوا إلى هذه الآية الآيات الأخرى المذكورة في سفرى أشعياء والمزامير ، والتي تقضى بأن السماوات منبسطة « كسرادق » أو « كخيمة للسكن » . وإذن يكون العالم بناء على هذا التصور بمثابة منزل ، الأرض طابقه السفلى ، والسماء سقفه . ذلك السقف الذي يعلق فيه الواحد القهار الشمس لتحكم النهار والقمر والنجوم لتحكم الليل . وهذا السقف أيضاً بمثابة أرضية للطابق الذي فوقه ، ومن ثمة يكون صهريجاً كبيراً ، وصفه أحد اللاهوتيين بأنه « يشبه حوض الحمام » وهو يحتوى « المياه التي توجد فوق القبة الزرقاء »^(١) وهي المياه التي يطلقها الله وملائكته على الأرض من خلال « طاقات السماء »^(٢) . ثم إنهم لما أرادوا تفسير حركة الشمس استشهدوا بفقرات مختلفة من سفر التكوين امتزجت بتأملات غيبية مختلفة ، وظنوا أنها دليل قاطع من الكتاب المقدس على أن الأرض لا يمكن أن تكون كرية الشكل .

غير أن فكرة كرية الأرض لم تمت تماماً ، وإنما ظلت أصداءها تتجاوب في جنبات الكنيسة وظل بعض آباء الكنيسة ينجحون إلى الاعتقاد

(١) فعن الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد . سفر التكوين

(٢) سفر التكوين ٧ : ١٢ .

بها . ولكن هنا أيضاً أقام اللاهوتيون الدنيا وأقعدوها حول فكرة القول بالسكان الذين يقطنون الجانب المقابل لنا من كرة الأرض على افتراض أنها كرة . تساءل لكتانشيوس « أ يوجد فعلاً إنسان فقد الشعور بحيث يعتقد بإمكانية وجود بشر تكون مواطئ أقدامهم أعلى من رؤوسهم ؟ وأن النباتات والأشجار تنمو إلى أسفل ؟ وأن المطر والثلج والبرد تتساقط على الأرض من أسفل إلى أعلى ؟ ثم استطرد يقول : « إني لني حيرة من أمر هؤلاء الذين إذا أخطأوا مرة استمروا في غيهم مدافعين عن الباطل بباطل آخر ! » .

أما المدافع الأكبر عن المعتقد الكنسي الصحيح الذي قرره آباء الكنيسة وآمنوا به فالقديس أوغسطين . لقد حارب القديس أوغسطين على الرغم من أنه جنح بعض الشيء إلى الاعتقاد بكيرية الأرض ، فكرة وجود أناس يعيشون على الجانب المقابل لنا منها ، قال : « إن الكتاب المقدس لم يحدثنا عن أمثال هؤلاء من أبناء آدم » . ثم إنه أصر على أن الله العزيز القدير لا يمكن أن يكون قد قدر للبشر أن يعيشوا في تلك البقاع ، ما دام أنهم سوف لا يرون المسيح في أثناء عودته الثانية إلى الأرض وهو هابط من السماء . غير أنه استقى أقوى حجة استشهد بها — تلك الحجة التي تردد صداها من لاهوتي إلى آخر خلال ألف من السنين بعده — من المزمور التاسع عشر ، ومما جاء في رسالة بولس إلى أهل رومية تأييداً لهذا المزمور ونصه : « في كل الأرض خرج منطقتهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم » . وأصر على رأيه بعناد معتمداً على أن القديس بولس وضع برهاناً من أقوى براهينه استناداً على هذا النص الخاص بالمبشرين بالإنجيل ، وأنه أعلن قائلاً بمزيد من الوضوح : « بلى إلى كل الأرض خرج صوتهم وإلى أقصى المسكونة أقوالهم » . ومنذ ذلك الحين أكد اللاهوتيون دائماً أنه ما دام هؤلاء المبشرون لم يذهبوا إلى مسكان الجانب المقابل لموضعنا من كرة الأرض ، فعنى هذا أن هؤلاء لا يوجدون على إطلاق القول ، ومن ثمة يكون أولئك الذين يؤيدون هذه

النظرية الجغرافية « قد كذبوا مباشرة الملك داود والقديس بولس وبالتالي الكتاب المقدس ذاته ». وبذلك فرض القديس أوغسطين على عالم النصرانية أكثر من ألف من السنين تعاليمه القائلة بأنه ما دام لم يحدث تبشير بالإنجيل في الجانب المقابل لموضعنا من الأرض ، إذن لا يمكن أن يكون هناك بشر يعيشون في تلك البقاع .

ويلوح أن الحقيقة العلمية اختفت تماماً تحت وطأة هذا الضغط اللاهوتي قرابة قرنين من الزمان ، غير أن كرية الأرض أصبحت في القرن الثامن من الأمور التي يقبلها ويعترف بها جلة المفكرين من رجال الكنيسة على وجه العموم . ومع إحياء نظرية كرية الأرض ، انتعشت النظرية القائلة بالبشر الذين يعيشون على الجهة المقابلة من كرة الأرض ، غير أنها ظلت محرمة . ذلك أنه عندما جسر الأسقف فرجيل السالبرجي بالقول بصحة النظرية القائلة بالبشر الذين يعيشون على الجانب الآخر من الأرض ، انزعج بونيفاس لهذه الهرطقة وأهاب بالبابا زخارى أن يساعده على مقاومة فرجيل ، فاستجاب البابا معلم المسيحية المعصوم من الخطأ لهذا النداء استجابة قوية ، واستشهد بفقرات من سفر أيوب ، وبحكم من حكم سليمان ، يناقض بها نظرية سكان الجانب المقابل لموضعنا من الأرض . وأعلن أن هذه النظرية « فاسدة مُضِلَّة أئيمة مفسدة لنفس فرجيل ذاتها » . وأشار إلى عزمه على طرده من أسقفيته . وتدعم هذا الرأي اللاهوتي بمقتضى ما للبابا من عصمة أضفتها عليه وحمها العناية القدسية . ومضى اللاهوتيون متعصبين للنظرية القائلة بأن الأرض مأهولة بالسكان من جانب واحد فقط ، حتى لقد أصبحت نظرية ثمينة عزيزة عليهم أكثر من أى وقت مضى . واشتد ساعد النظرية ولاح في القرن الرابع عشر أن ضرورة مقاومة الفكر العلمى إنما تقتضى من رجال الكنيسة أن يعاملوا المارقين بالخلعة والسندان . ولم تنته هذه الحرب التي استمرت اثني عشر قرناً من الزمان إلا في القرن السادس عشر عند ما دار ماجلان حول الأرض فعلاً ، وأثبت صحة نظرية السكان

الذين يعيشون في الجهة المقابلة من الأرض ، وشاهدتهم رفاقه البحارة بأعينهم ، ثم شاهدتهم فيما بعد المبشرون الأوروبيون أنفسهم .

أكتفى هنا بهذا المثال الذي يبين لنا بوضوح الطريقة التي تناول بها آباء الكنيسة ، وعلماء اللاهوت المسيحي ، الحقائق العلمية التي كانت حضارة الدنيا القديمة قد بدأت تكشف عنها ، ثم أماتوها وأحلوا محلها نظريات دينية لا تمت للعلم بصلة ، استملوها من نصوص الكتاب المقدس باعتبار أن كل كلمة فيه إنما وردت لتعبر تعبيراً صادقاً وصحيحاً وحرافياً عن الأمور التي تشير إليها . ولقد لجأ علماء اللاهوت المسيحي إلى مثل هذا التفكير الذي استخدموه هنا عند معالجتهم لمختلف العلوم الأخرى . ولا يخفى بطبيعة الحال ما في هذا المنهج من مضار شديدة على البحث العلمي الصحيح . ولا غرابة إذن في أن كل أثر للعلم الحق قد تبخر من الأرض المسيحية في ذلك العصر العجيب . والحق أن أوروبا لم تبدأ في الانتعاش والتفكير الجدى في تناول العلوم الدنيوية إلا بعد أن استتبت الحضارة الإسلامية في أسبانيا وصقلية ، وبدأت تؤثر تأثيرها الفعال في العناصر الأوروبية الممتازة التي بدأت تتأثر بها وتحاول إدخال هذه الحضارة العلمية إلى دنيا المسيحية في أوروبا .

أما الاتجاه إلى التعليم فبدأ في الإسلام منذ أوائل الهجرة ، ذلك أن محمداً اشترط على من كان يعرف القراءة والكتابة من أسرى بدر أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة في نظير فدائه ، وكان فداء الأسير أربعة آلاف درهم . ولقد تبلور هذا الاتجاه الحميد في أحاديث كثيرة ذكرنا شيئاً منها فيما سبق . لذلك لم يكن غريباً أن يعمد المسلمون إلى تعليم أبنائهم القراءة والكتابة كلما سنحت فرصة إلى ذلك . ولقد أصبح الاتجاه إلى التعليم طابعاً عاماً اتجهت إليه حضارة الإسلام منذ بداياتها الأولى . والحق أن المسلمين ما لبثوا أن استقروا بعد الفتوحات الأولى حتى شرعوا يفتحون المدارس على نطاق واسع . وربما اقتصر الغرض من ذلك في هذا

العصر المبكر على مجرد القراءة والكتابة بالقدر الكافي على الأقل للتمكن من الاطلاع على القرآن .

ثم تطور الحال الى ضرورة نشوء علوم جديدة ، فنشأت علوم اللغة والتفسير والحديث . فلما اتسعت دائرة العلوم وظهر الحديد منها على هذه الصورة ، كان طبيعياً في بيئة تبجل العلم والعلماء أن يتسع مجال التدريس ويشمل هذه العلوم . ومن هنا بدأت نهضة أدبية كبيرة جداً في العالم الإسلامي . ثم أخذت دائرتها تتسع شيئاً بعد شيء حتى شملت - فيما عدا علوم الدين واللغة - مختلف فروع العلوم الأخرى التي خلفتها الحضارة القديمة :

كان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموي أول من اتجه إلى فتح الباب الموصل ، أي الباب المؤدى إلى العلوم القديمة التي سمّتها المسيحية وقضت على كل أثر لها . وكانت الكيمياء التي خلفها قدماء المصريين قد انقلبت في أيدي اليونان والرومان إلى مجرد خرافة وهم - انحصر في محاولة تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة - إن لم تكن قد أصبحت فعلاً من وسائل الغش والاحتيال^(١) . وأصبحت من علوم السحر والتهويمات المهمة وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتنجيم . وهذه هي الصورة التي كانت الكيمياء قد وصلت إليها في الأسكندرية عند ما فتحها العرب . ولقد قام في وهم خالد ابن يزيد أن تحويل المعادن الرخيصة كالرصاص إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة أمر ممكن ، فاستدعى راهباً رومياً اسمه مارينوس كان يلم بشيء من هذا العلم ، وتعلم منه الصنعة وأمره أن ينقل ما تحت يده من كتبها إلى العربية ، فعمد إلى رجل اسمه اصطفان فنقلها ، فكان هذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة . ويقال إن خالد بن يزيد أمر أيضاً بنقل كتب في الطب والفلك ، ولكن لم يصلنا منها شيء . وقيل أيضاً إنه أسس مدرسة في

مصر . ويلوح بأن شيئاً من كتابات خالد بن يزيد في الكيمياء قد بقي معروفاً ومتداولاً عدة قرون من بعده - وإن لم يبق منها شيء الآن - ذلك أن الأستاذ سارتون^(١) ذكر أن رسالة في الكيمياء كانت منسوبة إلى خالد بن يزيد قد ترجمت إلى اللاتينية تحت عنوان *De Compositione alchimiae* وكانت لإحدى الكتب التي تدرس في الغرب اللاتيني في أواخر القرن الثالث عشر ..

هكذا بدأت أولى محاولات المسلمين نحو الاتجاه إلى العلوم القديمة والعمل على ترجمتها إلى العربية . ونحن على أية حال لانستطيع أن ندعى أن الجهود التي بذلها خالد بن يزيد قد أحدثت أثراً استمر في التاريخ العلمي الإسلامي . واكتنفا كانت في الحقيقة بمثابة تحسس الطريق نحو العلم ، ومحاولة لفتح الباب الموصد ، وهذا عمل في حد ذاته عظيم ، لأن خالد بن يزيد كان وحيد زمانه بين العرب ، وإذن يكون فضاه أكبر واسمه أبقى وأخلد .

أما البداية الحقيقية للحركة العلمية الإسلامية التي عنها استمرت هذه الحركة وازدهرت ، فكانت على يدي الخليفة العباسي المنصور ، الذي أمر في سنة ٧٧٣ م بترجمة رسالة في الفلك حملها إليه عالم هندي يدعى مانكا أو كانكا وفد عليه ضمن السفارة الهندية ، فترجمها الفزاري ويعقوب ابن طارق ، وسميت في ترجمتها العربية « كتاب السنه هند » . ولقد اهتم المنصور ذاته بتعلم العلوم الفلكية ، وأمر بإنشاء مدارس لتعليم الشريعة والطب . ثم انتعشت هذه الحركة في عهد حفيده الرشيد الذي أمر بأن يلاحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وبلغ النشاط العلمي أوجه في عصر الخليفة المأمون بن الرشيد نابغة العرب . فأخذ بيت الحكمة أو مدرسة الترجمة التي أسسها الرشيد صورة أكاديمية في عصره ، ووضع المأمون على

رأسها يوحنا بن ماسويه ، وأمر بترجمة جميع ما تصل إليه أيدي القائمين بشئون بيت الحكمة من علوم الأسبقين . ومما يداك على مبلغ حرص المأمون على الحصول على العلوم التي خلفها اليونان أنه اشترط في صلحه مع الإمبراطور ميشيل الثالث إمبراطور بيزنطة أن يعطيه مكتبة من مكاتب الأستانة . ولقد قامت هذه المؤسسة في عهد المأمون الذهبي بأكبر مجهود في ترجمة علوم الأسبقين إلى العربية . فما هي إلا سنوات قلائل حتى كانت جميع المعارف العلمية السابقة تحت أيدي العرب في ترجمات جيدة . وكان المأمون يدفع رواتب خيالية لكبار المترجمين ، فيقال إن راتب حنين بن إسحق ، أو حُبَيْش الأعمس ، أو ثابت بن قره كان خمسمائة دينار شهرياً . ويقال أيضاً إنه كان يجتمع كل ثلاثاء إلى أهل العلم والأدب ويوزع على المتفوقين منهم جوائز ثمينة . ولا عجب إذن أن تصبح الكتابة والاشتغال بالكتابة وبالعلم والأدب في دولة الإسلام من أعظم المهن وأرقاها ، حتى لقد ذاع المثل القائل إن الكتابة أشرف المهن بعد الخلافة .

نقل العرب أهم كتب اليونان في الرياضيات ، والطب ، والفلك ، والجغرافيا الرياضية ، ونقلوا عن الهنود كتباً هامة في الطب ، والرياضيات ، والفلك . هذا فضلاً عما نقلوا أيضاً عن اليونان والفرس والهنود من كتب الأدب والفلسفة والقصص ، ولكن نركز هنا على الكتب العلمية فحسب لأن الحضارة الإسلامية العلمية هي التي تعيننا في المقام الأول . ولم يكده ينتصف القرن التاسع الميلادي حتى كان تحت يد العرب التراث العلمي القديم كله في الرياضيات ، والفلك ، والجغرافيا الرياضية ، والطب ، مع كتب الكيمياء التي وجدت بالأسكندرية وترجمت أيضاً إلى العربية في عصر سابق .

بدأ المسلمون من ثمة عصر حضارتهم العلمية ، فتناولوا هذه العلوم بمنتهى التسامح ونظروا فيها نظرة مختلفة تماماً عن نظرة آباء الكنيسة المسيحية لها ،

ذلك أن رائدهم كان العقل والتوفيق بين العلم وظاهر النصوص الدينية ، بما لا يكون من شأنه قضاء أحدهما على الآخر كما رأينا فيما سبق . ثم إن المسلمين في هذا العصر الزاهر لم يقتصروا على تعلم هذه العلوم فحسب ، وإنما عمدوا منذ بداية عصر اشتغالهم بها إلى تعديلها وتصحيحها بالقدر الذي سمح به التقدم في عصرهم ، فضلا عن ابتكارهم لعلوم جديدة لم يعرفها اليونان ، ولا الأقدمون من قبل ، فأخذت حضارتهم العلمية من ثمة طابعاً جديداً مميزاً ، وكانت بحق الأساس الذي ارتكزت عليه الحضارة الحديثة في أوروبا (١) .

تناول المسلمون هذه العلوم بمنتهى التسامح كما قلنا ، ولم ينظروا فيها نظرة شك أو ريبة ، بل لأنهم عكفوا منذ بداية اشتغالهم بها على التحقق مما جاء فيها بأنفسهم . كلف الخليفة المأمون علماءه بقياس الأرض والتحقق من صحة القياسين السابقين الذين أجروهما في العصر اليوناني إراتوستينس أولاً ، ثم بطلميوس السكندري ثانياً . فقام علماء المأمون في سنة ٨٢٧ م . بقياس درجة من خط منتصف النهار ، وأجروا التجربة في أرض سنجار بالجزيرة العراقية بين درجتى عرض ٣٥ ، ٣٦ شمالاً . فإذا عرفنا كما يقول الأستاذ كراتشكوفسكى (٢) أن أكثر المقاسات انتشاراً في القرن التاسع عشر كان مقياس بيسيل الذى قدر الدرجة بمقدار ١١٠٩٣٨ متراً ، تبين لنا جلياً أن الخطأ في مقياس العرب يقل عن الكيلومتر ، والحق أن القياس المأمونى لدرجة خط منتصف النهار كان أصح من القياسين اليونانيين وأكثرها ذبوعاً وانتشاراً فيما بعد . هذا فضلاً عن تصحيح المسلمين لخريطة العالم التى ورثوها عن بطلميوس ، ووضعهم خرائط جديدة ، واستعمالهم لخطوط الطول والعرض . وتصحيحهم لكثير من مواضع المدن وأوضاع البحار

(١) راجع كتابنا « أثر العرب في الحضارة الأوربية - نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة .

(٢) أغناطيوس نوليانوفتش كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ص ٨٣ - ٨٤
ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .

والبحيرات وأطوالها وعروضها ، ثم جغرافيتهم الوصفية التي لولاها لضاع كثير جداً من معالم القرون الوسطى .

وفي الرياضيات^(١) تقدم المسلمون خطوات هائلة عن رياضيات اليونان أو الهنود . ومن أهم مآثر العرب طريقة الإحصاء العشري واستعمال الصفر لنفس الغاية التي نستعملها الآن ، ومزايا هذا النظام أنه يقتصر على تسعة أعداد فقط وصفر ، في حين كانت الأرقام اليونانية والغربية القديمة القائمة على حساب الجمل تشتمل على عدد من الأرقام يقدر بعدد الحروف . ولا يخفى بطبيعة الحال الأثر الحاسم لهذه الطريقة في تقدم العلوم الرياضية . ثم إن العرب طوروا مختلف فروع الرياضيات ، ووضعوا علوماً جديدة مثل الجبر وحساب المثلثات المسطحة والكروية . وأصبحت كتبهم في هذا الميدان المعول الوحيد لعلماء أوروبا في القرون الوسطى . ولا غرابة أن يقول الأستاذ كارا دي فو إن مكتشفات المسلمين في العلوم الرياضية إنما تكمن في أساس الحضارة الحديثة .

وفي الفلك تقدم المسلمون تقدماً ملموساً وظهر عدد من كبار الفلكيين الذين أخذوا على عاتقهم تصحيح أخطاء اليونان منذ أوائل اشتغالهم بهذا العلم ، وعلى رأسهم أبو الوفا ، وثابت بن قرة ، والبتاني ، والفرغاني ، الذين تعلمت أوروبا منهم الفلك ، وظلت أسماؤهم تردد في قاعات العلم الأوروبية قروناً طويلة استمرت حتى القرن التاسع عشر .

وفي الكيمياء كانت الطريقة التي انتهجها المسلمون أعظم العمليات في القرون الوسطى كما يقول الأستاذ ديورانت . وكانت أهم مآثرهم في هذا الميدان أنهم أدخلوا التجربة الموضوعية في دراسة الكيمياء والعلوم الطبيعية ، وهذه خطوة حاسمة نحو التقدم عما كان عند اليونان من فروض مبهمة في هذا الموضوع^(٢) . وانحصرت المبادئ الأساسية التي أرسى قواعدها

(١) انظر تراث العرب العلمى في الرياضيات والفلك الأستاذ قدرى حافظ طوقان .

(٢) Ph. Hitti : History of the Arabs P. 380

علماء المسلمين في أنهم لا يقبلون شيئاً باعتباره حقيقة ، ما لم تؤيده الملاحظة أو تحققه التجربة العلمية^(١) . والكيمياء في صورتها العلمية كما يقرر الأستاذ ديورانت^(٢) إنجاز حققه المسلمون ، إذ أدخلوا الملاحظة الدقيقة والتجربة العلمية المتقنة ، واخترعوا الأنبيق وأعطوه هذا الاسم (أنبيق Alembic) ، وفرقوا بين الحوامض والقلويات ، واكتشفوا العلاقة بينهما ، ودرسوا ووصفوا مئات من العقاقير . وكان جابر بن حيان أبا الكيمياء العربية والكيمياء الحديثة على السواء^(٣) . وهو ذلك العالم الجليل الذي ألقى بظله على العالم في القرون الوسطى في الشرق وفي الغرب^(٤) .

أما علم الصيدلة فاختراع عربي أصيل^(٥) . والحق كما تقول الموسوعة البريطانية^(٦) « أن كثيراً من أسماء الأدوية وكثيراً من تركيباتها المعروفة حتى يومنا هذا ، وفي الحقيقة المبنى العام للصيدلة الحديثة — فيما عدا التعديلات الكيماوية الحديثة بطبيعة الحال — فقد بدأه العرب » .

ونبع المسلمون في الطب نبوغاً عظيماً وتفوقوا فيه على اليونان وكانت كتبهم الطبية أساساً للدراسة في جامعات أوروبا عدة قرون ، وعلى الأخص كتب الرازي وابن سينا . وأما طب العيون فيكاد يكون علماً عربياً صرفاً ، ولقد نبغ في هذا الفرع من الطب عمار الموصلي وعلي بن عيسى ، ولقد ترجم كتاباهما إلى اللاتينية وظلا يستخدمان متنين تعليميين في طب العيون في جامعات أوروبا المختلفة حتى بدأت نهضة طب العيون في فرنسا في القرن الثامن عشر^(٧) . وفي الجراحة ظل الفصل الأخير الذي كتبه أبو القاسم

E. J. Holmyard : *Makers of Chemistry* P. 60 (١)

W. Durant : *The Story of Civilization* vol. IV P. 244 (٢)

Ch. Singer : *A short History of Scientific Ideas* P. 132 (٣)

M. Meyerhof : *The Legacy of Islam* P. 314 (٤)

G. Le Ben : *La Civilisation des Arabes* P. 513 (٥)

Encyclopaedia Britannica vol. 18 P. 46 Edition 1911 (٦)

M. Meyerhof : *The Legacy of Islam* P. 331 (٧)

الزهرأوى عن الجراحة فى كتابه التصريف أول متن تعليمى فى الجراحة فى أوربا زهاء خمسة قرون (١) .

أما علم البصريات الذى وضعه ابن الهيثم فجديد تماماً وليس له نظير بين مؤلفات اليونان جميعاً (٢) . وقد انتشر كتاب المناظر لابن الهيثم فى القرون الوسطى انتشاراً كبيراً فى خمس ترجمات لاتينية ، وعدة ترجمات إلى اللغات المشتقة من اللاتينية ، وكان أساساً للدراسة فى أوربا ، واستقى منه ونزل عنه جميع كتاب أوربا فى هذا الموضوع فى القرون الوسطى . وظل هذا الكتاب فى مستواه العلمى أسمى كثيراً — كما يقرر الأستاذ مصطفى نظيف — من كثير من الكتب العلمية التى ألفها الغربيون فى هذا الموضوع بعد القرون الوسطى ومنها بعض مؤلفات كبلر ذاته (٣) .

ثم إن المسلمين كانوا أول من استعمل الورق فى الأعمال الأدبية ، وأول من أسس صناعات للورق فى أنحاء العالم الإسلامى كله وفى صقلية وأسبانيا . وانتشرت الكتب فى كل مكان وبصورة لم يعهدها العالم من قبل ، وانتشر التعليم انتشاراً واسعاً جداً . ولا شك فى أن استعمال الورق وانتشاره بهذه الصورة فى قارات ثلاث ، وظهور أنواع جيدة رخيصة ، إنما كان بداية لعصر جديد فى تاريخ الحضارة .

كذلك كان المسلمون أول من صنع أنواعاً من السكر تتحمل مشاق الرحلات التجارية والانتقالات البعيدة ، وأول من أنشأ فى حوض البحر الأبيض المتوسط صناعات لتكرير السكر ، ومزارع لزراعة قصب السكر ، ولا يخفى بطبيعة الحال الأثر الهائل الذى أحدثه السكر فى الصيدلة وفى تركيب الأدوية ، ذلك أن عالم الحضارة القديم بما فى ذلك عالم اليونان لم يعرف غير

Encyclopaedia Britannica : Abul - Kasim. (١)

Ch. Singer : A Short History of Scientific Ideas 153 (٢)

(٣) الدكتور مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية - جزء ١ ص ٣ .

عسل النحل . والحق أن تعميم استعمال السكر ، كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انتعاش الصيدلة في أيدي العرب .

وفضلاً عن هذا كله عرف العالم في إبان ازدهار الحضارة الإسلامية أنواعاً من المصنوعات والمنتجات المختلفة لم يكن لها نظير في أى مكان آخر . وفي النهاية توج المسلمون عصر حضارتهم باختراعهم للبارود ، ذلك المارد الذي أحدث انقلاباً هائلاً في عالم الحضارة .

انتقلت هذه الحضارة إلى أوروبا عن طريق المسلمين في صقلية وأسبانيا على الأخص . وسوف نتكلم هنا باختصار عن المراحل التي مرت بهذه الحضارة حتى انتقلت إلى أوروبا في القرون الوسطى .

انتقلت حضارة الإسلام إلى أوروبا على مراحل ثلاث . مرحلة كان التأثير فيها غير مباشر ، ومرحلة ثانية ترجمت فيها العلوم الإسلامية من العربية إلى اللاتينية ، ومرحلة ثالثة استغرقت فيها أوروبا في دراسة هذه العلوم وتدريسها وتفهمها وتعميمها حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حضارتها ، وعرف هذا العصر بعصر الاستعراب الأوربي .

بدأت المرحلة الأولى في أعقاب الفتح الإسلامي لأسبانيا في أوائل القرن الثامن الميلادي . ولم يكن تأثير المسلمين في ذلك الوقت المبكر علمياً ، ذلك أن المسلمين أنفسهم كانوا حتى ذلك الوقت لم يدخلوا دنيا العلم ، وإنما كان التأثير أخلاقياً ، وعلى الأخص عن طريق مثل التسامح التي ضربهاحكام المسلمين للشعوب المسيحية التي غزوها والتي كان طابعها التعصب الشديد . ثم مبادئ الفروسية العربية التي بهرت هذه الشعوب والتي نشأت عنها فيما بعد مبادئ الفروسية الأوروبية . وهنا لا ينبغي أن ننسى أيضاً مآثرة من أعظم مآثر المسلمين على أوروبا في ذلك العصر . وهي الموسيقى العربية ، والشعر العربي وهما المقومان اللذان نشأ عنهما شعراء التروبادور في القرن الحادي عشر ليكونوا آباء للأدب الأوربي الحديث .

وفي القرن العاشر كان المسلمون قد حققوا كثيراً جداً من مآثرهم العلمية ، وكانت جامعة قرطبة الإسلامية في الأندلس في ذلك الوقت هي الجامعة الوحيدة في أوروبا . وكانت أسبانيا الإسلامية قد أصبحت أرض الأعاجيب حقاً من جميع نواحي النشاط الإنساني . وكان طلاب العلم والمعرفة والرحالة يقدمون إلى أسبانيا الإسلامية من جميع أنحاء غربي أوروبا . وكان كثيرون من هؤلاء الذين ألحت عليهم الرغبة في التوجه إلى أرض العلم والفن والشعر والأدب والحضارة الراقية بأكمل معانيها من الرهبان الذين جذبتهم مظاهر القوة التي اتصفت بها أسبانيا الإسلامية ، والذين رغبوا في أن يكتشفوا بأنفسهم أسباب عظمة المسلمين وانتصاراتهم المتوالية . ولقد عاش كثيرون من هؤلاء الرهبان بين المسلمين وتعلموا في مدارسهم وعرفوا عن كتب أنهم قوم موحدون خيرون أتقياء فضلاء ، وليسوا هؤلاء الوحوش الذين كان يصورهم لهم رؤسائهم .

ولا غرابة أن يدرك هؤلاء الرهبان عن حق أن المسيحية سوف لا تستطيع أن تضارع الإسلام ، أو تصل إلى مستوى يمكنها من منافسته وتحديه ، إلا إذا اتبع المسيحيون نفس الطريق الذي سار فيه المسلمون ووجدوا فيه قوتهم وعظمتهم . واقتنع هؤلاء الرهبان الذين تمردوا على تعاليم كنيستهم أن طلب العلم وحب المعرفة وضرورة الاستزادة من العلوم الدنيوية - تلك الأشياء التي كانت على طرفي نقيض مع المعتقد المسيحي السائد آنذاك - إنما هي أهم مطلب ينبغي أن تسعى إليه الشعوب المسيحية جاهدة بكل قواها . وكان الراهب جريبر الذي أجلسه الإمبراطور أوتو الثالث في عرش البابوية (٩٩٩ - ١٠٠٣) واحداً من هؤلاء الرهبان الذين تعلموا في أسبانيا وعادوا بثورة عارمة تملأ رؤوسهم على جميع مناحي التفكير في العالم المسيحي . ولكن كان جريبر متقدماً عصره بكثير ، ولذلك لم يسلم من دسائس التعصبين والرجعيين ، فمات مسموماً قبل أن يتمكن من تحقيق أى عمل إيجابي نحو تعميم الدراسات العلمية . ولكنه على أية حال كان بداية الطريق .

ومع مرور الزمن كثرت طبقة الرهبان الذين يطالبون بإدخال العلوم في مناهج التدريس ، والذين يعلنون العصيان على الجحود الذي انطبعت به دنياهم . وأما النتيجة الباهرة لحركة العصيان هذه التي تمت داخل جدران الكنيسة وبرجالها الأفذاذ ذاتهم ، فانتهت بقبول آباء الكنيسة إدخال الفلسفة والعلوم اللدنيوية إلى مناهج التعليم في المدارس الأسقفية . ولقد أدى هذا الموقف مباشرة إلى نشوء الجامعات الأوربية . ونحن لا يسعنا هنا إلا أن نقرر أن النهضة العلمانية التي شهدتها العالم اللاتيني المسيحي في ذلك الوقت ، إنما كانت نتيجة لعمل جماعة من قساوسة الكنيسة ذاتها ، الذين تأثروا بالمسلمين والذين استطاعوا أن يحرروا أفكارهم من الجحود والتعصب والجهل الذي انطبعت به دنياهم . ثم إنه لا ينبغي لنا أن ننسى أيضاً أن الكنيسة مع قبولها مضطرة لإدخال العلوم والفلسفة في مناهج التعليم ، قد ظلت تصارع العلم والفلسفة حتى أواخر القرن التاسع عشر . ومعنى ذلك أن العلم الذي دافع عنه وتبناه وتعلمه وعلمه جماعة من الرهبان ، ولم يروا فيه شيئاً يناقض المسيحية ، كان في كثير من مفاهيمه لا يزال في عقول الفئة الغالبة في الكنيسة من الأشياء المحرمة والتي لا ينبغي للكنيسة أن تتساهل فيها . والأمثلة على ذلك كثيرة جداً تملأ صفحات التاريخ الأوربي .

وعندئذ كثر الطلب على كتب المسلمين فبدأت من ثمة في القرن الثاني عشر حركة عظيمة جداً لترجمة العلوم الإسلامية إلى العربية ، وسارت معها أيضاً حركة ترجمة علوم اليونان التي كان العرب قد ترجموها في بداية حركتهم العلمية . ولقد ترجمت هذه الكتب اليونانية من العربية أيضاً إلى اللاتينية ، ذلك أن أوربا لم تحصل على الأصول اليونانية لهذه الكتب إلا في القرن الخامس عشر . وعاصر هذه الحركة نشوء الجامعات الأوربية الأولى في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا .

يخبرنا الأستاذ لكليير^(١) في كتابه القيم تاريخ الطب العربي أنه أحصى

L. Le Clerc : Histoire de la Médecine Arabe vol. II P. 526-6 (١)

الكتب التي ترجمت من العربية إلى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فلم يجدها أقل من ثلاثمائة كتاب ، مع العلم أنه لم يخص كتب الكيماويين . ويقول : وهذه كمية هائلة من الوثائق الجديدة انتشرت في أنحاء أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فلأت بحق فراغاً كبيراً ، وحفزت على انتشار التعليم ، ولذلك لا ينبغي لنا أن ندهش من الحماسة العلمية التي صبغت القرن الثالث عشر بصبغتها ، فظهر فيه كثير من الرجال البارزين الذين تهافتوا على الاستفادة من العلم العربي . ويستطرد الأستاذ لكبير فيقول : « إن عاوم اليونان عموماً كانت ممثلة في هذه القائمة بمائة مؤلف فقط ، وعلوم العرب ممثلة بمئتين . وأمام هذه الحقائق نستطيع أن ندرك أية ثورة فكرية بعثتها في الغرب حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، وأية فائدة جناها علماء أوروبا اللاتين منها ، فكانت هذه الترجمات أداة جوهرية للتقدم وانتشاراً للعلم العربي المنتعش بجانب الغرب » .

ويقول الأستاذ سيديو^(١) : « وهكذا نرى أن التأثير الذي بثه العرب في الغرب قد عبر عن نفسه وبادت مظاهره في جميع فروع الحضارة الحديثة ، ولقد رأينا أنه قد تكون من القرن التاسع حتى القرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الأدبية والعلمية في التاريخ ، وظهرت مصنوعات ومنتجات متنوعة ، واختراعات ثمينة ، تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر . وجميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يؤكد القول بأن العرب كانوا أسانذتها في جميع فروع المعرفة » .

وهنا ينبغي أن نشير إلى حقيقة هامة جداً ، هي أن كتب اليونان لم تُترجم في ذلك العصر ، للاستفادة بالمادة العلمية التي كانت تحتوي عليها ، فإن كتب العرب كانت قد تفوقت عليها بمراحل بعيدة جداً وجعلتها غير

L. Sédillot : Histoire Générale des Arabes vol. II P. 131 (١)

صالحة بالمرّة ، وإنما لأن العرب مجدوا اليونان تمجيداً عظيماً ، وكانوا دائماً الإشادة بهم ، فمن هنا طلبت كتبهم وترجمت . ولا تزال الحقيقة الماثلة تخبرنا بأن كتب العرب هي التي كانت الأساس الذي اتخذته أساتذة أوربا في هذا العصر للتعليم ، والنبع الذي استقوا منه في تأليف كتبهم ، وأن الكتب التي ألفها بعض الأساتذة الأوربيين في القرون الوسطى ورجعوا في تأليفها إلى المؤلفات اليونانية فقط سقطت سقوطاً فاحشاً ولم تتخذ أساساً للتعليم . ويستبين ذلك جلياً إذا نحن عقدنا مقارنة سريعة بين العلوم التي خلفها اليونان والعلوم التي خلفها العرب .

ترجم العرب أهم كتب اليونان في الرياضيات والفلك والطب والجغرافيا . وترجموا عن الهند أهم كتبهم في الفلك والطب والرياضيات . وترجموا بعض المباحث الكيماوية المصرية . وهذا هو مجمل الميراث العلمي الذي ورثه العرب عن الدنيا القديمة . فإذا نظرنا في الميراث الذي خلفه العرب لأوربا ، والذي ترجم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، إذن لوجدنا أن العرب فضلاً عن تصحيحاتهم لما ورثوا عن اليونان والهند ، قد أضافوا عدة علوم جديدة لم تكن معروفة لليونان أو الهند ، كان لها أكبر الأثر في وضع حجر الأساس للحضارة الحديثة ، وهي الجبر ، وحساب المثلثات الكروي والمسطح ، والكيمياء في صورتها العلمية ، والبصريات ، والصيدلة ، وطب العيون ، وأسس الهندسة التحليلية ، والحساب الجدي . هذا ولا ينبغي أن ننسى الصناعات الهامة التي نشروها في ربوع إمبراطوريتهم وأدخلوها إلى أوربا ، مثل صناعة الورق ، وتكرير السكر ، والبارود . وكل هذا ولا شك يجعل من دنيا العرب الحضارية دنيا جديدة بكامل معنى الكلمة ، وهذا أمر جعل كثيرين من الكتاب الأوربيين يقررون بلا أدنى حرج أن حضارة الإسلام هذه كانت الأساس الحقيقي الذي تركز عليه الحضارة الحديثة .

وحقيقة أخرى لا ينبغي أن نهملها هي أن الأساتذة الأوربيين الذين

ظهروا في القرون الثاني عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، كانوا مجرد تلاميذ وناقلين عن حضارة الإسلام ، ولم يضيفوا إليها شيئاً ، واقتصر دورهم على تفهم هذه الحضارة وتدريسها وتعميمها ، مقاومين عقلية زملائهم الرجعيين من آباء الكنيسة . والحق أن أحداً من الأوربيين لم يضيف شيئاً يستحق الذكر في تاريخ العلم قبل ليوناردو دا فنشى في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . وإن في كلمات ليوناردو دا فنشى ذاته التي لام بها إخوانه الذين لا يتجهون إلى التجديد والاعتماد على النفس لأوضح مثال ، يقول : « إنهم (أى المستعربين) يحتقروني أنا المكتشف المخترع ، في حين كم يستحقون هم أنفسهم من الدم والتفريع ، أولئك الذين لم يكتشفوا شيئاً قط ، وإنما عمدوا إلى إذاعة وتكرار أعمال الآخرين (أى علماء المسلمين) إن هؤلاء الذين يدرسون فقط أعمال القدماء ، ولا يتوجهون بجهودهم إلى درس أعمال الطبيعة ذاتها ، ليسوا الأبناء الأصلاء للطبيعة ، التي هي أم المؤلفين النابغين جميعاً » .

خلاصة القول أن الإسلام ظهر في أوائل القرن السابع الميلادي في عصر عرف في التاريخ بعصر الظلام ، وكان من نتائج ظهوره كما رأينا أن تغيرت المفاهيم التي كانت سائدة في عصر الظلام هذا تغيراً تاماً وشاملاً ، واستحدثت دولة الإسلام حضارة علمية مميزة الطابع أنقذت الحضارة من الضياع والاندثار ، ووضعت أصول علوم جديدة ، انتقلت إلى أوروبا فبددت عنها تلك الظلمات التي خيمت عليها قرونًا طويلاً ، ووضعت بحق حجر الأساس في الحضارة الحديثة .

هذه إذن قصة الحضارة التي انبثقت عن هذا النبي الأُمي ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، محمد بن عبد الله .

مراجع الكتاب

- ابن كثير : السيرة النبوية .
ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .
إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفا .
أغناطيوس كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين
عثمان هاشم .
البخارى : صحيح البخارى .
جلال مظهر : الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمى الحديث .
جلال مظهر : أثر العرب فى الحضارة الأوربية - نهاية عصور الظلام
وتأسيس الحضارة الحديثة .
حبيب زيات الدمشقى : المرأة فى الجاهلية .
عبدالعزیز خیر الدین : السيرة العطرة .
الفخر الرازى : مفاتيح الغيب المشتمر بالتفسير الكبير .
قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك
محمد أحمد الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى .
محمد أحمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى .
محمد حسين هيكل : حياة محمد .
محمد الخضرى : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين .
محمد رشدى : مدنية العرب فى الجاهلية والإسلام .
محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .
عمودشكرى الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب .

مسلم : صحيح مسلم .
مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية .
نورى حمودى القيسى : الفروسية فى الشعر الجاهلى .
النورى : نهاية الأرب فى فنون الأدب .

- Arnold. Th. and A. Guillaume : The Legacy of Islam
Dampier W.C. : A History of Science and its relationship
to Philosophy
Durant W. : The Story of Civilization
Encyclopaedia Britannica
Hitti Ph. : History of the Arabs
Holmyard E. J. : Makers of Chemistry
Le Bon G. : la Civilisation des Arabes
Le Clerc : Histoire de la Médecine Arabe
Sarton G. : Ancient Science and Modern Civilization
Sarton G. : Introduction to the History of Science
Sédillot. L. : Histoire Générale des Arabes
Singer Ch. : A short History of Scientific Ideas
Singer Ch. : Greek Science and Modern Science
White A.D. : A History of the Warfare of Science with
theology in Christendom

فهرس محتويات الكتاب^(١)

صفحة

مقدمة ..	٥
الفصل الأول - الجاهلية أوفقرة ما قبل الإسلام	١١
معنى الجاهلية ١١ - افتخار الرسول بعروبه ١٢ - تشويه الكتاب القدماء والشعوبيين والمستعمرين لحقيقة الشعب العربي قبل الإسلام (تمسكهم بالقشور دون اللب) ١٣ - ميل ميزان الفكر الحديث لتصحيح الوضع ١٣ - المقومات الأخلاقية لعرب الجاهلية ١٤ - أسباب النصر ١٥ - العرب الذين ظهر فيهم الرسول أرقى أخلاقياً من الشعوب المحيطة بهم ١٧ - الإسلام لم يهدم المجتمع الجاهلي هدماً تاماً ١٧ - رفض كثيرين من زعماء الجاهلية للعادات القبيحة التي نهى عنها الإسلام ١٧ - الترقى في جزيرة العرب قديم جداً ١٩ - وضع المرأة في المجتمع ١٩ - المرأة العربية الجاهلية أرقى من جميع النساء المعاصرات لها فيما عدا المصرية ٢٠ - المرأة العربية الجاهلية لم تكن في حضيض الذل ٢٠ - شجاعته الأدبية واستقلالها في الرأي ٢١ - استقبالها للضييفان وإكرامهم ٢١ - إيجارتها للمستجير بها واحترام الرجال لها ٢١ - اشتراكها في الأحلاف والمعاهدات ٢٢ - حياتها في الأدب ٢٢ - حرصها على الكفاءة في الزواج ٢٣ - حظوة المرأة عند زوجها ٢٣ - اعتداد الأب برأى ابنته واستشارتها ٢٤ - تكنى العرب ببناتهم ٢٤ - وصف ابن المقفع للعرب ٢٤ - عظمة اللغة العربية ٢٥ - التنظيم السياسي ٢٥ -	

(١) نرجو ملاحظة أننا لم نشر في هذا الفهرس إلى جميع رؤوس الموضوعات التي جاءت

في هذا الكتاب ، إنما أشرنا إلى أهمها وأشهرها فحسب .

صفحة

المساواة بين الناس ٢٦ — تحاربهم ليس بدعة اتصفوا بها
وخدمهم بين الشعوب القديمة ٢٦ — النسب عندهم بمثابة القومية
والوطنية ٢٧ — سوق عكاظ وأثرها في توحيد اللغة والأفكار ٢٧ —
أثرها في السياسة ونشر الفكر ٢٨ — مكة تصبح قبلة العرب
٢٨ — البيت الحرام ٢٨ — العرب لم يكونوا مجرد وثنيين لا غير
٢٩ — اعترفهم بالله وإيمانهم به وبصفاته وبقدرته ٢٩ —
القرآن يُذكرهم بهذا ٢٩ — سب اتخاذهم للأصنام ٣٠ —
عبادات العرب الأخرى ٣١ — اليهودية والنصرانية ٣٢ —
العرب لم يكونوا معزولين عن عالم الحضارة ٣٤ —
التجارة الدولية القديمة بين أيديهم ٣٤ — نشوء مكة ومنزلة
قريش ٣٤ — قصي بن كلاب أشهر المكيين ٣٥ — قصي يلي
أمر الكعبة ويحلي خزاعة عن البيت ٣٦ — قصي يرأس قريش
ويجمع شملهم ٣٦ — أبناء قصي وأخبارهم ٣٧ — شرف
بنو عبد مناف ٣٧ — سيادة عبد المطاب وشرفه في قريش ٤٠ —
عبد الله الذييح الثاني ، زواجه ووفاته ٤٠ — مولد محمد
عليه السلام ٤١ — إرضاعه من ثوية جارية عمه أبي لهب ٤١ —
حليمة السعدية وحضانتها له ٤١ — عودته إلى أمه آمنة
بنت وهب ٤١ — كفالة جده عبد المطلب له وإيثاره إياه ٤٢ —
كفالة عمه أبي طالب له ٤٢ — خروجه مع عمه أبي طالب إلى الشام
٤٢ — مشاركته لأعمامه في الحياة العامة ٤٣ — اشتراكه في حرب
الفتح الرابع ٤٣ — حضوره حلف الفضول ٤٤ — اشتهاره
بالصدق والأمانة ٤٤ — بعده عن اللهو ٤٤ — خروجه بتجارة
خديجة ومقابلته للرهبان ٤٤ — زواجه منها ٤٥ — رعاية خديجة
له وحلبها عليه ٤٥ — قلة ما يعرف عنه في الفترة بين زواجه
ومبعثه ٤٧ — اختلافه إلى الأسواق والمنتديات ٤٧ — التحذف
أو التحنث في غار حيراء ٤٧ — نزول الوحي ٤٨ — عودته

مضطرباً إلى خديجة ٤٨ — تصديقها له وتبشيرها إياه بالنبوة ٤٨

٤٩ الفصل الثاني — التبشير بالرسالة في مكة

- ورقة بن نوفل يبشر محمداً بالنبوة ويحذره من قريش ٤٩ —
اعتقاد أهل مكة في الله وإشراكهم الأوثان في عبادته ٥٠ —
رفض النبي شفاعة الأصنام ٥٠ — علي بن أبي طالب أول من
آمن من الرجال ٥١ — أبو طالب يحمي النبي ٥١ — خروج
النبي مستخفياً للصلاة في شباب مكة ٥١ — أبو بكر لم يتردد
في قبول الإسلام ٥٣ — النبي وأبو بكر يدعوان للدين الحديد
سراً ٥٣ — المسلمون الأولون ٥٣ — أولى محاولات التصدي
للإسلام ٥٤ — سعد بن أبي وقاص أول من أراق دمماً في
سبيل الإسلام ٥٤ — جهر النبي بدعوته ٥٤ — رفض عشيرته
الأقربين للدعوة ٥٤ — متابعة الرسول للدعوة وسبه آلهة قريش
٥٥ — غضب قريش لسب الآلهة وبداية الصراع ٥٥ — سادة
قريش يطلبون من أبي طالب أن يكف ابن أخيه عنهم وعن
آلهم ٥٥ — تهديد قريش لأبي طالب ٥٦ — النبي يرفض التهديد
وأبو طالب يؤيده ٥٦ — عرض قريش على النبي أن يدعهم
وآلهم وأن يدعوهم وإلهه ٥٧ — رفض النبي لهذا الطلب وتحديه
لهم ٥٧ — بنو هاشم يحمون النبي ٥٨ — تحاشى الطرفين أعمال العنف
٥٩ — النبي لم يهدم دينهم من أساسه ٥٩ — تذكير القرآن لقريش
بأنهم يؤمنون بالله ٦٠ — حرية الفكر وحرية الدعوة للدين ٦٠ —
بداية قريش عصر اضطهاد للمسلمين ٦٠ — الاضطهاد لم
يرق إلى درجة إسالة الدماء ٦٠ — التعذيب الجسدي اقتصر على
العبيد ٦١ — لم يمت من التعذيب غير امرأة واحدة ٦١ — أقصى
ما تعرض له النبي والمسلمون ٦١ — إسلام حمزة بن عبد المطلب
٦٣ — الهجرة الأولى إلى الحبشة ٦٣ — أثر الهجرة في قلوب
القرشيين ٦٣ — عودة المهاجرين وقصة الغرانيق ٦٥ — الهجرة

صفحة

الثانية إلى الحبشة ٦٥ - إرسال قريش مندوبين للنجاشي
ليرد المهاجرين ٦٦ - رفض النجاشي ٦٨ - إسلام عمر بن
الخطاب ٦٩ - عتبة بن ربيعة يعرض على النبي عرضاً فرفضها
٧٢ - صحيفة المقاطعة ٧٦ - انحياز بني هاشم وبني المطلب لأبي
طالب في شعبه ٧٦ - ثبات الرسول وبني هاشم مسلمهم ومشرکہم
ضد قريش ٧٨ - إجارة بعض المشركين لنفر من المسلمين ٧٩ -
نقض نفر من المشركين لصحيفة المقاطعة ٨٢ - عودة
بني هاشم إلى الحياة العامة وتمزق الحصار الاقتصادي ٨٤ -
وفاة خديجة ٨٤ - قريش عند أبي طالب وهو على فراش
الموت ٨٤ - محاولتهم الأخيرة معه ليكف ابن أخيه عنهم وليأخذ
لهم منه عهداً ٨٤ - رفض النبي لمقترحاتهم وإصراره على دعوته
وعلى عدم الكف عن سب آلهم ٨٤ - موت أبي طالب ٨٥ -
اشتداد المشركين على النبي بالأذى ٨٦ - خروج النبي إلى
الطائف وحيداً ٨٨ - إيذاء أهل الطائف له ٨٨ - دعوة النبي
لسادات القبائل ومناقشاته معهم ٨٩ - الإسراء والمعراج ٩٥ -
ارتداد بعض المسلمين على أثره ٩٦ - تصديق أبي بكر للقصة
٩٦ - لقاء النبي ببعض أهل يثرب ٩٧ - وقعة بعاث مقدمة
لتهادن الأوس والخزرج ٩٨ - بيعة العقبة الأولى ١٠٠ -
بيعة العقبة الثانية ١٠٣ - انتشار الإسلام في المدينة انتشاراً
واسعاً ١٠٦ - أثر بيعة العقبة الثانية في موقف قريش ١٠٧ -
يوم الرّحمة وتأمير قريش على قتل النبي ١٠٨

الفصل الثالث - الهجرة ١١٠ ١١٠

المعنى التاريخي للهجرة ١١٠ - عليّ في فراش النبي ١١٠ -
النبي في دار أبي بكر ١١٠ - عائشة وأسماء تُستودعان السرّ
١١١ - تجهيز أسماء زاداً للمهاجرين العظيمة ١١١ -

صفحة

دعاء النبي ربه عند ساعة الانطلاق ١١٢ - اختفاؤهما في
غار بجبل ثور ١١٢ - مطاردة قريش لهما ١١٣ - خروجهما
بعد ثلاث ليال من الغار ١١٤ - سراقه بن مالك يدركهما في
الطريق ١١٥ - ارتداد سراقه وتضليله قريش ١١٦ - وصول
المهاجر العظيم ١١٦ - بناء مسجد قُبَاء أول مسجد في الإسلام ١١٧
- أول خطبة للنبي في المدينة ١١٧ - نزوله بدار أبي أيوب ١١٩

الفصل الرابع - بداية الدولة الإسلامية ١٢١

صفات الرسول وخصاله وسجاياه ١٢١ - المثل الأعلى
للناس ١٢٤ - إقامة شعائر الدين بحرية تامة لأول مرة ١٢٤ -
بناء المسجد ومساكن الرسول ١٢٥ - الهجرة إيدان ببداية
صراع ساخن ١٢٦ - التنظيمات الاجتماعية الأولى ومشكلات
الاستقرار الأول ١٢٦ - المؤاخاة بين المسلمين ١٢٧ - تنظيم
علاقة المسلمين باليهود ١٢٨ - عقد حلف بين المهاجرين والأنصار
واليهود واستقرار الحياة في المدينة ١٢٨ - اتخاذ الأذان للدعوة
الناس للصلاة ١٣٢ - بداية حرب الفتنة والتشكيك ١٣٣

الفصل الخامس - القتال ومشروعيته ١٣٨

حرية الفكر في جزيرة العرب ١٣٨ - الإسلام لم يشذ عن
القواعد التي حكمت حرية الفكر عند العرب ١٣٩ - الدعوة
السلمية في مكة ١٣٩ - إصرار قريش على منع المسلمين من
الكعبة ١٤١ - نزول آيات القتال ١٤١ - ضد قريش ١٤١ -
ثم ضد المشركين ١٤٢ - ثم ضد أهل الكتاب ١٤٢ - القتال
لم يشرع في الإسلام للعدوان ١٤٣ - الروح العامة للإسلام ١٤٤

الفصل السادس - بدء القتال ١٤٥

بدء المناوشات وسرايا الاستطلاع ١٤٥ - سرية حمزة بن
عبد المطلب ١٤٦ - سرية عبَّيدة بن الحارث ١٤٦ - سرية سعد

ابن أبي وقاص ١٤٧ - غزوة ودّان وهي غزوة الأنواء ١٤٧ -
غزوة بُواط ١٤٧ - غزوة العُشيرة ١٤٧ - غزوة بدر
الأولى ١٤٨ - سرية عبد الله بن جعش ١٤٨ - أول قتيل بين
المسلمين وقريش في الشهر الحرام ١٤٩ - القرآن يبرر قتل
المشركين في الشهر الحرام ١٤٩ - تحويل القبلة من القدس إلى
مكة ١٥٠ - فرض الصيام ١٥٠ - الأمر بزكاة الفطر ١٥١

الفصل السابع - غزوة بدر العظمى ١٥٢

عودة القافلة التي اعترضها الرسول في غزوة العُشيرة ١٥٢ -
خروج الرسول لاعتراضها ١٥٢ - علم أبي سفيان بذلك ١٥٣ -
استنفاؤه أهل مكة لحمايتها ١٥٣ - خروج قريش في تسعمائة
وخمسين مقاتلا ١٥٥ - خروج الرسول على رأس المسلمين ١٥٥ -
استشارته أصحابه ١٥٦ - نجاة أبي سفيان بتجارته ١٥٩ -
تحصن المسلمين ببدر ١٦٠ - عتبة بن ربيعة يريد العودة
فيفسد أبو جهل هذا الرأي ١٦١ - الاستعداد للمعركة ١٦٢ -
بداية الهجوم ١٦٣ - الرسول يخرض المسلمين ويبشرهم بنزول
الملائكة ١٦٤ - الآيات الكريمة في ذلك ١٦٥ - أثر هذا في
نفوس الطرفين ١٦٥ - نهى الرسول عن قتل أحد من بني هاشم
وبعض المشركين ١٦٧ - مقتل أبي البَخْتري بن هشام ١٦٨ -
أسر أمية بن خلف وابنه ومقتلهما ١٦٨ - مقتل أبي جهل بن
هشام ١٦٩ - قسمة الغنائم ١٧٠ - دفن القتلى ١٧١ - تبشير المسلمين
في المدينة بالنصر ١٧٢ - قتل أسيرين ١٧٥ - العودة إلى المدينة
١٧٦ - فداء الأسرى ١٧٧ - محاولة قتل النبي ١٨٢ - النهي
عن أخذ الأسرى بعد ذلك ١٨٤ .

الفصل الثامن - تجمع العاصفة قبل أحد ١٨٥

آثار غزوة بدر ١٨٥ - قتل المسيئين للرسول والإسلام ١٨٦ -

صفحة

- مقتل كعب بن الأشرف ١٨٧ - إهدار دماء اليهود ١٨٩ -
تحذير النبي لبني قَيْنُقَاع ١٩٠ - إحصاء بني قَيْنُقَاع ١٩٢ -
إغارة أبي سفيان على أطراف المدينة ١٩٣ - غزوة السَّوِيق ١٩٣ -
غزوة ذي أمر ١٩٣ - غزوة بني سليم ١٩٤ - أول الغنائم
الكبيرة ١٩٥ - زواج الرسول بخصصة ١٩٥

الفصل التاسع - غزوة أحد ١٩٦

- متجه الأحداث ١٩٦ - تحريض قريش القبائل ضد محمد ١٩٧ -
خروج قريش في ثلاثة آلاف مقاتل ١٩٧ - العباس يخبر
الرسول بأمر قريش ١٩٨ - استشارة الرسول أصحابه ١٩٩ -
خروج المسلمين ورجوع عبد الله بن أبي وجاعة ٢٠١ - دقة
الموقف لقاة عدد المسلمين ٢٠٣ - النبي يعطى سيفه لأبي دُجَانَةَ
٢٠٤ - التقاء الجمعين ٢٠٤ - أبو دُجَانَةَ وحمزة يقاتلان قتالا
شديداً ٢٠٥ - مصرع حمزة بن عبد المطلب ٢٠٦ - قصة قُزَمان
٢٠٦ - هزيمة قريش في البداية ٢٠٧ - مخالفة حماة الشَّعْبِ لأمر
النبي ٢٠٧ - خالد بن الوليد ينهز الفرصة ٢٠٨ - هزيمة المسلمين
٢٠٨ - إشاعة مقتل النبي ٢٠٨ - الهلابة التي حدثت في صفوف
المسلمين ٢٠٨ - جماعة من المسلمين فيهم امرأة يدافعون عن
النبي دفاعاً مجيداً ٢٠٩ - عمر يبغى خالداً عن الجبل ٢١١ - أبو سفيان
يواعد النبي على اللقاء في بدر العام المقبل ٢١١ - حزن النبي على
عمه حمزة ٢١٣ - دفن القتلى ٢١٣ .

الفصل العاشر - غزوة حراء الأسد ٢١٥

- تهدم المنافقين بالمسلمين بعد عودتهم من أحد ٢١٥ - أخبار
عن عزم أبي سفيان على العودة ٢١٥ - قرار النبي بالخروج
لملاقاته ٢١٦ - تحايل كل من الطرفين على إقناع الآخر بالارتداد
٢١٧ - العودة إلى المدينة بغير قتال ٢١٨ .

صفحة

٢١٩ الفصل الحادى عشر - من أحد إلى الخندق

آثار الهزيمة ٢١٩ - مقتل عاصم بن ثابت وأصحابه ٢٢٠ -
أبو سفيان يتأمر على قتل النبي ٢٢٢ - إرسال النبي عمرو بن أمية
وسامة بن أسلم لقتل أبي سفيان ٢٢٣ - إرسال القرأء إلى أهل
نجسد ٢٢٣ - أهل نجد يقتلونهم جميعاً ٢٢٣ - تأمر بنى النضير
على النبي لقتله ٢٢٥ - النبي يأمرهم بالخروج من بلاده ٢٢٥ -
خروج بنى النضير ٢٢٧ - غزوة ذات الرقاع ٢٢٨ - غزوة
بلدر الآخرة ٢٢٩ - رجوع أبى سفيان ٢٢٩ - غزوة دومة
الجندل ٢٣٠ - استعادة المسلمين لهيبتهم ٢٣٠ .

٢٣١ الفصل الثانى عشر - غزوة الخندق وهى غزوة الأحزاب

تدهور العلاقات بين المسلمين واليهود ٢٣١ - تأليب زعماء
اليهود العرب على المسلمين ٢٣٢ - تجمع أحزاب العرب لغزو
المدينة ٢٣٣ - حفر الخندق ٢٣٤ - الرسول يحفر بنفسه فى
الخندق ٢٣٥ - نبوءة تحمقت ٢٣٥ - نجاح فكرة الخندق ٢٣٦ -
تأمر بنى قريظة على المسلمين وتقضيم العهد ٢٣٧ -
حرج موقف المسلمين ٢٣٨ - هبوب العاصفة ٢٤٣ - ارتداد
الأحزاب ٢٤٤ .

٢٤٥ الفصل الثالث عشر - غزوة بنى قريظة

الأمر بالتوجه إلى بنى قريظة ٢٤٥ - الحصار يدوم خمسة
وعشرين يوماً ٢٤٦ - مشاور اليهود فيما بينهم ٢٤٦ - نزولهم على
حكيم سعد بن معاذ ٢٤٨ - الحكم بقتل المقاتلة وسبى النساء
والأطفال وقسمة الأموال ٢٤٨ - شجاعة بنى قريظة فى مواجهة
الموت ٢٤٩ .

٢٥٢ الفصل الرابع عشر - زواج النبي بزینب بنت جحش

التي ولى الله عقد زواجها ٢٥٢
زینب وكرامتها لزيد وطلاقهما ٢٥٢ - نزول الآية الكريمة

صفحة

بمنع النبي ٢٥٣ - دخول النبي بزینب بلا عقد ولا شهود من
البشر ٢٥٤ - نزول آية الحجاب صبيحة عرس زينب ٢٥٤ .
الفصل الخامس عشر - من غزوة بني قريظة إلى غزوة الحديبية ٢٥٦

الطابع الحربي للإسلام ٢٥٦ - هل الحرب طبيعة في الدين
الإسلامي؟ ٢٥٦ - سياسة الردع وإلقاء السيف لإحلال السلام ٢٥٧ -
غزوة بني لحيان ٢٥٩ - غزوة الغابة ٢٦١ - مقتل سلام بن
أبي الحقيق ٢٦٢ - أسر أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت
محمد ٢٦٣ - غزوة بني المصطلق ٢٦٤ - أسر جويرة بنت
الحارث وزواجها بالرسول ٢٦٧ - تخلف عائشة وحديث الإفك
٢٦٨ - راءة عائشة تثبت بالقرآن ٢٧٣ - معاقبة المرجنين ٢٧٣ -
قصة جماعة عكبل بخرينة ٢٧٤ .

الفصل السادس عشر - غزوة الحديبية ٢٧٥

نزول آية الحج ٢٧٦ - خروج المسلمين للحج ٢٧٧ - إصرار
قريظة على منعهم من الكعبة ٢٧٨ - مفاوضات الصلح ٢٧٩ -
بيعة الرضوان ٢٨٢ - عقد الصلح ٢٨٤ .

الفصل السابع عشر - دعوة الملوك والأمراء للإسلام ... ٢٩٠

كتاب الرسول إلى النجاشي ٢٩١ - كتابه إلى قيصر الروم ٢٩١ -
كتابته إلى أمير بصرى ٢٩٣ - كتابته إلى أمير دمشق ٢٩٤ -
كتابته إلى المقوقس ٢٩٤ - كتابته إلى كسرى ٢٩٥ - كتابته إلى
ملك البحرين ٢٩٥ - كتابته إلى ملكي عمان ٢٩٦ - كتابته إلى
ملك اليمامة ٢٩٧ .

الفصل الثامن عشر - غزوة خيبر ٢٩٨

حصون خيبر ٣٠٠ - الاستيلاء على الحصون واحداً بعد الآخر
٣٠١ - مقتل ابني أبي الحقيق ٣٠٥ - مصالحة اليهود على أن يتركوا
أراضيهم وأموالهم ٣٠٥ - خيانتهم وتحلل الرسول من عهده ٣٠٥ -

صفحة

- إقرارهم على العمل في أراضيهم مزارعة بالنصف ٣٠٦ -
- قسمة الغنائم ٣٠٦ - النبي يعتق صفية بنت حيي ويتزوجها ٣٠٧ -
- قصة الشاة المسمومة ٣٠٨ - رجوع مهاجري الحبشة ٣٠٨ .

الفصل التاسع عشر - عمرة القضاء ٣٠٩

- الخروج لعمرة القضاء ٣٠٩ - دخول المسلمين مكة وخروج قريش منها ٣١١ - بلال يؤذن في الكعبة ٣١٢ - الرسول يخطب ميمونة بنت الحارث ويتزوجها ٣١٢ - إقامة الرسول والمسلمين بمكة ثلاثة أيام ٣١٢ .

الفصل العشرون - إسلام خالد بن الوليد وصاحبيه عمرو بن

العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة ٣١٤

- أثر عمرة الحديبية في النفوس ٣١٤ - خالد يعلن إسلامه في مكة ٣١٥ - خالد وأبو سفيان ٣١٦ - خروج خالد إلى المدينة ٣١٦ - عثمان بن طلحة يخرج معه ٣١٧ - مقابلتهما لعمرو بن العاص في بعض الطريق ٣١٧ - قدوم الثلاثة سوياً إلى المدينة ٣١٧ - إسلامهم بين يدي الرسول ٣١٧ .

الفصل الحادي والعشرون - سرية مؤتة وما أعقبها من سرايا ٣١٩

- سبب بعث هذه السرية ٣١٩ - جموع الروم وعرب الشمال تتصدى للسرية بما لا قبل لها به ٣٢٠ - تشاور المسلمين للعودة ٣٢١ - عبد الله بن رواحة يشجعهم على لقاء العدو ٣٢١ - مقتل زيد بن حارثة ٣٢١ - مقتل جعفر بن أبي طالب ٣٢١ - تردد عبد الله بن رواحة ثم مقتله ٣٢٢ - خالد بن الوليد يناور مناورة ماهرة ٣٢٣ - انسحاب الجيش بأقل الخسائر ٣٢٣ - الرسول يثنى على براعة خالد ٣٢٤ .

صفحة

الفصل الثاني والعشرون - غزوة الفتح الأعظم - فتح مكة ٣٢٧

قريش تنقض عهد الحديبية ٣٢٧ - أبو سفيان يحاول الاعتذار
وينشأ - ٣٢٩ - التجهز لغزو مكة ٣٣١ - خروج النبي في عشرة
آلاف مقاتل ٣٣٣ - المسلمون يوقدون عشرة آلاف نار بمر
الظهران ٣٣٤ - فزع قريش ٣٣٥ - العباس يتناوض مع أبي
سفيان ٣٣٥ - العباس يصحب أبا سفيان للنبي ٣٣٦ - خضوع
أبي سفيان وإسلامه وتسليمه مكة ٣٣٧ - دخول جيوش الإسلام
مكة من أربع جهاتها ٣٣٩ - دخول النبي الكعبة ٣٤٠ - الأمر
بتكسير الأصنام ومحو الصور ٣٤٠ - خطبة الرسول على باب
الكعبة ٣٤١ - عفوه عن أهل مكة ٣٤١ - بلال يؤذن في الكعبة
٣٤١ - مبايعة الناس للرسول ٣٤٢ - الذين أهدر الرسول دماءهم
٣٤٣ - بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ٣٤٦ .

الفصل الثالث والعشرون - غزوتنا حنين والطائف ... ٣٤٩

خروج هوازن وثقيف لحرب النبي ٣٤٩ - المسلمون يخرجون
للقائهم في جمع تعجبهم كثرته ٣٥٠ - انهزام المسلمين في بداية
المعركة ٣٥١ - ثبات الرسول وجماعة من أهل بيته والصحابة
٣٥٢ - تجمع المسلمين حوله بعد فرارهم ٣٥٣ - اشتداد القتال
وانتصار المسلمين ٣٥٤ - فرار زعماء هوازن وثقيف ٣٥٤ -
استيلاء المسلمين على آلاف من النعم والأسرى والسبايا ٣٥٤ -
مطاردة النبي لفلول المهزمين ٣٥٥ - حصار الطائف ٣٥٦ -
الرجوع عن الطائف إلى الجعرانة ٣٥٨ - إسلام وفد هوازن
ورد النبي ٣٥٨ - قسمة الأموال ٣٦٠ - غضب الأنصار
٣٦١ - استرضاء الرسول لهم ٣٦١ - حل المشكلات والعودة إلى
المدينة ٣٦٢ .

صفحة

الفصل الرابع والعشرون - غزوة تبوك ٣٦٣

نزول آية قتال أهل الكتاب ٣٦٣ - الاستعداد لغزو الروم
٣٦٤ - تفانى المسلمين في بذل النفقة للتجهز ٣٦٤ - المتخلفون
والمنافقون ٣٦٥ - السير بأكثر جيش إسلامي إلى الشام ٣٦٦ -
التوقف عند تبوك ومصالحته بعض الأمراء على الجزية ٣٦٨ -
بعث خالد إلى ملك دومة الجندل ٣٦٩ - استشارة الصحابة ٣٦٩ -
إشارتهم بالعودة وعدم التوغل في أرض الروم ٣٦٩ - هدم
مسجد الضرار في أثناء العودة ٣٧٠ .

الفصل الخامس والعشرون - وفود العرب وإسلامهم ٣٧٢

أثر فتح مكة في موقف العرب ٣٧٢ - وفد تميم يفاخر النبي
٣٧٤ - إسلام وفد تميم ٣٧٦ - وفد ثقيف ٣٧٦ - هدم اللات
ربة ثقيف ٣٧٩ - وفد نصارى نجران ٣٨٠ - وفد بنى عامر
٣٨١ - وفد بنى سعد بن بكر ٣٨٢ - وفد طي ٣٨٣ - وفد
كندة ٣٨٣ - وفد ملوك حنير ٣٨٤ .

الفصل السادس والعشرون - أبو بكر أميراً على الحج ... ٣٨٦

أبو بكر أميراً على الحج ٣٨٦ - بعث علي للحاق بأبي بكر
لتلاوة صدر سورة التوبة ٣٨٦ - التلاوة على الناس يوم النحر
وتحريم مكة على المشركين ٣٨٧ .

الفصل السابع والعشرون - حجة الوداع ٣٨٨

انتشار الإسلام في كل ربوع الجزيرة ٣٨٨ - خروج مائة
ألف أو أكثر مع النبي للحج ٣٨٨ - وصول النبي إلى مكة ٣٨٩ -
بداية مناسك الحج ٣٨٩ - خطبة الوداع يوم التروية ٣٩٠ -
مغادرة عرفات واستكمال مناسك الحج ٣٩٢ - العودة إلى
المدينة ٣٩٣ .

صفحة

الفصل الثامن والعشرون - أهل البيت ، زوجات النبي وخطيباته

وسراريه وأولاده ٣٩٤

اختلاف كتاب السيرة في تحديد عدد زوجاته ٣٩٤ - زوجاته
اللائي دخل بهن ٣٩٤ - زوجاته اللائي توفي عنهن ٣٩٦ - زوجاته
اللائي تزوجهن ولم يدخل بهن ٣٩٦ - خطيباته اللائي لم يعقد عليهن
٣٩٧ - سراريه ٣٩٧ - قصة مارية ومأبور ٣٩٨ - مارية وحفصة
٣٩٨ - فتنة في بيت الرسول ٣٩٩ - الرسول يهجر زوجاته شهراً
ثم يعفو عنهن ٣٩٩ - أولاد الرسول ٣٩٩ .

الفصل التاسع والعشرون - مرض النبي ووفاته ٤٠٢

العودة من حجة الوداع بعد إتمام الدين ٤٠٢ - التجهيز لبعث
أسامة لغزو الشام ٤٠٣ - بداية المرض ٤٠٤ - اشتداد المرض
في بيت ميمونة ٤٠٤ - استئذانه زوجاته في أن يمرض ببيت
عائشة ٤٠٤ - اشتداد المرض وعجزه عن الصلاة بالناس ٤٠٥ -
تكليف أبي بكر بالصلاة بالناس ٤٠٥ - انقطاع الرسول عن
الناس ثلاثة أيام ٤٠٦ - وصاياه وهو في النزع الأخير ٤٠٦ -
سكرات الموت ٤٠٧ - وفاته على صدر عائشة يوم الاثنين
٤٠٧ - الدهشة التي أصابت الناس بوفاته ٤٠٧ - اختلاف
المسلمين على الخلافة ٤٠٩ - قصة سقيفة بني ساعدة ٤٠٩ -
عمر يبايع أبا بكر فيبايعه الناس ٤١٠ - بيعة العامة يوم الثلاثاء
١١٤ - أهل النبي يجهزون ويدفنونه ٤١٢ .

الفصل الثلاثون - أثر الإسلام في الحضارة ٤١٤

حقائق تاريخية ٤١٤ - انتقال علوم الدنيا القديمة لليونان ٤١٥ -
اليونان يطبعون هذه العلوم باسمهم ٤١٥ - بداية عصر انحطاط
علمي وفكري تحت النفوذ الروماني ٤١٧ - آثار انتشار المسيحية
٤١٩ - النظريات والأصول التي وضعها علماء اللاهوت المسيحي

صفحة

- ونتائجها ، ومقابلاتها في الإسلام ونتائجها ٤٢١ - صراع اللاهوت
والعلم في المسيحية ٤٣٢ - تحريم العلوم الدنيوية في العالم المسيحي
٤٣٢ - اتجاه الإسلام إلى التعليم ٤٣٨ - بداية الجهود العلمية في
الإسلام ٤٣٩ - ترجمة علوم الأقدمين ٤٤٠ - تسامح المسلمين
إزاء العلم وتشجيعهم للعلماء ٤٤٢ - تفوق المسلمين العلمي ٤٤٢ -
انتقال علوم المسلمين إلى أوروبا ٤٤٦ - الرهبان الأوربيون يتأثرون
بالمسلمين ٤٤٧ - قبول الكنيسة إدخال العلوم إلى مناهج المدارس
الأسقفية ٤٤٨ - حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ٤٤٨ -
علوم المسلمين أساس التقدم ٤٤٩ .

فهرس الأعلام

ابن عباس (عبد الله) : ١٦٦
 ابن الغيطلة : ٨٦ - ٨٧
 ابن قمئة : ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١١
 ابن المقفع (عبد الله) : ٢٤
 ابن الهيثم : ٤٤٥
 أبو أحيحة = سعيد بن العاص
 أبو أسيد : ١٦٦
 أبو أيوب (خالد بن زيد) : ١١٩ -
 ١٢٠ - ١٣٦ - ٣٠٧
 أبو البخترى بن هشام : ٧٧ -
 ٨٣ - ١٥٥ - ١٥٨ - ١٦٧ - ١٦٨
 أبو براء = عامر بن مالك
 أبو بصير (عتبة بن أسيد الثقفي) : ٢٨٧
 أبو بكر الصديق : ٧ - ١٤ - ٥٣ -
 ٦١ - ٧٩ - ٨١ - ٨٢ - ٨٧ -
 ٩١ - ٩٢ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ -
 ١١٠ - ١١١ - ١١٢ - ١١٤ -
 ١١٥ - ١١٦ - ١٢٥ - ١٢٧ -
 ١٣٤ - ١٣٥ - ١٥٦ - ١٥٧ -
 ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٧٧ -
 ١٧٨ - ١٨٤ - ٢٠٠ - ٢٠٨ -
 ٢١٠ - ٢٢٥ - ٢٦٤ - ٢٧٨ -
 ٢٨٠ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٧ -
 ٣٠٠ - ٣٠٩ - ٣٢٥ - ٣٢٩ -
 ٣٣١ - ٣٤٠ - ٣٤٢ - ٣٥١ -
 ٣٥٢ - ٣٦٧ - ٣٧٠ - ٣٧٧ -

(أ)

آدم عليه السلام : ١٢ - ٩٦ -
 ٢٤١ - ٣٨٠ - ٤٣٦
 آمنة بنت وهب : ٤٠ - ٤١ - ٤٢
 أبان بن سعيد بن العاص : ٢٨٢
 إبراهيم عليه السلام : ١٢ - ١٧ -
 ٢٨ - ٣٥ - ٤٧ - ٥١ - ٩٦ -
 ١٢٦ - ١٣٨ - ١٧٧ - ٢٣٢ -
 ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٣٤٠ - ٣٨٠
 إبراهيم بن محمد : ٢٩٥ - ٣٩٤ -
 ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ -
 ٤٠١ - ٤٢٢
 أبقراط : ٤١٧
 ابن أبي الحقيق = سلام بن أبي الحقيق
 ابن أبي سلمى = كعب بن زهير
 ابن أبي شمر الغساني : ٣٥٨
 ابن أبي العوجاء السلمى : ٣١٩
 ابن أبي قحافة = أبو بكر الصديق
 ابن أزر بن عبد عوف : ٧١
 ابن أم مكتوم = عبد الله بن أم مكتوم
 ابن الحضرمى = عمرو بن الحضرمى
 ابن الحنظلية = أبو جهل
 ابن الدغنة : ٧٩ - ٨١ - ٨٢
 ابن سلامة = ساكان بن سلامة بن وقش
 ابن سنيمة : ١٩٠
 ابن سينا : ٤٤٤

أبو دهبيل : ٢٣
أبو ذر الغفاري : ٢٢٨ - ٢٦٤
٣٦٨ - ٣٦٧ - ٣١٠
أبو رافع = سلام بن أبي الحقيق
أبو رافع (مولى الرسول) :
٣٩٥ - ٣١٣
أبو سبرة بن أبي رهم : ٦٥
أبو سعد بن وهب : ٢٢٧
أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب :
٣٥٣ - ٣٣٣
أبو سفيان بن حرب : ٥٥ - ٧٣
٨٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٥٢
١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٧٣
١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨٧
١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٦ - ١٩٧
١٩٨ - ٢٠٨ - ٢١١ - ٢١٢
٢١٥ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٢١
٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٨ - ٢٢٩
٢٣٣ - ٢٤٢ - ٢٤٤ - ٢٨٢
٢٩٢ - ٢٩٣ - ٣١٦ - ٣٢٨
٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣٥ - ٣٣٦
٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٤٢ - ٣٥١
٣٥٧ - ٣٦٠ - ٣٧٨ - ٣٧٩
أبو سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد :
٦٤ - ٨٠ - ١٤٧ - ٢١٩ - ٣٩٥
أبو سنان الأسدي : ٢٨٢
أبو صفوان = أمية بن خلف

٣٧٨ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٩٢
٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٨ - ٤٠٩
٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤٢٣
أبو جندل بن سهيل بن عمرو :
٢٨٧ - ٢٨٥
أبو جهل بن هشام : ٥٥ - ٥٧
٦١ - ٦٣ - ٧٠ - ٧٣ - ٧٧
٧٨ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥
٨٧ - ٩٥ - ٩٦ - ١٠٩
١١٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥
١٥٨ - ١٥٩ - ١٦١ - ١٦٢
١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢
١٨٥ - ٣١٢
أبو حذيفة بن عتبة : ٦٤ - ١٧١
أبو الحقيق : ٣٠٥
أبو الحكم بن هشام = أبو جهل
أبو حكيم (زمعة بن الأسود بن
المطلب) : ١٧٤
أبو حنظلة = أبو سفيان
أبو حيسر (أنس بن رافع) : ٩٨
أبو الحنساء : ٢٤
أبو خيثمة : ٢٠٢ - ٣٦٦
٣٦٧ - ٣٦٨
أبو دجاجة (سماك بن خرشة) :
٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢١٠ - ٢٢٧
٣٠٣ - ٣٨٩
أبو ديمة = وحشى

أبو صيني بن هاشم بن عبد مناف :
٣٩
أبو طالب بن عبد المطلب : ٤٠ -
٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٥١ -
٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ -
٥٩ - ٧٦ - ٨٠ - ٨١ - ٨٤ -
٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ١٦٤ -
أبو طلحة (زيد بن سهل) : ٢١٠ -
٣٣٤ - ٣٥٤ - ٤١٢ -
أبو العاص بن الربيع : ٤٧ - ١٢٠ -
١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ٢٦٣ -
٣٣٠ - ٤٠٠ -
أبو عامر الأشعري : ٣٥٥
أبو عامر (عبد عمرو بن صيني)
المسمى بالراهب : ١٩٧ - ٢٠٤ -
٢٠٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ -
أبو عبد شمس = الوايد بن المغيرة
أبو عبيدة : ٢٠٩ -
أبو عبيدة بن الجراح : ٢١٩ - ٣٢٥ -
٣٣٩ - ٣٦٣ - ٣٨٠ - ٤١٢ -
أبو عتبة = أبو لهب :
أبو عزة (عمرو بن عبد الله) الشاعر :
١٨٢ - ١٩٧ - ٢١٤ - ٢١٨ -
أبو عزيز (أخو مصعب بن عمير) :
١٧٤
أبو غناب : ١٨٦ -
أبو عمارة = حمزة بن عبد المطلب
أبو عياش : ٢٦٠ -
أبو عيسى بن جبر : ١٨٨ -
أبو غبشان (حليل بن حبشية) : ٣٦ -

أبو الغيداق : ٢٠٦ -
أبو الفضل = العباس بن عبد المطلب
أبو القاسم الزهراوي : ٤٤٤ -
أبو قتادة : ٢٦٠ - ٢٦١ -
أبو قحافة : ١١٢ -
أبو قيس بن الأسات : ٩٩ -
أبو كعب : ١٩٨ -
أبو لبابة (بشير بن عبد المنذر) :
١٥٥ - ١٥٦ - ١٧٣ - ١٩٣ -
٢٤٧ -
أبو لهب (عبد المزي بن عبد المطلب) :
٤٠ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٩ - ٧٦ -
٧٧ - ٨١ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٩ -
٩٠ - ١٥٣ - ٤٠٠ -
أبو محمد (مسعود بن أوس) : ١٣٦ -
أبو مرثد الغنوي : ١٤٦ -
أبو موسى الأشعري : ٣٠٨ -
٣٥٥ - ٣٥٦ -
أبو مويهبة (مولى الرسول) : ٤٠٣ -
أبو نائلة = سا.كان بن سلامة
أبو هالة التميمي : ٣٩٤ -
أبو هريرة : ٣٢١ -
أبو الهيثم بن التيهان : ١٠٤ -
أبو الوفا : ٤٤٣ -
أبو وهب = صفوان بن أمية
أبو الوليد = عتبة بن ربيعة
أبو يزيد = سهيل بن عمرو
أبو اليسر = كعب بن عمرو
أبو يوسف : ٢٧٢ -
أبي بن خلف : ٧٨ - ٢١٠ -

الأشعث بن قيس : ٣٦٩ - ٣٨٣
الإصمعي بن عمرو النصراني : ٢٦٤
أصطمان : ٤٣٩
الأعشى : ٢٣
أفرايم كيرلس : ٤٣٤
أفلاطون : ٤٣٣
الأفوه الأودي : ٢٥
الأقرع بن حابس : ١٨ - ٣٥٩ -
٣٧٤ - ٣٧٦
إقليدس : ٤١٦
أكثم بن صيفي : ١٨ - ٢٣ - ٢٦
أكيلر بن عبد الملك : ٣٦٩
أم أيمن : ٤٢ - ١٢٠
أم جندب : ٢٣
أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان)
أم المؤمنين : ٢٩١ - ٣٠٨ -
٣٢٩ - ٣٩٥
إحمتب : ٤١٧
أم حكيم بنت الحارث بن هشام
ابن المغيرة : ١٩٧
أم حكيم بنت الحويرث : ٣٤٣
أم حكيم بنت عبدالمطلب : ٢٢ - ٤٠
أم رومان : ٩٤ - ١٣١
أم سلمة (هند بنت أبي أمية) أم
المؤمنين : ٢٧٧ - ٢٨٦ -
٣١٣ - ٣٣٣ - ٣٥٧ - ٣٩٥
أم سليم بنت ملحان : ٣٠٧ - ٣٥٤
أم صفوان (زوج أمية بن خلف) :
١٥٤
أم عبد الله = عائشة أم المؤمنين

أحمد (الإمام) : ١٢
الأخنس بن شريق بن عمرو : ١٥٩
إدريس (عليه السلام) : ٩٦
أربد بن قيس : ٣٨١ - ٣٨٢
أرسطو : ٤١٦
أروى بنت عبد المطلب : ٤٠
أسامة بن زيد : ١٧٣ - ٢٠١ -
٢٧١ - ٣٤٠ - ٣٥٢ - ٣٧٠ -
٤٠٣ - ٤٠٩ - ٤١٢
إسحق (عليه السلام) : ١٧ - ٣٨٠
أسد بن سعدة : ٢٣٧
أسد بن هاشم بن عبد مناف : ٣٩
أسعد بن زرارة : ١٠٠ - ١٠١ -
١٠٢ - ١٠٥
أسلم (غلام بني الحجاج) : ١٥٧
أسماء بنت أبي بكر : ١١٠ - ١١١ -
١١٢ - ١١٣ - ١١٤
أسماء بنت عميس : ٣٢٤ - ٣٩٥
إسماعيل (عليه السلام) : ١٢ -
١٧ - ٢٨ - ٣٥ - ١٣٩ - ٣٤٠
الأسود بن رزن : ٣٢٨
الأسود بن عبد الأسد المخزومي : ١٦٣
الأسود بن المطلب : ١٧٣ - ١٩٤
أسيد بن حضير : ١٠٠ - ١٠١ -
١٠٢ - ١٠٥ - ١٧٦ - ٢٠٠ -
٢٠١ - ٢١٩ - ٢٢٢ - ٢٦٥ -
٢٦٦ - ٢٧١ - ٣٦٧
أسيد بن سعدة : ٢٣٧
أسيد بن ظهير : ٢٠١
أشجع : ٣٣١

أم عبيد الله بن عامر : ٦٤
أم عمارة (نسبها بنت كعب) : ٢٠٩
أم الفضل بن الحارث (زوج العباس) :
١٨٨ - ٣١٢
أم كلثوم بنت علي : ٤٠١
أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط :
٢٨٦
أم كلثوم بنت محمد : ٤٧ -
١٢٠ - ١٩٥ - ٣٤٥ - ٤٠٠
أم المساكين (زينب بنت خزيمة)
٣٩٥ : أم المؤمنين
أم مسطح بنت أبي رهم بن
عبد المطاب : ٢٧٠
أم هاني (فاخرة بنت عبد المطاب) :
٢١ - ٣٤٤ - ٣٩٧
أم مروز (القديس) : ٤٢٧
أميمة بنت أبي العاص بن الربيع : ٤٠٠
أمروء القيس : ٢٣
أميمة بنت عبد المطاب : ٤٠ -
٢٥٢ - ٣٩٥
أميمة (أميمة) الجونية : ٣٩٦
أميمة (أميمة) الجونية : ٣٩٦
أمية بن خلف : ٦١ - ٨٥ - ١٤٧ -
١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٨ -
١٦٨ - ١٦٩ - ١٧١ - ١٧٢
ميمة بن عبد شمس : ٣٨
ميمة بن المغيرة : ٤٦
ندرو ديكسون وايت : ٤٣٤
نس بن فضالة : ١٩٨
نس بن مالك : ٢٠٨ - ٣٠٧ - ٣٣٤

أنس بن النضر : ٢٠٨
أوتو الثالث : ٤٤٧
أوس بن خولى : ٤١٢
أوس بن قبيطى : ٢٣٨
أوغسطين (القديس) : ٤٢٧ -
٤٣٦ - ٤٣٧
إيلاس بن معاذ : ٩٨
إيراتوستينس : ٤٤٢
أمن بن أم أمن : ٣٥٢
أيوب (عليه السلام) : ٤٣٧
(ب)
باذان : ٢٩٥
بازيل القيصري : ٤٣٤
البتاني : ٤٤٣
البخارى : ١٢ - ١٣١ - ١٥٣
بختنصر : ٣٢
بديل بن ورقاء : ٢٧٩ - ٢٨٠ -
٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٥
البراء بن عازب : ٢٠١
البراء بن معرور : ١٠٤ - ٢٣٥
برة بنت عبد المطاب : ٤٠
برة بنت قصي : ٣٥
بريرة : ٢٧١
بسبس بن عمرو : ١٥٨
بشر بن البراء بن معرو : ٣٠٨
بشر بن سعد : ٣١٠
بطامبيوس (الفاكي) : ٤١٦ -
٤١٨ - ٤٤٢

(ج)

- جابر بن حيان : ٤٤٤
جابر بن عبد الله : ٢٠٢ - ٢١٦
٢٨٢ - ٣٣٤
جالينوس : ٤١٨
جابر بن مطعم : ١٠٦ - ١٩٨
٢٠٦
جهدم الجذيمي : ٣٤٧
جحل بن عبد المطلب : ٤٠
الجد بن قيس : ٢٨٢ - ٣٦٥
الجدعاء (ناقة الرسول) : ١١٤
جرير : ٤٤٧
جربجوري الأكبر : ٤٢٧
جعفر بن أبي طالب : ٦٧ - ٦٨
١٢٧ - ٣١٣ - ٣١٢ - ٣٠٨
٣١٩ - ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣
٣٢٤
جميل بن معمر الجمحي : ٧١
جهجاه بن مسعود : ٢٦٥
جورج سارتون : ٢٥ - ٤٤٠
جوستنيان : ٤٣٣
جوليان : ٤١٩
جون وزلي : ٤٢٦
جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار
(أم المؤمنين) : ٢٦٤ - ٢٦٧
٣٩٥
جيفر بن الجلندي : ٢٩١ - ٢٩٦
٢٩٧

(ح)

- الحارث بن أبي زينب : ٣٠٢

- بنت خارجة (زوج أبي بكر) : ٤٠٧
بلال (مؤذن الرسول) : ٦١
١٣٢ - ١٦٨ - ١٦٩ - ٢٤٥
٢٦١ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣٤١
٣٤٢ - ٣٧٥ - ٤٠٥
بوثيروس : ٤٣٣
بولس (التمديس) : ٤٢٣ - ٤٢٦
٤٣٢ - ٤٣٦ - ٤٣٧
بونيفاس : ٤٣٧
بيحرة بن فراس : ٩١
بيسيل : ٤٤٢
البيهي : ١٦٦

(ت)

- تخمر بنت قصي : ٣٥
تشارلز سنجر : ٤١٦
تماضر بنت الإصبع بن عمرو : ٢٦٤
تيموثاوس : ٤٢٦

(ث)

- ثابت بن أرقم : ٣٢١ - ٣٢٢
ثابت بن قرة : ٤٤١ - ٤٤٣
ثابت بن قيس بن شماس : ٢٤٩ -
٢٥٠ - ٢٦٧ - ٣٧٥
ثعلبة بن سعنة : ٢٣٧
ثمارة بن أثال : ٢٥٨ - ٢٥٩
ثوية (مولاة أبي لب) : ٤١ - ٣٩٧
ثيودوسيوس : ٤١٩
ثيوفيل الأنطاكي : ٤٣٢ - ٤٣٥
ثيون (الناكبي) : ٤٣٢

٢٩٥ — ٣٧٦ — ٣٩٧
 حسان بن عبد الملك : ٣٦٩
 الحسن بن علي بن أبي طالب :
 ٣٢٩ — ٤٠١
 الحسين بن علي بن أبي طالب : ٤٠١
 حضير (رئيس الأوس) : ٩٩
 حفصة بنت عمر بن الخطاب (أم
 المؤمنين) : ١٩٥ — ٣٩٥ — ٣٩٨
 ٣٩٩ — ٤٠٤
 الحكيم بن كيسان : ١٤٩ — ١٥٠
 حكيم بن حزام : ٥٢ — ١٥٨
 ١٦١ — ١٦٢ — ١٨٥ — ٣٦٠
 الحليس بن عاتمة : ٢٧٩
 حليل بن حبشية : ٣٦
 حليلة بنت ذؤيب السعدية : ٤١
 حمزة بن عبد المطالب : ٤٠ — ٤١
 ٦٣ — ٦٩ — ٧٠ — ٧٢
 ٧٦ — ٨٥ — ١٢٧ — ١٤٦
 ١٤٧ — ١٦٣ — ١٦٤ — ١٦٨
 ١٧٧ — ١٩٨ — ٢٠٠ — ٢٠٥
 ٢٠٦ — ٢١٢ — ٢١٣ — ٢٤٧
 ٣٤٢
 حمزة بنت جحش : ٢٧١ — ٢٧٣
 حنظلة بن أبي سفيان : ١٧٨
 حزن بن إسحق : ٤٤١
 الحويرث بن نقيده : ٣٤٥
 حويصة بن مسعود الأوسي : ١٩٠
 حويطب بن عبد العزى : ١٥٢ —
 ٣١٢
 حيان بن سامي : ٣٨١

الحارث بن أبي شمر : ٢٩١ —
 ٢٩٤
 الحارث بن أبي ضرار : ٢٦٤
 الحارث بن الأسود بن المطالب :
 ١٧٤
 الحارث بن أوس بن معاذ : ١٨٨
 الحارث بن حرب بن أمية : ١٠٦
 الحارث بن الصمة : ٢١١ — ٢٢٧
 الحارث بن عامر بن نوفل : ١٥٨
 الحارث بن عبد كلال : ٣٨٤
 الحارث بن عبد المطالب : ٤٠ — ٤١
 الحارث بن عمرو : ١٣٦ — ٣١٩
 الحارث بن عمر الأزدي : ٢٩٣
 الحارث بن عوف : ٢٣٣ — ٢٣٩
 الحارث بن هشام : ١٩٧ — ٣٤٢ —
 ٣٤٤
 حاطب بن أبي بلتعة : ٢٩٤ —
 ٣٣١ — ٣٣٢
 حاطب بن عمرو بن عبد شمس : ٦٥
 حاتم (بن نوح) : ١٩٧
 الحباب بن المنذر : ١٥٥ — ١٦٠
 ١٩٨ — ٢٠١ — ٣٠٣ — ٣٦٧ — ٤١٠
 حبي بنت حليل بن حبشية : ٣٥
 حبيب بن عمرو : ٨٨
 حبيبة بنت العباس بن عبد المطالب :
 ٣٩٧
 حبيش الأعشى : ٤٤١
 حذيفة : ٢٤٤
 حزام بن نحويلد : ٧٧
 حسان بن ثابت : ٢٧٣ — ٢٧٤

خنيس بن حذافة : ١٩٥ - ٣٩٥
خوات بن جبير : ٢٣٧
خولة بنت حكيم : ٩٤ - ٩٥

(د)

دامبير : ٤١٨
دحية الكلبي : ٢٩١ - ٣٠٧
دختنوس بنت لقيط بن زرارة : ٢٤
دريد بن الصمة : ٢١ - ٣٤٩ -
٣٥٠ - ٣٥٦ - ٤٣٧
دعشور بن الحارث : ١٩٣
الدلدل (بغلة النبي) : ٢٩٥
ديورانت (ول) : ٤٤٣ - ٤٤٤
ديوفانتيس : ٤١٦
ديوكاشيان : ٤١٩

(ذ)

ذات النطاقين = أسماء بنت أبي بكر

ذكوان بن قيس : ٢٠١
ذو النورين = عثمان بن عفان .
ذؤيب بن كنانة : ٣٢٨

(ر)

الرازي : ٤٤٤
رافع بن خديج : ٢٠١
ربيعة بن أمية بن خلف : ٣٩٠ -
٣٩٢
ربيعة بن الحارث : ٣٨٣
ربيعة بن ربيع بن أهان السلمي :
٣٥٦

حية بنت هاشم بن عبد مناف : ٣٩
حي بن أخطب : ٢٢٦ - ٢٣٢ -
٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ -
٣٠٥

(خ)

خارجة بن زيد : ١٢٧ - ٢٠٨
خالد بن أسيد : ٣١٢
خالد بن سعيد بن العاص : ٣٧٧
خالد بن الوليد : ١٤ - ٢٠٤ -
٢٠٨ - ٢١١ - ٢٧٨ -
٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٨ -
٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٣٩ - ٣٤٠ -
٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٥١ -
٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٦٠ -
٣٦٩ - ٣٧٨
خالد بن يزيد بن معاوية : ٤٣٩ -
٤٤٠

خالدة بنت هاشم بن عبد مناف :
٣٩

خباب بن الأثرث : ٦٩ - ٧٠
خبيب بن علي : ٢٢٠ - ٢٢١
خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين) :
٢٢ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ -
٤٨ - ٤٩ - ٥١ - ٥٢ -
٥٣ - ٧٧ - ٨٤ - ٨٦ -
٩٤ - ١٧٩ - ٣٩٤ - ٣٩٩
خراش بن أمية : ٢٨١
الخطاب : ٦٤ - ٣٣٦
خلاد بن سويد : ٢٥٠
الخنساء : ٢٣

زيد بن حارثة : ٥١ - ٥٢ -
٥٣ - ٥٨ - ١٢٠ - ١٢٧ -
١٤٨ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٨٠ -
١٨٧ - ١٩٥ - ٢٣٨ - ٢٥٢ -
٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٦٣ - ٢٦٤ -
٣١٣ - ٣٢١ - ٣٢٣ - ٣٩٥ -
٤٠٠

زيد بن الخطاب : ٣٧٩

زيد الخليل (زيد بن مهامل بن
زيد) : ٣٨٣

زيد بن الدثنة : ٢٢٠ - ٢٢١ -
زيد بن سهل (أبو طلحة) : ٤١٢
زيد بن الصليت : ١٣٦
زيد بن عمرو : ١٣٦

زيد بن محمد = زيد بن حارثة .
زينب بنت جحش (أم المؤمنين) :
٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٧١ -
٣٥٧ - ٣٩٥ - ٣٩٨

زينب بنت الحارث اليهودية :
٣٠٨

زينب بنت خزيمه : ٣٩٥
زينب بنت علي : ٤٠١
زينب بنت محمد : ٤٧ - ١٢٠ -
١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ٢٦٣ -
٣٣٠ - ٤٠٠

زوي بن الحارث : ١٣٧

(س)

سارة (مولاة لبعض بني عبدالمطلب) :
٣٣١

رزاح بن ربيعة : ٣٦
الرشيد : ٤٤٠
رفاعة بن المعلى : ٢٠٨
رقية بنت محمد : ٤٧ - ٦٤ -
١٢٠ - ١٩٥ - ٤٠٠
رقية بنت هاشم بن عبدمناف : ٣٩
ريحانة بنت عمرو بن خنافة اليهودية :
٢٥١ - ٣٩٦ - ٣٩٧

ريطة بنت جندل الطعان : ٢١

(ز)

الزرقان بن بدر : ٣٧٤ - ٣٧٦
الزبير بن باطا : ٢٤٩ - ٢٥٠
الزبير بن عبدالمطلب : ٤٠ - ٤٣
الزبير بن العوام : ٥٣ - ٦٤ -
١٥٥ - ١٥٧ - ٢٠٤ - ٢٠٥ -
٢٠٧ - ٢١٠ - ٢١٣ - ٢٤٧ -
٣٠٢ - ٣٠٥ - ٣١٣ - ٣٣٢ -
٣٣٩ - ٣٦٧ - ٤٠٩

زخاري (البابا) : ٤٣٧

زرعة فويزن بن مرة الرهاوي :
٣٨٤ - ٣٨٥

زمنة بن الأسود : ٨٣ - ٩٥ -
١٥٨ - ١٧٢ - ١٧٤

زهير بن أبي أمية : ٨٢ - ٨٣ -
٣٤٤

زهير بن أبي سلمى : ٢٩ - ١٠٨

زهير بن ضراد أبو ضراد : ٣٥٨

زيد = قصى بن كلاب .

زيد بن أرقم : ٢٦٥

زيد بن ثابت : ٢٠١ - ٢٢٨

سعيد بن العاص (أبو أحيحة) : ٦٥
سفوان : ١٤٨
سفيان بن خالد بن نبيح : ٢٢٠
سفيان بن عبد شمس : ٢٣٣
السكران بن عمرو : ٣٩٥
سلام بن أبي الحقيق : ٢٣٢ -
٢٦٢ - ٣٠٥ - ٣٠٧
سلام بن مشكم : ٣٠٨
سلكان بن سلامة بن وقش :
١٨٨ - ١٨٩
سلمان الفارسي : ٢٣٣ - ٣٥٧
سلمة بن أبي سلمة : ٣١٣
سلمة بن أسلم : ٢٢٣ - ٢٣٨
سلمة بن خويلد : ٢١٩
سلمة بن سلامة بن وقش : ١٥٦
سلمة بن عبد الأسد : ٧٩
سلمة بن عمرو بن الأكوع :
٢٦٠ - ٢٦١
سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة : ٦٤
سلمى بن كنانة : ٣٢٨
سلمى بنت عمرو بن زيد : ٣٩
سلمى بنت عميس : ٣١٣
سليط بن عمرو : ٢٩٧
سليط بن النعمان : ١٩٥
السليك بن السليكة : ٢١ - ٢٢
سليم بن عمرو : ٣٦
سليم بن منصور : ٣٤٦
سليمان (عليه السلام) : ٤٣٧
سماك بن خرشة = أبو دجاجة .
سمرة بن جندب : ٢٠١

سارتون = جورج سارتون .
سالم بن عمر : ١٨٦
السائب بن أبي حبيش : ١٦٦
السائب بن عثمان بن مظعون : ١٤٧
سباع بن عبد العزى : ٢٠٦
سباع بن عرفطة الغفاري : ٢٩٩ -
٣٦٧
سبيعة بنت عبد شمس : ٢٨٠
سراقة بن مالك : ١١٣ - ١١٥ -
١١٦
سعد بن أبي : ١٩٨
سعد بن أبي سرح : ٣٤٣
سعد بن أبي وقاص : ١٤ - ٥٣ -
٥٤ - ٦١ - ١٤٦ - ١٤٧ -
١٤٨ - ١٥٠ - ١٥٧ - ٢١٠ -
٢١٩
سعد بن الربيع : ١٢٧
سعد بن زيد : ٢٠٢ - ٢٦٠ - ٣٤٦
سعد بن عباد : ١٠٤ - ١٠٦ -
١١٩ - ١٤٧ - ٢١٠ - ٢٣٤ -
٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٦٤ -
٢٧١ - ٣١٢ - ٣٣٩ - ٣٦١ -
٤٠٩
سعد بن معاذ : ١٠٠ - ١٠١ -
١٠٢ - ١٤٧ - ١٥٣ - ١٥٤ -
١٥٥ - ١٥٧ - ١٦٠ - ١٦٣ -
٢٠٠ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ -
٢٤٨ - ٣٦٩
سعد بن النعمان بن أكال : ١٧٩
سعيد بن زيد : ٦٩ - ٢٥١

شبية بن هاشم = عبد المطلب بن هاشم .

الشيء بنت الحارث : ٣٦٢

(ص)

صالح (مولى الرسول) : ٤١٢

صفوان بن أبي الشغفر : ٣٩٥

صفوان بن أمية : ١٨٢ - ١٨٣

١٨٤ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦

٢٢١ - ٣١٢ - ٣١٦ - ٣٣٩

٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٥٠ - ٣٥١

٣٥٢ - ٣٦٠

صفوان بن المعطل : ٢٦٨ - ٢٦٩

صفية بنت بشامة الغنبري : ٣٩٧

صفية بنت حيي بن أخطب (أم المؤمنين) : ٣٠٥ - ٣٠٧

٣٠٨ - ٣٩٥

صفية بنت عبد المطلب : ٤٠

٢٠٥ - ٢١٣ - ٣٠٢ - ٤٠٦

صهيب : ١٢٦

(ض)

ضباعة بنت عامر : ٣٩٧

الضحاك بن خليفة : ٣٦٥

ضرار بن الخطاب : ٢٤٠

ضرار بن عبد المطلب : ٤٠

ضعيفة بنت هاشم بن عبد مناف :

٣٩

ضمام بن ثعلبة : ٣٨٢

ضمضم بن عمرو الغفاري : ١٥٣

سهل بن حنيف : ٢٢٧

سهل بن عمرو النجاري : ١١٩

سراة بنت سهيل : ٦٤

سهيل بن عمرو : ١٥٥ - ١٥٨

١٧٢ - ١٧٧ - ١٧٨ - ٢٨٣

٢٨٤ - ٣١٢ - ٣٣٩ - ٣٥٢

٣٩٥

سهيل بن عمرو النجاري : ١١٩

سهيل بن وهب بن ربيعة : ٦٥

سنان بن وبرة الجهني : ٢٦٥

سواد بن غزية : ١٦٢

سواع (صنم) : ٣٤٦

سودة بنت زمعة (أم المؤمنين) :

٩٤ - ٩٥ - ١٢٠ - ١٧٧

٣٩٤

سويد بن الصامت : ٩٧ - ٩٨

سويام اليهودي : ٣٦٥

سيديو : ٤٤٩

سيرين : ٢٩٥ - ٣٩٧

(ش)

شاس بن قيس : ١٣٤

شجاع بن وهب : ٢٩٤

شرحبيل بن عمرو الغساني : ٢٩٣ -

٣١٩ - ٣٢١

الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف : ٣٩

شقران (مولى الرسول) : ١٧٧

الشيء : ٣٩٦

شبية بن ربيعة : ٥٥ - ٨٥

٨٨ - ١٥٥ - ١٥٨ - ١٦٣

١٦٤ - ١٧١ - ١٧٢

عامر بن ربيعة بن الحارث : ٦٤ -

٣٩١

عامر بن صعصعة : ٩٠

عامر بن الطفيل : ٢٢٤ - ٣٨١ -

٣٨٢

عامر بن الظرب : ٢٤

عامر بن فهيرة : ١١٣ - ١٤٤

عامر بن مالك ملاعب الأسنة :

٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥

العالية بنت ظبيان : ٣٩٦

عائشة (أم المؤمنين) : ٢٢ - ٤٦ -

٩٤ - ١١٠ - ١١١ - ١١٣ -

١٢٠ - ١٣١ - ٢٥٠ - ٢٥٤ -

٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٧١ - ٢٧٢ -

٢٧٣ - ٢٧٤ - ٣٠٦ - ٣٣١ -

٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٨ - ٣٩٩ -

٤٠٤ - ٤٠٦ - ٤٠٧

عباد بن بشر : ١٨٨ - ٢٦٥

عبادة بن الصامت : ١٠٠ - ١٠٥ -

١٩٢

العباس بن عبد المطلب : ٥١ -

٧١ - ١٠٤ - ١٥٥ - ١٦٧ -

١٧٤ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٩٨ -

٣١٢ - ٣٣٣ - ٣٣٥ - ٣٣٦ -

٣٣٧ - ٣٤١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ -

٣٨٣ - ٣٩١ - ٤٠١ - ٤٠٥ -

٤١٢

العباس بن مرداس : ٣٥٩ - ٣٦٠

عبد بن الجلندي : ٢٩١ - ٢٩٦ - ٢٩٧

عبد بن قصى : ٣٥

(ط)

طالب بن أبي طالب : ١٥٩

الظاهر بن محمد = عبد الله بن محمد

طرفة بن العبد : ٢١

طعيمة بن عدى : ١٥٨ - ١٩٨ -

٢٠٦

طلحة بن أبي طلحة العبدري : ٢٠٧

طلحة بن عبيد الله : ٥٣ - ٢٠٩ -

٢١٠ - ٢١١ - ٢٦٠ - ٣٦٥ -

٤٠٩

طليحة بن خويلد : ٢١٩ - ٢٣٣ -

٢٤٤

الطيب بن محمد = عبد الله بن

محمد .

(ع)

عاتكة بنت أبي العيص بن أمية :

١٨٧

عاتكة بنت عبد المطاب : ٢٢ - ٤٠ -

عاتكة بنت مرة بن هلال : ٢٢

العاص بن هشام بن المغيرة : ١٥٣

العاص بن وائل : ٥٥ - ٧٢ -

٧٣ - ٨٢ - ٣٢٤ - ٤٠٠ -

عاصم بن ثابت : ١٧٥ - ٢٢٠ -

٢٢٥ - ٢٥٩

عاصم بن عدى : ١٧٢ - ٣٧١

عامر بن جشم : ١٨

عامر بن الحضرمي : ١٥٣ - ١٦٢ -

١٨٥

١٤٩ — ١٥٠ — ٢١٣ — ٢٥٢ —
٢٩١ — ٣٩٥
عبد الله بن جلدعان : ٤٣ — ٦٣ —
١٦٩
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
٣٢٤ — ٤٠١
عبد الله بن حادفة السهمي : ٢٩٥
عبد الله بن حنبل : ٣٤٥
عبد الله بن ربيعة : ٦٦ — ٦٨
عبد الله بن رواحة : ١٠٥ — ١٦٣ —
١٧٢ — ١٨٧ — ٢٣٧ — ٣١١ —
٣٢٠ — ٣٢١ — ٣٢٢ — ٣٢٣ —
عبد الله بن الزبير بن العوام : ٣٩٤
عبد الله بن زينة : ٤٠٥
عبد الله بن زياد : ١٣٢ — ٣٨٥
عبد الله بن شهاب الزهري : ٢٠٩
عبد الله بن طارق : ٢٢٠
عبد الله بن عبد الله بن أبي : ٢٢٩ —
٢٦٦ — ٢٦٧
عبد الله بن عبد المطلب : ٤٠ — ٤١
عبد الله بن عثمان بن عفان : ٤٠٠
عبد الله بن عمر : ٢٠١ — ٣٠٦ —
٣٢٢ — ٣٤٧
عبد الله بن عمرو الأنصاري : ١٠٣ —
١٠٥ — ٢٠٢
عبد الله بن قديشة : ٢٠٩
عبد الله بن محمد : ٤٧ — ٣٩٩
عبد الله بن مسعود : ١٦٩ —
١٧٠ — ٣٣٤
عبد الله بن مغفل المزني : ٣٠٤

عبد الدار بن قصي : ٣٥ — ٣٧
عبد الرحمن بن أبي بكر : ٤٠٧
عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : ٢٩٥
عبد الرحمن بن عوف : ٥٣ —
٥٤ — ٦٤ — ١٢٧ — ١٦٦ —
١٦٨ — ١٦٩ — ٢٦٤
عبد شمس بن عبد مناف : ٣٨
عبد العزيز بن عبد المطلب = أبو طالب
عبد العزيز بن قصي : ٣٥
عبد الكعبة بن عبد المطلب
(المقوم) : ٤٠
عبد الله بن أبي أمية : ٧٥ — ٣٣٣
عبد الله بن أبي بكر : ١١٣ —
١٢٠ — ٣٥٧
عبد الله بن أبي حنيفة الأسدي : ٣٥٠
عبد الله بن أبي ربيعة : ١٩٦
عبد الله بن أبي بن ساول : ٩٩ —
١١٩ — ١٩١ — ١٩٢ — ١٩٩ —
٢٠١ — ٢٠٢ — ٢٠٨ — ٢١٦ —
٢٢٦ — ٢٤٧ — ٢٤٨ — ٢٦٥ —
٢٦٦ — ٢٧١ — ٣٦٧
عبد الله بن أبي طلحة : ٣٥٤
عبد الله بن أرقط : ١١١ — ١١٤
عبد الله بن أم كلثوم : ١٥٢ —
١٩٤ — ٢٠١ — ٢١٦ — ٢٢٦ —
٢٣٤ — ٢٤٥ — ٢٥٩ — ٢٦٠ —
٢٧٧ — ٣٣٢
عبد الله بن أنيس الجهني : ٢٢٠
عبد الله بن بجير : ٢٠٣ — ٢٠٧
عبد الله بن جحش بن رثاب : ١٤٨ —

- عُثمان بن عبد الله بن المغيرة : ١٤٨
عُثمان بن عثمان : ١٢٠-٦٤-٥٣
١٢٥ - ١٩٣ - ١٩٥ - ٢٠٨
٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٦ - ٣٤٣
٣٦٤ - ٣٩٥ - ٤٠٠
عُثمان بن مظعون : ٦٤ - ٧٩
٨٠ - ٩٤
عدى بن أبي الزغباء : ١٥٨
عراية بن أوس بن قبيصة : ٢٠١
عروة بن مسعود : ٢٨٠-٢٨١
٣٧٦ - ٣٧٧
عروة بن الورد : ٢٩
عريض أبو يسار : ١٥٧
عزال بن شموأل : ٢٥٠
عزال اليهودي : ٣٠٣
عزول اليهودي : ٣٠٣
العزى (صم) : ٢٨ - ٦٥
٣١٦ - ٣٤٦
عصماء بنت مروان : ١٨٦-١٨٧
العصماء (ناقة الرسول) : ٣٨٧
عطارد بن حاجب بن زرارة :
٣٧٤ - ٣٧٥
عقبة بن أبي معيط : ٧٨ - ٨٧
١٥٣ - ١٧٤ - ١٧٥
عقبة بن نمر : ٣٨٥
عقيل بن أبي طالب : ٥١ - ١٧٧
عقيل بن الأسود بن المطالب : ١٧٤
عقيل بن عبد المطالب : ١٧٨
عكاشة بن محصن : ٢٦٢
عكرمة بن أبي جهل : ١٤٦ -
(٢١ - محد)
- عبد المطالب بن هاشم : ١٨-٣٩
٤٠-٤١-٤٢-٥٥-٧٩
٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٢٢٢
٢٥٤ - ٣٨٢
عبد مناف بن قصي : ٢٢-٣٥
٣٧ - ٩١ - ٢٤٠
عبد مناف بن عبد المطالب =
أبو طالب بن عبد المطالب .
عبد ياليل : ٨٨ - ٣٧٧
٣٥٧ - ٣٩٥
عبيد الله بن جحش بن رثاب : ٣٩٥
عبيدة بن الحارث : ١٤٦ - ١٦٤
عتاب بن أسيد : ٣٥١
عتبة بن أبي لهب : ٤٧ - ٤٠٠
عتبة بن أبي وقاص : ٢٠٩
عتبة بن أسيد الثقفي = أبو بصير
عتبة بن ربيعة : ٥٥-٦٣-٧٢
٧٣-٧٤-٨٥-٨٨-١٥٥
١٥٨ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٧١
١٧٢ - ١٨٥ - ١٩٨
عتبة بن عمرو : ١٧٨
عتبة بن غزوان : ١٤٦-١٤٨-١٥٠
عتيبة بن أبي لهب : ٤٧ - ٤٠٠
عتيق بن عائذ بن مخزوم : ٣٩٤
عثمان بن أبي العاص : ٣٧٧-٣٧٨
عثمان بن الحويرث : ٣٣
عثمان بن طلحة بن أبي طلحة : ٢٣٣-
٣١٤ - ٣١٦ - ٣١٨ - ٣٤٠
٣٤١
عثمان بن عبد الله : ١٤٩ : ١٥٠

عمر بن الخطاب : ٧ - ١٤ -
٢١ - ٦٤ - ٦٨ - ٦٩ -
٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٦ -
٨٥ - ١٢٥ - ١٥٦ - ١٧٧ -
١٧٨ - ١٨٣ - ٢٠٠ - ٢٠٤ -
٢٠٨ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢٢٥ -
٢٤١ - ٢٥٤ - ٢٦٤ - ٢٦٥ -
٢٦٦ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ -
٢٨٥ - ٣٠١ - ٣١٠ - ٣١١ -
٣١٩ - ٣٢٥ - ٣٢٩ - ٣٣٦ -
٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤٢ - ٣٤٣ -
٣٤٧ - ٣٥٢ - ٣٥٨ - ٣٦٠ -
٣٦٩ - ٤٠١ - ٤٠٥ - ٤٠٦ -
٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ -
٤١٢ - ٤٢٣

عمر بن أبي سلمة : ٣١٣

عمرة الجمحية : ٢٣

عمرة بنت عامر بن الظرب : ٢٤

عمرة بنت علقمة الحارثية : ٢٠٧

عمرة بنت يزيد : ٣٩٦

عمرو = هاشم بن عبد مناف .

عمرو بن أبي سنيان : ١٧٨ - ١٧٩

عمرو بن أسد : ٤٥

عمرو بن أمية : ٢٢٣ - ٢٢٤

٢٢٥ - ٢٩١ - ٣٩٥

عمرو بن الأهم : ٣٧٤

عمرو بن الجموح : ١٠٦ - ١٠٧

١٩٦ - ١٩٧ - ٢٠٤ - ٢٠٨ -
٢٤٠ - ٢٤٢ - ٣١٢ - ٣١٦ -
٣٣٩ - ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٥٢ -
٣٩٧

العلاء بن الحضرمي : ٢٩٥

علقمة الفحل : ٢٣

علي بن أبي طالب : ١٤ - ٢١ -

٥١ - ٥٣ - ٥٤ - ٩١ -

١١٠ - ١١٧ - ١٢٣ - ١٢٧ -

١٤٨ - ١٥٥ - ١٥٧ - ١٦٤ -

١٧٥ - ١٩٥ - ٢٠٩ - ٢١٠ -

٢١٢ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٣٩ -

٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٥ - ٢٤٧ -

٢٦٤ - ٢٧١ - ٢٨٤ - ٢٩٥ -

٣٠١ - ٣١٣ - ٣٢٩ - ٣٣٠ -

٣٣١ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٧ -

٣٥٢ - ٣٥٤ - ٣٦٧ - ٣٨٦ -

٣٨٧ - ٣٩٢ - ٣٩٨ - ٤٠٠ -

٤٠١ - ٤٠٤ - ٤٠٩ - ٤١٢

علي بن أبي العاص بن ابراهيم : ٤٠٠

علي بن عيسى : ٤٤٤

علي بن أمية بن خلف : ١٦٨

عمار الموصلی : ٤٤٤

عمارة بن حزم : ١٣٦

عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب :

٣١٣

عمارة بن الوليد بن المغيرة : ٥٧

عمينة بن حصن : ٢٣٣-٢٣٩ -
٢٥٩ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠

(غ)

غالب بن عبد الله الليثي : ٣١٩
غورث بن الحارث : ١٩٣
الغيداق بن عبدالمطلب (نوفل) : ٤٠

(ف)

فاطمة بنت الخطاب : ٢١ - ٦٩
فاطمة بنت محمد : ٤٧ - ٦١ -
١٢٠-١٧٥ - ١٩٥ - ٣١٣ -
٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٤٥ - ٣٩٠ -
٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٦ - ٤٠٧ -
٤٠٩

فاطمة بنت الوليد بن المغيرة : ١٩٧
الفاكهة بن المغيرة : ٣٤٧
الفخر الرازي : ٤٣٠
فرجيل السالزبرجي : ٤٣٧
فرات بن حيان : ١٩٤ - ١٩٥
الفرغاني : ٤٤٣
الفزاري : ٤٤٠
الفضل بن العباس : ٤١٢
فكهة بنت قتادة : ٢١ - ٢٢
الفلس (صنم) : ٣٧٤
فنحاص اليهودي : ١٣٤ - ١٣٥

(ق)

القاسم بن محمد : ٤٧ - ٣٩٩
قتيلة بنت الحارث : ١٧٥
قتيلة بنت قيس : ٣٩٦

عمرو بن الحضرمي : ١٤٨ -
١٤٩ - ١٥٣ - ١٦١ - ١٦٢ -

١٨٥

عمرو بن زيد : ٣٩
عمرو بن سالم : ٣٢٧ - ٣٢٨
عمرو بن سعد : ٢٣٧
عمرو بن العاص : ٦٦ - ٦٨ -
١٥٢ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣١٤ -
٣١٧ - ٣١٨ - ٣٢٤ - ٣٢٥ -
٣٢٦ - ٣٤٦
عمرو بن عبد مناف = هاشم بن
عبد مناف

عمرو بن عبد ود : ١٥٨ - ٢٣٩ -
٢٤٠ - ٢٤١

عمرو بن عثمان بن عفان : ٤٠٠
عمرو بن قيس : ١٣٦
عمرو بن لحي : ٣٠
عمير بن الحمام : ١٦٧
عمير بن عوف : ١٨٧

عمير بن وهب الجمحي : ١٦١ -
١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ٣٤٤

عوذ بن عفراء : ١٧٧
عوف (مسطح) بن أثانة : ٢٧٠
عوف بن الحارث : ١٦٣
عون بن جعفر : ٤٠١

عيسى بن مريم (عليه السلام) : ١٧ -
٦٨ - ٩٦ - ١٣٣ - ١٧٧ -

٢٩١ - ٢٩٤ - ٣٨٠

عمينة بن بلدر : ٣٧٣ - ٣٧٤

١٨٧ — ١٨٨ — ١٨٩ — ٢٦٢
كعب بن زهير : ٣٤٣ — ٣٤٤ — ٣٤٥
كعب بن زيد : ٢٢٤
كعب بن عمرو الغفاري : ٣٠٤ —
٣١٩

كعب بن مالك : ٢٠٥ — ٢١٠ — ٣٦٦
كلاب بن ربيعة : ٣٥
كلثوم بن كنانة : ٣٢٨
كليب : ٣٣
كليمنت السكندري : ٤٣٥
كنانة بن أبي الحقيق : ٢٩٦
كنانة بن الربيع : ١٨٠
كيرلس : ٤٣٢

(ل)

اللوات (صنم) : ٢٨ — ٦٥ —
٣١٦ — ٣٧٧ — ٣٧٨ — ٣٧٩
لبياح بن ربيعة : ٨٠
لكاير : ٤٤٨ — ٤٤٩
لقمان الحكيم : ٩٧
لقيط بن زرارة : ٢٤
لكتانشبوس : ٤٣٤ — ٤٣٦
ليبري : ٨
ليلى بنت أبي نخثمة : ٦٥
ليلى بنت الحطيم : ٣٩٧
ليوناردو دا فنشي : ٤٥١

(م)

مأبور : ٢٩٥ — ٣٩٧ — ٣٩٨
ماجلان : ٤٣٧
مارية القبطية : ٢٩٥ — — ٣٩٦

قثم بن عباس : ٤١٢
قلدرى حافظ طوقان : ٤٤٣
قزماس (الراهب المصرى) :
٤٢٩ — ٤٣٠

قزمان : ٢٠٦
قس بن ساعدة : ١٨ — ٢٨ —
٣٤ — ٦٠ — ١٣٨
قسطنطين الأكبر : ٤١٩
القصواء (ناقة الرسول) : ١١٤ —
٢٧٨ — ٣٨٨ — ٣٨٩ — ٣٩٠ —
٣٩٢

قصي بن كلاب : ٣٥ — ٣٦ —
٣٧ — ٧٤ — ١٠٨
قيس بن سعة بن عبادة : ٣٣٩
قيس بن عاصم : ١٨ — ٣٧٤
قيس بن عمرو : ١٣٦
قيصر (ملك الروم) : ٢٣٠ —
٢٣٨ — ٢٩١ — ٢٩٢ — ٢٩٤ — ٣٧٠

(ك)

كارا دي فو : ٨ — ٤٤٢
كانكا الهندي : ٤٤٠
كبار : ٤٤٥
كراتشكوفسكى : ٤٤٢
كرز بن جابر البهري : ١٤٨ — ٢٧٤
كسرى (ملك الفرس) : ٩٣ —
٢٣٨ — ٢٨١ — ٢٩٠ — ٢٩٢ — ٢٩٥
كعب بن أسد : ٢٣٦ — ٢٣٧ —
٢٤٦ — ٢٤٩ — ٢٥٠
كعب بن الأشرف : ١٧٦ —

مرارة بن ربيع : ٣٦٦ .
مربع بن قيطي : ٢٠٢
مرثد بن أبي مرثد الغنوي : ٢٢٠
مرحب اليهودي : ٣٠٢ - ٣٠٨
مريم العذراء : ٦٨ - ٢٩١
مسطح بن أثانة : ١٤٦ - ٢٧٠ -
٢٧١ - ٢٧٣
مسعر بن رخيلة : ٢٢٣
مسعود بن عمرو : ٨٨
مسلم (صاحب الصحيح) : ١٢
المسيح (عليه السلام) : ٤٢١ -
٤٣٦ (انظر عيسى بن مريم)
مسيلمة بن حبيب (الكذاب) :
٢٥٩ - ٣٧٩
مصطفى نظيف : ٤٤٥
مصعب بن عمير : ٦٤ - ١٠٠ -
١٠١ - ١٠٢ - ١٥٥ - ١٧٤ -
١٧٥ - ٢٠١ - ٢٠٨ - ٢٠٩
المطعم بن عدي : ٥٧ - ٨٢ -
٨٣ - ٨٤ - ٩٤ - ٩٥
المطلب بن أبي وداعة بن ضبيرة
السهمي : ١٧٨ - ١٨٧
المطلب بن عبد مناف : ٣٨ -
٣٩ - ٤٠
معاذ بن جبل : ١٠٦ - ١٢٧ -
٣٦٧ - ٣٨٥
معاذ بن الحارث : ١٦٣
معاذ بن عفراء : ١٧٧
معاذ بن عمرو بن الجموح : ١٠٦
معاذ بن ماحص : ٢٦٠

٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠١
مارينوس : ٤٣٩
مالك بن الدخشم : ٣٧١
مالك بن عباد : ٣٢٨
مالك بن عباد : ٣٨٥
مالك بن عوف : ٣٤٨ - ٣٤٩ -
٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٤ - ٣٥٥ -
٣٥٦ - ٣٦٠ - ٣٧٦
مالك بن مرة الرهاوي : ٣٨٥
المأمون : ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢
مانكا الهندي : ٤٤٠
المتلمس : ٢٤
المثنى بن حارثة : ٩٣
مجدى بن عمرو الجهني : ١٤٦ -
١٥٨
المجنذر بن زياد الباوي : ١٦٧ -
١٦٨
محسن بن علي : ٤٠٠
محمد بن جعفر : ٤٠١
محمد بن زيد : ٤٠١
محمد بن مسلمة : ١٨٨ - ٢٠١ -
٢٢٥ - ٢٢٧ - ٢٥٨ - ٢٦٣ -
٣٠٠ - ٣٠٢ - ٣١٠ - ٣٦٧
محمود بن مسلمة : ٣٠٠ - ٣٠٢
محيصة بن مسعود الأوسي : ١٩٠
مخرمة بن نوفل : ١٥٢ . ١٥٩
مخشي بن عمرو الضمري : ٣٤٧
مدلج بن مرة : ٣٤٦
مذكور : ٢٣٠

ميسرة (غلام خديجة) : ٤٤
ميشيل (إمبراطور بزنطة) : ٤٤١
ميمونة بنت الحارث (أم المؤمنين) :
٣١٢ - ٣٩٥ - ٤٠٤

(ن)

النابعة الذبياني : ١٠٨
نبيه بن الحجاج : ١٥٥ - ١٥٨ -
١٧٢
نجد البكري : ٣٦٧
النجاشي الأكبر : ٣٨ - ٦٦ - ٦٧ -
٦٨ - ٧٦ - ٢٨١ - ٢٩٠ -
٢٩١ - ٣٠٨ - ٣١٥ - ٣٩٥
نسيبة بنت كعب : ٢٠٩
نسطاس (مولى صفوان بن أمية) :
٢٢١
النضر بن الحارث : ١٥٨ - ١٧٤ -
١٧٥ - ١٧٦
النضر بن كنانة : ٣٨٤
نضلة بن هاشم بن عبد مناف : ٣٩
النعمان (ملك رعين ومعافر
وهمدان) : ٣٨٤
النعمان بن شريك : ٩٣
النعمان بن المنذر : ٣٥٨
نعيم بن عبد الله : ٦٩
نعيم بن عبد كلال : ٣٨٤
نعيم بن مالك بن ثعلبة : ٢٠٠
نعيم بن مسعود الأشجعي : ١٩٥ -
٢٢٩ - ٢٤١ - ٢٤٣
نفيسة بنت منية : ٤٥

معاوية بن أبي سفيان : ٢٢١ -
٣٦٠
معبد بن معبد الخزاعي : ٢١٦ -
٢١٧
معتب بن قشير : ٢٣٨
معن بن عدى : ٣٧١
معوذ بن عفراء : ١٧٧
المغيرة بن شعبة : ٢٨٠ - ٢٨١ -
٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩
المغيرة بن عبد المطلب : ٤٠
مفروق بن عمرو : ٩١ - ٩٢
المقداد بن الأسود : ١٤٦ - ١٤٧ -
١٥٥ - ١٥٦ - ١٧٥ - ٢٦٠
المقوقس : ٢٩١ - ٢٩٤ - ٣٩٧
المقوم بن عبد المطلب : ٤٠
مقيس بن صباة : ٣٤٥
مكرز بن حفص : ١٤٦ - ١٧٨ -
٣١٠
ملهود : ٤١٦
مناة (صنم) : ٢٨ - ٦٥ - ٣٤٦
منبه بن الحجاج : ١٥٥ - ١٥٨ - ١٧٢
المنذر بن ساوى : ٢٩١ - ٢٩٥ -
٢٩٦
المنذر بن عمرو : ١٠٦ - ٢٢٣ - ٢٢٤
المنصور (الخليفة العباسي) : ٤٤٠
موسى بن عمران (عليه السلام) :
١٧ - ٤٩ - ٩٦ - ١٣٣ - ١٥٦ -
١٧٧ - ٢٣٢ - ٣٦٧ - ٤٠٨ - ٤٣١
وموسى بن محمد بن إبراهيم : ١٦٦
مؤنس بن فضالة : ١٩٨

هوذة بن قيس : ٢٣٢

هيباشيا : ٤٣٢

(و)

واقف بن عبد الله التميمي : ١٤٩

الواقدي : ١٦٦

وحشي الحبشي (مولى جبير بن

مطيم) : ١٩٨ - ٢٠٥ - ٢٠٦

ورقة بن نوفل : ٣٣ - ٤٩ - ٦٠

الوليد بن أبي معيط : ٢٧٣

الوليد بن عتبة بن ربيعة : ١٦٣ - ١٦٤

الوليد بن عقبة : ٢٠٨

الوليد بن المغيرة : ١٨ - ٦٢ -

٦٥ - ٧٣ - ٧٩ - ٨٠ - ٨٢

الوليد بن الوليد بن المغيرة : ٣١٧

وهب بن عمير الجمحي : ١٨٢

(ى)

ياسر (أخو مرحب اليهودي) : ٣٠٢

يامين بن عمرو : ٢٢٧

يحيى (عليه السلام) : ٩٦

يزيد بن أبي سفيان : ٣٦٠

يسير بن رزام اليهودي : ٣٠٩

اليغفور (حمار النبي) : ٢٩٥

يعقوب (عليه السلام) : ١٧ - ٣٨٠

يعقوب بن طارق : ٤٤٠

يعمر بن عوف بن كعب : ٣٦

يوحنا بن رؤبة : ٣٦٨

يوحنا كريستوم : ٤٣٤

يوحنا بن ماسويه : ٤٤١

يوديموس : ٤١٦

يوسايبوس التيصري : ٤٣٤

نميطة بن عبد الله الليثي : ٢٤٥ -

٢٦٤ - ٢٧٧ - ٢٩٩

نوح : ١٧٧

نوفل بن خويلد : ١٥٨

نوفل بن عبد الله : ١٤٩

نوفل بن عبد المطلب (الغيداق) :

٤٠ - ١٧٨

نوفل بن عبد مناف : ٣٨

نوفل بن معاوية الديلمي : ٣٢٨ - ٣٥٨

نيكلسون : ٩

(ه)

هارون (عليه السلام) : ٣٦٧

هاشم بن عبد مناف : ٣٨ - ٣٩

هالة بنت خويلد : ١٧٩

هانئ بن قبيصة : ٩٢ - ٩٣

هبار بن الأسود : ١٨٠

هبل (صنم) : ٢١١ - ٣٤٠

هيرة بن أبي وهب : ٢٤٠

هرقل (ملك الروم) : ٢٩٠ -

٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٤ - ٣٢٠

هشام بن صباية : ٢٦٤

هشام بن عمرو بن الحارث : ٧٧ -

٨٢ - ٨٣

هلال بن أمية : ٣٦٦

همبولد : ٨

هند بن أبي هالة : ٣٩٤

هند بنت عتبة : ١٧٣ - ١٩٧ -

١٩٨ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢١٢ -

٣٣٠ - ٣٤٢

هوذة بن علي : ٢٩١ - ٢٩٧

فهرس الشعوب والقبائل والفرق والطوائف

٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٧ -
 ٤٠٤ - ٤٠٦ - ٤٠٩ - ٤١٠
 أهل أذرح : ٣٦٩
 أهل أيلة : ٣٦٨
 أهل البحر : ٣٦٨
 أهل البحرين : ٢٩٦
 أهل بدر : ٣٣٢
 أهل البيت : ٢٩٤ - ٣٩٨
 أهل تهامة : ٢٧٨
 أهل ثقيف : ٣٥٨
 أهل جرباء : ٣٦٩
 أهل الحرم : ٣٧
 أهل خيبر : ٢٩٩
 أهل رومية : ٤٢٣ - ٤٣٦
 أهل الشام : ٤٠ - ٣٦٨
 أهل الشق : ٢٠٣
 أهل الصفة : ١٢٥
 أهل الطائف : ٣٥٨
 أهل قرينش : ٥٣
 أهل الكتاب : ١٤٢ - ١٤٤ -
 ٢٤٩ - ٢٢٦ - ٢٩٢ - ٢٩٤ -
 ٣٦٣
 أهل كورنثوس : ٤٢٦
 أهل المدينة : ١١٦ - ١٧٩ - ٤١٢
 أهل مكة : ٣٧ - ٥٠ - ٥٣ -
 ٥٥ - ٦٠ - ١١٩ - ٢١٦ -
 ٣٦٤ - ٣٧٠ - ٤١٢

(أ)

الآشوريون : ٣٤
 آل أبي بكر : ١١٣ - ٢٧٢
 آل جعفر بن أبي طالب : ٣٢٤
 آل عبد مناف : ٣٨
 آل عفرأ : ١٧٧
 آل محمد : ١٠٣
 آباء الكنيسة : ٤٢٠ - ٤٢٥ -
 ٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٣٢ - ٤٣٤ -
 ٤٣٥ - ٤٣٨ - ٤٤١ - ٤٤٨ -
 ٤٥١
 الأحابيش = بنو المصطلق .
 أحبار اليهود : ٤٣ - ٤٧ -
 ١٣٤ - ١٣٨
 الأحباش : ٣٣
 إرم : ٩٩
 الأشعريون : ٣٠٨
 أصحاب الرجيع : ٢٣٨ - ٢٥٩
 الإمبراطورية الرومانية : ٤١٤ -
 ٤١٩ - ٤٣٢
 إمبراطورية الفرس : ٥٤ - ٤١٤
 الأعاجم = المعجم .
 الأمم المتحدة : ٢٥٨
 الأنصار : ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٨ -
 ١٦٣ - ١٧٤ - ١٨٣ - ١٨٤ -
 ١٩٣ - ٢٢٧ - ٢٦٥ - ٢٧٢ -
 ٣٣٧ - ٣٤١ - ٣٤٥ - ٣٥٣ -

بنو بلي : ٣٢٤
 بنو تميم : ٢٢٩-٢٣٠-٣٥٩ -
 ٣٧٩ - ٣٧٣
 بنو تميم : ٤٣ - ٥٥
 بنو ثعلبية : ١٣٠-١٣٦-١٩٣ -
 ٢٦٣ - ٢٢٨
 بنو جديمة : ٣٤٦ - ٣٤٧
 بنو جشم : ١٢٩ - ١٣٠ - ٣٤٩
 بنو جعفر بن أبي طالب : ٣٢٤
 بنو جمح : ٦٤
 بنو الحارث بن الخزرج : ١٣٠-٣٧٥
 بنو الحارث بن عبد مناة : ٢٧٩
 بنو الحارث بن عامر بن نوفل : ٢٢٠
 بنو الحارث بن فهر : ٦٥ - ١٧٨
 بنو حارثة : ١٠١-١٠٢-١٨٨
 بنو الحجاج : ١٥٧
 بنو حذيفة : ٣٤٧
 بنو الحضرمي : ٣٢٨
 بنو حنيفة : ٢٥٨
 بنو خلرة : ١٣٦
 بنو الخزرج = الخزرج .
 بنو خطمة : ١٨٧
 بنو الدليل : ٣٢٨
 بنو زهرة : ٤٣-٥٥-٦٤-١٥٩
 بنو ساعدة : ١٢٩-١٣٠-٢٠٤ -
 ٢٢٣
 بنو سالم بن عوف : ٢٠٠ - ٣٦٦
 بنو سعد بن بكر : ٤١ - ٢٦٤ -
 ٣٤٩ - ٣٦٧ - ٣٨٢
 بنو سحنة : ٢٣٧

أهل موية : ٣١٩
 أهل نجد : ٢٣٦ - ٣٣١
 أهل النظاة : ٣٠٣
 أهل يثرب : ٢٣٩
 أهل اليمن : ٣٦٨
 الأوس : ٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠ -
 ١٠٢ - ١٠٤ - ١٠٥-١٢٦ -
 ١٢٨ - ١٣٣ - ١٣٤-٢٠١ -
 ٢٠٥ - ٢٣٧ - ٢٣٩-٢٤٧ -
 ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٦٢-٢٧١ -
 ٣٤٠ - ٣٦٧
 إياد : ٣٣

(ب)

البايايون : ٣٤ - ٤٣٢
 بكر بن وائل : ٩٠
 بلي : ٣٢٤
 بنو آكل المرار : ٣٨٣
 بنو أبي طلحة : ٢٠٧
 بنو أسد : ٤٣ - ٥٥ - ٦٤ -
 ٢١٩ - ٢٣٣ - ٢٦٢
 بنو إسرائيل = اليهود
 بنو إسماعيل : ١٢
 بنو الأسود بن رزن السؤلي : ٣٢٨
 بنو أشجع : ٢٣٣
 بنو الأصغر (الروم) : ٢٩٣ -
 ٣٣١ - ٣٦٥
 بنو أمية : ٥٩ - ٦٤ - ١٤٠
 بنو أمية بن زيد : ١٨٧
 بنو الأوس : ١٣٠
 بنو بكر : ١٩٤ - ٢٥٨ - ٢٦٤ -
 ٢٨٥ - ٣٢٧ - ٣٢٨

بنو عبيد الله : ٣٤٠
بنو العجلان : ٣٢٢
بنو عدى : ٢٨٢ - ١٥٩
بنو عدى بن النجار الخزرجي :
٣٩ - ٤١ - ١٦٢
بنو عدى بن كعب : ٤٦ - ٦٤ -
٧٢ - ٣٣٦
بنو عنزة : ٣٥ - ٢٣٠
بنو عمرو بن عوف : ١١٧ - ١٢٩ -
١٣٧ - ١٧٩ - ١٨٦ - ٢٠٣
٢٢٤ - ٢٣٨ - ٢٤٧ - ٣٦٦
بنو عمرو بن قريظة : ٢٥٠ - ٢٥١
بنو عمرو بن معاوية : ٩٠
بنو عواد : ٣١٩
بنو عوف : ١٣٠ - ٢٢٦ - ٢٦٥
بنو غفار : ٢٦٠ - ٢٦٤ - ٣٠٦ -
٣٣١ - ٣٦٦
بنو فراس : ٢١
بنو فزارة : ٢٣٣ - ٢٦٣ - ٣٠٩ -
٣٥٩
بنو قريظة : ١٣١ - ١٤٥ - ٢٣٤ -
٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٤١ -
٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ -
٢٤٦ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ -
٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٦ - ٢٥٨ -
٢٧٧ - ٢٩٨ - ٣٠٧ - ٣٩٧
بنو قيابة = الأوس والخزرج :
١٣٤ - ٢٠٣
بنو قينقاع : ١٣١ - ١٩٠ - ١٩١ -
٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٤٧

بنو سلامة : ١٠٦ - ١٠٧ - ٢٠٢ -
٢٦٢ - ٢٨٢ - ٣٦٦ - ٣٦٥
بنو سلول : ٣٨٢
بنو سليم : ٣٣ - ١٩٤ - ٢٢٤ -
٢٣٣ - ٢٦٣ - ٣١٩ - ٣٥١ -
٣٥٩
بنو الشطيبة : ١٣٠
بنو شيبان بن ثعلبة : ٩١
بنو شيبه : ٣٨٩
بنو ضميرة : ١٤٧
بنو طالب : ٥٥
بنو ظنفر : ١٠٠ - ٢٠٦
بنو العاص بن سعيد : ١٥٧
بنو عامر : ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٣٨١ -
٣٨٢
بنو عامر بن صعصعة : ٩٠
بنو عامر بن أوى : ٦٥ - ٢٤٠
بنو عبد الأشهل : ٩٨ - ١٠٠ -
١٠٢ - ١٨٨ - ٢٠٢ - ٢١٦ -
٢٢٢ - ٢٤٨
بنو عبد الدار : ٣٨ - ٤٦ - ٦٤ -
٢٠٤
بنو عبد شمس : ٦٤ - ١٩٢ - ٢٥٢
بنو عبد الله : ٣٤٠
بنو عبد المطلب : ٥٨ - ٥٩ - ٧٦ -
٧٨ - ٩١ - ٣٥٩
بنو عبد مناة : ١٩٧
بنو عبد مناف : ٣٨ - ٣٩ - ٥٥ -
٦٠ - ٦٩ - ٨٢ - ٨٦ - ١٠٩ -
٣٦٦ - ٣٩٥

بنو هلال : ٣٤٩

بنو واقف : ٣٦٦

بنو وائل : ٢٣٢

(ت)

التروبادور : ٤٤٦

تميم : ٣٣ - ٣٧٤ - ٤٧٦

(ث)

ثقيف : ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٣٤٩

٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٧٣

٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٨٦

الثنويون : ١٣٨

(ج)

جدام : ٣٢٥

جرهم : ٣٥ - ٤٠

جشم = بنو جشم .

جهينة : ١٤٧ - ٣٣١

(ح)

الحميريون : ٣٥

(خ)

خدره = بنو خدره .

خزاعة : ٣٠ - ٣٥ - ٣٦ - ٢٢٠

٢٢٦ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٥

٣٧٣

الخرج : ٩٧ - ٩٨ - ٩٩

١٠٠ - ١٠٢ - ١٠٤ - ١٠٥

١١٩ - ١٢٦ - ١٢٨ - ١٣٣

١٣٤ - ١٩١ - ٢٠١ - ٢٣٧

بنو كعب بن قريظة : ٢٥٠ - ٣٣١

بنو كلاب : ٣١٩

بنو كلب : ٢٦٤

بنو كنانة : ١٢ - ٢٩ - ٦٥ -

١٩٧ - ٢٣٥ - ٢٤٠ - ٣٣٠

٣٤٦

بنو لحيان : ٢٢٠ - ٢٥٩

بنو لوئى : ٣٦

بنو مالك : ٢١

بنو مالك بن النجار : ١١٩

بنو محارب : ٢٢٨

بنو مخزوم : ٥٥ - ٦٣ - ٦٤ - ٨٠

بنو مدلج : ١٤٨

بنو مرة : ٢٣٣

بنو المصطلق : ٢٢ - ١٤٥ - ١٩٧

٢٠٠ - ٢٠٥ - ٢٣٥ - ٢٦٤

٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠

٢٨١ - ٣٧٣

بنو المطلب : ١٩٢

بنو نهبان : ١٨٧

بنو النبيت : ١٢٩

بنو النجار : ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٢

بنو النضير : ١٣١ - ١٤٥ - ١٨٧

٢٢٥ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٦

٢٣٨ - ٣٠٥ - ٣٠٧ - ٣٩٧

بنو نوفل : ١٩٢

بنو هاشم : ١٢ - ٤٣ - ٥١ -

٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٧٦ - ٧٧

٧٨ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ١٠٠

١٤٠ - ١٥٩ - ١٦٧ - ١٩٢

(س)

سعد بن بكر = بنو سعد بن بكر
سليم = بنو سليم

(ش)

شوكة : ١٥٦

(ص)

الصابئة : ٣١ - ١٣٨
صباء : ٣٧٣

(ط)

طى : ٣٣

(ع)

عبد القيس : ٢١٨
عبد الأوثان : ١٩
عبادة الأصنام : ١٣٨
عبد الجن : ١٣٨
عبد الشمس : ١٣٨
عبد القمر : ١٣٨
عبد الكواكب : ١٣٨
عبد النار : ١٣٨
عبد النجوم : ١٣٨

المعجم : ٥٧ - ٥٨ - ٢٧٠ - ٣١٦

العرب : ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٦ -

١٧ - ١٩ - ٢٠ - ٢٤ - ٢٥ -

٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٢ - ٣٣ -

٣٤ - ٣٥ - ٤٠ - ٤٧ - ٤٨ -

٥٠ - ٦٠ - ٦٢ - ٧٦ - ٧٨ -

٩٩ - ١٠٩ - ١٢٤ - ١٣٨ -

١٣٩ - ١٦١ - ١٨٥ - ١٨٧ -

١٨٩ - ٢٠٠ - ٢٢٩ - ٢٣٠ -

٢٣٩ - ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٦٢ -

٢٦٦ - ٢٧١ - ٣٢٧ - ٣٢٨ -

٣٣٥ - ٣٤٠ - ٣٤٦ - ٣٥٢ -

٣٦٧

خطمة = بنو خطمة .

(د)

الدهريون : ١٣٨

الديبل = بنو الديبل .

(ذ)

ذكوان : ٢٢٤

(ر)

رجال الدين المسيحي : ٤٢٠ - ٤٣١

رجال الكنيسة : ٤٢٩ - ٤٣٣ - ٤٣٧

رجال اللاهوت المسيحي : ٤٢٠ -

٤٢١

ربيعة : ٣٣ - ٢١١

رهبان النصارى : ٣٣ - ٤٣ -

٤٧ - ١٣٨

الروم : ٢٣٠ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٣٢٠ -

٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٤ - ٣٦٣ -

٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٩ - ٣٩٧ -

الرومان : ٥ - ١٩ - ٢٠ - ٢٦ -

٣٤ - ٢٣٥ - ٤١٥ - ٤١٧ -

٤١٨ - ٤٣٢ - ٤٣٩

(ز)

رجال اللاهوت المسيحي : ٤٢٧

١٣٨

زكوان بنو زكوان

فهر : ٣٦

الفريقيون : ٣٤

(ق)

القارة : ٢٢٠ - ٢٢٤ - ٢٣٨

القطب : ٢٩٤

قريش : ١٢ - ١٨ - ٢٩ - ٣٥

٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٤٠ - ٤٢

٤٣ - ٤٤ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٩

٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧

٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢

٦٣ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٨ - ٧١

٧٢ - ٧٣ - ٧٦ - ٨٠ - ٨١

٨٢ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٩١

٩٢ - ٩٣ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٥

١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ - ١١٠

١١٣ - ١١٥ - ١٢٥ - ١٢٦

١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٨

١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٤

١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨

١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٣

١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨

١٥٩ - ١٦٠ - ١٧٣ - ١٧٥

١٧٦ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠

١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٥ - ١٨٨

١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٤

١٩٢ - ١٩٤ - ١٩٦ - ١٩٧

١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١

٢٠٧ - ٢١١ - ٢١٨ - ٢٢٠

٢١٣ - ٢٢٢ - ٢٢٩ - ٢٣٢

٢٣٣ - ٢٣٥ - ٢٣٧ - ٢٣٩

٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤

٢٣٥ - ٢٣٩ - ٢٤٨ - ٢٥٢

٢٥٣ - ٢٦١ - ٢٧٧ - ٢٧٩

٢٨٨ - ٢٩٠ - ٢٩٩ - ٣١٦

٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٩ - ٣٦٥

٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٦

٣٨١ - ٣٨٣ - ٤٠٢ - ٤١٠

٤٣١ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٣

٤٤٤ - ٤٤٦ - ٤٤٩ - ٤٥٠

عرينة : ٢٧٤

عصية : ٢٢٤

عضل : ٢٢٠ - ٢٣٨

عكل : ٢٧٤

علماء اللاهوت المسيحي : ٤٢٠

٤٢١ - ٤٢٨ - ٤٣٢ - ٤٣٤

٤٣٨

(غ)

الغساسنة : ٣٣

غظانان : ١٩٣ - ٢٢٨ - ٢٣٣

٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٩ - ٢٤١

٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٦٠

٢٩٩ - ٣٢٦

غفار = بنو غفار .

(ف)

الفرس : ١٨ - ٣٤ - ٥٤ - ٢٣٥

٢٩٠ - ٢٩٢ - ٢٩٥ - ٣٢٤

٤٤١

فزازة = بنو فزازة .

منحج : ٣٣
مزينة : ٣٣١
المسيحيون : ٤٧ - ١٣٢ - ١٣٨
١٤٢ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٩٢
٢٥٧ - ٤٠٦ - ٤٢٢ - ٤٢٩
المشركون : ٥٣ - ٧٦ - ٧٩
١٠٧ - ١٠٨ - ١١٨ - ١١٩
١٢٤ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤
١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٩ - ١٦٣
١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨
١٧٠ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٨٥
١٩٣ - ٢٠٣ - ٢٠٦ - ٢٠٧
٢٠٨ - ٢١٠ - ٢١٢ - ٢١٤
٢١٧ - ٢٣٦ - ٢٧٨ - ٢٨٤
٢٨٥ - ٣٦٣ - ٣٨٤ - ٣٨٦
٣٨٧
المصريون : ١٩ - ٣٤
المصطلق = بنو المصطلق .
مغمر : ٣٣ - ٢١١ - ٣٤٦
الماكيون : ٣٤
المناذرة : ٣٣
المهاجرون : ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦
١٢٧ - ١٢٨ - ١٤٥ - ١٤٧
١٥٢ - ١٩٣ - ٢١١ - ٢٢٥
٢٢٧ - ٢٦٥ - ٣٣١ - ٣٣٢
٣٣٧ - ٣٤٠ - ٣٥٣ - ٣٥٩
٣٦٧ - ٣٧٥ - ٤٠٣ - ٤٠٤
٤٠٩ - ٤١٠
الموحدين العرب : ١٣٨

٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٥٩
٢٦٣ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧
٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١
٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥
٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٩٠ - ٢٩٢
٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٤
٣١٥ - ٣١٦ - ٣٢٤ - ٣٢٧
٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢
٣٣٣ - ٣٣٥ - ٣٣٧ - ٣٣٩
٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٦ - ٣٥١
٣٥٢ - ٣٦١ - ٣٦٣ - ٣٧٢
٣٧٤ - ٣٨١ - ٣٨٣ - ٣٨٦
٣٩٠ - ٤١٠ - ٤٣٢ - ٤٣٩

قريظة = بنو قريظة .

قسيس النصراري = رهبان النصراري .

قضاة : ٣٣

قيس بن ثعابة : ٣٣

(ك)

كعب : ٣٤٩

كلاب : ٣٤٩

كلب : ٣٤٦

الكلدان : ٣١

كنانة = بنو كنانة .

كنانة : ٩٠ - ٣٦٩ - ٣٨٣

كهنة النصراري = رهبان النصراري

(ل)

الليث : ٣٣٩

(م)

الخبروس : ٢٩٥ - ٢٩٦

١٨٥- ١٧٣- ١٥٦- ١٥٠
١٩١- ١٩٠- ١٨٩- ١٨٦
٢٢٥- ٢١٩- ٢١٥- ١٩٢
٢٣١- ٢٢٨- ٢٢٧- ٢٢٦
٢٢٨- ٢٣٧- ٢٣٦- ٢٣٣
٢٤٧- ٢٤٦- ٢٤٣- ٢٤٢
٣٠١- ٣٠٠- ٢٩٨- ٢٤٩
٣٠٦- ٣٠٥- ٣٠٤- ٣٠٣
٤٠٦

يهود بني الأوس : ١٣٠
يهود بني ثعلبة : ١٣٠
يهود بني جشم : ١٣٠
يهود بني الحارث : ١٣٠
يهود بني ساعدة : ١٣٠
يهود بني الشطبية : ١٣٠
يهود بني عوف : ١٣٠
يهود بني قريظة : ٢٣٦
يهود بني النجار : ١٣٠
يهود بني النضير : ٣٩٥
يهود تيماء : ٣٠٦
يهود جفنة : ١٣٠
يهود خيبر : ٢٦١- ٢٩٨- ٣٠٦
يهود فدك : ٣٠٦
يهود المدينة : ٢٩٨

(ن)

النبطيون : ٣٥ - ٣٤
النصارى = المسيحيون
نصر : ٣٤٩

(هـ)

هذيل : ٢٢٠ - ٣٤٦
الهنود : ٣٤ - ٤٤١ - ٤٤٣
هوازن : ٤٣ - ٣٠٩ - ٣١٩
٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١
٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥
٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٥٩
٣٦٠ - ٣٦٧ - ٣٧٣ - ٣٧٦

(ى)

اليمنيون : ٣٤
اليونان : ٢٠ - ٢٦ - ٣٤ - ٤١٥
٤١٦ - ٤٣٩ - ٤٤١ - ٤٤٢
٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٨
٤٤٩ - ٤٥٠
اليهود : ٣٢ - ٣٣ - ٤٧ - ٩٨
١٠٤ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٤
١٢٨ - ١٢٩ - ١٣١ - ١٣٢
١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦
١٣٨ - ١٤٢ - ١٤٤ - ١٤٥

فهرس الأماكن والبلدان

إنجلترا : ٤٤٨
 أوروبا : ٣٢ - ٤٢٦ - ٤٣١ -
 ٤٣٨ - ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ -
 ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٤٤٩ - ٤٥٠ -
 ٤٥١
 أوطاس : ٣٥٦ - ٣٥٥
 أولات الجيش : ١٥٥
 إيطاليا : ٤٢٧ - ٤٤٨
 أيلة : ٣٣ - ٣٦٨
 (ب)
 باب عائشة : ٤٠٩
 باريس : ٤١٨
 البتراء : ٣٤
 البحر الأبيض المتوسط : ٣٤ -
 ٤١٧ - ٤١٨ - ٤٣١ - ٤٤٥
 البحر الأحمر : ٢٣٠
 بحران : ١٩٤
 بحرة الرغاة : ٣٥٦
 البحرين : ٣٣ - ٣٤ - ٢٩١ -
 ٢٩٥ - ٢٩٦
 بلسر : ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ -
 ١٥٩ - ١٦٠ - ١٧٤ - ١٧٥ -
 ١٩١ - ١٩٦ - ٢٢٨ - ٢٢٩ -
 ٢٧٧ - ٣١٦ - ٤٠٠ - ٤٣٨
 برك الغساسد : ١٥٦
 بستان مربع بن قبيظي : ٢٠٢
 البصرة : ٢٥٨

(أ)
 آسيا : ٣٤
 أباطح مكة : ٣٦
 الأبواء : ٤٢ - ١٤٧ - ١٥٥
 أبو قبيس (جبل) : ٣١١
 الأثيل : ١٧٥ - ١٧٦
 أثينا : ٤١٨ - ٤٣٣
 أحد : ١٩٨ - ٢٠١ - ٢١٤ -
 ٢٣١ - ٢٣٦ - ٢٣٧
 أذاخر : ٣٤٠
 أذرح : ٣٦٨
 أذرعات : ١٩٢
 أرض نخيبر : ٢٦٢
 أرض الروم : ٣٨٤
 أرض الشام : ٣٠
 أرض محارب (بنجاد) : ٣٢٦
 أرض فارس : ٩٣
 أرض العرب = بلاد العرب .
 أسبانيا : ٤٣٣ - ٤٣٨ - ٤٤٥ -
 ٤٤٦ - ٤٤٧
 الأستكتارية : ٢٩٤ - ٤١٦ - ٤١٨ -
 ٤٣٢ - ٤٣٩ - ٤٤١ - ١٣٣
 أسواق العرب : ٣٢
 أفريقيا : ٣٤
 أكسفورد : ٤١٨
 أم القرى - مكة .
 الأندلس : ١٦ - ٤٣١ - ٤٤٧

٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٥ - ٢٨٦
٢٨٨ - ٣١٠ - ٣١١ - ٢١٢
٣٣٤ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٤٠
٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٦٣ - ٣٧٢
٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٩ - ٣٩٣
٤٠٢

بيت الحكمة : ٤٤٠ - ٤٤١
البيت العتيق = البيت الحرام
بيت الله = البيت الحرام
بيت الله الحرام = البيت الحرام
بيت المقدس : ٣٢ - ٩٥ - ٩٦
١٥٠ - ٣٨٠

بيت ميمونة : ٤٠٤
بيوت العريض : ١٩٣
بئر أنى : ٢٤٦
بئر الروحاء : ١٥٦
بئر معونة : ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٣٣

(ت)

تبوك : ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٨٤
تربان : ١٥٥
تربة : ٣٠٩
تهامة : ١٩٧ - ٢٣٥ - ٢٧٨ - ٢٧٩
تيماء : ٣٢

(ث)

الثنية السفلى (كلى) : ٣٩٣
الثنية العليا (كلاء) : ٣٨٩
ثنية المرار : ٢٧٨
ثنية الوداع : ١١٧ - ١٧٦ - ٢٦٠
٣٦٧

(٢٢ - محمد)

بصرى : ٢٩١ - ٢٩٣
بطن رابع : ١٤٦
بطن بأججج : ٣٠١
بطن ينبع : ١٤٧
بغداد : ٤١٨

بقيع الغرقد : ١٨٩ - ٤٠٣
بكة = مكة

بلاد الإغريق : ٤١٥

بلاد فارس : ٩٣

بلاد اليونان : ٤١٦

بلاد بلقين : ٣٢٥

بلاد بلي : ٣٢٥

بلاد ثقيف : ٣٧٦

بلاد الروم : ٣٧٠

بلاد عنزة : ٣٢٥

بلاد العرب : ١٢ - ٢٦ - ٣٣ -

٣٤ - ٦٠ - ٩٣ - ١٣٩ - ٢٩٠ -

٣١٥ - ٣٦٦ - ٣٧٠ - ٣٧٣ -

٤٠٦

بلاد الكلدان : ٣١

البلقاء : ٣٠ - ٢٩٣ - ٣٢٠ - ٤٠٣

بهاء : ٣٣

بواط : ١٤٧

البيت = البيت الحرام

بيت أنى بكر = دار أنى بكر

البيت الحرام : ٣٥ - ٣٦ -

٣٧ - ٤٣ - ٤٦ - ٧١ - ٧٢ -

٨٣ - ٩٥ - ٩٦ - ١٢٦ - ١٤٠ -

١٤٦ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٣ -

٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٩ -

الحجاز : ٣٣ - ١٥٢ - ١٩٤
٢٢٢ - ٢٣٠ - ٢٧٧ - ٢٩٥
٣٨٦
الحجر الأسود : ٤٦ - ٤٧
٣٤٠ - ٣٨٩
حجرات الرسول : ٣٧٤ - ٣٧٥
حجرة حفصة : ٣٩٨
الحديبية : ٢٧٨ - ٢٨٧ - ٢٨٩
٢٩٠ - ٢٩٩ - ٣١٠
الحرم = البيت الحرام
حرة بنى حارثة : ٢٠٢
حرة بنى سليم : ٢٢٤
الحرة الشرقية : ٢٣٤
الحرة الغربية : ٢٣٤
حصن أفي : ٣٠٠ - ٣٠٣
حصن البريء : ٣٠٠
حصن النزاة : ٣٠٤
حصن الزبير : ٣٠٣
حصن السلام : ٣٠٠ - ٣٠٥
حصن الشق : ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٣
حصن الصعب بن معاذ : ٣٠٠ - ٣٠٣
٣٠٣
حصن قاة : ٣٠٠
حصن التموص : ٣٠٠ - ٣٠٥
حصن الكتيبة : ٣٠٥
حصن ناعم : ٣٠٠ - ٣٠٣
حصن النظاة : ٣٠٠ - ٣٠٣
٣٠٥
حصن الوضيج : ٣٠٠ - ٣٠٥
حصون بنى قريظة : ٢٣٤

(ج)

جبال جهينة : ١٤٧
جبل أحد : ١٩٨ - ٢١٠
٢١١ - ٢٣٦ - (وانظر أحد)
جبل ثور : ١١٢
جبل ذباب : ٣٦٧
جبل سلع : ٢٣٤ - ٢٣٦
٢٤٠ - ٢٦٠
جبل كداء : ٣٣٩
جبل كدى : ٣٣٩
جبل عرنه : ٢٢٠
جبل هند : ٣٣٩
الحخفة : ١٥٥ - ٢٣٣
جلدة : ٣٧٣
جرباء : ٣٦٨
الحرف : ٢٣٥ - ٣٦٧ - ٤٠٣
الجزيرة = جزيرة العرب
جزيرة العرب : ١٩ - ٢٧ - ٢٨
٣١ - ٣٤ - ٣٦ - ٥٩ - ٦٣
١٣٨ - ١٥٦ - ١٧٢ - ٢٣٠
٢٣٥ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٥
٣١٩ - ٣٥٨ - ٣٧٢ - ٣٧٤
٣٨٦ - ٣٨٨ - ٤٠٢ - (وانظر
بلاد العرب)
الجعرانة : ٣٥٨ - ٣٦٧
الجحوم : ٢٦٣
(ح)
الحبشة : ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦
١٠٧ - ١٩٤ - ٢٩١ - ٣٠٨
٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٩٥ - ٤٠٠

(د)

- ذات أطلاق : ٣١٩
ذفران : ١٥٦ - ١٥٧
ذنب نقيمي : ٢٣٦ - ٢٣٧
ذو أمر : ١٩٣
ذو أوان : ٣٧٠
ذو الخليفة : ١٥٥ - ٢٧٨ -
٢٨٧ - ٣٨٨
ذو طوى : ٣١٠ - ٣٣٨
ذو القصة : ٢٦٢
ذو قرد (ماء) : ٢٦١

(ر)

- الربذة : ٢٦٢
الرجيع : ٢٢٠ - ٢٢٥ - ٢٣٨ -
٢٥٩ - ٢٩٩
رضوى : ١٤٧
رعن : ٣٨٤
الركن الأسود : ٣١١
الركن اليماني : ٣١١
الروحاء : ٢١٧
روما : ٤١٨ - ٤٣٣
رومة : ٢٣٥ - ٢٣٧
الرهط : ٣١٤

(ز)

- زغابة : ٢٣٥
زمزم : ٤٠

(س)

- سبسيح : ١٥٦
سد الصهباء : ٣٠٧

حصون اليهود : ٣٠٠

- حضر موت : ٣٤
حمراء الأسد : ٢١٤ - ٢١٦ -
٢١٨
حمير : ٣٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥
حنين : ١٤٥ - ٣٥١
حني بنى سالم بن عوف : ١١٧
الحيرة : ٣٣

(خ)

- خليج العرب : ٢٣٠
خبير : ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٤ - ٢٩٩ -
٣٠٠ - ٣٠٢ - ٣٠٤ - ٣٠٦ -
٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣٠٩

(د)

- دار ابن أزهر بن عبد عوف : ٧١
دار أبي أيوب : ١١٩ - ١٢٠
دار أبي بكر : ١١٠ - ١١١ - ٤٠٥
دار أبي سفيان : ٣٣٧ - ٣٣٨ -
٣٤٠
دار سعد بن أبي : ١٩٨
دار عائشة : ٤٠٤
دار قصي بن كلاب : ١٠٨
دار محمد بن زيد : ٤٠١
دار الندوة : ٣٧ - ١٠٨
الداروم : ٤٠٣
دمشق : ٢٩٤
دومة الجندل : ٢٣٠ - ٢٦٤ -
٢٢٧ - ٣٦٩
ديار الشام : ٣٦٩

شمالى أفريقيا : ١٦

الشوط : ٢٠١

(ص)

صحراء العرب : ١٣٣

صخورات اليمامة : ١٥٥

الصفى : ٥٤-٥٨-٦٣-٦٩-

٧٠-٣١١-٣٤٠-٣٤٥-

٣٨٩-٣٩٣

صقلية : ٤٣١-٤٣٣-٤٣٨-

٤٤٥-٤٤٦

صياصى يثرب : ٢٠٠

(ض)

ضربة : ٢٥٨

(ط)

الطائف : ٨٨-١٤٥-١٤٨-

٣١٤-٣٥٥-٣٥٦-٣٥٧-

٣٦٠

الطرف : ٢٦٣

(ظ)

ظواهر مكة : ٣٦

ظنمار : ٢٦٩

(ع)

العالية : ٢٩٧

العدوة التصوى : ١٥٨-١٦٠-

المراق : ١٦-٧٤-١٩٤-

٢٦٣

عرفات : ٣٩٢

عرفة : ٢٩-٣٩٠-

سرف : ٣١٢-٣٨٩

سفوان : ١٤٨

سقيفة بنى ساعدة : ٤٠٩

السلاسل (ام) : ٣٥٥

سلع = جبل سلع

السيارة : ٩٣

سنجار : ٤٤٢

السنج : ٣٩٧-٤٠٧

سوق بلن : ٢٢٨-٢٢٩

سوق بنى قينقاع : ١٩٠

سوق عكاظ : ٢٧-٢٨-٤٣-

٢١٨

سوق المدينة : ١٢٧-٢٤٩

سومطرة : ٣٤

السيالة : ١٥٦

(ش)

للشام : ١٦-٢٢-٣٣-٣٤-

٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-

٤٣-٤٤-٧٤-١٠٨-

١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٤٨-

١٥٢-١٨١-١٨٦-١٩٢-

١٩٤-٢٣٠-٢٣٥-٢٥٩-

٢٦٣-٢٧٧-٢٨٧-٢٩٢-

٢٩٣-٢٩٥-٣١٩-٣٢٠-

٣٢٤-٣٦٧-٣٦٨-٣٦٩-

٣٧٠-٤٠٢

شبه جزيرة العرب = بلاد العرب

شعاب مكة : ٥١-٥٣

شعب أبى طالب : ٧٦

شعب العتبة : ١٠٣

(ق)

- القاهرة : ٤١٨
قباء : ١١٦ - ١١٧ - ١٩٨ -
٢٢٥
قديد : ١٥٥ - ٢٦٤ - ٣٤٦
القردة (ماء) : ١٩٥
قرطبة : ٤١٨ - ٤٤٧
قرقرة الكلس : ١٩٣
القرقرة : ٢٢٤
قرن : ٣٥٦
القرى اليهودية : ٣٢
قصور الروم : ٢٣٥
قصور الشام : ٢٣٥
قصور فارس : ٢٣٥
قصور الفرس : ٢٣٥
قلعة الزبير = حصن الزبير .
قاعة سموان : ٣٠٣
قليب بدر : ١٧١ - ١٩٦

(ك)

- كثيب العقنقل : ١٦٠
كدى = جبل كدى
الكديد : ٣٣٣
الكعبة : ٢١ - ٣٠ - ٣١ -
٣٣ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٤٠ -
٤٢ - ٤٦ - ٤٩ - ٧٤ - ٧٦ -
٨٢ - ٨٤ - ٨٨ - ١٢٦ -
١٣٩ - ١٤١ - ١٤٦ - ١٥٠ -
١٩٦ - ٢٢٣ - ٢٣٥ - ٢٧٥ -
٢٧٦ - ٢٨٣ - ٢٨٨ - ٣١١ -

عرق الظبية : ١٥٦ - ١٧٥

- العريض : ١٩٣
عسفان : ١٥٥ - ٢٥٩ - ٣٢٨
عكاظ = سوق عكاظ .
العشيرة : ١٤٧ - ١٥٢
العقبة : ٣٣ - ١٠٠ - ١٠٣ -
١٠٧ - ١٤٦
العقبة : ٣٦٨
العقنقل : ١٦٠
العقيق : ١٥٥ - ١٧٢
عالية عروة بن مسعود : ٣٧٦
عمان : ٢٩١ - ٢٩٦

(غ)

- الغابة : ١٤٥ - ٢٦٠ - ٣٠٩
غار جبل ثور : ١١٢ - ١١٣ -
١١٤ - ٤١١
غار حراء : ٤٧ - ٤٩
غدير الأشطاظ : ٢٧٨
غزة : ٣٩
عميس الحمام : ١٥٥

(ف)

- فارس : ٩٠ - ٩٣ - ٢٣٥ -
٤١٣
فج البروجاء : ١٥٦ - ٣١٧
فدك : ٢٦٤ - ٣٠٦ - ٣٠٩
الفرع : ١٩٤
فرنسا : ٤٤٨
فلسطين : ٣٢ - ٤٠٣

٢٧٠-٢٧٤-٢٧٥-٢٧٧
٢٨٣-٢٨٥-٢٨٦-٢٨٧
٢٩٨-٣٠٥-٣٠٦-٣٠٧
٣٠٩-٣١٠-٣١٧-٣١٩
٣٢٣-٣٢٤-٣٢٦-٣٢٧
٣٢٩-٣٣١-٣٣٢-٣٤٤
٣٦٧-٣٦٩-٣٧٠-٣٧١
٣٧٧-٣٨٤-٣٨٦-٣٨٨
٣٨٩-٣٩٢-٤٠٠-٤٠٢
٤٠٣-٤٠٧-٤٠٩-٤١١
مر الظهران : ٣١٠ - ٣٣٣
٣٣٤ - ٣٦٧
مرصد بني ثعلبة : ١١٩ - ١٢٦
المروة : ٣١١ - ٣٤٥ - ٣٨٩
٣٩٠ - ٣٩٣
المريسيع (ماء) : ٢٦٤
المزدلفة : ٢٨ - ٢٩ - ٣٩٢
مساكن الرسول : ١١٩ - ١٢٥
المسجد = البيت الحرام .
مسجد أنى ب بكر : ٨١
المسجد = البيت الحرام
مسجد الرسول : ١١٩ - ١٢٥
١٣٢ - ١٣٦ - ١٨٣ - ١٩٩
٢٢٢ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٣٧٤
٣٧٧ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨٢
٣٨٣ - ٣٩٩ - ٤٠٥ - ٤٠٧
٤٠٨ - ٤١٠
مسجد الضرار : ٣٧٠ - ٣٧١
مسجد الطائف : ٢٥٧

٣١٤-٣١٥-٣٢٨-٣٣٧
٣٣٩-٣٤٠-٣٤٢-٣٨٩
كولوسي : ٤٢٦
(ل)
لية : ٣٥٦
(م)
ما بين النهرين : ٤١٥-٤١٧-٤٣١
مجتمع الأسياال : ٢٣٥ - ٢٣٧
الحصص : ٣٩٣
المدراس : ١٣٤
المدينة : ٣٢ - ٣٣ - ٣٩
٤١ - ٤٢ - ٩٨ - ١٠٠ - ١٠٣
١٠٧ - ١٠٨ - ١١٦ - ١١٧
١٢٥ - ١٢٧ - ١٢٩ - ١٣١
١٣٣ - ١٣٨ - ١٤٥ - ١٤٦
١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٣ - ١٥٥
١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٩ - ١٦١
١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨
١٧٩ - ١٨١ - ١٨٥ - ١٩١
١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٧
١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١
٢٠٥ - ٢٠٨ - ٢١٢ - ٢١٤
٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٨ - ٢١٩
٢٢٠ - ٢٢٢ - ٢٢٤ - ٢٢٥
٢٢٦ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١
٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٦ - ٢٣٨
٢٣٩ - ٢٤٥ - ٢٥٨ - ٢٥٩
٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣
٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٧ - ٢٦٩

٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢
٣٣٣ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٧
٣٣٨ - ٣٤٠ - ٣٤٥ - ٣٤٦
٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١
٣٦٣ - ٣٦٧ - ٣٨٩ - ٣٩٣
٤٠٠

ملل : ١٥٥

الملليح : ٣٥٦

المنصرف : ١٥٦

منعرج السوئبان : ٢٤

منى : ٣٧ - ١٠٦ - ٣٩٠

٣٩٢ - ٣٩٣

موثقة : ٣١٩ - ٣٢٠

(ن)

النازية : ١٥٦

نجد : ٢٥١ - ٢٣٦ - ٣٨١

نجران : ٣٣ - ٣٧٤ - ٣٨٠

نخلة : ٣٤٦ - ٣٥٥ - ٣٥٦

نخلة العمانية : ٣٥٦

نقب المدينة : ١٥٥

نمرة : ٣٩٠

نيق العقاب : ٣٣٣

(هـ)

الهدة : ٣١٧

همدان : ٣٨٤

الهند : ٣١

الحيفاء : ٢٦٣

مسجد قباء : ١١٧ - ١٩٨

٣٧٠ - ٣٧١

مشربة الرسول : ٣٩٩

مشربة مارية التبطينية : ٤٠١

المشعر الحرام : ٣٩٠ - ٣٩٢

المشائل : ٣٤٦

مصر : ١٦ - ٣١ - ٢٩١

٢٩٤ - ٢٩٥ - ٤١٥ - ٤١٦

مصر التمدنية : ٤١٥ - ٤١٧ - ٤٣١

مقام إبراهيم : ١٢٦ - ٣٨٩

مكة : ٢٨ - ٣٠ - ٣٤ - ٣٥

٣٩ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤

٤٦ - ٤٧ - ٥٣ - ٥٥ - ٥٩

٦٠ - ٦٥ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٧

٧٨ - ٨١ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٦

١٠٧ - ١١٠ - ١١٣ - ١١٦

١١٩ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٣٨

١٤٠ - ١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٨

١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦

١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٧ - ١٦٨

١٧٠ - ١٧٣ - ١٧٨ - ١٧٩

١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٧

١٩٢ - ١٩٥ - ٢٠٥ - ٢١٢

٢١٧ - ٢٢٠ - ٢٢٢ - ٢٥٩

٢٦٣ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٨

٢٧٩ - ٢٨٢ - ٢٨٤ - ٢٨٧

٢٨٨ - ٢٩٧ - ٣٠٩ - ٣١٠

٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤

٣١٥ - ٣١٦ - ٣٢٦ - ٣٢٧

ودان : ١٤٧	(و)
(ى)	وادي الجمرات : ٣٥٥
يأبجج : ٣١٧	وادي رانواناء : ١١٧
يثرب = المدينة .	وادي الرجيع : ٢٩٩
اليمامة : ٧٥ - ٩٣ - ٢٩١ - ٢٩٧ -	وادي الصفراء : ١٧٥
٣٧٩	وادي القرى : ٣٢ - ١٩٢ - ٣٢٤
اليمن : ٣٣ - ٣٤ - ٢٩٥ - ٣٧٣	وادي النيل : ٤١٦
اليونان : ٤٣١	الوتير (ماء) : ٣٢٧ - ٣٢٨

فهرس الغزوات والأيام والوقائع

- بغات = يوم بغات
- بيعة الرضوان : ٢٨٢ - ٣٥٣
- بيعة السقيفة : ٤١٠ - ٤١١
- بيعة العامة : ٤١٠ - ٤١١
- بيعة العقبة الأولى : ١٠٠
- بيعة العقبة الثانية : ١٠٣ - ١٠٤
- ١٠٥ - ١٠٧
- حرب الفجار الرابعة : ٤٣ - ٤٦
- حلف الأحابيش : ٢٢
- حلف الفضول : ٤٤ - ٤٦
- حلف المطيبين : ٢٢ - ٣٨
- صحيفة المدينة : ١٢٨ - ١٢٩
- ١٣٠ - ١٣١
- صحيفة المقاطعة : ٧٦ - ٨٢ - ٨٣
- ٨٤ - ٨٦
- صلح الحديبية : ١٧٩ - ٢٥٦
- ٢٥٧ - ٢٩٠ - ٢٩٩ - ٣١٤
- ٣١٥ - ٣١٩ - ٣٢٧ - ٣٣٥
- عام الفيل : ٤١
- عهد الحديبية = صلح الحديبية
- غزوة الأبواء : ١٤٧
- غزوة أحد : ١٤٥ - ١٨٢
- ١٨٥ - ١٩٦ - ٢١٥ - ٢١٦
- ٢١٩ - ٢٢٨ - ٢٣٠ - ٢٣٣
- ٣١٤ - ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٩٥
- ٤٠٤
- غزوة الأحزاب : ١٤٥ - ٢٧٧
- غزوة بدر الأولى : ١٤٨
- غزوة بدر العظمى : ١٤٥ - ١٤٨
- ١٥٢ - ١٥٤ - ١٦٦ - ١٦٧
- ١٧٦ - ١٧٧ - ١٨٢ - ١٨٣
- ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧
- ١٩٣ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧
- ١٩٨ - ٢٠٣ - ٢٠٦ - ٢١١
- ٢١٥ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢١
- ٢٢٨ - ٢٣٣ - ٣١٤ - ٣٢١
- ٣٣١ - ٣٤٢ - ٣٩٥
- غزوة بدر الآخرة : ٢٢٩
- غزوة بني سليم : ١٩٤
- غزوة بني قريظة : ١٤٥ - ٢٤٥
- ٢٥٢ - ٢٥٦ - ٢٥٨
- غزوة بني قينقاع : ١٩١
- غزوة بني لحيان : ٢٥٩
- غزوة بني المصطلق : ١٤٥ - ٢٦٤
- ٣٩٥
- غزوة بني النضير : ١٤٥ - ٢٢٦
- ٢٣٨
- غزوة تبوك : ٣٦٣ - ٣٧٣ - ٤٠٢
- غزوة الحديبية : ٢٥٦ - ٢٧٥
- ٢٨٧ - ٢٩٠ - ٢٩٩ - ٣١٤
- ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٥٢ (وانظر الحديبية في الأماكن والبلدان)
- غزوة حمراء الأسد : ٢١٥

٣٤٦ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ -
٣٨٦
غزوة ودان : ١٤٧
وقعة أحد = غزوة أحد .
وقعة حنين = غزوة حنين .
وقعة بدر = غزوة بدر .
وقعة بعاث = يوم بعاث
يوم أحد = غزوة أحد
يوم بدر = غزوة بدر -
يوم بعاث = ٩٨ - ١٢٦ - ١٣٤ -
٢٤٩
يوم بني النضير = غزوة بني النضير .
يوم الخندق = غزوة الخندق .
يوم المريسيع = غزوة بني المصطلق
يوم الفتح = غزوة الفتح الأعظم .
يوم الحديبية = غزوة الحديبية .
يوم خيبر = غزوة خيبر .

غزوة حنين : ١٤٥ - ٣٤٨
٣٤٩ - ٣٧٣ - ٣٧٦
غزوة الخندق : ٢١٩ - ٢٢٤ -
٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٤٨ - ٢٥٨ -
٢٦١ - ٢٦٣ - ٢٩٨ - ٣١٤
غزوة خيبر : ١٤٥ - ٢٩٨ -
٣٠٠ - ٣٠٨
غزوة دومة الجندل : ٢٣٠
غزوة ذات الرقاع : ٢٢٨
غزوة السويق : ١٩٣
غزوة العشرة : ١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٢ -
غزوة الغابة : ١٤٥ - ٢٦٠ - ٢٦١
غزوة غطفان : ١٩٣
غزوة الطائف : ١٤٥ - ٣٤٩ -
٣٧٣
فتح الحديبية = غزوة الحديبية
غزوة الفتح الأعظم (فتح مكة)
٢١ - ١٤٥ - ٣٢٧ - ٣٤٠ -

م : الدجوى - القاهرة

ت : ٩٠٠٤٩٨ - ٩٢٤٢٦٨



الناشر
مكتبة النخاعي بالقاهرة